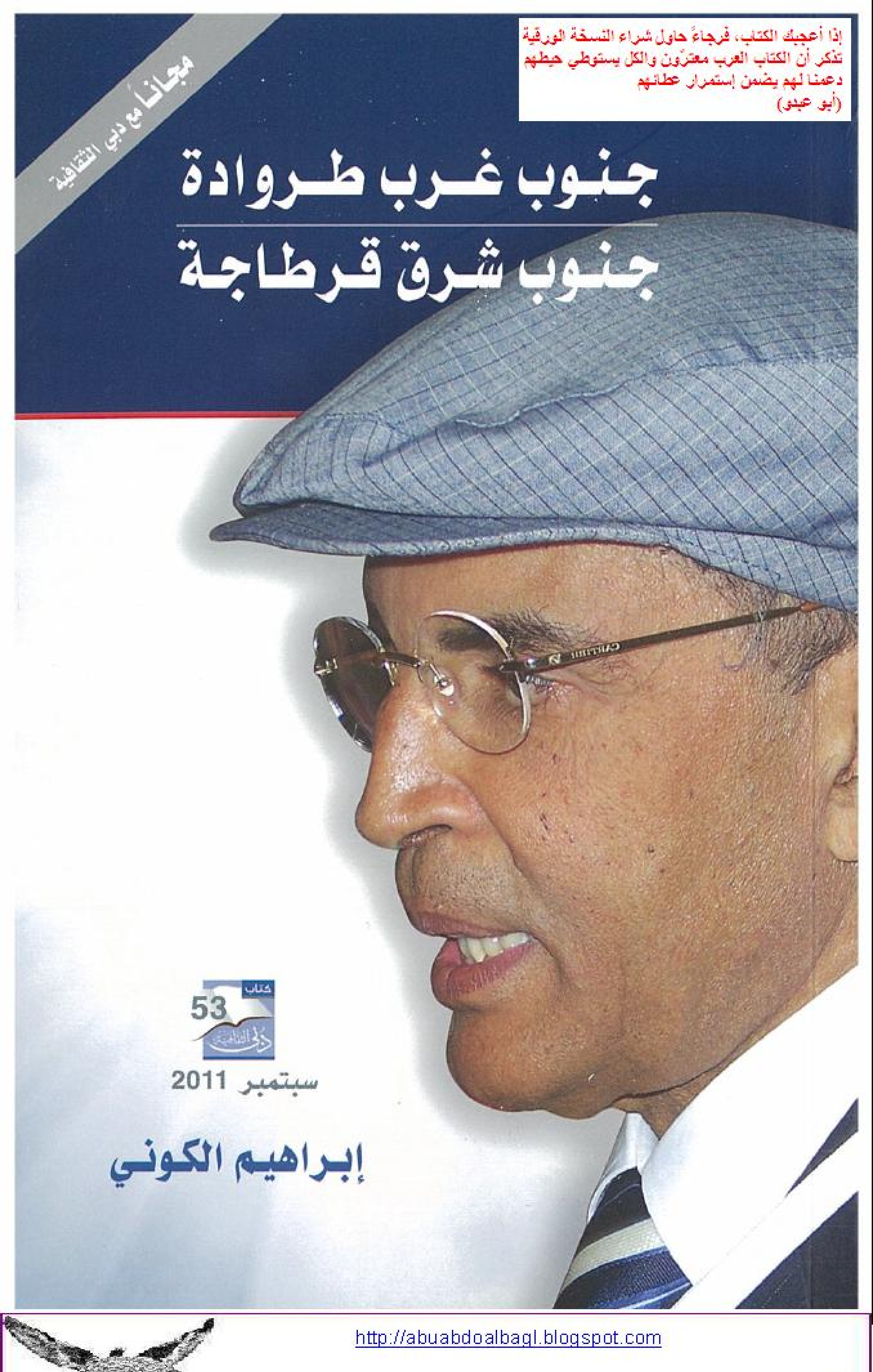

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترّون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)
مجاناً مع دبي الثقافية
جنوب غرب طروادة
جنوب شرق قرطاجة
كتاب
53
سبتمبر 2011
إبراهيم الكوني

كتاب دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية

ويوزع مجاناً مع المجلة

الإصدار 53

جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة

إبراهيم الكوني

■ الطبعة الأولى، سبتمبر ٢٠١١



المدير العام رئيس التحرير

سيف محمد المري

مدير التحرير

نواف يونس

متابعة

يحيى البطاط

محمد غبريس

المدير الفني

أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ

محمد سمير

مدير العلاقات العامة

محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار



للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة

www.alsada.ae

■ **التحرير والادارة دبي:**
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/+٩٧١٤
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩/+٩٧١٤
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/+٩٧١٢
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/+٩٧١٢

■ **الاعلانات والتسويق:**
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/+٩٧١٤
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/+٩٧١٤

■ **التوزيع والاشتراكات:**
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/+٩٧١٤

هذه الرواية

بقلم: سيف المري

الأستاذ إبراهيم الكوني أحد أركان الرواية العربية المعاصرين وله اسم كبير في هذا العالم الأدبي المتميز، وهاهو يتحفنا بإحدى روائعه الأدبية التي اختار لها البعدين التاريخي والوطني لتكون ساحة الأحداث ليبيا. تاريخ الأحداث بدايات القرن التاسع عشر في مواجهة هي الأولى من نوعها بين العرب والأسطول الأمريكي الذي أعلنت الولايات المتحدة من خلاله أنها القوة الاستعمارية الجديدة ،لتتضخم تلك السيطرة بعد ذلك وتشمل العالم بأسره شرقه وغربه، ومن هنا جاءت رواية «جنوب غرب طروادة جنوب شرق غرناطة» متوازيةً في شخوصها وأحداثها وإسقاطاتها مع ما حدث ويحدث للعرب، وجاء اسم طروادة ذات البعد الأسطوري الإغريقي مرادفاً لغرناطة آخر مملكة عربية مزدهرة في الأندلس وآخر معقل عربي أفلت عنه شمس حاضرتنا، لتمثلا توأمةً فنيةً تختلط معهما وفيهما حقائق التاريخ مع وقائع الجغرافيا مع الخيال المجنح للكاتب ليتقاطع ذلك كله مع ما يحدث الآن في ليبيا التي منيت بحكم فردي امتد لما يقارب خمسة عقود تحت

سيطرة طاغية يرى نفسه المخلص ويظن نفسه كما كان يدعي «بني الصحراء». وبعيداً عن كل ذلك يبقى الأدب حيّاً ثرّاً معطاءً اذا كتبت حروفه وسطرت فنّه يدٌ آمنت بأن للرواية رسالة وأن الأدب هو أحد وجوه التاريخ التي نرى فيها أنفسنا ونُري فيها الأجيال القادمة ما قد كان ليسقطوه ويننتفعوا منه فيما قد يكون فلنتصفح معاً هذه الرواية الكبيرة في أحداثها وفي فصولها وفي منزلتها.. ومع تمنياتنا لكم أيها القراء الأعزاء بالاستمتاع التام عند قراءتها والاحتفاظ بها كهدية من مجلتكم «دبي الثقافية».

روح الوطن وضمير المبدع

بقلم: نواف يونس

قدم لنا الكاتب الكبير ابراهيم الكوني، روايات لن تنسى في المشهد الروائي العربي، ومن خلال جل أعماله التي تبدو وكأنها قادرة على التنفس مع هموم وقضايا الإنسان العربي ابن بيئته، رسم لنا مشهداً كاشفاً للصحراء العربية مترامية الأطراف، في أبعادها الجغرافية والتاريخية والإنسانية، من خندق لم يغيره رغم أنه عاش في غربة دائمة داخل وخارج وطنه، فقد كان مصادراً ومغيباً مثل وطنه ليبيا، حتى قيام ثورة الشعب التي انتصر لها، ومن يقرأ ويتابع نتاجه الأدبي والفكري، يلمس كيف ظلت ليبيا هاجسه الحياتي والإبداعي، ففي كل مؤلفاته والتي تعدت السبعين، كان يصر على إعادة رسم الهوية الليبية، ورغم أن أعماله صودرت ومنعت في ليبيا، بعد دفاعه عن المبدعين والمثقفين في ليبيا، وهو أول من واجه السلطة في عنفوانها، وقام بنقدها مبرزاً أساليب القمع والاستبداد التي تمارسها السلطة والفكر الثوري في ليبيا، فهو لم يمل حيث تميل الريح ولم يفقد ظله.

وفـي روايتـه الجديدة «جـنـوب غـرب طـروادة جنوب شرق قرطاجة» التي بين أيدي قراء «دبي الثقافية» نجح الكوني في خلق وقائع وأحداث وشخصيات، تبتعد بالمتخيل عن التأريخ، من خلال مسحة تراجيدية، يمتزج فيها الفكري بالوثائقي بالإنساني، لتجعل التاريخ داخل المتخيل وليس العكس، وتشي لنا بأن المستقبل العربي يكتب الآن بحروف من دم.

إلى أبطالٍ لم يروا يوماً في الوطن غنيمة، فجادوا بأنهار الدّمّ ليبعثوا فيه القيمة..

إلى شهداء ملحمة السابع عشر من فبراير:

نزيفٌ يشهد كيف يعيد التاريخ نفسه.

«إلى أيّ مآلٍ سيؤول التاريخ لو خلا من الطغاة والحروب ومكائد أهل الكيد؟»

جان جاك روسّو

«..وخمدت نار الحرب، وبلغت كلّ نفسٍ مناها، وقتل محمّد بك القرمانلي نفسه، وفرّ أخوه أحمد بك إلى مالطا، وأُرسِلَ عليّ باشا القرمانلي إلى الآستانة العليّة (أسيراً). وانقرض بيت آل قرمانلي».

أحمد النّائب

«المنهل العذب»

القسم الأول

١ - الدَّيْن

بحر ليبيا. أكتوبر ١٨٠٣م

تبلْبَلَ اليّم بعنفٍ مستجيباً لنداء معوشقه الشمالي الخالد، ولكن الجبل المهيب المنزلق على مياهه لم يتزعزع، ولم يضطرب، كأنّه يتعمّد الاستهانة بهجمات الموج. كان ذلك الجبل العائم قد عَبَرَ مضيق جبل طارق منذ أيام. ليكون آخر أعجوبةٍ من أعاجيب البحار التي أفلح في إبداعها عقل المخلوق البشري: تلك هي البارجة الحربية «فيلادلفيا» التي تحرث مياه بحر ليبيا عميقاً (برغم أنها تبدو عن بُعْدٍ ساكنة بسبب هول حجمها)، في طريقها للانضمام إلى أسطول البحرية الأمريكية المرابط قبالة سواحل طرابلس.

على متن الأعجوبة البحرية تسكّع الربّان «بينبريدج» الذي ذاع صيته في الأعوام الأخيرة بسبب صولاته وجولاته مع أوطان الشمال الأفريقي، فأهّلته تجربته الثريّة مع حكّام تلك البلدان لأن يتولّى أمر العبقريّة البحرية الجديدة التي لم يكن قادة الولايات الأمريكية ليجازفوا فيضعوا مصير عملٍ كهذا بين أيدي ربابنة هواة، أو حمقى، أو أدعياء بطولة!

قال الربّان يخاطب أحد الضبّاط:



– هاهي ولاياتنا المجيدة تقدّم الدليل على صواب الوصيّة القائلة بأننا مدينون في فلاحنا لأعدائنا، لا لأصدقائنا!

تطلّع إليه الضابط بفضول قبل أن يقول:

– بلى! الامتنان لباشوات طرابلس دَيْن في رقبة كل مواطن أمريكي!

تسكّع «بينبريدج» عاقداً يديه وراء ظهره. تطلّع إلى يقظة التنّين في تصاعد الموج ثمّ تكلّم حالماً:

– من كان يظنّ أنّنا سنفلح في بناء أعظم أساطيل البحور في مثل هذا الزمن القصير؟!

تبسّم الضابط. قال:

– بل مَن كان يظنّ أننا سنفلح في تتويج الحلم بأعجوبة البحار «فيلادلفيا»؟!

ابتسم الربّان أيضاً. سكت لحظات قبل أن يقول بلهجة ذات معنى:

– ولكننا لن ندفع لباشوات طرابلس الامتنان مقابل الإحسان!

كتم الضابط ضحكة في حين أضاف القبطان:

– هل نخالف طبيعة الإنسان إذا دفعنا نكراناً مقابل الإحسان؟!

تفكّر المرؤوس. تأمّل الموج الأهوج لحظات. قال غائباً:

– سرّ الأسرار في ألاّ نحسن لمن أحسن إلينا!

انتصب الصمت. اشتدّ غزو الريح، فاستجاب اليّم بعنف الموج.

تمتم «بينبريدج» بلهجة مَن يحدّث نفسه:

– ثمن الإحسان دائماً انتقام!

ساد صمت انتهكته برطمة الموج في غزواته العنيدة لبدن البارجة. تحسّس ضابط البحرية ماسورة مدفع قبل أن يتساءل:

– ولكن هل نحسب إحساناً ذلك الإحسان الذي لا فضل لنا فيه؟

حدجه «بينبريدج» بفضول. تسكّع قليلاً. عاد على عقبيه. توقّف خلف مدفع ينتصب بالجوار. تطلّع إلى الغمر. أجاب:

– الإحسان الذي لا فضل لنا فيه ليس إحساناً وحسب، ولكنه رسالة!

تعجب ضابط البحرية:

– رسالة؟

– رسالة من حسن حظّنا أنّنا أفلحنا في قراءتها كما يجب أن تُقرأ، ولو لم نفعل لما وفّقنا الربّ للذهاب اليوم للاقتصاص من رسول الربّ!

– رسول الربّ؟

– العدوّ دائماً رسول ربّ. ألا يقول القدّيس إن الذي يحبّه الربّ هو الذي يؤدّبه الربّ؟

– تريد أن تقول إن الربّ يؤدّبنا بيد العدوّ، لا بيد الصديق؟

– بالطبع!

حولهما دبّ الجند وضبّاط البحرية. في الأفق تبدّى شراع سفينة بعيدة. من الشمال زحفت غيوم كثيفة. زفر «بينبريدج» بعمق، ثمّ تمتم:

– وها نحن في طريقنا لتأديب رسول الربّ!

ساد صمت. شَاكَسَ الموج بدن البارجة بلسان الشراهة. تساءل ضابط البحرية:

– ألن يعني هذا أن المبالغة في الدفاع عن النفس عدوان؟!

عاد «بينبريدج» يدبّ بالجوار، يتفقّد المدافع حيناً، ويتطلّع إلى البحر المضطرب حيناً. عاد على عقبيه قبل أن يجيب:

– المبالغة في الدفاع عن النفس ليست عدواناً وحسب، ولكنّها خطيئة أيضاً!

ولكن ضابط البحرية لم يستسلم:

– يخيّل لي أن الذهاب إلى الحرب بروح القداسة سيحسب ، في شرع الأمم، خيانةً وطنيّة!

ابتسم «بينبرديدج» كأنه توقّع الاستنتاج. غاب في الأفق بعيداً قبل أن يردّد بلهجة يقين:

– صدقت! مريد القداسة، كمريد الحقيقة، لا يصلح محارباً!

تطلّع إليه ضابط البحريّة بفضول قبل أن يعبّر عن شكّ:

– ظننتُ أن مريد الحقيقة أصلح محارب!

تبسّم «بينبريدج» باستخفاف. دبّ مسافةً. عاد على عقبيه منكّس الرأس. تحدّث باللهجة ذاتها التي تبدو وكأنّه يخاطب نفسه:

– لو عرف مريد الحقيقة كيف يحارب لهانت الدنيا، وَلَمَا عشنا في عالمٍ يغترب عن العالم. كلاّ، يا صديقي، كلاّ! مريد الحقيقة لا يُحْسِنُ من فنون الحرب إلاّ كما يُحسن مخلوق مثلي فنون الغناء!

توقّف فجأة. رفع رأسه ليتطلّع إلى المدى المائي المزموم، ثمّ سأل:

– هل تدري من أصلح إنسان لممارسة الحرب؟

تابعه ضابط البحرية بنظرة استفهام، ولكنّه انتظر الجواب من صاحب السؤال. قال «بينبريدج»:

– أصلح إنسان لممارسة مهنة الحرب هو مريد السلطة أوّلاً، ثم مريد المال ثانياً، ثمّ مريد المرأة ثالثاً!

سكت لحظة، ثمّ ابتسم بغموض قبل أن يضيف:

– ولكنّي لم أكن يوماً مريد سلطة، ولا مريد مال، ولا مريد امرأة!

أعقب العبارة بضحكة عصبيّة قبل أن يعقد يديه وراء ظهره، وينطلق عبر السطح المدجّج بالمدافع، المزحوم بالضبّاط وجنود البحرية.

٢- الأسر

ضاحية المنشية. أكتوبر ١٨٠٣.

من غابة النخيل برز جمل عَدَبَّس متوّج بهودج مهيب، يقوده رجل بدويّ، معمّم الرأس، يكشف ثوبه الفضفاض عن ساعدين مفتولين ملوّحين بأنفاس الصحراء؛ يتخطّى في خطوه قنوات الحقول المغمورة بالمياه بوثبات مضحكة، يستدير نحو البعير بامتعاض ليتجنّب قطع الزَّبَد التي يلفظها الجمل في عناده مع زمام المسد الذي يفترس فكّيه. اجتاز صفّاً أخيراً من أشجار الزيتون قبل أن يتوقّف أمام بنيانٍ أنيق مطوّق بحزامٍ من نبوتٍ مجهولة الهويّة. من المدخل خرج لاستقباله ثلاثة رجال يرتدون زيّاً موحداً يوحي بلباس من الطراز الذي يرتديه خدم منازل الأكابر.

أناخ البدويّ بعيره فتزعزع الهودج وكاد ينزلق على بدن الدّابة ليسقط على الرقبة. من الهودج انطلق احتجاج بغيض كأنه السّبّة فهرع الخدم لإسناد الهودج، استوى البعير وبرك على الأرض فانكشف الهودج عن وجه امرأة ملفوفة في أثوابٍ بدويّة، تتستّر بخمارٍ أسود اللون، مطوّق بسيورٍ جلديّة، مطرّزة بخيوطٍ فضيّة، تحتجب وراء كتّانٍ كئيب، واسع الأكمام، مخرّم



الأطراف، فلا يبدو من جسدها إلاّ يدين مخضّبتين بالحنّاء، مرصّعتين بخواتم فضيّة منمنمةٍ برموز خفيّة يستنكرها الفقهاء لأنّها في يقينهم رجس ينتمي إلى الديانات الوثنيّة. نزلت المرأة من صومعتها مستعينةً بسواعد الخدم كاشفةً عن ساقٍ بخلخالٍ فضيّ سميك. انحنى الخدم وهم يبرطمون بعبارات الترحيب، ثمّ تدافعوا ليقودوها إلى جوف البيت. ساروا بها في ممرّات طويلة قبل أن تهرع لاستقبال الضيفة امرأتان ترتديان لباس الخدم أيضاً. ركع الخدم الثلاثة وهم يتراجعون إلى الوراء في حين تولّت الخادمتان مراسم الترحيب بالزائرة فسارتا بها عبر ممّر أدّى إلى دارٍ واسعة، مترفة الأثاث، تتوسطها امرأة حسناء ترتدي ثوباً ذهبياً واسع الأكمام، مرصّعة القوام بالحليّ الذهبية من قمّة الرأس حتى أخمص القدمين. في سيماء الحسناء سطعت بسمة غريبة فضحت إيماء كالاستخفاف قبل أن تشيّع ذراعيها إلى أعلى تمهيداً لاحتضان الزائرة المبّجلة.

اختفت الخادمتان من المكان بعد أن أغلقت إحداهن باب الدّار بإحكام. ارتمت المرأة على الأريكة دون أن تنبس، وبدأت في نزع أحجبتها قطعةً قطعة كأنّها تتلذّذ بعملها، في حين انتصبت ربّة البيت فوق رأسها بوجنتين محتقنتين. انتهت

المرأة المزعومة من نزع أقنعتها وزفرت أنفاساً سخيّة وهي تغوص بجسدها في جوف الأريكة. تبادلت مع مضيفتها نظرة مزمومة قبل أن تتكلّم بصوت رجل:

– لا تقفي فوق رأسي كالبلهاء!

ولكن الحسناء لم تتزحزح، بل عقدت يديها حول صدرها العامر قبل أن تعبّر عن استياء كتمته طويلاً:

– يدهشني ألاّ تملّ القيام بهذا الدور المضحك في كلّ مرّة!

أطلق المخلوق الذي لفظته أقنعة المرأة البدويّة المزعومة ضحكة، فأضافت المرأة:

– إذا كنت تظنّ أنّك تستطيع أن تخدع الخلق بهذا اللّعب، فهل تظنّ أنّك تستطيع أن تخدع الخدم؟

تمدّد الرجل في جوف الأريكة. تابع عروق الذهب المزبورة في السقف وهو يبتسم:

– أعرف أنّي لن أستطيع أن أخدع الخلق فكيف أطمع في أن أخدع الخدم؟ ولكنّك تنسين هوسي باللّعب. ليس كل لعب بالطبع، ولكنه ذلك النوع من اللّعب الذي كان له الفضل في وجودي داخل جوف العرش!

دبّت الحسناء في فضاء الدّار عاقدةً يديها حول صدرها العامر، توقفت بجوار النافذة المخفية بأستارٍ حريرية موشاةٍ بخيوط

ذهبية قبل أن تخاطب الرجل بلهجة تحدٍّ:

– ولكنّه أودعك جوف الجريمة أيضاً إلى جانب جوف العرش!

تضاحك صاحب العرش باستهزاء:

– وهل في الدنيا يمكن أن يوجد جوف عرش لا يسبقه جوف الجرم؟!

– أنت تدّعي الهوس بالتنكّر لكي تتنصّل من الإيفاء بوعدك!

– عن أيّ وعدٍ تتحدّثين؟

ثمّ بلهجة استخفاف:

– الملوك يطلقون ألف وعد في كلّ صباح، ولكنّهم لا يفون بوعدٍ واحد مع حلول المساء، لا لأنّهم غير ملزمين أخلاقيّاً بتنفيذ وعودهم، ولكن لأن لا أحد يجرؤ على تذكيرهم بوعودهم!

أطلق صاحب العرش ضحكة سخريّة، ولكن المرأة لم تستسلم:

– إذا كانت ملّة الرجال لا تجرؤ على تذكير الملوك خوفاً، فإن ملّة النساء لا تجرؤ على تذكيرهم حياء!

– الحياء؟

التفتت الحسناء نحو الرجل، في عينيها الكحلاوين الكبيرتين ومض بلل كالدمع:

– حتّى الغانية تستحي أن تقول للرجل: «خذني!»، فكيف بأميرة؟!

- إيّاكِ أن تقولي أنّك استسلمتِ لي لأنّي وعدتك بالإنضمام الى حريمي!

أخفت الحسناء انفعالها بالفرار نحو ستور النافذة:

- أعترف أن الاستسلام سبق الوعد، ولكن..

- إيّاك أن تقولي أيضاً أنّي أجبرتكِ على الاستسلام لي!

- كلّ من لا خيار له فهو مجبر!

- ماذا تعنين؟

- أعني أنّك أجبرتني بالطبع منذ اليوم المشؤوم الذي رفضتَ فيه الموافقة على الالتحاق برَجُلي الذي لم تكتفِ بتجريده من العرش، ولكنّك بخلتَ عليه حتّى ببكوية درنه!

استوى صاحب العرش في جوف الأريكة. تأمّل المرأة بنظرة باردة:

- أنتِ تعلمين أنّي لم أحرمه بكوية درنه إلاّ بعد أن ثبت تآمره مع أهل السوء طمعاً في استرداد عرش لم يكن يوماً أهلاً له!

- الناموس يعطي الملوك الحقّ في الجلوس على العروش لا لأنّهم أهل لها، ولكن لأنه إرث مورروث!

- الجلوس على العروش لا يشترط التحلّي بالمواهب حقّاً، ولكنه لا يبيح الإهانة أيضاً!

استنكرت المرأة:

– الإهانة؟

– أليس إهانة للعرش، ولرعية العرش، بل ولصاحب العرش أن يتربّع على العرش مخلوق منزوع الإرادة، ضعيف الشخصيّة، وفوق كلّ هذا سكّير مدمن كرجلكِ الشقيّ أحمد القرمانلي؟

التفتت نحوه المرأة بعينين دامعتين:

– أنت تدري أن رجلي أحمد القرمانلي لم يصبح شقيّاً إلاّ بسببك، ولم يكن ليوصف بضعف الشخصية لو لم تسحق أنت شخصيته، ولم يكن ليعاقر الخمر لو لم تدفعه أنت لمعاقرة الخمر!

سكتت. تلاحقت الأنفاس في صدرها. أضافت:

– ما أطلبه الآن ليس الطمع في الالتحاق بالحريم في بلاط يوسف باشا، ولكن ما أطلبه هو أن يسمح لي يوسف باشا بالتحرّر من أسر يوسف باشا!

تابعها يوسف باشا خلسةً صامتاً. تساءل أخيراً:

– أمازلتِ تعوّلين على قدرة أحمد على إعالة عائلة؟

سكتت طويلاً قبل أن تجيب:

– أعوّل على قدري!

– أتدرين أنه أضاف إلى منفاه منفى آخر؟

استفهمت بإيماءة فأوضح الباشا:

- لقد ورّط نفسه في الصراع الدائر بين أحمد خورشيد والألفي.

لم يكتفِ بهذه الحماقة بالطبع، ولكنه وقف مع الطرف الخاسر كعادته دائماً. وها هو الآن يحيا هارباً كاللّص في أوحال الوجه القبلي لمصر!

كانت المرأة تنشج بمرارة عندما أضاف:

- سأكون أحمقَ مثله، أو ربّما أكثر منه جنوناً، لو سمحت لعائلة من سلالة القرمانلي بالالتحاق بشبحٍ فارّ من وجه العدالة!

احتجّت المرأة:

- ولكنّي لا أنتمي لسلالة القرمانلي..

- ولكنّكِ تنتمين إلى عائلة لملوم، وهذا أسوأ!

استنكرت المرأة:

- أسوأ؟ لماذا أسوأ؟

- هل نسيتِ إلى أيّة قبيلة تنتمي عائلة لملوم؟

حدجته مستفهمة، ثم أشاحت بوجهها فأوضح:

- عائلة لملوم تنتمي إلى قبيلة الجوازي!

حدّق في سيمائها باستفزاز، ولكنّها لم تلتفت، فأضاف:

- قبيلة الجوازي ناصبتني العداء منذ أوّل يوم لجلوسي على العرش!

علّقت دون أن تلتفت:



– من حقّ قبيلة الجوازي أن تناصب العداء رجلاً حرم صهرهم عرشه!

– لم يكتفِ الأوباش بإظهار العداوة، ولكنّهم حرّضوا آل الفايد أيضاً!

استولى الشحوب على وجنتيه فجأة:

– أنت لا تعلمين أنّهم مازالوا على دينهم في الكيد، ولا يدرون أن صبري عليهم لن يطول!

– لا أدري لماذا عليَّ أن أدفع ثمن كيد قبيلة الجوازي أو كيد من حالفوا من آل الفايد!

– أنتِ تدفعين ثمن كيد رجلكِ الشقيّ، ورجلكِ الشقيّ هو الذي سيدفع ثمن التآمر مع الأوباش!

تطلّعت إليه بذهول:

– أيعقل أن يدفع رجلي أكثر ممّا دفع؟

ابتسم الباشا باستخفاف:

– وماذ دفع في رأيكِ؟

– ألا يكفي أنه دفع العرش؟

– دفع عرشاً لم يكن أهلاً له، وعليه اليوم أن يدفع ثمن خيانة هذا العرش!

سكتت. هيمن صمت. تمتمت:

– لو رضيتُ بابن العمّ يوماً لما وجدتُ نفسي رهينةً اليوم!
غزت سيماء الباشا بسمة شرّيرة:
– ليس لك أن تقنعي بابن العمّ لأنّك، كأيّة حسناء، رهينة حسنكِ، لا رهينة يوسف باشا القرمانلي!
تململت في وقفتها. استنكرت:
– رهينة حُسْني؟
استلقى الباشا على الأريكة. عاد يتطلّع إلى السقف المنمنم بماء الذهب. سرح بعيداً:
– تُصاب الصبيّة بالمسّ ما أن تقتنص في سيمائها إيماء الحُسْن فتهرع إلى المرآة لتصبح هذه الجنيّة منذ ذلك اليوم قرينتها التي تشاركها المخدع. هذه الجنّية هي التي توسوس لها بأن تتطلّع إلى أعلى، لأنّها تعدها بأن النجوم سوف تكون في متناول يدها إذا أنجزت الصفقة، ولا تدري المسكينة أن كنزها هذا شبح هشّ لا يحتمل روح الصفقة. هنا تجني الحسناء الشقاوة، مقابل حُسنها، بعد أن راهنت على الفوز بالسعادة. لقد رأيتُ شقيقتي فاطمة تخبّئ في عبّها مرآة في زمنٍ جرّد فيه الباشا المرايا من القصر، فإلى أية شقوة دفعت المرآة الخفيّة شقيقتي الشقيّة؟ أنتِ تدرين بما حلّ بفاطمة..
سكت الباشا، ولكنه مضى يتأمّل الرموز المخطوطة بماء الذهب في قرطاس السقف:

– في السنوات التي سبقت تجريد المرايا من القصر بأمر الباشا الرّاحل سمعته مرّة يقول: «إذا أبصرتَ في وجهك سيماء حُسنٍ فاحترس، لأنّ ذلك نذير سوء. وإذا أبصرتَ في قلبك وسواس استثناء فامرح، لأنّ الوسوسة هنا إشارة هناء»، فهل تدرين لماذا أفلحتُ في نيل العرش في حين أخفق رَجُلكِ؟

سكت لحظة، ثمّ:

– لأنّي عرفت كيف أستثمر هاجس القلب الذي تحدّث عنه فقيدنا الحكيم!

٣- الحيّة

شطآن بحر ليبيا. أكتوبر ١٨٠٣م.

في الوقت الذي كان العميد البحري «بريبل» يجتمع مع القبطان «بينبريدج» على متن البارجة «فيلادلفيا» قبالة الساحل الطرابلسي ليبحث خطط الهجوم الثاني على حصون المملكة، كان يوسف باشا يجتمع أيضاً مع أعوانه في قصر السراي ليبحث خطط الصمود في وجه الهجوم.

انتظر الباشا حتّى انضمّ الريّس مراد إلى المجلس، ثمّ فزّ ليتسكّع في البلاط ذهاباً وإياباً قبل أن يلوّح في وجوه الأكابر بقرطاس ممهور برسم متعرّج مخطوطٍ بلون كئيب.

وقف يتأمّل وجوههم كأنه يختبر فراستهم قبل أن يتساءل:

– من منكم يستطيع أن يفكّ طلسم هذا الرمز؟

كان الرجال يقفون حول طاولة مستطيلة تتوسط قاعة الاجتماعات تتوسطها رقعة شاحبة موسومة برسم يوضّح المواقع على اليابسة المشرفة على الساحل.

لم ينبس الرجال فابتسم الباشا قبل أن يوجّه السؤال لأحدهم:

– بيت المال!

تململ بيت المال في وقفته قبل أن يستنجد بالدغيّس، ولكن الدغيّس طأطأ فقرّر أن يحتكم إلى قدره:



– لو حكّمت الانطباع الأوّل لقلتُ إنه يذكّرني بالحيّة، وإذا سمح مولاي فأمهلني قليلاً لقلت إن الرمز يمثّل الدّهاء!

هلّل الباشا:

– أحسنت!

تقدّم نحو الجمع ليضيف:

– وهل عرفت الأرض مخلوقاً أعظم دهاءً من الحيّة؟

وضع القرطاس الممهور بالختم المتعرّج فوق الرقعة دون أن تفارق البسمة اللئيمة شفتيه. عقد يديه وراء ظهره قبل أن يخاطب الدغيّس:

– لو نصّبتك الأقدار وليّاً على البلاد الجديدة التي تقبع وراء الأقيانوس فماذا ستأمر أساطيلك في نزاعهم مع عدوّ عنيد؟

طأطأ الدغيّس طويلاً قبل أن يجيب:

– سآمر بتلقينهم درساً!

تطلّع إليه الباشا طويلاً. على شفتيه رقصت بسمة غامضة:

– لا أظنّ أنّك ستكون أهلاً للثقة إذا اكتفيت بتلقين العدوّ درساً!

عقد يديه وراء ظهره ليتسكّع مرّة أخرى. تساءل:

– ولكن هل يكتفي الرّيس مراد بتلقين العدوّ درساً إذا وجد نفسه في وضعٍ يمكّنه من فعل ما هو أعظم شأناً من مجرّد تلقين الدرس؟!

كان الباشا يبتسم خفيةً وهو يستمع لجواب قائد بحريّته:

– أعترف يا مولاي بأن تنفيذ الأوامر محكوم بحسن التدبير، بل بحسن الحظ في أغلب الأحيان، وليس بإلقاء الأوامر. ففي حال ابتسم الحظّ فإنّ صاحب البحر لن يضيره أبداً أن يفعل ما هو أعظم شأناً من تلقين الدرس مخالفاً بذلك الأوامر!

توقّف الباشا عن سعيه. سأل بصرامة مفاجئة:

– هل يدري السادة ما معنى هذا؟

طاف وجوههم لحظات. أضاف:

– هل مازلتم تشكّون بأن ما نواجهه اليوم ليس حملة تأديبيّة كما ظننتم دائماً، ولكنه غزو صريح؟!

تقدّم من الجمع في اللحظة التي سُمِعَ فيها طرق على الباب. دخل محمد بك ابن الباشا البكر فغزا وجه الباشا شحوب. خطا الابن نحو الجمع، ولكنه توقّف ما أن أبصر إيماء الاستنكار في مقلتي أبيه. حشرج الباشا بصوتٍ يخنقه الغضب:

– من أنت؟

لم ينبس الابن فعاد الأب يحشرج:

– إذا كنت تظنّ أن بنوّتك لهذا المخلوق الذي يقف أمامك سوف تشفع لك بالدخول وقتما تشاء إلى حرم هذه القاعة التي يتقرّر فيها مصير البلاد فأنت واهم!

زفر الباشا زفرة أفزعت كل أعضاء المحفل، ثمّ:

– اخرج!

لفظها الباشا بصوتٍ مكتوم مخنوقٍ بقوّة سلطانٍ كالعبْرة، ثمّ تقدّم نحو الفتى فجأة وهو يرتجف. ويبدو أن الأمير رأى الشرّ في عيني الأب فتراجع خطوات، ثم استدار ليتوارى وراء الباب بقفزة.

وقف الباشا في مواجهة الباب الموصد طويلاً. لاحظ الجمع كيف مضى يرتجف حتّى بعد أن استعاد هدوءه. تمتم:

– صدق علي باشا القرمانلي عندما ردّد أن الأبناء هم أسوأ لعنة يمكن أن تبتلي بها الأقدارُ الآباء!

زفر بعمق ليضيف:

– لم أشكّ يوماً بأنّي كنت لعنته!

عمّ الصمت. تسكّع الباشا لحظات. هتمل:

– إذا كانت الحيّة هي أدهى مخلوقات الأرض فعلينا أيضاً أن نحاكي الحيّة فنستنصر بالأرض في دفاعنا عن الأرض!

عاد إلى المحفل. وضع إصبعه على نقطة محدّدة في الرقعة:

– هذه صخرة الخالوصة في شرق الميناء!

نزع إصبعه ليضعه على نقطة أخرى في الرقعة:

– وهذه صخور الشاطئ قبالة الميناء!

انكبّ الأكابر على الرقعة بفضول كأنّهم اكتشفوا الموقع لأوّل مرّة. أضاف الباشا:

– الموقع بهذا الوضع يسمح بدخول السفن الغازية إلى الميناء. وهذا لن يحدث ما لم نحوّله فخّاً!

تبادل الرجال نظرات الدهشة خلسةً، ولكن الباشا لم يمهلهم:

– نستطيع أن نحيله فخّاً لاصطياد الغزاة إذا ضيّقنا العنق الواقع بين صخرة الخالوصة في الشرق وأوّل صخرة من صخور الشاطئ في الغرب.

طاف وجوه القوم، فعمّ وجوم. انتظر لحظات، ثمّ:

– إذا وُفّقنا في ردم الفم الواقع بين الصخرتين بالحجارة ثمّ غمرنا الحجارة بالرمال على نحوٍ لن يزيد عن سبع قامات، ثمّ قمنا بالعمل ذاته في المنطقة المواجهة لقلعة الإنجليز، فإنّنا سنضمن إصابة عدّة عصافير بحجر واحد، لأنّ السفن الغازية ستقع فريسة المياه الضحلة إذا جنحت شرقاً، كما أنها ستصطدم بصخور الشاطئ إذا مالت في هجومها غرباً. وهو ما سيسهّل على زوارقنا اقتناصها. هذا إذا أبقت مدافع القلعة الإنجليزية والفرنسية ما يمكن اقتناصه!

انتصب الباشا. طاف وجوه الرجال. عاد ينحني على الرقعة:

– التعديل سيكسر استقامة المدخل كما ترون، ليصبح ملتوياً التواء الحيّة!

انتصب مرّة أخرى ليضيف:

– الفرق أن الحيّة تتلوّى مستجيرةً بالرمل، ونحن سنستخدم

الرمل لنستجير بالمياه!

طاف وجوه الأكابر مليّاً، فتساءل الريّس مراد:

– متى يريد مولاي أن نبدأ؟

تطلع إليه الباشا لحظات ثمّ تبسّم:

– سأكون ممتنّاً لو أفلحت في أن تبدأ البارحة!

تضاحك أعضاء المحفل، ولكن الباشا استدار في الحال ليهجر القاعة: مَرَقَ من بابٍ جانبي قاد إلى الرواق المدعوم بالأعمدة الرومانية المستجلبة من مدينة لبدة التي لا يعرف لماذا يستشعر ضيقاً خفيّاً كلّما مرّ بها: هل بسبب أرواح الأجيال التي تسكنها؟ أم بسبب استكبارها؟ أم.. أم بسبب ذكرى مصرع الكاهية الكبير الذي أطلق عليه النار عندما اعترض طريقه «يوم التحرير الكبير» كما راق له أن يطلق على نجاحه في التخلّص من شقيقه حسن بك؟

كان قتل الكاهية سوء حظّ لم يغفره لنفسه، بل لاحقه بكوابيس اليقظة الأسوأ مائة مرّة من كوابيس النومة. لقد سمع بسيرة الرؤى من ألسنة الدهماء ودراويش الطريقة التيجانية مراراً، ولم يصدّق إلاّ في اليوم الذي وجد فيه الكاهية الكبير يجلس إلى جواره. كان يجلس وحيداً في خلوة كل يوم، مستغرقاً (على ما يذكر) في سيرة السلف أحمد الأوّل الذي كان دوماً سرّه

الذي فعل كل ما فعل في دنياه (سواء كان صواباً أم ضلالاً) كي يحظى بنصيبٍ من صيته المجيد ليدرك أخيراً أنه لم يكن ليجرؤَ على التخلّص من حسن بك إلاّ إرضاء لهذا الهاجس الرهيب: هاجس لا يعترف بالحدود. هاجس لا يضع الاعتبار للعرف أو التحريم. هاجس أن تنازع المعبود في عظمته فتملي أنت ناموسك بدل أن تستكين استكانة القطيع لتمتثل لمشيئة راعي القطيع الجائر. هاجس أن تتولّى الأمر فتفعل كل ما يطلق عليه مفتي ديار المملكة منكراً أم تجديفاً.

لا يذكر أي رحابٍ بلغ في رحلة أحلامه عندما انتبه لوجود مخلوق إلى جواره. تطلّع إليه بلا مبالاة يومها، ربّما لأنه لم يعد بعد من رحلته، وربما لإحساسه المبهم بأنه لا يجاور في جلسته غريباً، بل ربّما يجالس رجلاً كان له في رحلته رفيقاً. تطلّع إليه طويلاً قبل أن يستيقظ من غيبته تماماً ليكتشف أن جليس الجوار لم يكن غير الكاهية الشقيّ الذي كتم أنفاسه مرّة بطلقتين جنونيتين: كان في جلسته مكابراً كعادته، وسيماً كعادته، غامضاً كعادته، واجماً كعادته، و.. وسعيداً على غير عادته. فما معنى هذا الإيماء؟ هل يريد أن يقول بهذه السيماء إن الأموات سعداء؟ أم أنَّ الأموات يصيرون سعداء عندما يموتون شهداء كما يقول رجال الدّين؟ أم إن الرجل يريد أن

ينقل له رسالة تقول إنه بفضله نال جنّات جدير بها لأنه لم يقتله مرّة واحدة، بل مرّتين: مرّة بالطلقتين، ومرّة أخرى بنكران الإحسان لأنه كافأه بالموت في حين كافأه المغدور بالحياة يوم سقط في البئر فأنقذه الكاهية؟

كلّما تذكّر حادثة البئر هذه أصابه الدوار لأنها تذكّر في الحال بيوم الزلزال الدموي، فهل في الأمر تأنيب ضمير وهو الذي ظنّ دوماً بأنه وُلد بلا ضمير كما يليق بأهل الكبائر أن يولدوا؟ أليست المرارة التي يستشعرها كلّما باغتته ذكرى الزلزلة هي دليل جليّ على وجود الضمير؟ ولكن.. ولكن أين بوسعه أن يعثر على هذا الضمير؟ أم أنه يستنكر حضور الضمير لكي لا يعترض طريقه إلى الحلم كما اعترض الكاهية طريقه في ذلك اليوم؟ ألن يعني هذا أنه لم يقتل الكاهية يومها، ولكنه قتل ضميره في الكاهية ليقينه بأن الإنسان لا يستطيع أن يجتاز الخط الفاصل بين الخير والشرّ ما لم يختر البراءة التي يميت فيها ضميره؟

لقد انتشله من شهقة النزع الأخير، أو ما قبل النزع الأخير بومضة، فلم يصدّق أنه التقط أنفس ما في الوجود (الأنفاس) بدل أن يلفظ الأنفاس. تشبّث بعنق الرجل بكلتا يديه وهو يلفظ المياه ويكاد يلفظ مع الغمر المميت مقلتيه فبدأ المنقذ

يختنق بالماء ويتخبّط في ظلمات الهاوية المغمورة بالغمر كأنه يغرق. بدأ يعاند الماء ويغرق لأنّ طوق اليدين حول العنق كان أقوى، لأن الطرف الذي جرّب حضور الموت منذ لحظة، أقوى من الطرف المجبول بمعجزة الحياة حتّى لو كان الطرف الأوّل طفلاً مسكوناً بالشقاوة، وكان الطرف الثاني رجلاً شديد البأس. الدرس الذي لقّنه الغرق يومها لا يُنسى: الموت ليس استثناء كما توهّم (أو تعلّم)، ولكن الحياة هي وحدها الاستثناء. هذا الاستثناء الذي يجعلها الهبة التي لا تُقّدر بثمن. ولكن.. ولكنه رغم هذه الوصيّة القاسية نَسيَ. كأنَّ الإنسان لن يكون إنساناً إن لم ينسَ. كأنَّ الإنسان لم يُخلق إلاّ لينسى. ولو لم ينسَ يومها لما دبَّ الآن في الممّر المؤدّي إلى جناح الحريم لكي يواصل الدوس على رقاب أبناء الرعيّة، بل وعلى رقاب ذوي القربى!

يومها توارى الرجل ولكن غيبته لم تدم طويلاً. فقد اختار للظهور التالي يوماً قرّر فيه أن يمارس لعبته المفضّلة. تنكّر في ثياب أهل اللثام ليشارك في حفل أقامه كبير تجّار المملكة بمناسبة عقد قران كريمته. ففي مثل هذه الحفلات فقط يطيب للأعيان أن يطلقوا العنان لألسنتهم فيبوحوا بما أخفوا، وقد تناهت إلى سمعه أنباء خطيرة بالفعل عن نوايا بعض قبائل

الدواخل لم يكن جواسيسه البلهاء ليقدّروا خطورتها حتّى لو قُدِّر لهم الوصول إليها. وكان قد مَنَّ نفسه بسماع المزيد لو لم يتدخّل الكاهية ليفسدعليه ليلته. ففي اللحظة التي شرع فيها أحد الأعيان في سرد سيرة التنكّر كنزوة من نزوات الباشا لمح في الزاوية سيماء الكاهية. كان يتطلّع إليه بفضول. على شفتيه بسمة هازئة. في مقلتيه.. أي إيماء في مقلتيه؟ هل هو تسامح، أم أنه وعيد؟ ولكن ما شغله ليس الإيماء، بل اللفافة لفافة حمراء اللوّن تتكتّل ثناياها حول الفم كأنها سدّادة لقمع الشهوة إلى القول. ولكن اللفافة ما لبثت أن أفلتت من قمقمها لتتدلّى فجأة. تدلّت لتسقط على اللحية الموشاة بالشيب. توضّحها بفضول قبل أن يكتشف أن تلك اللفافة المجهولة لم تكن سوى عقدة لسان مريب، خرافي في طوله المثيل لبدن أفعى. استنجد بوجوه الأكابر، ولكن الرجال مضوا يثرثرون بلا مبالاة كأنهم لم يلحظوا ما حدث. أحسّ بقشعريرة فأشاح بوجهه. تظاهر بمتابعة رواية الرجل عن أطوار الباشا دون أن يفهم جملة واحدة. غرق القوم في ضحكة جماعية مجلجلة فانتهز الفرصة ليتسلّل هارباً. في الصباح أمر باستحضار الفقهاء للحصول على التمائم المضادّة لنوايا الأرواح!

٤ - العرض

في الزاوية التي انحرف فيها الممّر يميناً انتصب أحد الأحراس أمام الجناح الذي اتخذه علي باشا الأب خلوة كلّما أثخنته الجراح (الجراح التي ساهم هو فيها بالنصيب الأوفر)، ثمّ ورثه عن الأب ليتخذه وكراً للذّاته حيناً، وحَرَماً لتأمّلاته حيناً آخر ليقينه العميق بأن الحَرَم لن يستهوي بلا روح الماخور، والماخور لن يستهوي بلا حضور لروح المحراب، لأن الصلاة إذا كانت عافية الروح، فإن إبداع الذريّة رسالة الجسد. فكم مرّة يا ترى تجسّس وراء هذا الباب ليسمع كيف يتفنّن الأب في سبّ الذريّة لإغاظة للاّ حلّومة، أو يتفنّن بالأريحيّة نفسها في مداعبة معشوقته الملقّبة بـ «الملكة إستير»؟

في المدخل استقبلته للاّ حواء بسحنة مزمومة. عَبَر إلى الداخل، ولكنها اعترضت سبيله. استفهم بنظرة فكشّرت في وجهه:

– لماذا تريد أن تقتل الرجل في رجلٍ كمحّمد؟

تطلّع إليها بدهشة، ثم:

– لو كان محمدّكِ رجلاً حقّاً لما سمح لامرأة بالتدخّل في شأنه حتّى لو كانت هذه المرأة أمّاً!

– وهل تحتاج الأم إلى سماح من الإبن كي تتدخّل في شأنه؟

– لا يهرع الولد إلى صدر الأمّ كلّما تلقّى من الدنيا لطمة إلاّ



ليقدّم الدليل على خيبته كرجل!

همّ بأن يمضي، ولكنها استوقفته:

– هل تعلم لماذا؟ لأن صدر الأمّ جنّة الأبناء!

زأر فجأة.

– بل جحيم الأبناء!

زفر ثمّ:

– والدليل طوابير الخائبين التي خرجت وتخرج من مدرسة صدور الأمهات! وبليّة محمدّك هذا هي تخرّجه من مدرسة بصدرين: صدر الأمّ وصدر الزوجة!

استنكرت:

– صدر الزوجة؟

– هل يفلح رجل ترعرع في أحضان أمّ مثلك، ثمّ انتقل إلى أحضان امرأة تجري في عروقها دماء شبح رجل هو أحمد القرمانلي؟

تقدّم إلى الأمام، ولكنّها لاحقته:

– ماذا تريد أن تقول؟

أجاب دون أن يلتفت:

– أردت أن أقول إن ابنة أحمد نقلت له جرثومة أبيها!

هرولت حتّى واجهته، لوّحت بسبابتها في وجهه:

– إيّاك أن تفكّر بتطليقها منه!

تفحّصها بدهشة، في عينيها أبصر مسّاً منكراً. تمتم:

– ماذا أصابك اليوم؟

برطمت بلهجة تحدٍّ:

– المرأة لبوة إذا مسّ صغارها سوء!

زفر ليكتم غضبة:

– وأيّ سوء مسّ صغارك؟

فزّ من عينيها بلل. اختنقت بالدمع:

– لو رأيته عندما خرج من الديوان لأدركتَ قدْر السوء الذي ألحقته به!

غطّت وجهها بكفّيها وشهقت بفجيعة:

– إذا لم تفعل شيئاً فسوف. سوف نفقده!

– نفقده؟

– أنت لا تدري.. لمحمّد قلب شاعر!

تعجّب:

– شاعر؟

مضت المرأة تنشج فاستشعر الحاجة لفعل شيء لتعزيتها، ولكنه وجد نفسه يقول:

– وهل هذا زمن مناسب لتربية الشعراء؟



حاججت:

– الناس يولدون شعراء، ولا يتربّون شعراء!

تردّد، ثمّ:

– ظننت أنّي أنجبت من بطنك فارساً، لا شاعراً!

اقتربت منه خطوة. همست:

– لو سمعت أشعاره لما قلتَ ما قلت!

استنكر:

– ماذا؟

– أنت لا تدري.. محمّد يكتب الشعر منذ الطفولة. يكتب الشعر سرّاً. يكتب شعراً ممتعاً. ألم أقل لك دوماً بأنّك لا تعرف أبناءك؟!

حدّق فيها ببلاهة ثمّ غمغم قبل أن يمضي:

– اللّعنة!

قرّر أن يخلو إلى نفسه فاستجار بجناحه. أوصد الباب وانهار على أقرب أريكة. فكّر في سيرة الشعر فتذكّر محمد القرمانلي الجدّ. لقد كان الحلقة الأضعف في تاريخ الأسرة كلّها، ولا يعرف لماذا أطلق اسم الابن البكر تيمناً بهذا السلف المائع وهو الذي آمن دوماً بحكمة الأوائل القائلة إن المسمّى لابدّ أن يستعير من صاحب الاسم خصلة واحدة على الأقل؛ هذا إذا لم

يستعر منه جلّ خصاله. وهاهو السليل الذي علّق عليه الآمال كوريث للعرش يخذله ليقدّم له البرهان على أصالة المقولة الشعبية، وإلاّ كيف يكتب الرجل شعراً إن لم يخفِ روحاً هشّة هشاشة القشّ؟ وكيف تستطيع الهشاشة أن تكسر عناداً أو تتولّى عرشاً؟ بل.. بل كيف تقود جيشاً؟ ألن يعني هذا أن عليه أن يفكّر في تهيئة شقيقه عليّ لتولّي البكوية كبديلٍ لصاحب الأشعار الأبله الذي لا يحقّ له بعد اليوم أن يعوّل عليه؟ لقد تحدّثت المسكينة عن شعريّة الولد بروح مَن يتحدّث عن ولاية وليّ، أو قداسة قدّيس، أو حتّى نبوّة نبي، وتريده أن يؤمن بهذه النبوّة دون حُجّة غير الدموع!

تناول طعام الغداء يومها وحيداً. بعد الغذاء استسلم لهجعة القيلولة ساعة. عاد بعدها إلى مكتبه ليغرق في تدبير شؤون المملكة حتّى حلول المساء. كانت قذائف الأسطول المرابط في البحر على مرمى البصر تدمدم طوال الوقت فتتزعزع أركان الأبنية، كان يقرع الجرس ليستدعي الحاجب بين الحين والآخر ليستفهم عن حدوث أضرار، ثمّ يعود لينكبّ على أكوام المراسلات المطروحة على المكتب. قبل أن ينصرف ببضع دقائق استأذن الحاجب للدخول ليخبره بنبأ قصف الأسطول بلدة صبراته، فاستفهم عن الأضرار بإيماءة فأجاب الحاجب

بالنفي. ابتسم بغموض، ثمّ خرج. عَبَرَ إلى مكتبه من الباب الرئيسي فوجد الدغيّس يقف بانتظاره في الرواق. هرع للقائه باسماً كأنّه يستعين على خرق المراسم التقليدية بسلطان البشارة:

– إذا ارتكبت خطيئة في حقّ خلوة مولاي فآمل أن يكون النّبأ شفيعي!

تطلّع إليه الباشا بارتياب، فأضاف:

– أخيراً، أستطيع أن أزف لمولاي بشرى رضوخ الغزاة!

استفهم الباشا بإشارة فتوضّحه الرجل كأنه يترصّد إيماء الفضول في عينيه، ثمّ:

– أربعمائة ألف قرش مقابل الصلح، بدل الأربعين ألف قرش!

ابتسم الباشا بغموض، ولكن الغموض ما لبث أن انقشع ليتألّق الجشع في المقلتين الماكرتين؛ هذا الجشع الذي حيّر الدغيّس دوماً ورأى فيه جنساً من نزوة، أو ضرباً من الظمأ إلى اللّهو، لأنّه لم يلمس حاجة الباشا إلى المال إلى الحدّ الذي يعرّض فيه عرشه للخطر كما هو الحال في الصراع مع الأمريكيين.

في النهاية علّق الباشا:

– ولكنّهم دفعوا مبلغاً أكبر لداي الجزائر!

انطلق نحو الباب فانطلق خلفه وزير خارجيّته وهو يترنّح من

الذهول. غمغم:

- ولكن ألا يرى مولاي أن رفع المبلغ عشرة أضعاف هو عرض عادل؟

- لن يكون رفع المبلغ عشرة أضعاف عرضاً عادلاً إذا دُفع مبلغ أعظم شأناً إلى طرف أصغر شأناً!

تطلّع إليه الرجل بدهشة فأومأ له بالجلوس. تواجها في قاعة البلاط. عبث الباشا بكدس أوراقٍ محشورة في غلاف جلدي أنيق فتكلّم الدغيّس:

- نحن لا نعلم يا مولاي ظروف توقيع معاهدتهم مع داي الجزائر..

قاطعه الباشا دون أن يرفع رأسه عن الملف الجلدي الأنيق:

- ولكنّنا نعلم القيمة الباهظة التي دفعها الخصم مقابل المعاهدة!

تململ الدغيّس في مقعده. في سيمائه تبدّى التردّد، ثمّ:

- لا أظنّ يا مولاي أن يقبلوا بدفع مبلغ يفوق الأربعمائة ألف قرش لأنّهم سيرون رفع المبلغ عشرة أضعاف تنازلاً كبيراً من جانبهم..

سكت على مضض، ثمّ:

- أخشى أن يبدو الرفض من جانبنا تعجيزاً لهم!

– تعجيزاً؟

– أردت أن أقول إن الوسيط الإسباني على يقين من قبولنا العرض!

– ماذا تريد أن تقول؟

تردّد الدغيّس، ثمّ:

– أردت أن أقول إنّنا لن نضمن وجود وسيط مقبول من الطرفين إذا انسحب الوسيط الإسباني!

حدّق فيه الباشا:

– ولماذا على الوسيط الإسباني أن ينسحب؟

– لأنّه. لأنه يرى أن العرض أكثر من عادل!

استنكر الباشا:

– هل هو وسيط أم كبير قضاة؟

سكت الدغيّس. طأطأ. عبث بيديه. تجاسر أخيراً:

– كل ما أتمنّاه أن يفكّر مولاي قليلاً قبل إبلاغهم بكلمة مولاي الأخيرة!

تطلّع إليه الباشا. تأمّله طويلاً قبل أن ينطق بالحكم:

– لست في حاجة إلى التفكير كثيراً كي أرفض، لأني إن لم أرفض فقد أذعنت لابتزازهم ضمناً!

سكت، ثم بلهجة ذات معنى:

– أنت تدري ماذا أعني!

ولكن الدغيّس لم يستسلم:

– أدري، يا مولاي، أدري. ولكن يجب ألاّ نستسلم لاستفزاز المرؤوسين كي لا نعطي الحجّة التي يستطيعون أن يستخدموها لإقناع الرؤساء!

استخفّ الباشا:

– لا أظنّك تصدّق تلويحهم باستقدام أحمد بك من مصر ليجلسوه على عرش البلاد!

هتف الدغيّس فجأة:

– بالطبع أصدّق!

قرأ الاستنكار في ملامح الباشا، فأضاف:

– لست وحدي من يصدّق يا مولاي، ولكن الكلّ يصدّق: الأعيان، والحاشية، وزعماء القبائل، وحتّى الدهماء!

حدّق الباشا في وجهه طويلاً دون أن تفارق بسمة السخرية شفتيه ثم سأل:

– هل أعددتم ما يلزم بشأن المصيدة؟

استفهم الرجل بتمتمةٍ خجولة:

– المصيدة؟!

عَبَس الباشا:

– ألم نتفق على تحويل برّ الخالوصة مصيدةً؟!

في وقتٍ متأخّر من تلك الليلة عندما كان الريّس مراد وزير البحرية يحشد أعوانه على الساحل ليبدأ حملة تحويل منطقة الخالوصة شَرَكاً لئيماً للإيقاع بسفن الغزاة، كان يندس في زحام أهل الفضول الذين تجمّعوا في المكان درويش بليد، متسخ الأثواب، يشقّ طريقه إلى الأمام بعناد مستعيناً بقراءة الأوراد، دون أن يخطر ببال مخلوق أن يكون ذلك الوليّ اللجوج هو الباشا يوسف!

٥- البحر

بحر ليبيا. متن البارجة «فيلادلفيا». فجر يوم ٢٧ أكتوبر ١٨٠٣م

على سطح البارجة دبَّ البّحارة مبكّراً. على السطح تسكّع الرّبان أيضاً. كان يعقد يديه وراء ظهره. يخطو بمهلٍ لا يتناسب مع قامته المزمومة، ولا مع بزّته البحرية الرسمية. يسرح ببصره عبر اليّم الأزرق، المدهش بعمق زرقته، الباعث على القلق بسكونه، المثير للأشجان في امتداده، الشاهد الأوّل على نكباته؛ ولكنه، برغم هذا، يستطيع أن يعترف بأنّه صار مريداً في حرم هذا المعبود دون أن يدري كيف حدث هذا وهو الذي نشأ في وطنٍ مطوّق بأحضان الأقيانوس في غرب الدنيا، ثمّ طاف بحور الأرض حتّى وصل إلى بحر الظلمات في أقاصي الشرق. ولكن بحر ليبيا كان شيئاً آخر. بحر ليبيا كان سرّاً. بحر ليبيا كان سحراً. بحر ليبيا كان غموضاً. بحر ليبيا كان حنيناً. بحر ليبيا كان عشقه الذي لم يحدّث به أحداً. كان عشقه إلى حدّ صار سبباً في هزائمه بدل أن يكون سبباً لبطولات. ألن يعني هذا أن ما يهزمنا هو العشق، لا غياب العشق؟ لقد استسلم لجنون داي الجزائر وذهب إلى الآستانة حاملاً على متن سفينته الحربية سفير الداي الجديد لدى الباب العالي

(المصحوب بتلك الهديّة المخجلة المكوّنة من أجناس الوحوش وأنواع الزواحف، وخليط الخلق من عبيد ومحظيات إلى جانب مليون دولار أمريكي نقداً) أملاً في أن يشفع له هذا الفعل اللا أخلاقي (الذي لا يختلف عن احتراف القوادة في العرف المسيحي) بمواصلة البقاء في حرم معبوده المكابر. ثمّ ارتكب خطيئة أخرى في ديار الأغراب عندما ركع أمام مسخ الآستانة ذاك، ولا يكتفي بهذا، ولكنه ذهب ليأكل على مائدته طعاماً مسمّماً بجهالات ذلك المخلوق الذي لم يجد قاسماً مشتركاً بين مملكته والأمّة الأمريكية سوى النجوم المنثورة على رايتي البلدين. لقد انتظر أن يستنتج ذلك المهرّج استعارةً من القول (وهو الذي سمع كثيراً عن عمق الحكمة في الشرق)، كأنْ يضيف فيقول إن القاسم المشترك بين شعبينا هو الحلم ببلوغ السماء واقتطاف النجوم من بساتين الفردوس المفقود مثلاً، أو أية تفاهة مجبولة بروح الشعر (لأنّ روح الشعر هو ما ينقذ تفاهات الشرق الكثيرة التي تبدو لبلهاء كثيرين حكمةً) كما يليق بصاحب صولجان ذائع الصيت يقري لأوّل مرّة ضيفاً ينتمي إلى أمّة مازالت رعيّته تحسبها خرافة لا وجود لها مثلها مثل الأمم التي تتحدّث عنها متون «ألف ليلة وليلة»!

ولكن تلك الرحلة الغريبة التي لعب فيها ربّان السفينة دور

الرهينة التي تحمل الرهائن حقّقت له الشفاعة كما توقّع فواصل طوافه في رحاب الحرم. ولكن القدر (الذي لم يكن من شيمه أن يطيل عمر السعادة) لم يمهله. فقد أسقط على رأسه نكبة «غوادلبور» بعد هذا الذلّ بأشهر. وكان عليه أن يركن إلى التسليم هذه المرّة أيضاً أملاً في أن يشفع له التسليم هذه المرّة أيضاً. ويبدو أن التسليم لم يخيّب ظنّ من أحسن به ظنّاً. فقد غفر له رؤساء ما وراء الأقيانوس هذه الخطيئة أيضاً، بل ذهبوا في الغفران شوطاً أبعد فكافأوه على هذه الخطيئة بتعيينه ربّاناً على آخر ما توصّل إليه العقل الأمريكي المغامر في حقل صناعة السفن وهي المدمّرة «فيلادلفيا».

وها هو يعود إلى بحر ليبيا ظافراً ليلقّن الدروس لأعداء البحر بعد أن خرج منه مرّتين مهزوماً. بالطبع حاول الخصوم تحريض البعض فحاولوا عرقلة صدور القرار كما يحدث في كلّ شأن له صلة بالنجاح، ولكن رصيده من الهزائم شفع له ليعلم منذ ذلك اليوم أن سرّ النجاح يكمن في الهزيمة لا في النصر؛ لأن الهزيمة تميت في النفوس الحسد، في حين يؤجّج النصر نار الحسد. لهذا السبب يندر أن يُكتب النصر لإنسان مرّتين، في حين يستطيع صاحب الاستسلام أن ينهزم مراراً دون أن تصيب فيه الهزائم مقتلاً أو تزعزع مركزه. ألا يقال

في الأمثال إن الناس تغفر الإخفاق، ولكنّها لا تغفر النجاح؟ والدليل العميد «دِلْ Dale» الذي صدر قرار بسحبه من أسطول حصار طرابلس وهو الذي لم يعرف في معارك هذا الحصار إلاّ النصر ليجري استبداله بالعميد «بريبل» الذي لم يحرز حتّى اليوم نصراً يمكن أن يبرّر قرار الاستبدال. بل فاجأه منذ أوّل يوم لوصوله عندما صرّح (بحضور عدد من الضباط) قائلاً: «من المستحيل محاصرة شواطئ تزيد على الألف والثلاثمائة ميل!» دون أن يقرأ حساباً لما يمكن أن تسبّبه عبارته هذه من أضرار لمعنويات الضبّاط، فكيف بالجنود؟ وهاهو الآن يقف ليشاهد الشروق في هذا البحر الذي حقّ لشعراء العالم القديم أن يتغنّوا بسحره في ملاحمهم الخالدة، ينتظر وصول قائد الحملة الأحمق «بريبل» لكي يدرس معه الخطّة الكفيلة بكتابة فصل الختام في الملحمة التي سيخلّدها شعراء العالم الوليد في نشيد البحرية الأمريكية لتكون ترنيمة فارقة في تاريخ أجيال العالم الجديد!

٦- الأنصار

طرابلس قصر السراي الحمراء - ٢٨ أكتوبر ١٨٠٣م

على الأريكة هجع محمّد بك ممسكاً بكتابٍ سمين الجلدة. حول الرجل حامت حسناء تبدو هشّةً في قوامها، ولكن هذه الهشاشة هي رأس مال حسنها لأن الهشاشة تجعلها تبدو (في الأثواب الفضفاضة المطعّمة بخيوط الإبريز والفضّة) فراشةً، وربّما طيفاً لا ينتمي إلى خشونة هذه الدنيا! تلك هي لَلاَّ فطّومة سليلة سليل المنافي أحمد بك القرمانلي، وقرينة محمّد بك يوسف القرمانلي!

كانت المرأة تحوم حول القرين المستغرق في ثنايا الكتاب الثخين كأنّها تريد أن تبوح للرجل بسرّ، ولكنّها تحجم في كلّ مرّة خشية أن تستثير القرين في خلوته مع الكتاب الذي رأت فيه دائماً ضرّة! ولكنّها تشجّعت أخيراً فتمتمت:

- هل تدري؟

لم يستجب القرين فأضافت:

- لقد فكرتُ طويلاً قبل أن أتوصّل إلى ضرورة أن تفعل كلّ ما بوسعك لكي تحيط نفسك بأعوان!

في سيماء الرجل شَعَّ مشروع بسمة ساخرة. تساءل من وراء الكتاب:



– أعوان؟ وماذا يمكن أن نسمّي هذا الجيش الذي يكتم أنفاسي غير الأعوان؟

ولكن المرأة حاججت بلغة لا تتناسب مع سنّها، ولا مع حُسْنها:

– ها أنت تسيء فهمي كما أسأت فهمي دائماً: فلو كانت البكوية تجدي نفعاً لما طاف أبي اليوم من منفى إلى منفى. ولو كانت قيادة الجيش تجدي لما سقط العمّ حسن بك بيد شقيقه العمّ يوسف. ولو كانت الحاشية في عرفك تصلح أن تكون عوناً لما سقط علي باشا الجدّ في قبضة الوغد علي برغل!

تطلّع إليها الرجل من وراء الكتاب بفضول:

– أراكِ تتكلّمين بلسانٍ غير لسانك!

– أنا في رأيك أتكلّم دائماً بلسانٍ ليس لساني!

ابتسم بمكر:

– حسناً! بأي نبوءة تنوي عرّافة المعبد أن تخاطبنا اليوم؟

صلبت المرأة حول صدرها العامر ذراعين مثقلين بأساور ذهبيّة تتلألأ بالفصوص، ثم تطلّعت إلى البحر عبر النافذة. في مقلتيها الكحلاوين تلألأت فصوص أيضاً، لكنّها فصوص مجبولة بالحزن:

– ليس لك أن تسخر من أمّي، لأن للاّ حسنيّة عرّافة معبد

بالحقّ، ولو لم تكن كذلك لما نجت من بطش الباشا يوسف، ولما وجدتني أقف أمامك الآن أيضاً!

لوّح الرجل بالمجلّد أمام وجهه:

– ولكن الحكمة تحذّرنا من طلب النجاة بأيّ ثمن!

تورّد خدّ المرأة بانفعال طارئ:

– الصبر على الذلّ في حال للاّ حسنيّة بطولة!

استنكر الرجل وهو يلقي بالكتاب جانباً ويعتدل على الأريكة:

– الذهاب إلى مخدع الجلاّد بطولة؟

ولكن الحسناء استبسلت:

– الذهاب إلي مخدع الجلاّد في حال للاّ حسنيّة عار في رقبة الجلاّد، ولكنه على صدر الضحيّة وسام!

بدأت المرأة ترتعد، ولكن إيماء الاستكبار في انتصاب القوام الهشّ استنزل في الجمال لمسة كآبة فرأى الرجل حسنها طاغياً. تململ في جلسته، ولكنها أضافت:

– ولو لم تكن للاّ حسنيّة بطلة للاقت مصير للاّ عويشة بعد مصرع حسن بك!

تدخّل القرين:

– ولكنّك تعلمين أن كلّ أبناء هذه المملكة ضحايا. أنا أيضاً ضحيّة! بل أنا ضحيّة مرّتين بالمقارنة مع أبناء المملكة: مرّة

لأنـي ابن البـاشا البكر، ومرّة أخرى لأنّي قـائد الجيش!

هتفت المرأة:

– ومرّة ثـالثـة لأنّك زوج لـلاّ فطّومـة ابنـة أحمد بك القرمـانلي!

– صدقتِ! هذا أيضاً سبب كـافٍ للوقوع ضحيّة بين يدي جلاّد اسمه البـاشا يوسف!

– بل هذا رأس كل الأسبـاب!

حدجها بنظرة استفهام، ثمّ:

– هل تظنّ لـلاّ حسنيّة ذلك حقّاً؟

رمتـه الحسنـاء بنظرة غـاضبـة:

– يجب أن تكفّ عن اليقين القـائل إن المرأة ابنـة أمّـها!

ابتسم محمّد بك:

– أنتِ لستِ ابنـة أبيك يقينـاً!

أطلق ضحكة، ولكنـه ابتلعها مـا أن أبصر الإيمـاء في عينيها، قـالت:

– مـا أردتُ أن أقولـه إن عليك أن تبحث عن وسيلـة للدفـاع عن النفس مـا دمتَ على قنـاعتك بكونك ضحيّة!

– الدفـاع عن النفس؟

– بـالطبـع! هذا إذا شئت ألاّ تـلاقـي مصيراً كمصير عمّك أحمد بك القرمـانلي!

تـأمّلها طويلاً فـأضـافت:

– أنت تنسى أن لك خصماً نـهماً يترعرع بين جنبات البلاط،
الكلّ يرى في مسلكه لؤم أبيه يوسف!

توضّحها كأنه يكتشفها لأوّل مرّة، ثم هتمل:

– هل هذا رأي كاهنة المعبد؟

– هذا رأي الكلّ أيضاً!

هيمن صمت. أضـافت:

– آن الأوان لأن تبحث لنفسك عن أنصـار!

– أنصـار؟

– إذا كنتَ تريد النجاة فلا مفرّ من البحث عن أنصـار، بدل
أعوان الزور!

عـاد الصمت يهيمن. من المئذنة المجاورة انطلق صوت المؤذّن
معلناً حلول صلاة الظهر، فتساءل:

– وكيف السبيل لنيْل الأنصار؟

تقدّمت منه خطوة. قالت بيقينٍ أحيا فيه الثقة بالنفس، بل
والثقة بها:

– بالفرار من الجحيم؟

تطلّع إليها مستفهماً، ولكنها لم تفصح فسأل:

– مـاذا تعنين؟

انحنت فوق رأسه حتّى كاد صدرها العامر يقتحم وجهه.
حشرجتْ كأنها تبوح بسرّ:
– من القصر!
استنكر:
– نفرّ من القصر؟
– نذهب للإقامة في المنشية!
تردّد. انتصب واقفاً. تمتم:
– المنشية..
– المنشيّة لم تخذل من استجار بها يوماً. هل تعلم لماذا؟
في تلك اللحظة تزعزعت أركان البنيان بقذيفة معادية، فجاوبتها بطارية حصن الفرنسيس برشّ متلاحق.
انتظرت حتّى هدأت الجعجعة، ثمّ أضافت:
– لأنها أرض صلاح!
– أرض صلاح؟
– مثوى مرابطين!
– هل هذا رأي كاهنة المعبد أيضاً؟
رمقته باستخفاف:
– لا تستهزئ بوصايا كاهنة المعبد، ولا بنبوءات سليلة كاهنة المعبد لأنّي لم استهزئ بوصاياك أيضاً؟

– وصاياي؟

– بأشعارك!

ابتسم:

– ألم تشجعيني دائماً على قول الأشعار؟

– تستطيع أن تقول الأشعار شريطة أن تتذكّر أن قول الشعر لا يعصم من بطش الطغاة!

٧- الكابوس

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م

(الساعة الخامسة صباحاً)

استيقظ «بينبريدج» فجأة. لم يستيقظ، ولكنّه فزّ. خيّل له أنّ رجّةً، أو ربّما صوت سقوط بدن جسيم في اليمّ، أو على متن السفينة، أفزعه فهبَّ واقفاً. تذكّر في وقفته أن الزلزلة التي انتزعته من النوم كانت بمثابة رسول خلاص لأنها حرّرته من كابوس سقط فيه لقمة في بطن الحوت. قبل الوقوع بين فكّي الوحش أقبل مُطَارَداً بشبحٍ خفيّ لم يتبيّنه في ظلمة الدّغل، ولكن الحدس أوحى له بأنه ثعبان. كان المكان مبهماً، والشبح كان مبهماً أيضاً. والنهر الذي غاص فيه فراراً من الشبح كان مبهماً أيضاً لأنه ما لبث أن انقلب بحراً، ثمّ خضمّاً متلاطماً كأنّه المحيط. ولكن هل فاز بالنجاة بقفزته الجنونية في اليمّ الغاضب؟ هنا تداخلت الرؤى ليكتشف أن المسخ الخفيّ الذي ظنّ أنه تخلّف قد تحوّل مسخاً له رأس تمساح وجرم ثعبان، ومسلك إنسان. مسلك إنسان؟ في سيمائه أيضاً لاحظ حضور روح إنسان! كان يحوم حوله بحركات كأنّها الدُّعابة. كان يبتسم بمكر أثناء هذا اللّهو الذي ذكره على نحوٍ غامض بلعب الهرّ قبل أن يلتهم الفأر. ثمّ.. ثمّ بدأ بدن المسخ ينتفخ. انتفخ

فَعَظُمَ حتّى صار رابيةً، أو جبلاً، أو جزيرةً، في متاهة المحيط. غاب رأس التمساح، واختفى بدن الثعبان، وانقشعت سيماء الإنسان ليصير المخلوق كلّه جسداً. صار كتلة جسد لم يعرف كيف وجد نفسه يخوض في الظلمات ويتجوّل في جوفها. سبح هناك زمناً قبل أن يحدّثه الهاجس بلا جدوى البحث عن منفذ، لأنه سجين في بطن الحوت. الحوت؟ ما افتقده في تلك الرحلة هو غياب الهواء. لأن الانطباع المتخلّف عن الذكرى هو الإحساس بالاختناق. وفي يقينه الآن أنه كان سيلفظ الأنفاس لو استمرّ الأسر المميت لحظة أخرى. ولكن الخلاص حلّ فجأة بزلزلة كأنّها الانفجار. انفجار دمّر القمقم فتنفّس الصعداء. ويبدو أن الانفجار تزامن مع رجّة السفينة فتحرّر من الكابوس.

ترنّح في وقفته كأنّه يستجيب لرقصة السفينة، ثمّ انهار على السرير. نهض. ارتطم بجدران مقصورته مراراً قبل أن يدرك الباب. تشبّث بالمقبض. انسلّ خارجاً. تقاذفته الأركان كالكرة قبل أن يدرك مقصورة معاونه النقيب «ديفيد بورتر»؛ همّ بأن يقرع الباب، ولكنه وجد الباب مفتوحاً والمقصورة خاوية، فعاد على عقبيه. اعترضه أحد البّحارة راكضاً فاستوقفه غاضباً:

- ماذا يحدث هنا عليكم اللعنة؟

كان الرجل جنديّاً نحيلاً نحولاً منكراً كأنّه الشبح له ملامح الهنود الحمر يمضغ أعشاباً مريبة طوال اليوم ويمتنع عن تناول اللحوم بما في ذلك الأسماك مدعيّاً (على ما يروي زملاؤه) أن أعشابه المشبوهة تزوّده بالطاقة اللازمة التي تعوّض الامتناع عن تناول اللحوم. ولكن الخبثاء يقولون إن الأعشاب ليست سوى جنس أفيونٍ قد يعير الطاقة حقّاً، ولكنه مميت المفعول اعتادت عشيرته المدعوّة «إكلكل» أن تستخرجه من شجيرات سرّية تنبت في أعالي نهر «المسيسيبي».

كان الهندي الأحمر يلوك عشبته في هذه اللحظة أيضاً عندما أجاب ببرودٍ استفزّ الربّان:

- لا شيء يا سيدي! كل ما هنالك أن روحاً شرّيرة هبّت البارحة فجنحت «الجنيّة» شرقاً!

ابتسم «بينبريدج» برغم الغثيان، لأن الجندي الأحمر لم يفقد روح أسلافه حتى في مثل هذه البلبلة فاستخدم تعبير «الجنيّة» الذي اعتاد أن يطلقه على «فيلادلفيا» منذ وطأ متن السفينة مضيفاً للتسمية عبارة أخرى تقول: «ليس فألاً حسناً أبداً أن يصنع الناس مثل هذه الجنيّة!»؛ وعندما سأله الجنود عن السبب أجاب: «لأن الإله «إيها مهي» سيشكو من البطالة

قريباً. وإذا عانت الآلهة من البطالة فلن يكون ذلك فأل خير لسلالة البشر!». سأل الربّان:

– وأين «ديفيد بورتر»؟

أجاب الهندي الأحمر ببرود وهو يتلذّذ بمضغ عشبته السريّة:

– إنه في الأعلى يا سيدي! يصارع القلوع مع الجنود!

صاح «بينبريدج»:

– هيّا! ساعدني في الوصول إلى هناك!

تردّد الجندي حتّى أنه توقّف عن مضغ عشبته الذهبية فتساءل الربّان إيماء فقال الهندي:

– أردت أن أنبّه سيدي إلى أن الوقت ليس مناسباً للسباحة، لأن البرد شديد جدّاً في الأعلى!

تطلّع إليه الربّان بذهول ثمّ غمغم بصوت يخنقه الغضب:

– ماذا تقول أيها الأبلة؟

ولكن الهندي الأحمر لم يقل شيئاً. ابتسم بغموض وهو يلتهم الربّان بنظرات باسمة ذات معنى. تبادلا نظرة طويلة قبل أن يفهم «بينبريدج» أخيراً. فقد اكتشف أنه يقف أمام مرؤوسه بجسدٍ لا يستره سوى السروال الداخلي!

٨- الريح

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر. ١٨٠٣م

(الساعة الخامسة والنصف صباحاً)

على سطح السفينة وقف الربّان مشلولاً: كانت الريح تهبّ من ناحية الغرب بجنونٍ لم يعهده في بحر ليبيا فمضى يدفع الجبل العائم نحو المجهول برغم تمكّن زحام الجند من استنزال القلوع بقيادة النقيب «ديفيد بورتر». شقّ الطريق في الزحام بعسر قبل أن يصل إلى الموقع الذي وقف فيه «بورتر». كان المساعد يعاند ليجير المدافع من هجمات الموج مستعيناً بكبكبة من الجند. ردّد «بينبريدج» عبارة صارت من فرط تكرارها بلهاء: «ماذا يحدث هنا عليكم اللعنة؟» دون أن يتلقّى على تميمته هذه جواباً، فشقّ طريقه باحثاً عن معاونه في القيامة علّه يفوز من شفتيه بالجواب، ولكن الرجل خيّب ظنّ الربّان عندما أجاب:

– لا يحدث شيء يا سيدي! كل ما هنالك أنّنا يجب أن ندفع ثمن الثقة بحكمة الأهالي!

زأر الربّان مستنكراً:

– حكمة الأهالي؟

– ألا يقال في هذه الأوطان إن الريح رسول لا يهبّ من جهة

الغرب ليلاً إلاّ لخللٍ في ناموس الدنيا؟!

ترنّح الربّان بهجمة ريح جنونية جديدة فتراجع إلى الوراء أمتاراً وهو يصيح:

- عن أي هراء تتحدّث عليك اللعنة!

ولكن الريح ذهبت بالعبارة فأضاف مساعد الربّان:

- ريح الغرب تستنكر أن تسري ليلاً لأن السفر ليلاً من شيم العبيد حسب رواية الأهالي. ريح الغرب رسول مكابر يا سيدي!

- إذا صدق ما تقول فلماذا أرى رسولك الغربيّ يعيث فساداً في سفينتي دون أن أرى الخلل في ناموس الدنيا الذي تحدّثتَ عنه منذ قليل؟

كان «بورتر» يقف في لفيف الجند مبلّلاً مستجيباً ببدنه لإيقاع المطيّة التي تحوّلت، بعنف الموج، وجنون الريح، دميةً؛ يستعين على الصمود بالتشبّث بالعارضة حيناً، أو باحتضان أجرام المدافع حيناً آخر. ولكن الدوّامة لم تقتل فيه روح الدعابة كعادته دوماً:

- الخلل يا سيدي سيحدث حتماً، لأن هبوب الريح الغربية ليلاً ما هو في عرف الأهالي إلاّ نذير شؤم!

بَرْبَرَ الربّان:



– هل هذه نبوءة؟

– يجمع ربابنة السفن على..

ولكن «بينبريدج» لم يسمع نهاية العبارة لأن هجمة جديدة طوّحت به بعيداً. جاهد طويلاً كي يقترب من الموقع. سأل:

– ولكن لماذا لم توقظني عليك اللعنة؟

– مكثت طويلاً أقرع الباب، ولكن عنف الموج لم يتح لي الفرصة كي أحطّم الباب يا سيدي حتى أتمكّن من إيقاظك!

في أقصى الشرق تفتّق الأفق عن هبة نفيسة: كان القبس المدهش يتسلل ليفصل بين جسدين حميمين: جسد البحر وجسد سماء البحر الملفوفة بكتل الغيم.

سأل الربّان:

– ولكن إلى أين تقودنا الرياح؟

عاند «بورتر» فيضاً مائيّاً جديداً قبل أن يجيب بروح سخرية:

– الرياح تقودنا إلى حيث ينتظرنا قدرنا يا سيدي!

تمتم الربّان:

– عليك اللعنة!

ولكن المعاون أعقب عبارته الساخرة بعبارة أخرى:

– لقد قطعنا ثمانية عشر ميلاً حتّى الآن في الطريق نحو الشرق!

تعجّب الربّان:

- ثمانية عشر ميلاً؟!

ولكن «بورتر» لم يجب لأنه أبصر في هِبَة القبس شريطاً خفيّاً مكلّل الجبين بحسانٍ ترقص شعافها المكابرة بهوسٍ كالوَجْد: تلك كانت نخيل ساحل تاجوراء تستجيب للعطيّة التي انتظرتها طويلاً، ففزّ قلب المريد؛ لأن في قلب النقيب استيقظ الحنين إلى معشوقته الخالدة: اليابسة!

أَلأَنَّ اليابسة جسد البحر، والبحر لليابسة روح؟

أَلاَ يحدث أن تَّحِنّ الروح للقاء الجسد، كما يحنّ الجسد لاحتضان الروح؟

٩- الإله

بحر ليبيا. قبالة ساحل تاجوراء. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م (السّاعة السابعة صباحاً).

هدأت العاصفة.

سكنت الأنفاس الغربية الجنوبيّة سكوناً فجائيّاً فهوت قطرات المطر. كان سكون العاصفة مريباً، لأنّ اليمّ مضى يتمخّض ويصفع جسم المطيّة بموجٍ عنيد. على اليابسة تبدّت قامات النخيل بشعافٍ تتلهّف لالتقاط غيث المفتتح في ملحمة الظمأ الخالد. فوق الشعاف تتلبّد سحب كثيفة واعدة ملفوفة بغيهب صبحٍ خريفيّ يولد بعسر كلّما اقترب في رحلته من بعبع الشتاء.

علي متن البارجة تخاطف الأجناد أرغفة الإفطار دون أن يتوقّفوا عن التراكض في كلّ الأركان كأنّهم يتأهبون لإنجاز معركة مصير ضدّ عدوّ مبين، لا محواً لآثار غضبة من رسول لعب دوماً دور المعين.

قال «ديفيد بورتر»:

– أهل هذه الأوطان يقولون إن الريح ما هي إلاّ رسول!

بالجوار دبَّ «بينبريدج» ذهاباً وإيّاباً عاقداً يديه وراء ظهره. لم يعلّق القبطان فأضاف الربّان المساعد:

– أهل البلاد يقولون ذلك في الوصايا الموروثة قبل أن يحمل لهم العرب هويّة الريح في كتاب!

حدجه القبطان بغموض، ولكن «ديفيد بورتر» لم يكفّ عن ثرثرته:

– ولكن ما يهمّنا اليوم هو رسالة الريح، لا هويّة الريح!

كان القبطان يتسكّع ويتبسّم خفيةً عندما أضاف ساعده الأيمن:

– والويل ثم الويل لمن تلقّى رسالة، ثمّ لم يحسن قراءة الرسالة!

لم يستجب القبطان، فأضاف ساعد الربّان:

– لكي يحالفنا الصواب في قراءة رسائل الأقدار يجب البحث عن هويّة السبب، ثمّ تأويل النتيجة: الريح في حالنا سبب، وهويّة هذا السبب تكمن في هبوبها من ناحية الغرب. والغرب بالنسبة لنا لن يكون إلاّ ما وراء الأقيانوس. أي ما يحقّ لنا أن نطلق عليه اسم الوطن. أمّا النتيجة فهي الفرار. الفرار ناحية الشرق. أي الإبتعاد من خطّ المواجهة. أي أن الرسالة ما هي إلاّ تحذير رسمي من روح الوطن محمول على ظهر رسول نبيل كالريح يحثّ على اجتناب المواجهة!

توقّف الربّان في مواجهة الربّان المساعد. غمغم بصوتٍ مكتوم:

– تستطيع أن تتنبّأ كما تشاء يا «ديف»، ولكن احترس أن تقرأ مزامير نبوءاتك بصوت عالٍ فيسمعك الجنود!

ابتسم «بورتر» بخبث فأوضح القبطان:

– مالم أغفره لرئيسي بالأمس لا أستطيع أن أغفره لمرؤوسي اليوم!

في عيني النقيب المرح أبصر حزناً مجبولاً بسؤال فأوضح:

– لم أغفر لـ «بريبل» تصريحه عن استحالة حصار ساحل يزيد طوله عن الألف والثلاثمائة ميل أمام الجنود. أتذكر؟

كفّ «بورتر» عن العناية بالمدفع. تطلّع إلى الشاطئ المرصوص بصفوف النخيل. كانت الأشجار النبيلة التي أنقذت الأجيال من الجوع تبدو من البحر، بقاماتها المكابرة، كمردة الأساطير وقفت في طابور عمداً لردع العدوان القادم إلى الصحراء دائماً من البحر.

غاب «بورتر» بعيداً فقرّر القبطان أن يعيده إلى الوراء بلهجة اعتذار:

– يدهشني يا «ديف» أن تتحدّث عن معتقدات أهل أرضٍ لم تنزلها أكثر من دهشتي لقدرتك على قراءة رسائل لم تستلمها، فهل استعرتَ علمك من كتبٍ، أم من شهود عيان؟

سرح «بورتر» بعيداً. غاب في دغل النخل المغمور الآن بضياء صبحٍ خجول محجوبٍ بعتمة الغيوم:

– أنت لا تدري، يا سيّدي، أنّي لم أجئ برفقتك إلى بحر ليبيا للدفاع عن تجارة العالم الجديد، ولكنّي جئت غازياً لأستردّ وطني!

حدجه القبطان باستنكار، ولكنه أضاف:

– سيّدي لا يدري أن في دم هذا الكاهن (الذي لا يروق له شيء كما يروق له أن يتنبّأ) تجري دماء العبرانيين الذين عاشوا في هذه البلاد منذ أجيال وأجيال، ولكنّهم فرّوا من هذه الديار يوم أقبلت عليهم رايات الدين الجديد لينزلوا بدينهم ديار الإيبيريين. ولكنّهم اضطرّوا أن يهجروا ديار الإيبيريين أيضاً يوم خُيِّروا بين التنازل عن دينهم أو الهجرة، فنزلوا رحاب العالم الجديد!

توضّحه القبطان بفضول كأنّه يكتشفه لأوّل مرّة. سأل:

– هل نزلت أرض طرابلس قبل الالتحاق بـ «فيلادلفيا»؟

– بالطبع نزلتها. نزلت طرابلس مراراً، ونزلت أرض كلّ أرض وطأتها أقدام أسلافي في فرارهم الأبدي: قرطاجة بعد أويا، سرت الصغرى بعد قرطاجة، تاهرت بعد سرت الصغرى، ثمّ قرطاجة الصغرى بعد العبور إلى إيبيريا. استنطقت شهود العيان أيضاً قبل أن تسوء علاقتنا بسادة هذه البلدان، كما قرأت الكتب أيضاً، لأنّ من لا يقرأ الكتب لا يكتب الكتب!

استفهم القبطان بإيماء الدهشة فأوضح مساعد القبطان:

– بلى يا سيّدي. كلّنا يستشعر الحاجة يوماً لتأليف كتاب!

تردّد القبطان لحظات. تساءل:

– ماذا تريد أن تقول في الكتاب؟

ابتسم «بورتر»:

– لن أكتفي بأن أقول أن «الجرمنت» هم أوّل أناسٍ في التاريخ بالطبع، ولكن..

قاطعه القبطان:

– مهلاً، مهلاً: هل قلت إن «الجرمنت» هم أوّل أناسٍ في التاريخ؟

– هذا ما تؤكّده مصادر اليونانيين.

– وهل هذا شعب له وجود في خرائط هذا الزمان؟

اكتأب «بورتر»:

– لم يبقَ من قبيلة أوّل أناسٍ في التاريخ سوى بقايا تهيم في صحراء جنوب البحر وشرق الأقيانوس مثلها مثل هنودنا الحمر، أو.. أو..

بلع ريقه بعسر قبل أن يضيف:

– شتات أبناء عبران!

في تلك اللحظة انتصب بينهما شبح الهندي الأحمر وهو يمضغ عشبته المجهولة ويبتسم بغموض، رمقه القبطان بضيق قبل

أن ينتهره:

– ماذا تريد أيها الأبله؟

ولكن الهندي حدّق في وجه الربّان طويلاً قبل أن يجيب:

– جئت تلبيةً للنداء!

تعجّب الربّان:

– أي نداء؟

التفت الهندي نحو «بورتر» دون أن يتوقّف عن مضغ عشبته السحرية:

– ظننت أن أحداً نطق بسيرة الهنود الحمر هنا!

أومأ «بورتر» لرئيسه قبل أن يوضح:

– النطق بالاسم استحضار لصاحب الاسم في عرف الهنود الحمر!

فهتف الهندي:

– لم يحدث أن نطق إنسان «مسّيسيبي» باسم «إيها مهي» إلاّ ولبّى الإله النداء!

ابتسم «بورتر» قبل أن يوجّه سؤالاً إلى الهندي:

– الحقّ أننا قمنا باستدعائك كي تخبرنا عمّا إذا كان بوسع إله «مسّيسيبي» المدعو «إيها مهي» أن يأذن لنا بنشر القلوع!

تأمّله الهندي لحظات دون أن يتوقّف عن المضغ. سأل:

- تريد أن تعرف عمّا إذا كان الأوان مناسباً لفرد أجنحة الجنيّة، أليس كذلك؟

أومأ «بورتر» إيجاباً بهزّة من رأسه فاكتأب الهندي إلى حدّ توقّف فيه عن المضغ، ثم تمتم بوجل:

- وصيّة الإله «إيها مهي» القديمة تقول: «أن تسمل عينك أفضل من أن تستخدم عينك، أن تكسر رجلك أفضل من أن تسعى برجلك، أن تجدع أنفك أجدى من أن تشتّم بأنفك؛ لأنّ ما تراه بعينك من جمال في دهرٍ يشتريه مرأى القبح في لحظة، وما تغنمه من كسبٍ بسعيك لا ينقذ من تهلكة تذهب لنيلها بقدميك، وما تشتمّه من طِيَب الأزمان تنفيه رائحة عفن في مرّة». فما جدوى أن تأمر بفرد أجنحة هذه الجنيّة إذا كانت حكمة الإله «إيها مهي» قد قضت بوقعة العار لكلّ طير طار حتّى لو كان هذا الطير في دهاء الجنيّة «فيلادلفيا»؟!

١٠ - الغيوم

بحر ليبيا (قبلة سواحل تاجوراء) ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م

(الساعة التاسعة صباحاً)

اشتدّ تكاثف الغيوم. تنفّس الغرب من جديد، ولكن الريح ما لبثت أن تذبذبت لتهبّ في البداية من الجنوب الغربي، ثمّ انحرفت فجأة لتهبّ من الغرب، ثمّ من زاوية غربية شمالية. كان الغيث يهوي بسخاء حيناً، ويتخاذل حيناً آخر حتّى يتوقّف تماماً كأنه يستجيب لمشيئة الريح ليدلّل أنه لم يكن يوماً في هذه الأوطان سوى هِبَة ريح.

على سطح السفينة وقف الربّان يرصد الساحل من عين ماسورته السحرية. إلى جواره انتصب ساعده الأيمن مستغرقاً في تأمّل اليابسة صالباً يديه حول صدره: يحلو له أن يستمتع بمشاهدة الطبيعة، أو بمسلك المخلوقات التي تدبّ في رحاب الطبيعة، بوساطة العين المجرّدة بدل الاحتيال على الطبيعة بالنفخ المنكر في صور الطبيعة. هل هو مجرّد احتيال؟ كلاّ ليس مجرّد احتيال، ولكنه خِسَّة. هل هو مجرّد خسّة؟ كلا، بل هو خطيئة. خطيئة؟ كلّ ما هو تزوير للطبيعة خطيئة. ضرب من غدر. لأن الإنسان لم يخترع النّصل إلا عندما أعجزه استخدام القبضة اليدوية، ولم يخترع المدفع إلاّ عندما أعجزه استخدام

النّصل. و«يهوه» وحده يعلم ما يمكن أن تتفتق عنه عبقريّة اللؤم هذه من بدع في المستقبل!

كانت الريح تصفعهما بهجمات متقطّعة من مطر طوال وقفتهما إلى أن هتف القبطان «بينبريدج» بلهجة ذات معنى:

– يخيّل لي أنّنا موعودون بغنيمة!

لم ينتبه مساعد القبطان إلاّ في اللحظة التي حشر فيها الرئيس ماسورة المنظار في وجه المرؤوس مردّداً:

– انظر! انظر!

تراجع «بورتر» خطوتين إلى الوراء مغمغماً:

– إنّي أرى بوضوح يا سيّدي!

سحب القبطان آلته ليدسّها في عينيه، ثمّ احتّج:

– أنت ترى حقّاً. أنت ترى كصقر! ولكنّي أراهن أنّك لا ترى هويّة السفينتين!

ابتسم «ديفيد بورتر» بغموض:

– لن يصدّق سيّدي إذا قلت له إنّي رأيتهما في ظلمة الفجر مُنْدَستين في ذلك الجرف!

التفت نحوه القبطان بدهشة:

– حقّاً!

لاحقه بنظرة شكّ لحظات قبل أن يستنكر:

– ولماذا لم تخبرني؟

تردّد النقيب. في عينيه تألّق إيماء خفيّ. تمتم:

– لا أعرف يا سيّدي، ربّما لأنّي تطيّرت منهما!

عاد القبطان يستنكر:

– تطيرتَ؟!

ولكن النقيب لم يجب. تأمّله القبطان لحظات قبل أن يأمر بنشر القلوع!

١١ - الفخّ

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م.

(الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين)

المطاردة كانت جنونيّة.

المطاردة لم تكن جنونية فحسب، ولكنّها استغرقت طويلاً: من الساعة التاسعة وثلاث عشرة دقيقة حتّى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين. والأسوأ من كل هذا أنها كانت مطاردة بلا جدوى. فقد ناور قبطانا السفينتين الطرابلسيتين بمهارة طوال الوقت. ناورا بمهارة تثير الإعجاب حقّاً حتّى أن أعجوبة البحار عجزت عن أن تصيب أياً منهما ولو بشظية واحدة من مطر قنابل «فيلادلفيا» ذات الثمانية والثلاثين مدفعاً. بعد الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة والأربعين اتجهت السفينتان نحو الغرب، نحو المرفأ، أم أنّها مناورة أخرى؟

كان المطر قد توقّف تماماً. الريح هدأت أيضاً، كأَنَّ الطبيعة قررت أن تلتقط الأنفاس لتكون شاهداً على الفصل الجديد من مهازل القدر كما كانت أبد الدهر. انقشعت السحب مراراً، ولكن الأفق كان يدفع بأفواجٍ جديدة في كلّ مرّة.

في المسافة التالية نحو الغرب تبدّت في امتداد اليّم صخور مسطّحة، وأخرى عمودية صارمة كأنّها أعمدة من مخلّفات

التحصينات الرومانية. أمّا الصّلد المسطّح فينتشر هنا وهناك كجزرٍ صغيرةٍ مهجورةٍ تصلح طوق نجاةٍ لصيّادي الأسماك في مواسم جنون البحر.

كانت السفينتان تحومان حول «فيلادلفيا» عن بُعْدٍ لا تدركه قذائف البارجة السخيّة. كانتا تقتربان أحياناً مسافات جريئة مستثمرتين خفّتهما في الحركة دون أن تطلقا في اتّجاه البارجة قذيفة واحدة. في البداية أرجع القبطان السبب إلى حرص الطرابلسيين على الذخيرة، ولكن شكوكه في نوايا الباشا تضاعفت عندما لاحظ في المسافة التالية كيف استدرجته السفينتان اللئيمتان إلى مدى يجاور اليابسة ويقع في مجال بطاريات القلاع النهمة دون أن تنطلق من السطوح رصاصة واحدة.فهل فتحت أعجوبة البحور شهيّة رجلٍ احترف غنم السفن كيوسف باشا فقرّر الاستيلاء عليها بدل تدميرها؟ في تلك اللحظة لم يصدّق القبطان «بينبريدج» ما رأى. فقد وجد «فيلادلفيا» مطوّقة بسفنٍ معادية تزيد في تعدادها على الأربع عشرة سفينة. برزت فجأة كأنّها أشباح سقطت من المجهول فلم يسمع رفيقه المساعد من فم قائد الفريق سوى عبارة:

– Oh! my god, oh! my god!



ردّدها طويلاً. ردّدها مذهولاً، ثمّ مشلولاً حتّى إنّه نسى أن يأمر بالقصف ليحرّر «جنيّة الأزمان» (كما يسمّيها الهندي الأحمر) من الحصار.

ترنّم القبطان «بينبريدج» بتعويذته طويلاً، ولم يفق من غيبوبته إلاّ في اللحظة التي زغردت فيها بطاريات قلعة الإنجليز بالقذائف فاستولى عليه يأس مميت لم يعرفه منذ بليّة «غواد لبور». ولكن دهشته ما لبثت أن بلغت الذروة عندما اكتشف أن قذائف قلعة الإنجليز لم تصب «فيلادلفيا» بشظية واحدة، بل لم تسقط قذيفة واحدة في مياه الجوار، فتمتم لنفسه:

– ما معنى هذا؟ ما معنى هذا؟

فهبّ الربّان المساعد لنجدته بتفسير الأحجية:

– نيران «قلعة الإنجلين» ليست موجّهة إلى «فيلادلفيا» يا سيّدي!

– ليست موجّهة إلى «فيلادلفيا»؟!

في تلك اللحظة زغردت نيران بطاريات بقيّة القلاع أيضاً («قلعة الإسبان»)، ثم «قلعة الفرنسيس» في أقصى الغرب) فأجاب النقيب «ديفيد بورتر»:

– هل رأيت؟ نيران القلاع موجّهة لردع هجوم الأسطول في عرض البحر!

لحظتها فقط تذكّر القبطان المنظار المتدلّي من رقبته فاستجار به بيدين راعشتين. تمتم:

- يبدو أن «بريبل» يحاول نجدتنا..

ولكن الكاهن «بورتر» خيّب ظنّه بنبوءة كئيبة:

- أخشى يا سيّدي أن أوان النجدة قد فات!

١٢ - الصخور

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م. (قبالة صخرة الخالوصة)

(الساعة الواحدة وثلاث عشرة دقيقة بعد الظهر)

زفرت روح الغرب أنفاساً جديدة دفعت السفينة ناحية الشرق كأنّ رسول المجهول يقودها إلى الساحل المقابل حيث تنتصب «صخرة الخالوصة» باستعلاء في وقتٍ كانت فيه البارجة المهيبة لاتزال تطلق قذائفها في الفراغ في محاولة يائسة لصدّ هجوم الزوارق الطرابلسية المسلّحة دون أن تفلح في إصابة قارب واحد ولو بشظية طائشة؛ وكان بوسع هذا القصف العشوائي البليد أن يستمرّ حتى تنفذ ذخيرة البارجة لو لم يتدخّل الرجل الذي كُتب له أن يغدو تالياً أحد أعظم قادة البحور في تاريخ أمريكا فيتولّى قيادة أسطولين اثنين بدل الأسطول الواحد: أسطول في الأقيانوس، وأسطول آخر في بحر ليبيا في الآن نفسه: إنّه «جاكوب جونز» الملقّب حتّى ذلك الحين بـ «الحكيم». لقد تقدّم ذلك الرجل القصير القامة، الصارم السيماء، الذكيّ المقلتين، إلى ربّان البارجة في ذلك اليوم العصيب ليخاطب الربّان بلهجة الآمر بدل لهجة المأمور:

– يجب إيقاف القصف فوراً!

فلم يجد الربّان المشلول الإرادة مفرّاً من أن يمتثل للأمر

وهو الذي أَسَرَّ لمساعده «بورتر» مرّتين بضرورة الاستنجاد بـ «الحكيم» طلباً للمشورة بشأن ما يجب فعله للخروج من المأزق. ولكن «بورتر» تردّد قائلاً:

– في وضعنا نحن في حاجة إلى خبير في فكّ الحصار، لا عالم في الطبّ، أو مرجعٍ في قانون البحار!

فهتمل «بينبريدج» بروح سخرية:

– أظنّ أننا الآن في حاجة إلى حكمة الطبيب، أكثر من حاجتنا إلى خبير في فكّ الحصار!

ولكن «الحكيم» مالبث أن ظهر كأنه يستجيب لنيّة الإستدعاء ليضيف إلى الأمر أمراً آخر:

– يجب وضع حدّ للانزلاق شرقاً بأيّ ثمن. ألا ترى أنّنا سنرتطم بالصخرة إذا استمرّ استسلامنا للريح على هذا النحو المخزي؟!

ولكن إيقاف الانزلاق نحو الصخرة لم يحدث في الوقت المناسب، لأنّ أعجوبة البحار التي عوّلت عليها عبقرية «العالم الجديد» في كسر عناد «قراصنة الشمال الأفريقي» ما لبثت أن وقعت في الفخّ الذي نَصَبَه لها «الأب الروحي لقرصنة الزمان»: يوسف باشا القرمانلي!

ففي اللحظة التي فرد فيها القبطان «بينبيريدج» خرائطه على

الرفّ المغمور بمياه المطر (المخلوطة بفيوض البحر المالحة) ليتبيّن موقع البارجة من الشاطئ فوجئ بغياب سلسلة الصخور المتلاصقة في الغرب من الخارطة: كان ذلك حزاماً لئيماً يبتني حاجزاً طبيعيّاً بين الشاطئ وعمق البحر، كأنَّ تلك الصفوف المستطيلة من الصلد قد أُقيمت في ذلك المكان عمداً لتجير الساحل من حملات السفن المعادية، وليست عملاً من إبداع الطبيعة. لاحظ أيضاً غياب النّتوء الصخري الموحش أيضاً في وقتٍ أفلحت فيه بطولات البّحارة في تجنيب البارجة الارتطام بالصخرة في آخر لحظة. ولكن الفرحة لم تدم سوى دقائق، لأنّ الحماس الذي أجار السفينة من الكارثة ما لبث أن دفع بها إلى وعوثة رملية مريبة كان رجال الباشا قد أتقنوا إخفاءها عن الأنظار في تلك الليلة الظلماء التي أشرف فيها الباشا على عملهم متنكّراً في مسوح درويش! ارتطام قعر البارجة باليبوسة زعزع القبطان نهائيّاً فتدخّل «الحكيم» من جديد:

– يجب أن نختبر عمق الماء!

التفت القبطان إلى «ديفيد بورتر» ليضع وصيّة «الحكيم» موضع الفعل كأنّ الصدمة الجديدة أصابت الجميع بالشلل إلى حدّ سلبت فيه إرادة أولياء الأمر فتنازلوا عن اختصاصاتهم

طمعاً في الخلاص. تمتم الربّان بلهجة توسّل:

- هل لنّا أن نقيس عمق الماء يا«ديف»؟!

ذهب «بورتر» ليقيس عمق الماء بحبلٍ احتفظ به خصّيصاً لهذا الغرض منذ بدء الرحلة، في حين اقترح الملازم «جونز»:

- يحسن بك أن تأمر أيضاً باستنزال القلوع!

ولكن «بينبريدج» الذي ملّ تلبية التعليمات من مرؤوسه الوقح قرّر أن يتمرّد فأمر بنشر القلوع بدل استنزال القلوع مبّرراً هذا العمل بالقول:

- علينا استثمار الريح بدل الاستسلام لمشيئة الريح!

رمق مرؤوسه بسيماء غريبة قبل أن يضيف:

- سترى أن دفعة هواء كافية لتحريرنا من الحاجز، لأن رمال الصحراء تغزو البحر في شواطئ هذه البلدان بسيوفٍ هشّة يسهل اختراقها!

ثمّ تناول خرائطه المبلّله تحت إبطه ونزل إلى الأسفل، ولكن المرؤوس الوقح لاحقه بابتسامة سخرية دون أن ينبس. بعد دقيقتين فقط من تنفيذ الأمر بنشر القلوع ارتجّت البارجة بعنف قبل أن تستقرّ على كثيب الرمل متخذةً وضعاً يهدّد بالانقلاب رأساً على عقب!

١٣- النار

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م (قبالة «صخرة الخالوصة»)

(الساعة الثانية وسبع عشرة دقيقة بعد الظهر)

في اللحظة التي تخلخلت فيها أجرام المدافع وتأهبت لتحطيم الحواجز والسقوط في الماء حدثت مفارقة: ففي ذروة البلبلة الناتجة عن نكبة البارجة صمّ آذان البّحارة صوت نيران عنيدة من الجهة المعادية دون أن يخطر على بال أحد أن تلك النيران المعادية لم تنطلق من كل الأركان لتغرق «فيلادلفيا» ولكنها انطلقت لتنقذ «فيلادلفيا» من الغرق: كانت النيران تنطلق من حشود الزوارق الحربية التي تطوّق البارجة، كما تنطلق بقوّة أكبر من سطوح القلاع العليا في وقتٍ واحد. وكان على فريق «فيلادلفيا» أن يلتقط أنفاساً اختلستها الفجاءة كي يكتشف الخرائط السّخية التي رسمتها النيران في القلوع المعلّقة في الفراغ كقراطيس خرافيّة تبّدت ثقوباً في البداية، ولكنّ شراسة الريح التي أطاحت ببارجة في حجم جبل ما لبثت أن انقضّت على الثقوب لتفترس القراطيس الخرافية بشراهة خرافية لتحيلها في لحظات أسمالاً ممزّقة ترفرف في مهبّ الريح كالرايات البائسة التي تعلو أضرحة الأولياء المنتشرة على طول الساحل الطرابلسي.

الفتك بالقلوع أعاد التوازن للبارجة قليلاً، ولكنها لم تعتدل نهائيّاً. أصدر القبطان أمراً بسحب المدافع إلى الجانب الآخر، ولكن «جاكوب جونن» سخر منه:

– لا أعرف ماذا سيجدي استعادة التوازن إذا كانت «جنيّتك» تجثم في فخاخ الرمل بأجنحة محطّمة!

فغمغم القبطان بسحنة شاحبة وسيماء كئيبة غزت الوجه بغضون غادرة رجمته بشيخوخة مفاجئة:

– علّمني البحر ألاّ استسلم لليأس!

أطلق الملازم ضحكة عصبيّة قبل أن يستهزئ:

– أنت لن تستسلم لليأس ياسيدي القبطان، ولكنّك ستستسلم للمستر «لزلي» الإرلندي المرتّد الملقّب في لغة المسلمين باسم «الريّس مراد»!

رمقه القبطان بحزن ثم هتمل بانكسار:

– ماذا أقول؟ الاستسلام للعدوّ أيضاً مخرج!

استنكر «جونن» بلهجة ذات معنى:

– الاستسلام للعدوّ مخرج في عرف الإنسان الذي استمرأ الاستسلام للأعداء!

عاد القبطان يحدجه بتسامح:

– لو كان الاستسلام بليّة لما خرجت من استسلام «غوادلبور» سالماً!



- خرجتَ سالماً حقّاً، ولكن ليس قبل أن تكلّل جبين الوطن بالعار!

- العار في أن نيأس، لا في أن نستسلم، ولو لم أستجب لمشيئة الأقدار يومها لما وجدتني اليوم ربّاناً لأعجوبة البحار!

ولكن المرؤوس الوقح لم يرحم الرئيس:

- أعجوبة البحار التي قدمتها غنيمة في يد الهمج؟!

في تلك اللحظة أقبل النقيب «بورتر» مصحوباً بعدد من البحارة. أدّى التحية للقبطان قبل أن يلقي بالبلاغ:

- لقد اختبرنا عمق الماء يا سيّدي!

استفهم القبطان فأضاف معاون الربّان:

- إثنا عشر قدماً ونصف القدم يا سيدي!

فغمغم الربّان:

- هذا يعني أن الفارق خمسة أقدام كاملة!

سكت لحظة ثم سأل:

- بأيّة حيلة نستطيع تعويم هذا الجبل من جديد إذا كان الفارق خمسة أقدام كاملة؟!

فصاح المرؤوس الوقح:

- يدهشني أن يفكّر الربّان بفارق الخمسة أقدام في وقتٍ يجب أن يفكّر فيه بمراسم الاستسلام!

أعقب عبارته بضحكة خبيثة.

١٤- الاستسلام

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م. (قبالة صخرة الخالوصة)

(الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة والعشرين بعد الظهر)

اجتمع القبطان بالضبّاط لبحث قرار الاستسلام، ولكن الملازم «جونز» الملقّب باسم «الحكيم» لم يذهب لحضور الاجتماع، تسكّع في الأعلى ليتفقّد عن بُعْد حال يابسةٍ ستنقلب له سجناً في القريب، ستكون له سجناً وربّما قبراً. ولكن عليه أن يعترف بأن الوقوع في أسر الهمج هو ما لم يقرأ له حساباً يوم أقفل أبواب عيادته الطبيّة في «زميرنا»، وتوقّف أيضاً عن حضور جلسات محكمة استئناف «ديلاور» ليلتحق كجندي بّحار بـ «يونايتد ستيتس» للمشاركة في الحرب مع فرنسا في ١٧٩٩. لم يكن عمله ذاك التحاقاً بسلاح البحرية، ولكنه كان عملاً طوعيّاً. كان أداء لأنبل واجب وهو الدفاع عن وطن ابتلته الأقدار بمحنة. لم يفكّر بنيل مجدٍ أو فوز بأوسمة البطولة يوماً برغم الترقيات الاستثنائية التي رفعته من رتبة جندي إلى رتبة ملازم ثانٍ في سنتين فقط. ولكن ما لم يعلمه القبطان اليوم ولا الزملاء البلهاء هو سعادته بكلّ ما حدث بما في ذلك الوقوع في قبضة الهمج، لأنّهم لم يعملوا أطباءً، ولم يقفوا ليترافعوا عن الأوغاد في المحاكم، ولم يذوقوا طعم الخواء!

لقد استسخف عمله كطبيب منذ أول يوم لأنه اكتشف أن من العبث أن يحاول الإنسان جلب الخلاص الجسدي لمخلوقٍ لا يريد الخلاص لجسده، فأدرك أنه ارتكب خطأ جسيماً في حقّ نفسه يوم اختار الطبّ مهنةً. والبليّة الأخرى هي أن هذه المخلوقات التي أحسن بها الظنّ دوماً وآمن بالتضحية في سبيل إنقاذها من الآلام لا تختلف في مسلكها عن البهائم لا لعنادها البليد في رفض الخلاص فقط، ولكن لعدم اعترافها بأمراضها المميتة. وكان عليه أن يكتشف حقيقة أمرّ كنتيجة لذلك وهي أن الإنسان مخلوق معادٍ للشفاء بالسليقة، لأنه لا يريد أن يحيا كما يعتقد الأطباء، أو كما قد يعتقد المريض ذاته، ولكنه في الحقيقة يريد أن يموت. يريد أن يموت لأنه لا يفعل منذ ميلاده إلى يوم مماته إلاّ ما يعلم أنه سيبيد جسده. لهذا السبب اخترع التدخين والخمور والأفيون واللّذات جميعاً ليقينه الخفيّ بأن هذه السموم هي أهون الحِيَل في التنصّل من الجسد، وإلاّ ما معنى أن ينال الإنسان من الطبيعة بدناً مُعَافَى ثمّ يفعل كل ما بوسعه لتدميره؟ إنه الانتحار الجميل، أو الموت اللذيذ الذي نسعى له حثيثاً بهذا التقسيط اللئيم! لقد بصق على مرضاه وهجر العيادة وذهب للبحث عن حيلة أخرى لإنقاذ المخلوق البشري، فماذا اكتشف أيضاً عندما تعلّم القوانين؟

لقد ظنّ أن بوسع التفقّه في علم القوانين أن يؤهّله لتطبيب مرض الجنون الذي كان سبباً في يأسه من إيجاد ترياق لرغبة الإنسان في أن يموت. استجار بالقوانين لكي يداوي روح الإنسان في بدن الإنسان. ولكن هيهات!

اكتشف عجز القوانين أيضاً لأن القوانين الدنيوية لم تكن يوماً سوى ظلّ باهت للقوانين الأخلاقية. أيْ أنها دليلٌ على غياب النواميس الإلهية. وجد نفسه مكبّلاً بواجب الترافع عن الخبثاء بدل الكفاح لتبرئة ساحة الأبرياء. شعر بالغثيان في كلّ مرّة ترافع فيها لأنه أدرك أن عليه أن يميت في نفسه الضمير في كل مرافعة لأن المحاكم لم تُخلق لتجير المظلومين أبداً، ولكنها قامت أصلاً لتبرّئ ساحة المجرمين!

اكتشف أن الإنسان الذي التجأ لساحة القوانين طمعاً في جلب الخلاص للغزٍ مستغلقٍ اسمه الإنسان، في أمسّ الحاجة لجلب الخلاص لنفسه قبل جلب الخلاص للأغيار.

يومها فقط قرّر الفرار. وتزامن قرار الفرار مع نشوب الحرب مع الإمبراطورية الفرنسية. وهاهو الآن يقف على متن البارجة الجريحة التي عوّل عليها العقل الأمريكي في وضع حدّ لمهازل القراصنة في هذا البحر الرومانسي المُلهِم، يرقب أفق اليابسة المغطّى بحقولٍ غنيّةٍ بصنوف الأشجار: النخيل، الزيتون،

الرمّان. أشجار رومانسيّة أيضاً. أشجار ملهمة أيضاً لو لم تبلبل إلهامها هرجة القوارب الحربية التي تحوم حول بدن البارجة الجاثمة على رمال القاع كما تحوم أسماك القرش حول مراكب الصيادين إذا اشتمّت رائحة الدّم.

كان غائباً عندما تقدّم منه «ديفيد بورتر». وقف إلى جواره لحظات قبل أن يسأل بصوت غريب:

– أَمَا كان الانضمام إلى المجلس قراراً حكيماً؟

فأجاب ببرود:

– وما جدوى انضمامي إلى المجلس إذا كنتم لن تأخذوا برأيي؟

– لقد أخذنا بآرائك دوماً!

– استخدمتم وصاياي في زمن السلم، في حين كان الواجب يقضي باستخدامها في وقت الحرب!

– لو لم نأخذ وصاياك مأخذ الجدّ لما بحثنا قرار الاستسلام!

انتفض «جونز» فجأة:

– قرار الاستسلام؟

ثم بلهجة توحي بخيبة الأمل:

– كنت أنتظر أن تبحثوا قرار نسف السفينة بدل بحث قرار الاستسلام!

استنكر النقيب:

– قرار نسف السّفينة؟!

– بالطبع!

صمت «بورتر» بفعل انفعال ثمّ سأل:

– هل أنت جادّ؟!

– بالطبع!

– نزهق ما يزيد على ثلاثمائة روح إرضاء لكبرياء الزهد في الحياة؟

– أنتم لن تفعلوا ذلك إرضاء لكبرياء الزهد في الدنيا، ولكن رحمةً بأناسٍ لا يريدون أن يرحموا أنفسهم، رحمةً بأناسٍ لا يفعلون كل يوم إلاّ ما من شأنه أن يهلكهم!

تردّد النقيب. دبّ بالجوار ذهاباً وإياباً. تطلّع إلى البحر المغمور بقوارب العدوّ. خاطب نفسه بذهول:

– ولكن نسف السفينة..

انطلق ينزل السّلم دون أن يكمل العبارة.

١٥ - الموت

بحر ليبيا. ٣١ أكتوبر ١٨٠٣م. (قبالة صخرة الخالوصة)

(الساعة الرابعة وثلاث دقائق مساء)

يروي المؤرخون أن المجلس أقرّ الاستسلام بأغلبية ساحقة، في حين شكّك بعض مؤرّخي البحرية الأمريكية (ممن شاركوا في الحملة على طرابلس) في حقيقة هذه الأغلبية فأوردوا موقف القبطان نفسه الذي اختار الوقوف على الحياد عند التصويت على القرار كبرهانٍ على عدم جواز تعبير «الأغلبية الساحقة». كما ساق آخرون موقف الملازم «جاكوب جونز» الذي رفض حضور المجلس، احتجاجاً على النيّة المسبقة في تمرير القرار كدليلٍ آخر على عدم صواب هذه العبارة المعيبة التي قرأ فيها الرأي العام الأمريكي جبناً لا يليق بروح البطولة الأسطورية اللصيقة حتّى ذلك الحين بعمل الجندي الأمريكي والتي كثيراً ما ارتقت إلى مستوى التضحية الجنونية (أو التي لا يمكن أن تقارن إلاّ بتضحيات الأوائل، لأن توطيد أركان العالم الجديد من وجهة نظر الأوساط الشعبية الأمريكية المأخوذة ببطولات زمن الاستقلال أعجوبة لا تختلف عن معجزة توطيد أركان الإيمان المسيحي منذ ألف وثمانمائة عام، بل قيام أركان «العالم الجديد» ما هو إلاّ بعثٌ لها على نحوٍ ما).

أمّا البحّار «وليام راي» فيتحدّث في مذكراته كشاهد عيان عندما يروي كيف قام القبطان باستدعائه عقب انصراف الضبّاط ليصدر له سلسلة من التعليمات أكثرها بديهية هي تلك المتعلّقة بإتلاف الشيفرة، ولكن أكثرها قسوة هي تلك المتعلّقة بضرورة تمزيق جسد أعجوبة البحار بالمنشار. أصدر الأمر ببرود وهو يتطلّع إلى حشود القوارب المعادية من نافذة مقصورته فاستشعر المرؤوس نحوه إحساساً مزدوجاً: الشفقة والاستنكار.

الشفقة على إنسانٍ كتبت عليه الأقدار أن يُهزم في كلّ مرّة يحاول فيها أن يرفع رأسه عالياً، والاستنكار لمشيئة إنسانٍ يريد أن يضحّي بعمل الآخرين كي يداري هزيمة.

لقد حام المرؤوس الشقيّ حول الرئيس المكسور في ذلك اليوم المنحوس طويلاً كي يوحي لصاحب الأمر بوجود اعتراض، ولكن صاحب الأمر لم يستجب. لحظتها ذهب «وليام راي» ليمزّق أوصال الشيفرة أوّلاً، ثمّ تسلّل إلى مخزن الذخيرة فغمر مستودع البارود بالمياه، ثمّ استعان بعددٍ من البّحارة لإغراق كرات المدافع في فوهات المضخّات، وعندما حان الأوان لتنفيذ الأمر القاضي بتمزيق جسد البارجة بأسنان المنشار تلكّأ وطلب من الزملاء أن يتركوه وحيداً. تسكّع ذهاباِ وإيّاباً

ثمّ صعد إلى أعلى ليطلب الإذن بلقاء القبطان. هناك تردّد، بل فقد القدرة على الكلم فسأله القبطان:

– هل حدث منكر؟

تطلّع إلى القبطان بيأس ثم نكس ليتمتم باستحياء عذراء:

– كلا!

– هل أتلفت الشيفرة؟

– بالطبع!

– هل أشرفتَ على تخريب مستودع البارود؟

– بالطبع.

– هل..

فقاطعه «راي»:

– فعلت كلّ ما أمرتم يا سيّدي، ولكن تمزيق بدن «فيلادلفيا»..

سكت البحّار فابتسم القبطان بحزن:

– كنت أعرف أنّك ستطلب إعفاءك من هذه المهمّة لأنّ ليس هناك شيء أقسى على من أخلص لعمل أن يضطّر مرّة لتخريب عملٍ أحسنه يوماً. وإذا كنتُ قد اخترت «وليام راي» الذي شارك مرّة في بناء عمل عظيم كـ «فيلادلفيا» فإنّي لا أفعل كي اختبر فيه اليوم روح نكران الذّات، ولكنّي أمرتك لأنّك الوحيد الذي

يعرف مفاصل هذا البدن الرهيب!

ولكن «راي» عاند بروح طفولية:

– أرجو أن يعفيني سيدي من هذه المهمّة برغم ذلك..

سكت القبطان لحظات. كان يقف منتصباً بجوار نافذة مقصورته عاقداً يديه وراء ظهره كعادته. في لحيته الكثّة تزاحمت شعرات الشيب. تمادت التجاعيد في جبينه فحرثت قنوات جديدة بعمق جديد. ولكن طلسم الإنسان الذي يغذي في الإنسان الإحساس بأنه المخلوق الوحيد الذي يجب ألاّ يفقد كرامة الإنسان مهما عظمت البليّة كان يتألّق في المقلتين برغم سيماء الشيخوخة المفاجئة. تمتم بلهجة غابت فيها نبرة القبطان وترنّمت فيها لغة الإنسان:

– هل يرضيك، أيها العزيز ويلي، أن يقع هذا السلاح القاتل غنيمةً في يد عرّاب القرصنة؟!

ولكن البّحار لم يستسلم:

– لا يضير سلاح الفارس أن يقع غنيمةً في يد عدوّ الفارس إذا لم يجد الفارس ضرراً في أن يقدّم رقبته نفسها تحت رحمة عدوّ الفارس!

– ولكن الفارس الذي لا يقدّم الحياة إلاّ دفاعاً عن وطن، أو عن ملك، أو عن سلالة سيهمّه كثيراً أن يتلف سلاحه قبل الوقوع

في الأسر إذا علم أن هذا السلاح يمكن أن يُستخدم من قبل العدوّ في الفتك بالوطن، أو الملك، أو السلالة!

تمتم البحّار:

– يستطيع سيّدي أن يأمر بحّاراً آخر. يستطيع سيّدي أن يأمر الهندي الأحمر. إنه لم يكفّ عن التّنبؤ بمصير «فيلادلفيا» منذ خروجنا إلى المحيط حتّى أنّي دخلت معه في معارك بالأيدي مراراً!

– ولكن الهندي الأحمر لم يشارك في بناء هذا الصرح، لذلك أشكّ في أن يفلح في تحطيم البارجة قبل أن يداهمنا العدوّ!

– بل سيفلح يا سيّدي. إنه يمارس السّحر! والسّحر أسرع مفعولاً في إنجاز مثل هذه الأشياء لأنه لن يحتاج لعمل المنشار!

اعترض القبطان:

– لو كنّا بنيّة إغراق السفينة لاستجبنا لاقتراح الملازم «جونز» بنسف البارجة. ولكن ما أقرّه المجلس هو تخريب السفينة اليوم حتّى لا يستخدمها العدوّ ضدّنا في الغدّ!

سكت القبطان لحظة. أضاف:

– لقد عشتُ حلماً رأيت فيه نفسي غنيمةً في بطن حوت منذ أمد. وقد تكرّر هذا الحلم فعرفت أنه يخفي نبوءة كأغلب أحلامنا التي لا نكتشف رسالتها التحذيرية إلاّ بعد فوات الأوان، لأنّي

لو تأملتُ الأمر ملياً لأدركت أني سأقع أسيراً في بطن يوسف باشا عاجلاً أو آجلاً. فهل الأصوب أن أقع ضحية في بطن الحوت الطرابلسي وحيداً، أم الأصوب أن أدخل بطن الحوت بمعيّة مطيّة كـ «فيلادلفيا»؟

لم ينبس البّحار لحظات، ولكنه ما لبث أن تململ:

– سأخون ضميري يا سيّدي لو فعلت ما تريد منّي أن أفعل!

– بل ستخون الوطن إذا لم تفعل ما أمرتك أن تفعل!

انتصب بينهما صمت. أطلّ النقيب «بورتر» برأسه ليستأذن الدخول. أومأ له القبطان فأدّى التحية قبل أن يفيد:

– الكلّ في انتظار سيّدي في الأعلى للبدء في مراسم الاستسلام!

تطلّع القبطان إلى ساعده الأيمن غائباً كأنه لم يسمع الإفادة. غمغم:

– ليس قبل أن ننتهي من مراسم إغراق السفينة بالماء!

تبادل النقيب مع البّحار نظرة ذات معنى. بعدها قال النقيب:

– إذا كان سيّدي ينتظر من «راي» أن يفعل فإنه يضيّع وقته عبثاً!

حدجه القبطان بفضول، ثمّ:

– صدقت! لقد أضعت الوقت بما يكفي! هل لك أن تبحث عن



بحّار أصلح للقيام بعمل المنشار؟

انصرف النقيب فأذن القبطان للبحّار بالانصراف أيضاً. تطلّع من النافذة ليشاهد مراسم الغروب. كانت الريح قد هدأت والسحب بدأت تنقشع فتبدّت رؤوس الأشجار في حقول الشاطئ خاشعةً، مسربلةً بخضاب الغروب، مجبولةً بأحلام السكينة بعد كابوس النهار الثقيل. اعتاد أن يتلذّذ بمثل هذه اللحظات في ربوع الجزائر، أمّا في تونس فيروق له أن يتماهى بكائنات الطبيعة في حمّى الطقوس التي لا يروق للشمس أن تمارسها إلاّ في أوطان بحر ليبيا، ربّما مكافأةً من الشمس لأهل هذه الأرض لأنّهم كانوا أوّل من آمن بها معبوداً.

دخل النقيب فجأة بلا استئذان فقرأ القبطان في سيمائه السوء فوراً:

– هل حدث مكروه؟

أجاب «بورتر» بسحنة يغزوها الشحوب:

– البحّار البديل يا سيّدي..

– البحّار البديل؟

بلع النقيب ريقه بعسر قبل أن يوضح:

– وجدنا بحّاراً شارك في بناء البارجة، يا سيّدي، وأمرناه بتشريح البدن بالمنشار حسب التعليمات، ولكنه..

سكت النقيب فعبّر الربّان:

– ولكنه رفض..

صحّح معاون الربّان:

– لم يرفض، ولكنّنا وجدناه في الأسافل مشنوقاً يا سيّدي!

امتقع القبطان كأنّ شحوب المساعد أصابه بالعدوى، ولكنه ما لبث أن استعاد حضوره عندما قال:

– علينا أن نستبشر بالضحايا، لأنّ هذا أوّل قربان!

بعدها فقط صعد الربّان «بينبريدج» إلى سطح البارجة «فيلادلفيا» ليشرف بنفسه على إنزال علم الوطن، وليأمر الأعوان برفع راية الاستسلام!

١٦- الغنيمة

إذا كان الإنسان دمية الأقدار، كما برهنت سيرة الأجيال، فإن سيرة أعجوبة البحار «فيلادلفيا» برهنت أن الطبيعة دمية الريح. ففي الثاني من نوفمبر عام ١٨٠٣ (أي بعد يومين فقط من وقوع طاقم البارجة في قبضة الباشا) جُنَّ جنون الريح من جديد. هبّت هذه المرّة من الشمال بعنفٍ تحدّث عنه عقلاء المدينة فقالوا إن الأحياء لم يذكروا لقوّته مثيلاً ممّا يدلّ أنه بشارة لا لفوزه بلقب مهيب كـ «الرسول» الوارد في آيات الفرقان فحسب، ولكن لأنّهم جرّبوا أنّها لا تهبُّ من الشمال بهذا السّخاء إلاّ لِتَهب الغيوث، كما لا تهبُّ من الجنوب محمّلةً بالغبار إلاّ لتطهّر المدن من الطاعون.

ويبدو أن الريح لم تخيّب ظنّهم بها هذه المرّة أيضاً. فبعد أن جلبت لهم أوّل أمس ذلك الكنز النفيس المتمثّل في قطيع أسرى لم يسبق لهم أن شهدوا لكثرة عدده مثيلاً في كل «الغزوات الجهادية» (كما اعتادوا أن يطلقوا على حملاتهم البحرية) هاهي تثنّي فتقود إلى أيديهم غنيمة جديدة لم يحرّكوا في سبيل نيلها ساكناً: فقد شهدوا من مواقعهم على الساحل كيف استعانت الريح بالأمواج كي تعيد للسفينة المنكوبة التوازن المفقود بمهارة لا تصدّق، بل بيسرٍ لا يصدّق أيضاً، لتضع

الغنيمة في يد البّحارة الطرابلسيين لقمةً سائغة. فكيف لا يتطاير الأهالي فرحاً أمام هذه المعجزة التي شهدوها بأعينهم ليطوفوا الشوارع بتلك الرقصة الشعبية المثيرة المسمّاة «كاسكا» التي يقال إنها ترجع إلى عهود الرومان، لأنها تمثّل الحادثة الشهيرة التي كان المدعو «كاسكا» بطلها بلا منازع لأنه أوّل من تجاسر فوجّه ليوليوس قيصر المحاط بأعضاء مجلس الأمّة طعنة الغدر الأولى لتنهال بعدها على صدره بقيّة طعنات أعضاء المكيدة؟

أمّا الباشا يوسف القرمانلي فقد تابع الصراع منذ أوّل لحظة إلى اللحظة الأخيرة التي أقبل فيها الريّس مراد وزير البحرية يقود بنفسه المقطورة التي تجرّ أعجوبة البحار عبر المتاهة الخبيثة القادمة من شرك الخالوصة بصرحها العملاق كأنّها حصان طروادة الأسطوري. ويقول الرواة إن الباشا هتف بصوت عالٍ ما أن وقعت البارجة في الفخّ الذي دبّره لها:

- صخرة الخالوصة! صخرة الخالوصة! إنها.. زهرة وليست صخرة! الخالوصة؟ إنّها.. إنها الخلاص وليست الخالوصة. هل سمعتم؟ إنها منذ اليوم «زهرة الخلاص» وليست «صخرة الخالوصة»!

ثمّ تقافز في بلاط «مجلس الحرب» كالقرد قبل أن ينخس

بسبابته وزير خارجيّته الدَّغيّس تعبيراً عن بهجته بالنصر!
وهي دعابة لم يكن الباشا ليغفرها لنفسه (وهو الذي عامل أعوانه كعبيد دوماً)، ولكن فضيلة النّصر في قدرته على إماتة روح الطاغية إذا فاض عن الحدّ، ليحيي في صاحب النّصر، روح الدروشة ولو للحظات؛ أمّا رذيلته (إذا تكرّر) ففي قدرته على إماتة الضّمير، لأنّ صاحبه وقتها يرى كل شيء مباحاً فيرتكب الكبائر!

١٧ - الاستجواب

طرابلس. حقول المنشيّة. الثاني من نوفمبر ١٨٠٣م

قضى جيش الأسرى ليلتين في اصطبلٍ مهجور في ناحيةٍ ما في ضاحية المنشيّة. تكدّس البحّارة فوق بعضهم ليجيروا أجساداً شبه عارية من صقيعٍ منكر لم يعرفوه حتّى في أحضان الأقيانوس. وكان السّجانون يسخرون منهم بلهجة تشفّي وهم يردّدون: «ذوقوا ولو مرّة صقيعاً جلبتموه معكم أيها الكفرة!». كانت الريح لاتزال تهبّ من الشمال مجبولةً ببرودةٍ جليدية لا تطاق، كأنَّ الرسول المارد لم يكفه ما فعله بهم طوال الأيام الماضية في حلفه الخفيّ مع أهل المكان، ولكنه لاحقهم ليقتصّ منهم في ديار الأغراب أيضاً كأنّه لعنة مجهولة تطاردهم ليكفّروا عن إثمٍ جسيم.

كانوا يئنّون ويرتعدون وينهضون ليهرولوا دون أن يبرحوا أمكنتهم، لأنّ تلك الزنزانة البائسة الملفّقة من جريد النخيل وأكوام القشّ لا تسمح بأدنى حركة من فرط الضيق. وكانوا يتلقّون السياط على وجوههم كلّما تجرّأوا فاشتكوا للسّجانين ضيق المكان، أو غياب الأغطية، أو الجوع. وكان يمكن لهذا الانتحار البطيء أن يستمرّ لو لم يبتسم لهم الحظّ في اليوم الثالث ليستبدل لهم السّجان بجلاّد بدا أرحم من سّجان! فقد

أقبل المستر «لزلي» الملقّب بـ «الريّس مراد» صباح ذلك اليوم مصحوباً بلفيفٍ من الأعوان. طاف الاصطبل البائس من كلّ الجهات، ثمّ أطلّ عليهم من شقّ في الكوخ ليتلذّذ برؤيتهم وهم مكدّسون فوق بعضهم كقطيع من الأغنام. تأمّلهم طويلاً قبل أن يأمر أحد الأعوان باستقطاع جليبٍ من «القطيع» واستحضاره إلى كوخٍ مجاور مفروشٍ بسجّادٍ فخم، تتوسطه منضدة خشبية تعلوها دواة وبعض القراطيس. هناك بدأ وزير البحرية استجوابه لعددٍ من البحّارة بسؤالٍ واحد لم يتغيّر: «هل ترون آمركم خائناً، أم ترونه جباناً؟». كان سؤالاً لئيماً اعترفوا فيما بعد جميعاً كيف أربكهم أوّل الأمر، ولكن جلّهم عرف كيف يجيب على السؤال بالنفي، فكان يروق للأيرلندي اللعين أن يستفزّهم بجوابٍ واحد في كل مرّة: «لم تعرف البحار آمراً لبارجة مسلّحة بأربعة وأربعين مدفعاً، مجهّزة بما يزيد عن ثلاثمائة مقاتل، ثمّ يستسلم لزورق مسلّح واحد يقوده بضعة هواة، دون أن يكون جباناً أو خائناً في نظر حتّى البلهاء!».
إلى جوار الإيرلندي اللعين جلس بعبع بشع تمثّل في عجوزٍ ملفوفة بالسواد، مكشوفة الوجه، اعترف الجميع بأن حضورها إلى جواره أربكهم أكثر مما أربكهم سؤال وزير البحرية بسبب شبهها الحميم الصلة بساحرات هذه البلدان التي انطبعت في

أذهـان أغلبـهم من قصص «ألف ليلة وليلة» أو من الأساطير التي سمعوهـا عن الشرق. كان وجهها غليظاً محفوراً بآثار الجذام، مبقّعاً ببثورٍ كريهة، ذات أنف ملتوٍ إلى أعلى لم يروا له مثيلاً، بشفتين مفلطحتين بلونٍ تمتزج فيه الألـوان فلا يعرف للشفتين لون، بعينين ماكرتين، وخدين بـارزين ملوّثين بندوب زرقـاء كأنها آثار لوشمٍ قديم. كانت مسخاً حقيقياً مثيراً للغثيان، وجديراً بلقب «ساحرة»، أو حتّى جنيّة خرجت للتوّ من جحر في دنيا الظلمات. وكان الريّس «مراد» يلتفت نحوهـا كلّما انتهى من استجواب أحدهم فتهزّ رأسها نفياً إلى أن جاء دور الهندي الأحمر. فما أن انتهى الإيرلندي من استجواب شبح المسيسيبي ذاك حتّى مالت تلك السعلاة نحو الوزير لتهمس في أذنه بعبارة مبهمة. ابتسم الإيرلندي اللعين وتطلّع إلى الشبح الأحمر لحظات قبل أن يقول:

– أنت أمير محظوظ، لأنّ كاهنة مولانا المبجلّة اختارتك لتدخل البلاط طبّاخاً! تستطيع أن تمارس صلاحياتك منذ الآن فتأمر لزملائك ليس بما لذّ وطاب فحسب، ولكن بالأغطية أيضاً، بل وبالانتقال إلى مأوى آخر أفضل!

١٨- الترياق

طرابلس. البلاط. ١١ نوفمبر ١٨٠٣م

فرّك الباشا يديه فضولاً قبل أن يأمر الخدم:

– أين الهندي الذي قلتم إنه ينتظر الدخول بالباب؟

تناطح خادمان كانا يقفان على رأس الباشا بعمامتيهما وهما يهرعان لتلبية أمر مولاهما، فتذمّر الباشا:

– لابدّ أن أذكّر هؤلاء الأوباش في كلّ مرّة بدل أن يذكّروني! كأنّي خادمهم وليسوا هم خدمي! أزدادُ يقيناً كلّ يوم بعدم جدوىّ اتخّاذ الخدم، لأنّهم ملّة لا تختلف في شؤمها عن خلاّن الزور أو أعوان الكذب!

كان الباشا قد استيقظ من هجعة القيلولة في جناحه المجاور لجناح لَلاَّ حوّاء بعد صباحٍ شهد اجتماعاً عاصفاً انتهى بصفعة من المنسأة على وجه الدغيّس جزاء موقفه الجبان من الحرب مع الكفرة. لقد تحدّث فأشار بوجوب التسامح مع شذّاذ الآفاق هؤلاء مستشهداً بموقف الرسول من كفّار مكّة، بدل أن يحثّ على استثمار النصر كما يجب أن يُستثمر على طريقة الريّس مراد. ويبدو أن احتكاكه بالنصارى من خلال عمله كوزير للخارجية لوّث فيه العقل وخلخل الحزم إلى حدّ الوقاحة. وهاهو اليوم يتشدّق بألفاظ مستعارة من معاجم غريبة كـ «التسامح في

العلاقة مع الأمم»، أو «المرونة في المحادثات»، أو «التساهل في استثمار النصر لكي لا يبدو في نظر المغلوب ابتزازاً»، ولم يكفه إلاّ أن يستهين بالشهداء الذين سقطوا في المعارك فيقول إن علينا أن نطلق لهم أسراهم بلا فدية لشراء امتنانهم!

في تلك اللحظة دخل أحد الخدم ليستأذن لسليل الأغراب بالدخول، فأومأ له الباشا وتململ في أريكته الوثيرة استعداداً لاستقبال سليل الأغراب. ولكن الرجل المنتظر لم يظهر لتبدو في الباب سعلاة الدهور الملقّبة باسم «عرّافة البلاط» بديلاً عنه. وقفت ببدنها البدين متكئةً على عكّازٍ أنيقٍ لا يتناسب مع دمامة خلقتها فاربدّت سيماء الباشا باستفهام ينذر بغضبة. ويبدو أن الداهية خمّنت السبب فابتسمت كاشفةً عن أسنانٍ منخورة بالسّوس قبل أن تهلّل لتسترضي ولي نعمتها:

– هاهي أَمَتُكَ تستخرج لك أندر تحفة من أجهل مجهول!

ثمّ تراجعت خطوتين لتظهر من جديد وهي تجرّ الهندي الشقيّ من يده: كان مزموماً في سترته وسرواله الملفّقين من جلود الحيوانات البرية، وضفيرته الطويلة المنسدلة على ظهره.

تأمّله الباشا طويلاً، ثمّ تململ في جلسته ليردّد غائباً:

– أندر تحفة من أجهل مجهول..

ثم أضاف بلهجة غياب أيضاً:

– إذاً هذا هو «ابن الهند»؟!

فأمرت كاهنة البلاط أسيرها:

– تقدّم وقبّل يد مولاك الجديد!

ولكن الهندي لم يتقدّم، ولم يقبّل يد المولى الجديد، بل حرّك فكّه الأيمن، ثمّ فكّه الأيسر، وبدأ يمضغ، مضغ عشبته السحرية بخمول كأنّه يؤدّي عملاً طبيعيّاً لا يختلف عن التنفّس، أو النظر، أو السمع، فانتهرته السعلاة بإنجليزيتها الركيكة:

– يجب أن تقبّل يد..

ولكن شبح المسيسيبي قاطعها ببرود بلكنته الإنجليزية الأكثر ركاكة:

– لم أكن لأتّخذ مولى جديداً قبل أن يتخلّى عنّي مولاي «إيها مهي»!

لاحقه الباشا بفضول قبل أن يضع حدّاً للجدل:

– مرحى! مرحى! إنه يلقّننا درساً في الوفاء إذا كان يرفض أن يسلّم رقبته لسيّدٍ جديد ما لم ينل الإذن من مولاه القديم. هذا لسانُ إنسانٍ ينتمي إلى قارّة مفقودة حقّاً!

ثمّ أضاف بإنجليزية لا تقلّ ركاكة عن إنجليزية الهندي:

– هل هذه عادة سائدة في قارتكم المفقودة؟

فاحتجّ الشبح الأحمر:

– في عرفنا أنتم القارّة المفقودة، لا نحن!

أطلق الباشا ضحكة غريبة، ثمّ حاجج:

– ما أعلمه أن قارّتنا هي التي عثرت على قارّتكم الضّالّة يوم بعثنا في أثركم ملك الإسبان رسولاً حتّى إننا مازلنا نطلق عليه في مراسلاتنا «ملك الهند الجديدة»، لأننا لم نعترف يوماً بهذا المغامر المدعو «أميريغو» الذي اشتقّ منه لصوص الأركان الأربعة اسم «أمريكا» الملعون!

كتم ضحكة أخرى ثم أضاف فجأة:

– ولكن أجبني على سؤال: هل تؤمن باللّه؟

غمز الباشا كاهنته الفظيعة فأجاب الهندي:

– لكلّ إنسان إله..

– تريد أن تقول إنّك لا تؤمن بإله النصارى؟

– كلا!

هبّ الباشا واقفاً. تسكّع ذهاباً وإياباً. أعلن:

– ولكنّنا لا نأوي عادةً في ديارنا من لا يؤمن بإلاهنا!

– ولكن الإنسان إذا كان إنساناً لن يتخلّى عن الإيمان بإلاهه حتّى لو آمن بإلاهكم أو بأيّ إله!

سكت الباشا لحظات. تمتم:

– هذا جوابٌ واعد. حسناً، ولكن لماذا يلقّبونك بـ «الهندي



الأحمر» برغم لونك الأخضر؟

– أمّتنا كلها بلون أخضر، ولكن الغزاة الأوائل أطلقوا على أهلنا اسم «الأحمر» لا بسبب لوننا، ولكن بسبب حمرة الصبغة التي نزيّن بها وجوهنا!

مضى الباشا يتسكّع باسماً. عاد على عقبيه. وقف في مواجهة الهندي ليسأل فجأة:

– ماذا تمضغ؟

أجاب الرجل بلا مبالاة:

– ترياق!

– ترياق؟

– إنّها عشبة تُغْنِي عن الغذاء!

تعجّب الباشا:

– وهل في دنياكم توجد عشبة يمكن أن تغني عن تناول الغذاء؟

– إنها عشبة «فزو فزو» بصقة الإله «إيها مهي»!

– عشبة ماذا؟ بصقة ماذا؟

فردّد الهندي:

– عشبة «فزو فزو» بصقة الإله «إيها مهي»!

توضّحه الباشا كأنّه يراه لأوّل مرّة. تمتم:

– كنت سأستعير منك هذه العشبة لو لم تقل إنها بصقة «إيها.. إيها..».

سكت الباشا. أضاف:

– لأنّ.. لأن لا شيء أبعث على الاشمئزاز من أن يضطرّ المخلوق لأن يفعل الشيء نفسه كل يوم، بل وأكثر من مرّة في كلّ يوم. واكتشاف عشبة تغني عن هذه البليّة معجزة جديرة بالإكبار حقّاً!

غاب بعيداً بعدها، ثمّ سأل كأنه اهتدى إلى فكّ طلسم مستغلق:

– ما رأي أمَّة القارّة المفقودة في حرب لصوص الأركان الأربعة على بلادنا؟

سكت الهندي. توقّف عن المضغ أيضاً. قال أخيراً:

– لم يكن اللصوص ليجرؤوا على حربكم لو لم يتمكّنوا من اختلاس روح أرضنا البكر!

ردّد الباشا العبارة الهندية المجدوحة بالغموض ثمّ هَتْمل:

– ولكن بأية حيلة تمكّن مشرّدو أركان الدنيا الأربعة من سرقة روح أرضكم؟

توقّف الهندي عن المضغ. أجاب:

– الثقة!

– الثقة؟



– بل الإيمان.

– الإيمان..

– تمكّنوا منّا لأننا انتظرناهم.

– لا أفهم.

– أعيا الحنين أسلافنا فتركوا لنا في الوصايا الأساطير التي تقول إن آلهةً ستأتي يوماً من الشرق لتنقذنا من الضياع. ولكننا أخطأنا لأنّنا ظنّنا يوم أقبلت فلولهم أنهم الآلهة المنتظرة!

هزّ الباشا رأسه مراراً. لاذ بالصمت طويلاً قبل أن يردّد

– لا تثق بأحد! هذه هي التعويذة التي ردّدها شقيقي أحمد بلسانه، ولكنه خذلها بقلبه، ولم أكن لأفلح لو لم اختلسها منه!

دَبَّ في المكان مرّة أخرى. توقّف. سأل:

– ما ظنّ كاهن القارّة المفقودة في اغتنامنا «فيلادلفيا»؟

توقّف الهندي عن المضغ. تنبّأ:

– ظنّي أن «فيلادلفيا» روح شرّيرة، والروح الشريرة تجلب السوء إذا تحوّلت غنيمة!

تأمّله الباشا طويلاً قبل أن يستنكر:

– هل تريدنا أن نعيدها إلى العدوّ هديّةً؟

ابتسم الهندي لأوّل مرّة. قال بصوت كأنه رفرفة وطواط:

- الهديّة إذا حَوَتْ روحاً شرّيرة لن تكون غنيمة، ولكنّها ستتحوّل دسيسة!

عاد الباشا يتفحصّه عاقداً يديه وراء ظهره. تأمّله باكتئاب قبل أن يسأل:

- ماذا في رأيك يمكن أن يحسن الإنسان الذي يتباهى بكراهيّته للأغذية؛ أعني هل يمكن أن يوثق به كطبّاخ؟

توقف الهندي عن المضغ مرّة أخرى. سرح بعيداً صالباً يديه حول صدره؛ في وجنته الموسومة بآثار وشم قديم سَرَتْ رجفة. قال:

- احترفتُ صيد السمك. كنت أَفْضَل صيّاد أسماكٍ على طول أعالي نهر المسيسيبي. كانت الأسماك تجري لتقع في يدي دون أن أبذل جهداً حتّى إن رجال القبيلة أشاعوا ممارستي السّحر. كنت أطرح غنيمتي على الساحل فيأتي الرجال ليقايضوا الأسماك بالنفائس كالجلود النادرة مثل الفراء أو لحوم حيوانات البرّ، ولكن الأسماك كانت تفيض دائماً فلا أجد حيلة لتصريفها إلاّ بالتخلّص منها بإعادتها إلى النهر ميّتة. كنت أظنّ أن إطعام أسماك النهر بفائض الأسماك أيضاً نوع من المقايضة، ولكن «إيها مهي» فاجأني برأي آخر تماماً فأقلعت..

سكت فجأة فسأل الباشا:

– ما معنى أقلعت؟

زفر الرجل أنفاساً سخيّة كأنّها التعبير عن الإعياء. أجاب:

– لم أقلع عن صيد السمك فقط، ولكنّي أقلعت عن تناول وجبة السمك!

استفهم الباشا إيماء فأوضح شبح الميسيسيبّي:

– السمكة كانت السبب. لم تكن تلك سمكة، ولكنها كانت مخلوقاً له ملامح إنسان. اصطدتها قبيل الغروب فنقلت لي رسالة النّهر!

تعجّب الباشا:

– رسالة النّهر؟

– رسالة «إيها مهي» الذي لم يكن يوماً سوى روح الميسيسيبّي..

ابتسم الباشا قبل أن يسأل:

– وماذا قالت السمكة التي تكلّمت بروح النّهر؟

ولكن الهندي تجاهل سؤال الباشا ليقول:

– منذ ذلك اليوم تركت الصيد والتحقت بفيلق الرجل الأبيض.

سكت فاستفهم الباشا:

– ولكنّك لم تحدّثنا عن وصيّة الإله المنقولة بلسان السمكة..

عاد الهندي يلوك مضغته بلا مبالاة فلاحقه الباشا:

– هل هو سرّ؟

هزَّ الرجل رأسه إيجاباً فتبادل الباشا مع حيزبون الأجيال نظرة ذات معنى، ثمّ تبسّم قبل أن يسمع من فم الهندي:

– إذا أفشيتُ سرّاً أمّنني عليه «إيها مهي» فكيف يستطيع السيّد المبجّل أن يأتمنني على أسراره؟!

– هل ترى السكوت على الأسرار مهنة؟

– السكوت على الأسرار أعسر مهنة!

تابعه الباشا بدهشة فأضاف الرجل:

– والسكوت على أسرار الأكابر مهنة أعظم مرّتين، لأن السكوت عليها أعسر مرّتين!

استقرّت في عيني الباشا ابتسامة ماكرة. خطا في المكان هنا وهناك قبل أن يسأل كأنه يتلذّذ بالاستجواب الغريب:

– ألاَ تُحسِن حرفة أخرى غير السكوت؟

– بلى! أحسن صنع الترياق!

تعجّب الباشا:

– صنع الترياق؟

– ترياق قوّي المفعول إلى درجة تكفي القطرة الواحدة منه لإبادة قطيع من البيزون!

– البيزون؟

أوضح الهندي:

– ثيران الميسيسبّي!

توقّف الباشا فجأة. رمق كاهنة البلاط لحظة، ثمّ سأل:

– مهلاً! مهلاً! هل ما تحسن صنعه هو ترياق للاستشفاء أم هو.. أم هو..

سكت لحظة قبل أن يضيف:

– أم هو سمٌّ مميت؟!

أجاب الهندي باستكبار:

– أُمَّة البيض تسمّي ذلك سمّاً، ولكن أُمَّة الميسيسبّي تسمّي ذلك ترياقاً!

شَعَّتْ سيماء الباشا بفضول محموم كالوجد، ثمّ تمتم همساً:

– عجيب!

فأضاف الشبح:

– في عرف قبائل الميسسيبّي ما يميت أيضاً ترياق لأنّه يضع حدّاً لمرض الأمراض!

استفهم الباشا وهو يحترق بحمّى الفضول:

– مرض الأمراض؟

فأجابت روح الميسيسبّي ببرود:

– الدنيا!

قفز الباشا فجأة كأنه ينوي أن ينخرط في رقصة، ولكنه استعاد وقاره بجهدٍ قبل أن يطلق العنان لروح الفضول:

– هل تريد أن تقول إن قومكم يرون هذه الدنيا مرضاً لا يختلف عن أسوأ وباء؟

– بالطبع!

سكت وهو يتطلّع إلى الهندي الأحمر بذهول. كانت حمّى الفضول لاتزال تفيض من عينيه عندما سأل:

– وهل يقصدك الناس لابتياع ترياق كهذا؟

– بالطبع!

– وهل تقبل قبض ثمن إبادتهم؟

استنكر الهندي:

– إبادتهم؟

– ماذا يمكن أن نسمّي قطرة تميت في لحظة غير الإبادة؟

سكت الهندي. رحل بعيداً قبل أن يجيب:

– أنا لا أبيدهم، ولكنّي أحرّرهم!

تعجّب الباشا:

– هل تسمّون الموت في لغتكم حرية أيضاً؟

ابتسم الهندي بمرارة:

– يدهشني أن تسمّوها في لغتكم باسمٍ غير هذا!

سكت الباشا. تمشّى خطوات. في سيمائه سطع وميض. هتمل:

– ماذا أقول؟ أظنّ أنّنا لن نعدم الحاجة إلى ترياقٍ من هذا النوع أيضاً!

١٩ - البديل

واشنطن، مقرّ وزارة الخارجية. نهايات نوفمبر ١٨٠٣م.

نهض الوزير «ماديسون» لاستقبال ضيفٍ صارم، بقامةٍ مزمومة، وعينين داهيتين سوداوين كبيرتين، وشعر أكرت مكلّل بالبياض. رحبّ به الوزير قائلاً:

– انتظرت أن أراك ببزّتك العسكرية التي تجري سيرتها على كل لسان!

فأجاب المستر «إيتون» السفير السابق لدى تونس وأكثر المتحمّسين لسحب البساط من تحت عرش الباشا يوسف واستبداله بشقيقه الطريد أحمد بك:

– ارتداء البزّة العسكرية يحتاج إلى إذن السيد الوزير!

ابتسم صاحب الخارجية وهو يُجلس ضيفه على أريكة، ثمّ سأل:

– ألن يكون ذلك سلباً لاختصاصات وزير الدفاع؟

– على وزير الدفاع أن يتوارى خجلاً بعد فضيحة «فيلادلفيا»!

فحذّر الوزير:

– إذا قررتَ أن تنجح في فتح جبهة شرقية ضدّ **الباشا** فعليك أن تفرّق بين وضع وزير الدفاع وبين جنرالات وزير الدفاع!

سكت «إيتون» فأوضح «ماديسون»:

– أعني أن الوزير يتلقّى الأوامر من محفل هؤلاء الكهنة بدل أن يتلقّى أعضاء المحفل الأوامر من الوزير!

فوافقه «إيتون»:

– لقد لمستُ ذلك يا سيّدي من خلال عراكي الطويل معهم. لقد كانوا السبب في عرقلة مشروع أحمد بك منذ أوّل يوم ولا يجدون حرجاً في أن يجاهروا باشمئزازهم من كل اقتراح يدلي به الإنسان الذي لا يرتدي بزّةً عسكرية مرصعةً بعددٍ مناسب من النجوم الذهبية!

ابتسم المستر «ماديسون» ليمازح:

– ألهذا السبب فاجأتهم في أحد الأيام بخروجك عليهم مرتدياً بزّة عسكرية مرصّعة بحفنة من النجوم مشفوعة أيضاً بتاج مهيب ليجدوا أنفسهم مجبرين على تأدية التحية العسكرية؟!

أعقب صاحب الخارجية عبارته بضحكة، ثمّ أضاف:

– أصدقك القول: لقد ضحكتُ يومها ملء شدقيّ عندما نقل لي السفير «كاثكارت» الخبر!

فاشتكى «إيتون»:

– لقد استهانوا بي كثيراً يا سيّدي، ولم أجد حيلة لردعهم إلاّ في منافستهم في أكثر ما يعبدون وهي البدلة العسكرية وحفنة

النحاس التي يزيّنون بها مناكبهم!

سأل «ماديسون» وهو لايزال يبتسم بمرح:

– وأية رتبة اخترتها لنفسك يا ترى؟

– وهل أستطيع أن ألحق الإهانة بوزارتنا المجيدة يا سيّدي فأختار رتبة أقلّ من رتبة جنرال؟!

– ها – ها – ها.. رائع! أنت لا تعلم البلبلة التي أثارها عملك هذا في أوساط وزارة الدفاع. لقد اشتكاني الوزير للسيد الرئيس مدعياً أنّي صاحب الفكرة!

فغرّد «إيتون»:

– لقد مللتُ محاولاتهم في إيهامنا بأنّهم سدنة معبد اسمه الكون، وحياتنا في هذا الكون رهينة بعملهم وحدهم. أمّا نحن معشر الأمّة المدنية التي تمارس السياسة فقوم لا أخلاقيون، ولا همَّ لنا إلاّ نسج الدسائس المثيرة للاشمئزاز!

– ها – ها.. يجب أن نعترف بصوابهم فيما يتعلّق بالدسائس هذه سيّما في صومعتنا الملقّبة خطأً بـ «الخارجية»، لأنك لو تأملتَ عملنا هنا لاكتشفت أنّنا لا نجتمع يوماً إلاّ لندبّر مكيدة، والدليل هو زيارتك هذه! ها – ها – ها..

ولكن السفير السابق توجّع بألم:

– ولكنْ إذا كان عملنا تدبير المكائد حقّاً فإننا لا نقوم بهذه

الأعمال إلاّ لنبرّر حماقاتهم، فبأي حقّ يحتقروننا برغم ذلك؟!

هوّن الوزير:

– لو عشت الأحداث التي أثارتها لعبتك في بحر ليبيا لأدركتَ أنهم لا يحتقروننا بقدر ما يحسدوننا!

– يحسدوننا؟

– بالطبع! الرتب واللباس العسكري والنجوم هي حكر عليهم، بل هي رأس مالهم، وقيام أحد المدنيين بارتداء مسوح جنرال هو عدوان، بل إهانة شرف!

– ما عرفته خلال تجربتي المريرة معهم يا سيدي أمر واحد: إنّهم لن يثقوا بنا مهما فعلنا!

تمشّى المستر «ماديسون» في أرضيّة المكان قبل أن يوصي:

– ولكن عليك أن تثق بهم، أو بالأصح، عليك أن تتظاهر بأنّك تثق بهم، وإلاّ كيف تستطيع أن تستخدمهم في حربك المنتظرة؟!

– ليس لهم أن يكابروا بعد مسؤوليتهم عن نكبة «فيلادلفيا».

فعاد الوزير يحذّر:

– إيّاك أن تتعامل معهم بروح كهذه!

ولكن السفير كابر:

– كلّما قُرِعَتْ طبول الحرب راق لهم أن يتباهوا بمقولة القدماء

القائلة:

«إذا تكلّمت السيوف فلتخرس ربّات الغناء!»، وأظنّ أن اليوم الذي حان فيه الأوان كي نقلب هذه الوصيّة قد جاء! أعني إذا أخفق العسكر في دفع الخطر فعلى السفراء أن يرتدوا لباس العسكر لينزلوا الساحة كبديل!

مضى صاحب الخارجية يتسكع دون أن تفارق البسمة الغامضة شفتيه. قال:

– ليس أمامك إلاّ أن تتخذهم حلفاء برغم ذلك.

– لا أمانع أبداً في اتخّاذهم حلفاء، ولكن السؤال هو: هل هم على استعداد لأن يتنازلوا عن استكبارهم ويقبلوا بي حليفاً؟

توقّف المستر «ماديسون». صلب يديه حول صدره. سأل بلهجة من تذكّر أمراً:

– كم نسبة نجاح عمليتك المقترحة حسب تقديرك؟

تفكّر السفير لحظات. قال:

– هذا يعتمد على مدى الدعم الذي سأتلقّاه من الأطراف الأخرى.

– تقصد مدى الدعم الذي سنناله من وزيري الدفاع والبحرية؟

تردّد السفير لحظات. تمتم:

- بل ومن الرئيس «جفرسون» أيضاً!

تطلّع إليه الوزير بفضول. سأل:

- هل ترى في اتّخاذ جزيرة مالطا مقرّاً للعمليات عملاً حكيماً؟

- مالطا نقطة استراتيجية بالمقارنة مع صقلية مثلاً أو حتّى نابولي لأنها على مقربة رمية حجر من طرابلس.

- ولكن علينا ألاّ ننسى أن هذا الموقع الذهبي هو في قبضة أعداء الأمس!

- الإنجليز أعداء الأمس، ولكنّهم ليسوا أعداء اليوم!

شكّك الوزير:

- أنت تنسى أن سيطرتنا على تجارة بحر ليبيا سوف تهدّد تجارتهم، فما الذي سيضمن لنا حيادهم غداً؟

- علينا ألاّ ننسى أيضاً أنّنا نكفيهم شرّ الباشا الذي سيهدّد تجارتهم أيضاً، وهو ما يعني عملياً أنّنا نحاربه بالنيابة عنهم لكي نتيح لهم فرصة التفرّغ لمحاربة عدوّهم الأكبر: نابليون!

عاد الوزير يتطلّع إلى سفيره بفضول قبل أن يعلن بعد لحظات:

- في كلّ الأحوال لابدّ من استطلاع رأي الوزير «سميث».

في سيماء السفير السابق تبدّى إيماء قرأ فيه الوزير اعتراضاً



مكتوماً. استفهم بإيماءة فأوضح المرؤوس:

– لا أظنّ استطلاع رأي وزير البحرية عملاً كافياً!

تابعه المستر «ماديسون» بفضول. تمتم:

– ماذا تريد أن تقول؟

لاذ الرجل بالصمت لحظات. ولكنه ما لبث أن تكلّم بتصميم:

– لابدّ من استطلاع رأي الرئيس!

٢٠- الصفقة

واشنطن. البيت الأبيض. بدايات ديسمبر ١٨٠٣م

في الطريق إلى البيت الأبيض استعاد المستر «إيتون» حواره مع صاحب الخارجية: عليه أن يعترف كم كان الرجل كيِّساً. كان كيِّساً إلى حدّ تجنّب فيه أن يومئ ولو مجرّد الإيماء إلى ماضيه العسكري. لم يشأ أن يحرجه قطعاً فيقول إنه لا يعادي معشر العسكر بسبب الخلاف حول مدى فعالية استخدام شقيق الباشا ضدّ الباشا، ولكنه يناصبهم العداء إشباعاً لروح الانتقام. لم يلمّح مجرّد التلميح إلى ماضيه مع هؤلاء الأوباش لئلا يحرجه وهو الذي ذاق الويل على أياديهم أعوام الصراع مع النذل «هنري غيثر». وهو صراع أشعره دوماً بالخزي لأنه هُزِمَ على يدي وغد في زمنٍ كان الجميع يتشدّوق فيه بالعدالة وسيادة دولة القانون. تخلّى عنه الجميع برغم يقينهم ببراءته من التّهم الموجّهة إليه، وبرغم المديح الذي يجري على ألسنة الجميع بما في ذلك أبطال الاستقلال. ولكنهم خذلوه جميعاً. تركه الجميع ضحيّة طغيان الكولونيل «غيثر» ليُمضِي في غيهب الحبوس سنتين اثنتين لا لشيء إلاّ لأنّه شكَكَ في ذمّة الوغد الماليّة بالوثائق التي لا يأتيها الباطل، ولكنّهم تخلّوا عنه لسببٍ ظلّ مجهولاً وقتها، برغم أن الزمن المخوّل بكشف

53
الاصدار «٥٣» سبتمبر ٢٠١١

كلّ شيء كشفه أخيراً ليعلم أن أولئك «الأبطال» الذين ظنّهم أبطالاً والذين استجار بهم في خلافه مع رئيسه إنّما تخلّوا عنه لأنّهم كانوا لعدوّه الفاسد شركاء في الغنيمة!

فهل فقد الإيمان بالبطولة؟ هل فقد الإيمان بوجود النزاهة؟ لقد تزعزع إيمانه بوجود قيم كثيرة كانت مثال البطولة، أو خرافة النزاهة، أقلّها أهمية إذا قورنت بفقدان الإيمان بوجود اللّه! لقد خلع البزّة العسكرية يومها ليستبدلها بالملابس المدنية. ذهب ليعمل موظّفاً في وزارة الخارجية ليجد نفسه بعد زمن قصير سفيراً للقارّة الوليدة في تونس. ويبدو أن الصدمة التي تلقّاها على يد العسكر هي التي لعبت دوراً في يأسه من سلالة العسكر، بل وربّت فيه يقيناً عميقاً بعدم جدوى محالفتهم في أي أمر سيّما إذا تعلّق هذا الأمر ببحثٍ جدّي عن الحقيقة، لأنّهم يخفون في الباطن غطرسة تضعهم في كفّة واحدة مع غطرسة حكّام بحر ليبيا، بل كثيراً ما يبرهنون على التفوّق عليهم في ممارسة الطغيان، والبرهان لم يتأخّر كثيراً. فما أن هرع لنجدتهم بفكرة استخدام أحمد بك كصاحب شرعي للعرش لتركيع مغتصب العرش حتّى اشمأزّوا من الفكرة، بل وسخروا منه جميعاً بدايةً بـ «دِل» ونهاية بـ «بينبريدج» مروراً بـ «بريبل». حدث هذا برغم هزائمهم المتلاحقة التي تُوِجَتْ

بنكبة «فيلادلفيا». لقد راق له أن يستفزّهم يوم حصل على موافقة وزير الخارجية بجسّ نبض فكرته فارتدى بزّة جنرالٍ وتسكّع بينهم وهو يترنّم بوصيّة «بنيامين فرانكلين» القائلة بوجوب البحث عن خصم مطالبٍ بالعرش إذا شئنا ابتزاز طغاة العروش، ليجبرهم على أداء التحية العسكرية بوصفه أعلى رتبةً من الكلّ فلم يجدوا مفرّاً من أن يمتثلوا بعد أن شلّهم الذهول!

خارج البنيان وجد رجلاً بالانتظار. صافحه بمراسم إكبار قبل أن يذهب به عبر أروقة البيت الأبيض الذي أمر «جورج واشنطن» ببنائه، ولكن الأقدار لم تمهله لدخوله.

وقف الدليل أمام بابٍ موصد. قرع الرجل الباب مرّتين قبل أن يطلّ من وراء الباب عجوز في العقد السادس. صافحه أيضاً بحرارة ليأخذه من يده ويدخل به فضاء واسعاً ينتهي إلى مكتب متواضع مجلّل في خلفيته بعلم الولايات المهيب. وراء هذا المكتب قبع رجل ضئيل الحجم، وديع كطفل، ينكبّ على رزمة قراطيس باسماً. ذاك كان الرجل الذي لم يتناسب حجمه يوماً مع صيته الأسطوري: إنّه جفرسون الرئيس الثالث في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

تنحى الرجل عن رزمة القراطيس، تطلّع إلى ضيفه دون أن تفارق بسمة الغموض شفتيه كأنّه مازال يجادل الأشباح

التي جادت بها القراطيس. ولكنه تحرّر من الرؤيا فجأة عندما صرّح:

- إذاً أنت مَن خَوَّنَ رسولنا إلى بحر ليبيا مدعياً أن «بريبل» لا يحارب هناك عدوّ الوطن، ولكنه يحارب الوطن بالنيابة عن باشا طرابلس؟

كان الدليل العجوز قد تخلّى عنه فوجد نفسه أمام الرجل المهيب وحيداً. انتصب أمام الرجل مزموماً في وقفة تليق برجلٍ يستبسل لإعادة الاعتبار لشرفه العسكري القديم، ولكنه لا ينوي أيضاً أن يبدو في نظر الحكيم جفرسون مغامراً يتستّر بتخليص الوطن ليروي الظمأ إلى الانتقام. قال:

- ماذا نسمّي ، سيّدي الرئيس، قائداً يتنزّه بأسطوله في بحر الشموس منذ أعوام مستخدماً في معاقبة جنوده أساليب محاكم التفتيش بدل أن يُنزل هذه العقوبات الوحشية بعدوّه؟

فاستفهم الرئيس وهو لا يزال يجلس وراء مكتبه حائراً:

- هل يفعل الكولونيل «بريبل» بجنوده ذلك حقّاً؟!

- بالطبع!

- وما طبيعة أساليب محاكم التفتيش التي تتحدّث عنها؟

- ماذا نسمّي الجلد بالسياط، أو قرع الأرجل بالعصا، أو الإغراق في مياه البحر بوضعٍ مقلوب غير أساليب تعذيب تليق

بالهمج وليس بجنود البحرية الأمريكية؟

تعجّب الرئيس:

– هل يرتكب جنودنا خطايا تبرّر مثل هذه الأساليب؟

– لا أظنّ، يا سيدي الرئيس، أن حماقة كالسّكر، أو التورّط في شجار، أو اختلاس قارورة «روم» جريمة تستوجب هذا النوع من القصاص!

مضى جفرسون يتوضّح ضيفه بفضول. قال دون أن يتزحزح:

– اذا ثبت ما تقول فإن رسولنا وقع تحت تأثير الباشا فاستعار أخلاقه بدل أن يبادر فيلقّنه درساً كما يقضي الواجب!

فأضاف «إيتون»:

– أليس عاراً أن يفرّ جنودنا أفواجاً ليستجيروا بأساطيل الإنجليز أو الفرنسيس أو حتّى بأساطيل الأتراك هرباً من فظاعات «بريبل»؟

هَبَّ جفرسون كأنّه تذكّر شيئاً. صافح ضيفه بحرارة ثمّ دعاه إلى الجلوس على الأريكة الجلدية المجاورة ليقول بعدها:

– آمل ألاّ يكون يأسك من عمل أسطولنا هو سبب فكرتك عن استخدام شقيق الباشا لتركيع الباشا!

– اذا كان يأسي من فشل أسطولنا سبباً فهو يقيناً ليس السبب الوحيد، سيّدي الرئيس!



تطلّع إليه جفرسون مستفهماً فأضاف:

– الإيمان بفعالية فكرتي هو السبب الأوّل سيّدي الرئيس.

– ألا تبدو فكرتك معقّدة عند التنفيذ؟

– لقد أعددتُ خطّة ستجنّبنا التعقيد الذي يتحدّث عنه السيد الرئيس!

سكت الرئيس. تأمّل سيماء ضيفه لحظات قبل أن يتحفّظ:

– ولكن تنفيذ الخطط يكلّف أموالاً، والأموال تستدعي استصدار قرار الكونغرس. وقرار الكونغرس يستوجب وقتاً. والوقت هو ما لا نستطيع أن نهبه لأنّنا استهلكناه!

تعجّب «إيتون»:

– استهلكناه؟

– أردتُ أن أقول أضعناه. ألم تسأل نفسك كم مضى من السنين على إعلاننا الحرب على طرابلس؟ ألا تعتقد أن تنفيذ خطّتك يتطلّب أن ندير ظهورنا لما أنجزنا في سنوات لنبدأ من نقطة الصفر؟

تردّد «إيتون». أجاب:

– يجب ألاّ ندير ظهورنا لما أنجزنا سيّدي الرئيس، بل علينا أن نستكمل الإنجاز بالخطّة!

ابتسم جفرسون. تمشّى في فراغ المكان. عاد على عقبيه. وقف

في مواجهة الضيف. سأل:

- إذا كانت غاية الخطّة هي زرع الفزع في نفس باشا طرابلس لإجباره على التنازل كما فهمت منك ومن الأعوان، فما الذي سيضمن لي أنّكم لن تتخلّوا عن الشقيق الشقيّ الذي استخدمتموه في الصراع كورقة رابحة؟

سكت «إيتون». سَرَح بعيداً. سأل:

- الرئيس يريد أن يعرف عمّا إذا كان في طاقتنا أن نقدّم لأحمد بك ضماناً ما، أليس كذلك؟

ولكن الرئيس تكلّم بيقين:

- أردتُ أن أقول إنّي لن أوافق على خطّة لابتزاز الباشا بأخيه حتّى إذا وُفقتم في عملكم وتركتم المسكين لقدره، هل يعرف السفير «إيتون» لماذا؟

لم يجب السفير السابق فأضاف جفرسون:

- لأن خطّة كهذه تنطوي على نيّة لا أخلاقيّة تأباها ثقافتنا المجيدة التي كافأتنا بالاستقلال!

ساد صمت مزموم. اقترح «إيتون»:

- يقيناً أننا لن نستطيع أن نضمن له الجلوس على العرش، ولكنّنا نستطيع أن نجبر شقيقه على التخلّي له عن عائلته، وربّما استطعنا أن ننتزع له من خزانة أخيه معاشاً شهرياً..

سكت «إيتون» فتكلّم جفرسون:

– أي أنكم تنوون أن تستخدموا الرجل بوعود زائفة، ثمّ تحاولون إسكاته ببعض الحسنات المخجلة!

اعترض «إيتون».

– نحن نهب يا سيّدي ما نملك، ولكنّنا لا نستطيع أن نغتصب صلاحيّات الآلهة!

جلس الرئيس في مواجهة الضيف فتبدّى في سيمائه تعبير جذّاب كالطفولة، لأنّ إيماء الطفولة وحده برهان بطولة. زَمَّ شفتيه فسطّرت الحيرة في جبينه ألماً. تمتم:

– كأنّي أشتّم في هذا المنطق رائحة الصفقة!

سكت غائباً. أضاف:

– أنتم لا تدرون أنّكم تدفنون، بهذا المنطق، تلك التعويذة السّحرية التي جاءت لهذه القارّة بالحريّة!

قال «إيتون»:

– ليس من حقّنا يا سيّدي أن نتحدّث عن النزاهة، لأنّ قدر جيلكم الذي مارس الكفاح في سبيل الحرية يختلف عن جيلنا الذي قُدِّر له أن يمارس السياسة!

تأمّله جفرسون طويلاً. غمغم بلهجة كآبة:

– أعرف أن الحريّة إذا تحوّلت دولةً وضعت المقاليد بيد تلك

الغانية التي تسمّونها سياسة، ولكن عليكم أن تنتظروا حتى يختفي جيلنا كي تفعلوا بها ما يحلو لكم!

سكت لحظة ثمّ انتصب واقفاً إيذاناً بإنهاء المقابلة:

- أردت أن أقول إن بوسعكم أن تفعلوا اليوم ما تشاؤون بشأن حرب طرابلس ما ظلّت حرباً في سبيل الوطن، بشرط ألاّ تقذفوا بالشقيق الشقيّ على قارعة الطريق عند عقد الصفقة مع الباشا!



٢١- الكنز

وقف صاحب الخارجية في حضرة الباشا ليحدّثه طويلاً عن خطورة التشبّث بالمثل العليا في الحرب المميتة مع الأغراب. قال إن الحكمة تستوجب التنازل عن الكبرياء أحياناً، والقبول بالمبالغ الأقل في عقود الاتفاق مع الدول لا يعني الاستهانة باليد السفلى، بل كثيراً ما يُعَدّ ترفّعاً عن مماكسات أهل الأسواق التي تليق بملل السفلة، لا بسلالات الملوك؛ لأنّ خسارة حفنة قطع ذهبية أهون دوماً من التورّط في نزاع قد يكلّف خسارة تيجان، بل وربّما رؤوس، أنفس بما لا يقاس؛ لأنّ الذهب حتّى لو كان في حجم جبل «نفوسة» ما هو إلاّ كتلة معدن لا يختلف عن قرينه النحّاس إذا قِيسَ بهبة اسمها الحياة!

استمع الباشا لخطبة وزيره الدغيّس صامتاً، بل ربّما غائباً، إلى أن انتهى الرجل إلى القول:

– أفلا يرى الباشا أن إصرارنا على مساواتنا في الجزية مع داي الجزائر هو ما كلّفنا حتّى الآن حرباً خسرنا بسببها أضعاف ما كنّا سنكسبه لو قبلنا ببنود المعاهدة في صيغتها الأولى؟

سكت لحظات، وعندما استشعر ما تهيّأ له أنه استجابة من الباشا، تجرّأ فأضاف:

– كان يمكن أن يهون الأمر، يامولاي، لو لم نَرَ هؤلاء المغامرين يذهبون في شرّهم شوطاً أبعد بتلويحهم استخدام ورقة أحمد بك ضدّنا!

الباشا لم ينبس. مضى يغيب في جوف العرش بجسده كأنّه يستجيب لنداء الحلم بغيبة وجدانه حتّى ظنّه الوزير نائماً على غير عادته فتوضّح سيماء سيّده لحظات قبل أن يضيف:

– يجب أن نعترف يا مولانا أن فكرة أحمد بك هذه عمل خبيث ما أغنانا عن نبشه لو حكّمنا العقل قليلاً، لأن خطوتها لا تكمن في دهاء مَن ابتدعها، ولكن شؤمها يكمن في دغدغتها مشاعر رعيّة بلهاء تتطلّع منذ الأزل لأيّ خلاصٍ حتّى لو لوّح به في وجهها أتفه مغامر دون أن تكلّف نفسها عناء استخدام العقل فتستعيد درس سلفها آدم الذي أعجزه الفوز بخلاصٍ كهذا حتّى في ربوع جنّات عدن!

الباشا صمد في جوف العرش كصنم، ولكن ملامح الوجه شعّت بانفراج كأنه مشروع فوز فتشجّع الدغيّس ليواصل مرافعته:

– أردت أن أقول يا مولاي أن الخوف ليس من عودة البهلوان أحمد إلى الديار، ولكن البليّة في أن تخذلنا الرعيّة بحجّة واهية هي أحقيّة أحمد كأخ أكبر في الجلوس على العرش!

سكت لحظات. تأمّل سيماء الباشا فوجد على شفتيه بسمة

لئيمة، فرمى بآخر سهم في الجعبة:

– الخلاصة يا مولاي هي أننا يجب ألاّ نعوّل على إخلاص الرعية إذا نجح آشرار النصارى في المجيء بأحمد بالدرجة نفسها التي لم ننتظر فيها رحمة هؤلاء الأشرار يوم رفضنا تلقّي الحسنات من أيديهم بإعلان الحرب على أساطيلهم!

لحظتها تململ الباشا في عرشه فتسمّر الوزير في وقفته استعداداً لتلقّي الوصيّة من شفتيه. لم يطل انتظاره بالفعل، لأن الباشا تكلّم:

– إذا كنّا لا نريد أن نستجدي الطرفين (أعني لا نريد أن نرتجي سلماً من عدوّ، ولا وفاءً من رعية) فأين المفرّ في ظنّك؟

تبادل الوزير مع مليكه نظرة عميقة. هيمن على المكان سكون عميق أيضاً برغم جعجعة القذائف في عرض البحر البعيد. في مقلة الباشا تلألأت نظرة ماكرة. همس بلهجة ذات معنى:

– لا مفرّ من أن نسبق اللئام إلى رباط البعبع فنختطف من بين أيديهم الكنز الذي يراهنون عليه!

كانت الدهشة تقفز من عيني الوزير لتفيض على وجهه عندما أضاف الباشا:

– ألا ترى أن الدّهاء لا يفلّه إلاّ الدّهاء، والسّحر هو الحيلة الوحيدة لإبطال مفعول السّحر؟!

٢٢ - الوعل

للاستعانة بمفعول السحر لإبطال مفعول السحر استنجد الباشا برسول السّحر: قام باستدعاء «سليل الهند الجديدة» كما راق له أن يطلق على الهندي الأحمر في الأيام الأخيرة ليسأل:

– ماذا بشأن استحضار العُقار الذي حدّثتك عنه؟

صلب الأسير ذراعيه حول صدره وتطلّع إلى البحر من نافذة جناح الباشا. كَفَّ عن مضغ عشبته السحرية قبل أن يجيب:

– السيّد المبّجل تحدّث عن استحضار الترياق، ولكنّه لم يتحدّث عن الطريدة التي يريد أن يقتنصها بالترياق!

تعجّب الباشا:

– الطريدة؟

ولكنه لاحظ جمود سيماء مارد الميسيسبي فابتسم بخبث قبل أن يسمع الوحي من فم الرسول:

– أردت أن أعرف عمّا إذا كان السيّد المبجّل ينوي أن يصطاد بالترياق بيزوناً، أم طيراً، أم قرداً، أم وعلاً؛ لأنّ «إيها مهي» لم يغلّف هذه الأرواح بجلدة واحدة يوم صنعها!

تساءل الباشا:

– ولكن ما دور الجلدة في صنع ما تسمّيه ترياقاً؟

– لنوع الجلدة دور في صنع الأداة التي تحمل الترياق، وليس



في صنع الترياق!

تأمّله الباشا طويلاً. ابتسم كرّة أخرى. في مقلتيه تألّق إيماء كأنه تردّد، ولكنه قال بتصميم:

– تستطيع، إذا، أن تقول إنّني بصدد الخروج لاقتناص وعل!

عاد شبح الميسيسيبي يتسلّى بمضغ عشبته المجهولة صالباً يديه حول صدره. سكت لحظات ثمّ تساءل:

– يهمّني أن أعلم عمّا إذا كان الوعل حديث العهد بالخروج من بطن أمّه، أم أنّ الإله «إيها مهي(١)» أمهله حتّى استبدل تاج رأسه مرّة أو مرّتين!

– تاج رأسه؟

– أعني قرنيه!

ابتسم الباشا. سَرَح. تكلّم من محراب حُلُم:

– في البدء لم يكن الوعل وعلاً واحداً، ولكنّهما كانا وعلين تلقيتهما من أبي هديّةً، ولكن أقدمهما عهداً بالخروج من بطن الأمّ نطحني ما أن نبت على رأسه التاج، نطحني مراراً ولكنّي عرفت يوماً كيف أنزع من رأسه التاج. طعنته بحربة في قلبه فنلت التاج. ألا يقال إن سرّ مصرع الوعول في اللهفة لانتشال التيجان التي تتوّج رؤوس الوعول ؟ الحقّ أننا هنا نقول ذلك عن تيجان الفيلة، أ ي أسنانها، لأنها في بلدان الدواخل هي

وعولنا. ولكن ما الفرق؟ المهمّ في الأمر أن امتلاكي تاج الوعل الأقدم عهداً بالولادة لم يدم طويلاً، لأنّه كان عليّ أن أختطف تاج شقيقه الأصغر كي أستكمل أسنان التاج، ولكنّه تسلّل خارج الأسوار ليلاً ليفرّ منّي . وقد أعيتني الحِيَل لنيله منذ ذلك اليوم، فهل أستطيع ان أعوّل على ترياقك لاسترداد الغنيمة؟!

توقّف شبح الميسيبّي عن مضغ العشبة. في خدّه المنمنم بالوشم سَرَتْ رجفة. حشرج بصوت كخوار ثور:

– سأضع لك سهماً ينفذ في جلد بيزون!

– ولكن عليك أن تحسن استخدام السهم، لأنّك أنت المخوّل بالخروج في رحلة الصيد!

تعجّب الرجل:

– هل يريد السيّد المبّجل أن يقول أنّي سأخرج لاصطياد الوعل الهارب بديلاً عن السيّد المبّجل؟

هزّ الباشا عمامته إيجاباً، ثمّ أضاف:

– سيقودك الحاجب ليضعك بين يدي مليطان، هذا الرجل سيحدّثك بتفاصيل الرحلة، وسيقوم بتزويدك بالأعوان أيضاً!

عمّ سكون. خرج الرجل مصحوباً بأحد الخدم فجلس الباشا وحيداً. زفر بإعياءٍ ثم نهض ليراقب البحر. في المدى الأبدي المجبول بالزرقة تراءت قطع الأسطول المعادي، ولكنّه عَبَر إلى

المدى الأزرق المسربل بَزبَدٍ ناصع لفظه جنون البحر: هناك، وراء هذا البحر البعيد، ترتع الطريدة الشقيّة في حقول الصعيد المرويّة بمياه نهر النيل.

بعد ثلاثة أشهر من تاريخ الحوار مع شبح «الهند الجديدة» كان أحمد بك يهوي أرضاً في اللحظة التي اعتلى فيها جواده، كأنَّ يداً مجهولةً امتدّت لتسحبه إلى الجهة الأخرى(كما عبّر فيما بعد)، في الغمضة ذاتها هوى خادمه القديم المنتصب بالجوار المواجه، متأثّراً بإصابة مميتةٍ من سهمٍ مريبٍ، هزيل في حجم عقلة إصبع، مزوّد برأسٍ عنيد في صلابة رأس حربة، لينتفض الشّقي عقب سقطته مرّتين قبل أن يلفظ أنفاسه؛ كأنّه كان القربان البديل للطريدة المستهدفة أصلاً!

٢٣- الممسوسة

سار قطيع الأسرى عبر شوارع المدينة في طابور. في مقدّمة الكبكبة تهادى ثلاثة جنود باستعلاء الأكابر. خلف الفوج دبَّ عساكر أكثر عدداً وأشدّ صرامة: يهرولون حول القطيع بحماس الرعاة، ويلوّحون في الهواء بالسياط ليلهبوا أبدان الأشقياء بألسنة ذلك السلاح الفظيع كلّما انحرف بعضهم عن الطابور، أو راق لبعضهم الآخر أن ينحني على سلع الباعة، أو يتوقّف ليتسلّى برؤية امرأة ملفوفة في لحاف فلا يبدو من وجهها سوى عينيها الفاتنتين، فلا يملك البؤساء للتعبير عن سخطهم سوى الرطانة بالسّباب!

توقّف الفريق أمام مدخل أحد البيوت. تولّى أجناد المقدّمة التفاوض مع رجل يقف وراء الباب. أسفرت المفاوضات المستفيضة عن انفراج ضلفة الباب ليطلّ على الفرقة وجه مخلوق أسود غليظ الملامح بدين الخلقة ليتبيّن الرجال بعينين فزعتين مطبوعتين بالشكوك.

تنحّى أخيراً ليسمح للأجناد بالدخول، ولكنّه عاد فأوصد الباب ما أن وقع بصره على زمرة النصارى. حول الجمهرة حام أهل الفضول: صبية، ومتسوّلون، وعاطلون، وأشياخ، ودراويش. أحد المارّة برطم في وجوههم بسبّة، في حين رجمهم آخر بحجر،



ولكن أحد أجناد المؤخّرة لسع الهواء بسوطه الفظيع فتبدّد زحام الفضوليين في غمضة. عاد الرجل الكئيب فتبدّى في الباب من جديد. في عينيه غاب إيماء الفزع ليحلّ في المقلتين الجاحظتين ذهول ممزوج بإيماء كأنّه الضياع المجبول بحزن. أم أن ذلك التعبير لم يكن ذهولاً ولا ضياعاً ولكنه دهشة الروح المكبّلة بالعبودية عندما تكتشف أن هذا القدر المميت ليس حكراً على لون الجلدة السوداء وحدها، ولكنه يستطيع أن يصيب لون الجلدة الأكثر بياضاً حتّى من جلدة الأسياد؟

في الداخل فوجئ الأسرى بوجودهم في حضرة الحريم الذي قرأ أغلبهم عنه الأساطير: كنّ في جمعهنّ محفلاً ينتشر في فناء مفتوح على سماء عارية من السحب، مسربلة بشمس خريفيّة سخيّة. كنّ يسرحن هنا وهناك باسترخاء، بل بدلال. يرقصن بأردافهنّ الثريّة في سعيهن، ويتهامسن بغنجٍ، ويتضاحكن بإغواء وهنّ يرمقن أجساد البحّارة شبه العارية. وأكثر ما أدهش الأسرى سفور نساء الحريم في وقفتهن أمام الأغراب، بل وجرأتهنّ أيضاً. كنّ يلتهمنهم بنظرات تفضح رغبة لو رآها سدنة الحريم، أو دعاة التقوى، لعدّوها منكراً، ولكن رجال الأسر رأوها يومها توقاً إلى الحرية. وها هو القاسم المشترك الذي جمع الكلّ في سلّة واحدة: العبد المخوّل بحراسة الحريم

من عيون الغرباء، ونساء الحريم، وطابور الأسرى: إنهم كلّهم سجناء! كلّهم يهفو لنيل الحرية!

لاحظ «وليام راي» كيف خرجت صبية من إحدى الغرف، ولكنّها فوجئت بوجودها في محفل الأغراب ففزّت إلى الوراء، ولكن امرأة حسناء استوقفتها برطانة ترجمها له أحد الأحراس فيما بعد تقول: «لا تخافي! هؤلاء ليسوا رجالاً، ولكنهم نصارى!»، فراق له أن يتندّر بترديد العبارة كلّما تلقّى لسعة سوط من أحد الأجناد، أو تعرّض لإهانة من أحد الزملاء!

محفل الحريم لم يدهشهم بفتنته، أو بسفوره، فقط، ولكنه أدهش الفريق بكرم الضيافة أيضاً. لقد شبع الأسرى لأوّل مرّة منذ وقوعهم في الأسر. كانت مائدة عامرة بصنوف الأطعمة والفواكه والحلويات. ولكنّهم لم يتركوا المكان إلاّ بعد أن اشتركوا في حمل قدر خرافي الحجم مصنوع من نحاسٍ أحمر اللون لتتلقّفهم الأزقّة من جديد. كان النهار قد انتصف وبدأ الحرّ برغم هيمنة فصل الخريف. خلت الشوارع من زحام السابلة، وأقفلت أغلب الدكاكين أبوابها امتثالاً لسلطان القيلولة.

تلوّى الطابور طويلاً قبل أن يدرك باب بيت آخر تبدو من وراء سوره أشجار نخيل عالية. في الداخل عبر الفريق في مسيرة درباً ضيقاً أفضى إلى بستان النخيل. خلف البستان لاحظ

الجمع باباً مغلقاً موسوماً برموزٍ مجهولة مجسّمة بمعدن ناصع كالفضّة. من النافذة المستورة بالقماش الشفاف تبدّى شبح امرأة، ولكن الباب المهيب لفظ عدداً من الخدم الذين ما لبثوا أن طوّقوا الجمع كأنهم يصدّون غزوة. تبادل العسس مع أحدهم عبارة. انصرف الرجل في حين استمّر بقية الخدم في وقفة الاستنفار. في الدّاخل سمع الجمع جلبة مفاجئة. بعد لحظة أخرى فوجئ الجمع بامرأة في العقد الرابع أو الخامس من العمر، تظهر من الباب منفوشة الشعر، مسعورة السيماء، تمسك بنصلٍ كأنه مدية، أو سكّين، تنطلق بذراعين عاريين لتهاجم الجمع مولولةً بصوتٍ منكر كأنها واعية تنعى مصرع إنسان حميم!

لوّحت بالنصل في الفراغ لتطعن أحد الأسرى، ولكن أحد الأحراس اعترض طريقها ليمسك باليد المشيّعة في الهواء، ولا يعرف أحد كيف أخطأها فمزّقت الطعنة معصمه الأيمن. هرع لنجدته بقيّة العسس ليطوّقوا صاحبة المسّ، ولكنها قاومت ببسالة قبل أن يتمكنوا من تجريدها من النّصل. كانت تلفظ الشتائم وتتلوّى بين أيديهم كالحيّة قبل أن يفلحوا بعون الخدم في إبعادها عن الأسرى. هناك سمع البحّارة عويلاً فاجعاً فحاولوا أن يستفهموا عن سرّ المرأة الممسوسة فإذا بأحد

السجّانين يهوي على أبدانهم بالسوط صائحاً: «قتلتم رجلها بقنابل سفينتكم ياحثالة الكفر بالأمس ثمّ تجرأون اليوم على الدخول إلى بيتها لندفع نحن ثمن مناكركم بتلقّي الطعنات نيابةً عنكم!».

عاد الأسرى إلى سجنهم بالمنشيّة ليعلموا بعد أيّام أن قرين المرأة الثكلى لم يلقَ مصرعه كجندي في جيش الباشا كما ظنّوا، ولكنه كان صيّاد أسماك خرج بقاربه إلى البحر برفقة زميلين اثنين مستجيباً لرؤيا في المنام اصطاد فيها سمكة هائلة الحجم (كما يروي الرواة الظامئين دوماً لتلفيق الأساطير)، ولكن قذيفة من مدافع «فيلادلفيا» أصابت القارب فتناثر مع رفيقيه أشلاء في الفضاء ليصير لحمهم طعاماً لأسماك القرش التي كثيراً ما شوهدت زعانفها الكريهة منصوبة كالأشراك في شواطئ الحاضرة في الآونة الأخيرة.

٢٤- القوارير

مصر. حقول الصعيد. مارس ١٨٠٤م

في الدرب المقفر المؤدّي، في البُعْد، إلى فروة أحراش كثيفة سار رجلان أنيقان في الهندام، نبيلان في سعيهما، مما يوحي بغرابة حضورهما في ذلك الوسط الريفي الشحيح، المعفّر بغبار رياح الخماسين، والملوّح بشموس صحراوية أبدية، فلا يفلح في نجدتها حتّى نهر النيل الذي يخترق تلك الأرض القاسية.
أمّا الرجلان المجهولان فيبدوان للمشاهد غريبين عن المكان، بل غريبين عن بعضهما، برغم الوسم الخفيّ العميق الذي يطبع مسلكهما ليجمع بينهما: المنفى! هذان هما محمد بك الألفي طريد العرش المملوكي، وأحمد بك القرمانلي طريد العرش الطرابلسي؛ خرجا للنزهة في عشيّ يومٍ احترق بجحيم صيفٍ مبكّر.

ساراً صامتين مسافة طويلة كعادتهما كلّما تزاورا، لأنّهما لا يلتقيان كي يتشاورا بقدر ما يلتقيان لكي يجترّ كلّ منهما همّه الذي يعرف كلّ منهما أنه وزره وحده، لأن أياً منهما لا يستطيع أن يهوّن على الآخر. وها هو أحمد بك يعبّر عن هواجسه كأنه يخاطب نفسه:

– يجب تجنّب تلك الأحراش!

اختلس محمد بك نحوه نظرة استفهام، كأنّ عبارة رفيق الطريق انتشلته من رحلة بعيدة، ولكنه ما لبث أن ابتسم ليهوّن على قرين المنفى بعبارة:

– لا تخف! لقد زرعتُ في جذع كل شجرة جاسوساً!

فوسوس القرمانلي:

– أنت لا تعرف دهاء يوسف في صنع الأقنعة!

حدجه الألفي بدهشة:

– ماذا تريد أن تقول؟

– أردت أن أقول إنه لن يعجز عن تدبير مكيدة جديدة بمسوح جديدة!

تأمّله الألفي بفضول، ثمّ:

– زرعت الجواسيس في كلّ مكان: البعض بلباس العسكر، والبعض الآخر بلباس الفلاّحين!

– يستطيع أن يُلبس عملاءه لباس عسكر، أو لباس فلاّحين، أو لباس شياطين. أنت لا تعرف يوسف باشا. أنا لا أستبعد أن يأتي بنفسه متنكّراً في جلد أحد الأشباح ليطلق على رأسي عياراً قاتلاً كما فعل مع شقيقي الأكبر حسن بك!

هوّن عليه الألفي:

– يجب ألاّ نوسوس أكثر مما ينبغي؛ لأن المحاولة الأخيرة كانت كابوساً بسبب تهاوننا لا بسبب عبقرية يوسف باشا!

– تهاوننا؟

سكت الألفي. صدم بحذائه حجراً. أجاب:

– نستطيع أن تسمّيه إهمالاً، أو غفلةً، استرخاءً. هذه كلها أسماء مختلفة لرذيلة واحدة تُعَدّ قاتلة في وضعنا!

– قاتلة؟

– دين صاحب المنفى اليقظة، وليس الطمأنينة!

اقتربا من لفيف الشجر فتوقّف القرمانلي. شجّعه الألفي:

– لا تخف! من تراهما هناك هما عملائي! هل تذكر العم جابر الذي كان أوّل من هرع إليك يوم المحاولة الفاشلة؟ إنّه هو من يقف هناك خلف جذع السنديانة!

تردّد أحمد بك. خطا إلى الأمام. تمتم:

– أنت لن تصدّقني إذا قلت لك إن يداً قويّة جذبتني يومها إلى الجانب الآخر فنجوت بأعجوبة!

تطلّع إليه الألفي بارتياب فوسوس أحمد بك:

– كانت تلك يد الوليّ بوجمعة بلا شكّ، لأني رأيته يقف بعد السقطة على رأسي!

ابتسم الألفي:

– أنصحك بالإقلاع عن معاقرة تلك القوارير المريبة التي لم

تكن يوماً مستشاراً حكيماً!

سكت القرمانلي لحظات، ثمّ:

– لا أهرع لعون القوارير لنسيان بليّتي، ولكن لنسيان بليّة ذرّيتي!

– أعرف! ولكن السموم ليست رسول خلاص من محنة، ولكنها رسول هلاك لصاحب المحنة!

– بالأمس نقل لي الأعوان كيف عرض يوسف الأبناء الأربعة في الأسواق بلباس الخدم ليكونوا فرجة للدهماء بمناسبة عيد الأضحى!

– هل تعلم لماذا يفعل يوسف ذلك؟

لم يجب أحمد بك فأضاف الألفي:

– كي يدفعك للغرق في قوارير السموم أكثر فأكثر!

سكت . صدم حجراً آخر. أضاف:

– أنت تقدّم له معروفاً نفيساً بخضوعك لاستفزازه!

استنكر القرمانلي:

– أقدّم له معروفاً؟

– بالطبع! أنت بالقوارير تشنق نفسك بيدك، لا بيده!

جانبا دغل الشجر. من بين الأحراش أطلّ رأس، ولكنه عاد فتوارى، فتوقّف أحمد بك. ولكن الألفي جذبه من يده ليواصلا المسير. في البعد تبدّى فلاح يمتطي حماراً فتردّد القرمانلي



مرّة أخرى. قال الألفي:

- يوسفني أن أراك تموت في كلّ دقيقة بدل أن تموت مرّة واحدة كما يليق بكل مخلوق!

سكت القرمانلي. قطع مسافة قبل أن يقول:

- لم أحدّثك عن عرض الأمريكان!

- عرض الأمريكان؟

- تلقيتُ منذ أيام عرضاً من الجنرال «إيتون»، أو فلنقل، قبولاً للعرض الذي قدّمته لهم منذ سنوات لمساعدتي في استرداد عرشي!

على شعاف المرتفعات الواقعة غرب النيل سطعت الشمس بأشعّة ذهبية فلانت صرامتها الرمادية القاسية لتستعير الشعاف سيماءً شعرية. قال الألفي:

- لو كنت مكانك لفكرت طويلاً قبل قبول عرضٍ كهذا!

سأل أحمد بك بعد لحظة:

- لماذا؟

سكت الألفي زمناً قبل أن يجيب:

- لسببين إثنين: أوّلهما له علاقة بطبيعة إنسان اسمه أحمد القرمانلي، وثانيهما له علاقة بطبيعة رعيّة أحمد القرمانلي!

استفهم القرمانلي بنظرة فأوضح الألفي:

– على أحمد القرمانلي أن يغيّر ما بنفسه ليكون نذلاً بما يكفي لكي يستوفي شروط الجلوس على العرش. ثمّ عليه أن يحقّق أعجوبة أخرى كي يطيب له الجلوس على العرش هي اقناع الرعيّة العمياء بأن الاستعانة بالنصارى في استرداد العرش ليس عملاً من قبيل الخيانة للوطن، ولا من قبيل التنكّر للديانة!

توقّف أحمد بك. واجه الألفي:

– ماذا تريد أن تقول؟

– أردت أن أقول إن العرش لعنة لا تليق بنبيل مثلك، ولكنها تليق بمملوك مثلي!

زعزعت الفجاءة القرمانلي. تطلّع إلى الألفي بذهول. حشرج:

– ولكنّك فقدت العرش أيضاً برغم الانتماء إلى سلالة المماليك!

– فقدت العرش لأنّي لم أكن مملوكاً بما يكفي!

– ماذا تعني؟

طأطأ الألفي بحزن، ثمّ:

– لا أخجل من أن أعترف بأني لم أفقد عرشي إلاّ لعجزي عن أن أكون سافلاً بما يكفي!

هزّ القرمانلي عمامته يمنة ويسرة فأضاف الألفي:

- ذرّة واحدة من نبل كفيلة بأن تطيح بعرش أعظم صاحب عرش، فلا تخطئ!

تمتم القرمانلي:

- عجباً!

فأضاف محمد بك:

- نبل أحمد بك هو سرّ فقده العرش، وطبيعته هذه لن تؤهله لاستعادة العرش أيضاً. وحتّى إذا حدثت معجزة وجلستَ على العرش فإنك لن تكسب ثقة الرعيّة إذا انتزعته من براثن يوسف باشا بعون النصارى!

ساد صمت. في الدغل وقْوقَ الصّرد ثلاث مرّات فتشاءم القرمانلي إلى درجة استنجد فيها بقراءة تميمة مجهولة بصوتٍ مسموع. كَزَّ على أسنانه ثمّ هتمل بنبرة يأس:

- ليتني أملك الخيار!

سَرَحَ الألفي لحظة، ثمّ:

- الإيمان بوجود مَخّرج خيار آخر.

- التشبّث بالإيمان عمل قد يناسب أولئك الذين لم يرتكبوا خطيئة المجيء إلى الدنيا بالذريّة!

سكت الألفي إكباراً لمشاعر الرفيق، فأضاف القرمانلي:

- كلّ من ارتكب خطيئة المجيء بالذريّة إلى الدنيا فهو رهينة!

٢٥ - الظلمات

الصحراء الليبيّة. واحة مرزق. قصر والي فزّان. ١٨٠٣م

استيقظ سيّدي محمّد الشريف بعد هجعة القيلولة فلم يرَ غير الظلمات. حدّق في الغيهب بعينين جاحظتين ثمّ عاد فأغمضهما ليكتشف أن حلكة الظلمة لم تتبدّل في الحالين، فهل أُصيب بالعماء؟ أم أنه مازال يغرق في نومة وما الظلمة في عينيه سوى استمرار لرؤيا منكرة، بل استمرار لكابوس؟ جلس. زفرنفساً. أطلق آهة لا تعبيراً عن شكوى، ولكن رغبة في تأكيد حضور؛ رغبة في معرفة ما إذا كان مازال على قيد الحياة. سمع الآهة، واستشعر الزفير، ولكن الظلمة لم تنقشع. فما معنى هذا؟

قرّر أن يستعين بالجسد لقهر الكابوس: تململ، تزحزح، وكاد أن يسقط من المخدع فولول، ولول بأعلى صوت. أطلق للسانه العنان. سبّ الظلام بأكثر الألفاظ بذاءة مستنجداً بالخدم. بعد لحظات وجد نفسه مطوّقاً بالخلق: خدم وحاشية وأعوان وعسس هبّوا لنجدته، ولكنّم أخفقوا في مداواة محنته، تراكضوا حوله وهم يبسملون طرداً للأرواح الشريرة، ولهجوا بالتمائم الوثنيّة باللغة المجهولة أيضاً لإبعاد مردة الأسلاف الذين لا يستجيبون لغير اللغة المنسيّة لجهلهم بلغة القبائل الوافدة

المسلّحة بلسان الفرقان. ولكن الجهد لم يفلح في تحرير وليّ الأمر من أسر الظلمة، فاستنكر:

– أيعقل أن تفشلوا في طرد السواد المشؤوم من حدقتي أنتم مَنْ ادّعى القدرة على حمايتي من كل سوء بهتاناً؟

اقترح العقلاء الاستعانة بمواهب دراويش الطرق الصوفية فأُحضر في الحال أهل الحضرة ليقتحموا القصر: أغرقوا المكان بعاصفة من البخور كريه الرائحة، وقرعوا الدفوف وترنّحوا. بصقوا في وجه صاحب المسّ كتلاً مريبة قالوا إنها برهان إعجاز. ثمّ استلّوا السكاكين وتطاعنوا بالأنصال وهم يتقافزون في فضاء البلاط كالبهلوانات دون أن يصابوا بأذى. فعلوا ذلك أيضاً للتدليل على صنع العجب، فما كان من صاحب الظلمة إلاّ أن أمر بطردهم. وعندما تدخّل أمين سرّ الديوان ليشفع لهم جُنَّ جنون الرجل فأمر بجلد كلّ بهلوان مائة جلدة. وكي يتيقّن من تنفيذ القصاص قرّر أن يشرف لأوّل مرّة في حياته على مراسم الجلد:عقلت الدهشة ألسنة أفراد الحاشية وهم يشاهدون كيف تناول الشيخ الوقور محمّد الشريف والي «فزّان» سوطاً مفتولاً من جلود الجِمال ليبدأ في لسع أبدان الدراويش الأشقياء بلسانه المميت. لم يرفّ له جفن وهو يمارس هذا العمل القبيح، بل قيل إن سيماء الرجل شعّت

بلذّة منكرة أثناء ممارسته دور الجلاّد.

انتهى من الجلد فأمر باستبدال فرقة الدراويش بفرقة غناء.

استنكر كلّ من عرفه:

– فرقة غناء؟!

فأكّد من باب النكاية:

– فرقة غناء ترقص فيها الجواري عاريات!

حاول العقلاء أن يعيدوه إلى صوابه فاحتالوا:

– ولكن ما نفع أن ترقص الجواري أمام مولانا بأجسادٍ عارية إذا كان الظلام يلبس عينيه؟

فأجاب ببرود:

– الظلام في عيني، ولكنه ليس في قلبي!

تهامس أعضاء الحاشية فقال أحدهم: «هل هذا هو الرجل الذي ظننّاه رسول تقوى؟». وعبّر آخر: «هل هذا ما يدعونه كفراً؟». واستنكر ثالث: «هل استيقظت في الرجل شياطين غرابة الأطوار المصاحبة لكلّ سلطان؟». ورجمه رابع بالجنون قائلاً إن الجنّ استبدلته عقاباً له على نومة الغسق، وسرد أمثلة كثيرة للتدليل على صدق زعمه. ولكن الرجل طاف الحاشية ليعيد على أسماعهم ما همسوا به سرّاً وليبرهن لهؤلاء على انقشاع ستور الظلمات من قلبه وانتقالها إلى عينيه. ثمّ أضاف

قائلاً إنه سيريهم في الأيام المقبلة فنوناً من الجنون لم تخطر لهم على بال.

وبالفعل حقّق الوعد.

حقّق الوعد على الفور لأنه ما لبث أن أقدم على فعل كبائر زعزعت الإيمان في نفوس التقاة، وزلزلت الأخلاق في نفوس الأعيان. فعل الرجل كلّ ما فعل مستنيراً بتعويذة غريبة تقول: «أحمدُ ربّي الذي أنعم عليّ بعماء كان بالأمس يحجب عنّي نوايا تخفيها الوجوه، ولكنه صار يكشف لي اليوم ما تخفيه النفوس!».

بدأ حملته بممارسة اللّهو: أمر بقطع رؤوس النخيل ليستعير رحيقاً من جمّارها ليكون له عوناً في ليالي السّمر والسّهر والمجون. عاشر الجواري آناء الليل وأطراف النهار، وعندما تسلّلت إلى قلبه دودة لئيمة اسمها الملل، اخترع فصلاً جديداً: انتزع نساء الأعوان من مخادع بعولهنّ ليعاشرهن بالإنابة عن تيوسهنّ. وقد اتّخذ من ابن عمّ له ضالّ نديم سهراته المنكرة بعد أن خاصمه طوال سنوات عمائه (كما راق له أن يسمّي زمن التقوى) لخلاعته ومنادمته خلاّن السوء. ويقال إن سبب ضلال المدعو «سعيد السويني» هذا هو طمعه في الجلوس على عرش صاحب الواحة الذي لم ينجب أبناءً فنشب بينهما العداء

بسبب يقين الوالي بمسؤولية ابن العمّ على فشله في إنجاب أبناء، لأن عقمه كان تدبيراً من الداهية يوم دسّ له في الطعام عقاراً مستورداً من «كانو» قطع السلالة من صلبه. وهاهو طريد رحمة صاحب الواحة يعود من منفى لذّاته إلى القصر لا تطهرّاً بالتوبة، بل ليتفنّن في اختراع أجناس اللّذات علّها تفلح في تيسير أمر عرشٍ استعصى نيله بحكم العرف ورباط الدّم. وكان يحلو للشيخ أن يترنّح في جلسات العربدة هذه ليخاطب الخصم القديم قائلاً: «هل تظنّ أنك تستطيع أن تخدع إنساناً يقرأ ما يقوله القلب؟ أعرف أنّك لا تجالسني إلاّ حلماً باليوم الذي ستراني فيه طريح القبر والديدان تجول لتفترس هاتين المقلتين! أنت لا تعلم مدى سعادتي اليوم عندما أتخيّل كيف ستجلس أنت غداً على العرش لتستطعم البراز! ها – ها – ها.. هل يضير الإنسان أن يتنازل لأخيه الإنسان عن براز؟ وإذا كنتَ تشكّ في ما أقول فتذكّر أنّك ستتناول إفطارك ممزوجاً بنصيب من الزور، وستتناول غداءك مخلوطاً بنصيبٍ أكبر من الهبة نفسها، وستتناول عشاءك بنصيبٍ أكبر وأكبر من هذا العلقم حتّى تصاب بغثيان لن يجدي في مداواته الذهاب إلى بيت البراز لتحرير أمعائك من هذا الدّنس! فهل تصدّق؟ سوف تسبّح بحمدي يومها لأنّك ستتذكّر أني لم أجنِ عليك يوم

حرمتك عرين الرياء ذاك، بل حققتُ لك أنبل عطيّة خصّتنا بها عناية المولى (وهي الحرية) ولأطول وقت ممكن!». بعد زمنٍ آخر عادت دودة الملل تنهش أحشاء مريد اللذّات فتخلّى الرجل عن النساء ليستبدلهن بالغلمان، ولكنه ما لبث أن ملّ أيضاً فامتهن قطع الرؤوس هذه المرّة. راق له أن يجرّب عمل الجلاّد فكان يتولّى دحرجة رؤوس ضحايا كان ينعتهم بأسماء بذيئة رآها الأشقياء قصاصاً يفوق ضربات سيفه جوراً؛ لأنّ الموت في عرف الأعراق المجاورة لدنيا الصحراء ليس عاراً، ولكن الإساءة الكاذبة للصيت هوانٌ سوف تتناقله الأجيال على سبيل الإرث.

ويروي محرّرو حوليات تلك الأنحاء المنسيّة كيف تصدّى له أحد أهل الرباط الأولياء يوم تقدّم منه قائلاً:

- لم أتخيّل يوماً أن أعيش حتّى أرى إنساناً مجلّلاً بلقب «شريف» يسفك الدماء ويرتكب الكبائر!

فانتهره الشيخ محمّد الشريف:

- ماذا تعني بكلمة «شريف»؟

- كلّ من انتمى بالسلالة إلى خير المرسلين فهو شريف!

تعجّب الرجل:

- سأشكّك في قواك العقلية إذا كنتَ تصدّق حقّاً خرافة انتماء

ذلك الأفّاق المدعو محمد الفاسي إلى نسل الرسول!

حدّق الوليّ المسكين بمقلتيه الجاحظتين ذاهلاً، ولكن صاحب الظلمات لم يرحمه:

- أنا من سلالة دعيّ بقدر ما تنتمي أنت إلى سلالة أدعياء!

غمغم صاحب الرباط بخجل:

- ظننتُ أنّك.. ظننت..

فقاطعه صاحب المسّ:

- غياب البصر ينير البصيرة على الحقّ، وإذا كانت بعض الشكوك قد ساورتني في الماضي بشأن الأصل، فطوبى للعماء الذي قطع في قلبي الشكّ باليقين!

توسّل الوليّ مرعوباً:

- استغفر اللّه..

- الاستغفار ليس شهادة للتكفير عن الخطايا يا سليل الكذب! هل تظنّ أني أجهل حقيقتكم يا أئمّة الزور إذا كنتُ لا أخجل من أن أعترف بحقيقتي؟

- ولكن يا مولانا هذا لا يجوز..

- أعرف أكثر منك ما يجوز وما لا يجوز، لأنكم كلّكم ذئاب في جلود حملان أقبلتم من آفاق الدنيا الأربعة متنكرين بألقاب الزور لتسلبوا بلهاء هذه الأنحاء بناتهم وأموالهم حتّى

إذا طاب لكم المقام أضفتم لهذه الغنيمة القفز على زوجاتهم أيضاً ياملّة الزِّنَى!

أطلق ضحكة منكرة قبل أن يأمر بالسوط ليجلد المرابط الشقيّ جلداً وحشياً فلفظ أنفاسه بعد أيام. أمّا الشيخ محمد الشريف فقد أعلن منذ تلك اللحظة خلع لقب «شيخ» عن اسمه، كما أصدر فرماناً آخر جرّد فيه لقب «الشريف» الذي توارثته عائلته جيلاً عن جيل واكتفى باسم «محمّد أحمد السويني» عارياً. فهل ارتوى صاحب الظلام؟

العقلاء أكدّوا أن داء الرجل كان يمكن أن يستفحل فيؤدّي لارتكاب فظائع أبشع لو لم يأتِ اليوم الذي قرّر فيه القدر أن يذهب بعقل الرجل فيوحي له بوضع اليد على مكوس باشا طرابلس!

لم يرفض دفع الخراج السّنوي لبيت مال يوسف باشا فحسب، ولكنه استولى على تجارة القوافل ليستأثر بكنوز الذهب في زمنٍ كان فيه هذا المعدن رصيد الباشا الوحيد في حربه الطويلة مع أساطيل الأغراب!

٢٦- الختان

طرابلس. البلاط. ١٨٠٤م

هبَّ يوسف باشا في وجه مفتي الديار الطرابلسيّة:

– لولا الشيب الذي أراه في فوديك لنزعتُ عمامتك وأمرت بلسع ظهرك مائة سوط يا شيبة النحس!

تراجع الشيخ إلى الوراء حتّى صدّه الجدار، فلاحقه الباشا:

– هل أنت أحرص من اللّه على دين اللّه حتّى تأخذ على عاتقك وزر تجريد أمّة النصارى من دين عيسى وإدخالهم أفواجاً إلى دين محمّد وأنت أعلم الناس بأنّ لهم دينهم ولنا ديننا؟!

تلعثم مفتي الديار راجفاً:

– ولكن مولانا هو الذي أمر..

فأسكته الباشا:

– أمرتُ عندما استدعت الحاجة لأن آمر. أمرتُ عندما احتشد القصر بالعوانس. أمرتُ بإدخال هؤلاء الزناة إلى دين اللّه ليقيني بأن سبحانه وتعالى لا يجهل السبب الحقيقي من وراء هوسنا بإدخال هؤلاء الأوباش إلى ديننا الحنيف. أمرتُ لأن اللّه أعلم منك ومنّي بأنّنا لا نتذلّل أمام هؤلاء السفلة لندخلهم لدين اللّه حبّاً في اللّه أوفي دين اللّه، ولكننا نتوسّل تلك الحثالة لنضمن أزواجاً لمومسات هذا الماخور الذي تسمّيه

الرعيّة قصراً!

كان المفتي المسكين يرتعد في الركن عندما أضاف الباشا:

– هل تصدقني القول لو سألتك سؤالاً؟

لم ينتظر الباشا جواب المفتي:

– أيّهما أغنَى: العبد أم خالق العبد؟

هَمَّ الشيخ أن يجيب، ولكن الباشا قمعه مرّة أخرى:

– أردتُ أن أقول: هل توافقني على قدرة ربّ السماوات والأرض على الاستغناء عن دخول حفنة كذبة إلى دينه؟

غمغم المفتي بصوت يخنقه الفزع:

– بالطبع..

فأسكته الباشا:

– بالمقابل: هل توافقني على عدم قدرة مخلوقات الخالق على الصيام عن الطعام أسبوعاً واحداً؟!

– الرعيّة لا تستطيع..

– بلى! بلى! الرعيّة لا تستطيع. الرعيّة لا تستطيع أن تصوم عن الطعام يوماً واحداً فكيف بالأسبوع؟ أليس هذا ما أردتَ أن تقوله؟ اعلم إذاً أنّك فعلت ما بوسعك لكي تجبر هذه الرعيّة على الصيام عن الطعام عاماً كاملاً! هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر من الضحيّة جواباً:

- لأنّك انتزعتَ من بيت المال ما لا يقلّ عن خمسة آلاف دولار ذهبي إذا افترضنا ألف دولار ثمناً لكلّ أسير سرقته من زريبة الأسرى لتسوقه غنيمةً إلى دينك ظنّاً منك أنّك تسوقه إلى الجنّة!

ذهل المفتي حتّى سال من فمه اللّعاب. تمتم:

- خمسة آلاف دولار ذهبي؟

- بل ربّما بِعْنا الرأس الواحد بمبلغ يفوق الألف دولار فيما لو وقف ورائي في حربي رجال أبطال أمثال الريّس مراد، لا رجال لا هَمَّ لهم إلاّ تسديد الطعنات إلى ظهري أمثال حاكم «فزّان» أو مفتي الديار الطرابلسيّة!

هدأت ثورة الباشا قليلاً. تأمّل الشيخ طويلاً ثم استدار ليستجير بالنافذة كما اعتاد أن يفعل كلّما استثاره الأعوان: هناك أمام النافذة المشرفة على الميناء يسرح البحر إلى الأبد فيمتصّ كلّ انفعال ويذهب بكلّ همّ.. البحر الذي خُلِقَ لكي يصير له زينة نظر منذ الميلاد. ولكنّه اغترب عنه بالشهوة إلى العرش. اغترب عنه منذ اليوم الذي أخذه علي باشا ليجلسه على هذا الفخّ بديلاً عنه. بل اغترب عنه منذ اليوم الذي ضبطه فيه الأب وهو يحوم حول الجوف الذهبي فقال له إن العرش ليس عرشاً بالخشب أو بطلاء الذهب، ولكنه عرش بحكمة المخلوق الذي

يحتويه العرش، لأنه إن لم يوهب دهاءً انقلب لصاحبه هاوية تبتلع مريد العرش. الآن فقط يستطيع أن يدرك سرّ خصام عليّ باشا الأب مع العرش، وسرّ هوسه بمعشوقه البحر.

غاب الباشا طويلاً إلى أن سمع في الوراء صوتاً:

– ولكن بأيّ حقّ أستطيع أن أتخلّص يا مولاي من نصراني طرق باب دار الإفتاء يبغي الدخول إلى دين اللّه دون سند قويّ!

– سند قويّ؟!

– أعني يا مولاي.. أعني وجود فرمان!

سكت الباشا. غاب في المدى الأزرق المزروع بسيوف الشيب. كان الزبد الناصع يتلاحق في البُعد بهمّة كالوَجْد غير مبالٍ بالبوارج الحربية التي تشقّ مياهه في كلّ صوب دون أن تجرؤ على تخطّي الفرسخ المميت الممتدّ جنوباً لئلاّ تقع تحت رحمة البطاريات المنصوبة على القلاع.

تمتم الباشا دون أن يلتفت:

– ستحصل قريباً على ما تسمّيه سنداً قويّاً! سأعمل على إصدار فرمان يبطل مفعول ذلك الفرمان الغبيّ الذي سنّه أحمد الأكبر، وربّما سنان باشا، أو درغوت باشا، لا أعلم!

استدار الباشا. خطا نحو المفتي. أضاف عاقداً يديه وراء

ظهره:

– سأقدم لك ذلك الفرمان هديّة!

تحرّرت سيماء المفتي من الشحوب فاستفهم:

– هل هو فرمان بتحريم دخول ملل النصارى لدين الإسلام؟

أقبل نحوه الباشا بمهل. أقبل بقامته القصيرة كأنه يتدحرج.

أجاب:

– كلاّ بالطبع. الفرمان لن يقضي بتحريم دخول ملل النصرانيين إلى دين محمّد، ولكنه فرمان يقضي بإباحة زواج بنات العائلة الملكية من أبناء الرعيّة!

عاد الشحوب يغزو سيماء شيخ الإفتاء فأوضح الباشا:

– ألم يكن إدخال ملل النصارى منذ البداية حيلة لئيمة أُريد بها تحرير مومسات القصر من العنوسة؟!

ابتسم وهو يفترس وجه الشيخ بمقلتيه الماكرتين:

– تريد أن تستنكر، أليس كذلك؟ اعلم، إذاً، أنّي أريد أن أحرّر رقبتي أيضاً من أسر النصارى. أريد أن أضع حدّاً لوجود زحام أناثٍ في رقبتي لأجد نفسي مكبّلاً في كل مرة أهمّ فيها القيام بعمل. فضيلة الشيخ لا يتخيّل عددهنّ. إنهنّ يتكاثرن كالجراء في زمن قصير فبأية حيلة يمكن التخلّص من جيوشهنّ إذا كان العرف لا يبيح إدخالهن إلى مخادع أبناء الرعيّة؟ إلى

متى أضحّي بأسرى يساوون وزنهم ذهباً مقابل أن أضمن لإحدى مومسات القصر رجلاً؟ فلتلتحق كلّ أميرة منذ الغدّ بحوذيّ، أو عتّال، أو حتّى بإسكافي، وليدعنني عليهنّ اللعنة لشؤون المملكة أخيراً!

سكت. تسكّع بالجوار عاقداً يديه وراء ظهره. سأل:

– والآن تستطيع أن تحدّثني بتفاصيل فضيحة المدعو «ولسون»!

ابتسم خلسةً فتكلّم مفتي الديار الطرابلسيّة:

– ولسون هذا كان آخر الأسرى الخمسة. جاءني ليعترف لي بأنه يريد أن يصير مثل.. مثل المستر لزلي!

– المستر لزلي؟

– هكذا تحدّث..

– تريد أن تقول إنه يريد أن يصير مثل الريّس مراد!

– استفهمت عن معنى الأحجية فطاف الدنيا قبل أن أفهم من الترجمان أنه قرّر النطق بالشهادتين والدخول إلى..

قاطعه الباشا:

– ألم تقرأ في أحجيته الدليل على غاية الأوباش في اعتناق الإسلام؟ ألم تخمّن معنى النيّة في أن يصير مثل الريّس مراد؟

– الحقّ أنّي لم أقرأ في أحاجيه ما يستثير الشكوك. وقد بدأت معه المراسم في اليوم التالي. نطق أمامي بالشهادتين

بحضور الشهود، ثم دعوته للانتقال إلى دار بالجوار لاستكمال المراسم..

- تقصد مراسم الختان.

- لقد حدثتُ الترجمان بضرورة الختان بالحرف الواحد يا مولاي، ولكنّي أجهل ما نقل ذلك الأبله للرجل، لأن «ولسون» هذا استفهم عمّا إذا كان الختان عملاً شبيهاً بما يقال له «التعميد» في ديانة النصارى فوافقته القول. ولكنّي فوجئت بردّة فعل الرجل عندما انتقلنا إلى الدار المجاورة وأقبل الإمام حاملاً العدّة..

- تقصد الموسى..

- رأيت الفزع في عيني الرجل قبل أن يستفهم عن كيفية ما يسمّيه تعميداً فقلت له إنكم في أوطانكم تعمّدون بالماء أما نحن فنطهّر بنصل السكين. لا أعرف ما قاله له الترجمان، ولكنه تردّد في الكشف عن سَوْأته. ولا أعرف كيف أقنعه الترجمان، ولكنه جُنَّ ما أن أنزل الإمام النصل على العضلة ليجتثّ قلفة الإثم فطَرَحَنَا جميعاً أرضاً. لقد هرب يا مولاي والدّم يسيل من بين فخذيه!

كتم الباشا ضحكة قبل أن يقول:

- أيعقل أن تعجزوا في القبض على الشقّي قبل أن يطوف أركان المدينة كلّها وهو يلوّث أرصفة الأزقّة بالدّماء؟!

٢٧- اللّقب

طرابلس. قصر السّراي. جناح الحريم.

في إحدى غرف جناح الحريم علا هرج. جعجعت أصوات النساء (مشتبكة بأصوات الرجال) بالجدل إلى أن زأر الباشا بأعلى صوت:

– إذا لم تتوقّف عن ممارسة هذا الهراء الذي تسمّيه شعراً فأنت منذ اليوم عدوّي ولست إبني!

كان سعاراً قد أصاب الباشا منذ أسقط الوشاة في أذنه ببعض الأبيات الشعرية المريبة المنسوبة لوريث العرش محمد بك فجُنَّ. اقتحم مجلس لَلاّ حوّاء بعد الظهيرة فوجد في حضرتها لَلاَّ فطّومة ورجلها «الأبله» (كما راق له أن ينعت محمد بك في الآونة الأخيرة)، فهجم على الشقيّ على الفور. فزّت للاّ حوّاء وهرعت نحوه وهي تتوسّل:

– يوسف! يوسف ! أنت وعدتني!

فكشّر في وجهها:

– لا تجسري على نعتي بـ «يوسف» في حضور هذا الأبله! أنا يوسف باشا القرمانلي أمير المؤمنين وملك المملكة الطرابلسية البربرية. هل فهمتِ؟ ثمّ.. ثمّ..

خنقته العبارة فاستعان بالتنقّل في المكان ذهاباً وإيّاباً:

– ثمّ إنّي لم أَعِدْ بشيء، بل أنتِ من وَعَدْ ولم يفِ بالوعد؛ هل نسيتِ؟ لقد أخذتِ على عاتقكِ أمر نهي هذا الأبله عن ممارسة هذه العادة المخجلة، ولكنّك خنتِ العهد!

فزّ محمد بك واقفاً:

– عادة مخجلة؟ بأيّ حقّ تصف قول الشّعر بـ «العادة المخجلة»؟

زأر الباشا:

– بحقّ الأبوّة! بحقّ.. بحقّ الوصاية على العرش!

استنكر الابن:

– بحقّ الوصاية على العرش؟

– بلى! بلى! بحقّ صاحب أمرٍ يهمّه من سيؤول إليه من بعده الأمر!

استخفّ الإبن:

– تتجاهل الإنسان الذي جعله صاحب العرش الأعلى خليفته في الأرض وتغالي في هدهدة العرش الملفّق من أعواد الخشب!

صرخ الباشا حتّى فزّ الزبد من شفتيه:

– لو علمتَ ما كلّفني الاحتفاظ بهذا العرش الملفّق من أعواد الحطب لما جرؤت على الاستخفاف به!

استدار نحو لَلاّ حواء:

– هل سمعتِ؟ لم يكفه أن يسمعني أشعاره بألسنة الناس، ولكنه يتشدّق أمامي بالسخرية من العرش!

التفت نحو الابن ليعلن:

– أنت لا تعلم أنّك تدفعني دفعاً لنزع لقب البكوية عنك!

انهارت للاّ فطّومة فجأة. بدأت تنشج بمرارة فاحتضنتها للاّ حوّاء وهي تتوسّل:

– استحلفك برفات الأسلاف يا مولانا ألاّ تفعل!

ولكن الإبن هبّ ليواجه الأب:

– أريد أن أُسمعك رأيي ياأبتي قبل أن تستعيد لقباً لم أعوّل عليه يوماً. أريدك أن تفهم أن الشعر ليس خلعة كلقب البكوية، ولكنه قَدَر. وما يهبه القدر كنز يهون إلى جواره فقدان أعظم الألقاب لأنه هبة ربّ الأرباب غير القابلة للاسترداد كما هو الحال مع الألقاب الموهوبة بيد العباد كالبكوية!

تبادل الأب مع الإبن نظرة كراهة حقيقية لأوّل مرّة. تمتم الباشا:

– هل سمعتِ يا للاّ حوّاء؟ هل هو مخلوق من طينتكِ.. أم.. أم..

غزا الشحوب وجنتيه. ازدادت الغضون على جبينه عمقاً. تلاحقت الأنفاس في صدره ثمّ ضاقت. غمغم بإعياء:

- جئتُ بنيّة أن أفاتح أمّك برغبتي في توليتك اللواء الذي سيذهب إلى «فـزّان» لتأديب المدعو «محمّد الشريف»، وها أنت..

اعترض الإبن:

- أنت لم تكن تنوي تعييني على رأس لواء «فزّان» لظنّك بأن لعنة الشعر التي تطوّق رقبتي قرين الخيبة الأبدية. أنت تتصرّف معي كما تصرف أحمد الأكبر مع السلف محمّد القرمانلي ليحقّره ويكسر فيه إرادة الفعل!

انهار الباشا على الأريكة. هتمل بيأس:

- يبدو أنّي لم أخطئ عندما أطلقت عليك اسم «محمد» تيمناً بالجدّ..

سكت لاهثاً فتكلّم الابن:

- أنت لم تأتِ إلى جناح الأمّ لتفاتحها في توليتي على رأس الحملة إلى «فزان»، ولكنّك أتيت لتزفّ لها بشرى تولية «محمّد المكنّي » على رأس الحملة ضدّ والي «فزّان»!

تأمّله الباشا ذاهلاً. حشرج:

- هل تتجسّس عليّ أيضاً؟

- لست في حاجة لأن أتجسّس عليك لكي أعلم ما تبيّته ضدّي يا أبي! أنت لا تعلم أن كلّ ما يقوله أو يفعله صاحب العرش في

الصباح لابّد أن يكون على كل لسان في المساء!

تمتم الباشا بدهشة ممزوجة بنبرة كالسخرية:

- حقّاً؟

رمق للاّ حوّاء في الركن ثمّ أضاف:

- بأيّ لسان يحدّثني هذا الشبح؟ كأنّي أسمع لهجة تفوح منها رائحة الخيانة على طريقة المدعو «محمّد الشريف»، أو على طريقة مفتي الديار الطرابلسية، أو.. كلّكم خونة! كلّكم اخترتم أنسب الأوقات لتسديد طعنات الغدر إلى ظهري!

هبّ واقفاً بسيماء يفترسها الغضب. انطلق خارجاً فعادت للاّ فطوّمة تلقي بنفسها في أحضان الأمّ كأنها تستجير بها من غضبة الباشا. بعد لحظة ناحت المرأتان بصوتٍ فاجع.

٢٨- الوشاية

قبل أن يذهب «جون ولسون» ليقرع باب دار الإفتاء، كان قد ذهب ليقرع باباً آخر تلبية لنداءٍ آخر: حام حول السجّان طويلاً، ثمّ همس له برغبته في مقابلة الريّس مراد لأمرٍ خطير. استخفّ به السجّان بالطبع، بل واستنكر وقاحته فلسع قفاه بسوطين اثنين، ولكنه عاد فوافق على رفع الأمر إلى أولياء الأمر عندما أكّد له «ولسون» أنه سينال مكافأة مجزية من رؤسائه لأن الأمر الخطير الذي ينوي إفشاء سرّه لوزير البحريّة سوف يدرّ على خزينة الباشا أموالاً طائلة في حال بلغ أسماع السلطات قبل فوات الأوان.

بعد يومين وجد «جون ولسون» نفسه يقف بين يدي الريّس مراد ليحدّثه عن سيرة مثيرة. قال إن القبطان «بينبريدج» ألقى في البحر بتسعة عشر صندوقاً مليئة بالدولارات في اليوم الذي سبق استسلام «فيلادلفيا». وعندما رأى الفضول يفترس سيماء الداهية الإيرلندي أضاف قائلاً إن القبطان ألقى إلى البحر بكيسٍ مملوءٍ بسبائك الذهب أيضاً. تفحّصه الريّس مراد بنظرة نفذت إلى قلبه قبل أن يسأل:

– هل أنت على يقين؟

فأومأ بالإيجاب. مضى صاحب البحرية يتأمّله بشهيّة مريبة



قبل أن يضيف لاستجوابه سؤالاً آخر:

– هل يوجد في السجن زملاء يستطيعون أن يؤكدّوا هذا الزعم؟

طأطأ «ولسون». تمتم:

– لا أدري!

استبدل الداهية الإيرلندي السؤال بسؤال آخر:

– أعني هل تستطيع أن تبرهن على ما تقول بشهود؟

سكت البحّار. تململ في جلسته، ثمّ:

– لا أدري عمّا إذا كان آخرون قد شاهدوا القبطان يومها..

سكت بتململ مرّة أخرى. أضاف:

– أعني أنّي لست مسؤولاً عن ضمير الأغيار، ولا أكفل إلاّ نفسي!

عاد المستر «بيترلزلي» يسدّد له نظرة نافذة، ثمّ:

– هل حدث بينك وبين القبطان خصام؟

– خصام؟

– أعني أنّك لا تجهل وجود ذلك النوع من الشكوك التي كثيراً ما تتحوّل إلى عداء بين الرئيس ومرؤوسه، فهل حدث وتطوّرت العداوة المكبوتة بينكما إلى صدام؟

تبادلا نظرة خرساء. هزّ «ولسون» رأسه نفياً، فَزَمَّ الريّس مراد

شفتيه، ثمّ:

- اذا ثبت ما تقول فسوف تحظى بمكافأة مجزية، أمّا إذا ثبت أن إفادتك مجرّد وشاية مرؤوسٍ برئيس فسوف تنال جلداً مجزياً أيضاً!

ولكن «جون ولسون» استنكر دون أن يرفع رأسه:

- وشاية؟

فحاصره الداهية بنظرته القاسية قبل أن يعلن:

- لأنّي لم أعرف في حياتي أسيراً يتطوّع ليفشي سرّاً لرئيسه دون وجود سرّ!

أعاد السجّان السجين إلى سجنه في حين بدأ الريّس مراد حملة الاستقصاء:أخضع القبطان «بينبريدج» لاستجوابٍ صارم على مدى ثلاثة أيام متتالية، ثمّ استجوب الأسرى فرداً فرداً، بدايةً بالضبّاط ونهايةً بالبحّارة. ولكنّهم أنكروا جميعاً علمهم بوجود الكنوز المزعومة على متن «فيلادلفيا». القبطان قال إن الأموال المخصّصة لتغطية نفقات البارجة مودعة لدى القنصلية الأمريكية بمالطا منذ الأسبوع الأوّل لدخول السفينة مياه بحر ليبيا. أمّا الضابط «جاكوب جونز» مريد القوانين السابق واليائس من جدوى مداواة المخلوق البشري فقد استنكر الزعم ونعته بـ «الدسيسة» حرفياً، ثم أضاف فصرّح قائلاً:

- لم أتصّور أن يبلغ فساد الطبيعة البشرية بالمخلوق البشري حدّاً يضحّي فيه الإنسان بأخيه الإنسان بسبب قارورة «روم»!

تأمّله الداهية الإيرلندي بفضول قبل أن يستفهم عن سرّ قارورة «الروم» فأجاب الأسير:

- «جون ولسون» اختلس من مقصورة القبطان زجاجة «روم»، فأمر «بينبريدج» بتمسيد جسد اللّص بالسياط!

لمع في مقلة «بيترلزلي» بريق مفاجئ:

- حقّاً؟

فأضاف الأسير:

- الانتقام هو البرهان على فساد الطبيعة البشرية!

سدّد رئيس البحرية نظرة نافذة إلى أسيره، ثمّ أضاف بلهجة استخفاف:

- حقّاً؟ ظننتُ أنّ الانتقام سرّ فلاح الإنسان أيضاً! ألم تقرّر أن تصير مرجعاً في علم القانون انتقاماً من معشوقتك «هيلين سومرس» لأنها تخلّت عنك لترتمي في أحضان رجل عاطل عن العمل ولا يملك من المواهب سوى حلاوة اللسان؟

تطلّع «جاكوب جونز» إلى الريّس مراد بدهشة صاحب الاستكبار الذي ضُبطَ متلبّساً بمنكر فابتسم ليداري الحرج ولكنه استجار

بالاعتراف لكي يربك الخصم:

- قد تصير اللهفة للانتقام حافز نجاح في حال وجدت مرتعاً في رحاب الروح الأخلاقية!

مضى الداهية يفترسه بنظرته الخفية، ثمّ تمتم غائباً:

- الروح الأخلاقية..

ابتسم ليضيف:

- قيل لي إنّك امتهنتَ الطبّ أيضاً.

- امتهنتُ الطبّ عندما توهّمت أنّي أستطيع أن أداوي أمراض الجسد البشري، ولكنّي أقلعت يوم اكتشفت أنّي لا أملك الحقّ في مداواة مخلوق يرفض أن يتداوى، تماماً كما توهمت يوماً أنّي أستطيع أن أجد دواءً للعلل التي تصيب روح الإنسان باحتكامي إلى محراب القانون، ولكني أيقنت بفساد الطبيعة الإنسانية فغسلت يدي من كلّ أوهامي وذهبت إلى البحر لأجرّب حظّي في الحرب!

- أي أنّك ذهبتَ لتقتل بعد أن أخفقتَ في أن تحيي!

قال الريّس مراد العبارة ببرود فتزعزع «جاكوب جونز» للمرة الثانية في يوم واحد، فعاد يعترف:

- اخترتُ أن أميت بدل أن أحيي لأنّي اكتشفت أن الأيسر من أن تحيي هو أن تميت!

– أي أنّك تريد أن تثأر لنفسك من الضحيّة التي يمثلها مرضاك لأنها رفضت إحسانك!

ابتسم الأسير، ولكنه لاذ بالصمت. أضاف الإيرلندي:

– لا أعرف كيف خذلك حدسك فنسيتَ أن الإنسان يرفض الإحسان حتّى لو كان هذا الإحسان خلاصاً، لأن الإحسان (سواء كان تحريراً من مرض، أو خلاصاً من رذيلة) هو العقار المميت للحرية. ولو لم يفعل الإنسان ذلك لما صار منذ الخليقة لغزاً!

غمغم الأسير:

– ذهبت لأضع وصيّتي بين يديه بحسن نيّة!

– هنا خانتك مواهبك مرّة أخرى لأنّك نسيت أن الإنسان لا يعترف بحسن النوايا!

كَزَّ الأسير على أسنانه فسأل الريّس مراد فجأة:

– ما سرّ استماتتك في نسف السّفينة قبل الاستسلام؟

شيّع الأسير رأسه نحو الداهية الإيرلندي لحظات، ثمّ أجاب:

– ذاك كان تأدية واجب!

ولكن الريّس مراد استخفّ:

– تريد أن تقول إن ذاك كان تأديةً لواجب الانتقام!

– واجب الانتقام؟

- الإنسان الذي ذهب إلى البحر ليميت بعد أن أعيته الحيلة في أن يحيي وحده المؤهّل لأن ينحر ما يزيد على ثلاثمائة روح قبل أن ينتحر!

استنكر الأسير:

- قبل أن ينتحر؟

فأجاب الإيرلندي ببرود:

- بالطبع! أنت لم تذهب إلى البحر بنيّة أن تميت، ولكن ذهبت إلى البحر بنيّة أن تموت!

استنكر الأسير:

- هذا ما لم يخطر لي على بال!

- لم يخطر لك هذا على بال لأن رغبة الانتقام التي ظننتها في أول الأمر سرّ نجاح ما لبثت أن تحوّلت ورماً خبيثاً يفترس فيك الضمير!

انكبّ رئيس البحرية على رزمة القراطيس ليدوّن ملاحظة، ثمّ واجه أسيره بِخلْقَة منكرة ليقول:

- سأعمل على جلوسك في الحبس منفرداً منذ اليوم، لأن أمثالك لا يشكّلون خطراً على أنفسهم وحدهم، ولكنهم الورم الذي يستطيع أن يهلك الآخرين بالعدوى!

بعدها جلس «بيترلزلي» في مكتبه وحيداً ملفوفاً بالوجوم.

جلس طويلاً قبل أن يأمر باستحضار المدعو «جون ولسون».
توضّحه باسماً قبل أن يواصل الاستجواب:

- هل أنت على يقين أنّك لم تخفِ عنّي شيئاً في سيرة الكنوز المفقودة؟

تطلّع إليه الأسير بنظرة شكّ. تمتم:

- كلاّ!

- لقد سألتك في المرّة الماضية عمّا إذا كنت على عداء مع القبطان..

- ليس بيني وبين «بينبريدج» عداوة.

- ولكن ماذا عن سيرة القارورة التي كانت سبباً في قصاصٍ كلّفك تلقّي أقسى صنوف الجلد؟

- عقوبة الجلد ليست دليلاً على عداوة، لأنّها اللغة الوحيدة التي يتقنها القبطان «بينبريدج»، فلم يَسْلم منها ظهر بحّار!

- حقّاً؟

- تستطيع أن تكشف عن ظهور الكلّ إذا كنتَ لا تصدّقني!

سكت الريس مراد. سأل فجأة:

- ولكن سيرة القارورة ليست أكذوبة.

- حتّى لو لم تكن أكذوبة فهي ليست سبباً لعداوة،فكيف إذا كانت أكذوبة؟

سدّد إليه الإيرلندي نظرة النفاذ. ثمّ:

- هل تصرّ على إنكار الواقعة؟

أجاب الأسير بعناد:

- بالطبع!

- حتّى بعد أن أكدّها الجميع؟

- حتى بعد أن أكدّها الجميع.

- حتّى بعد أن أكدّها «الهندي الأحمر»؟

سكت الأسير لحظات. أجاب:

- الهندي الأحمر هو الوحيد الذي أكدّ رؤيته لي خارجاً من مقصورة القبطان، ولو لم يؤكدّ الهندي رؤيته لي لما تجرّأ أحد ليشهد ضدّي إيماناً من الجميع بأن ملّة الهنود الحمر لا تعرف الكذب. ولكن الهندي الأحمر لم يضبطني بالجرم المشهود!

- تقصد أنه لم يؤكّد في شهادته رؤيتك حاملاً القارورة بعد خروجك من المقصورة.

- صدقت!

انتصب بينهما صمت ثقيل إلى أن تكلّم الإيرلندي:

- أجبني على سؤال واحد: لماذا اختلقتَ سيرة الكنوز المفقودة إذا كنتَ تدّعي أنّك لم تفعل ذلك على سبيل الثأر من القبطان؟

لم يجب «جون ولسون» فسأل رئيس البحرية:

– هل تريدني أن أصدّق فرية كهذه إذا كان دهاة الغوص لم يعثروا لها على أثر طوال الأيام الماضية فأصدّع رأس الباشا بالخرافات؟

فزّ «بيتر لزلي» واقفاً.

بعد أيام أفلح «جون ولسون» في الفرار من المعتقل ليستجير من القصاص المنتظر بدار الإفتاء!

٢٩ - الدّسيسة

جرثومة العِرق لغز لم يهتدِ لسرّه أدهى الدهاة، وهاهو محمّد المكّني يدخل بجيشه واحات «فزّان» غازياً حاملاً في متاعه وصيّة الباشا مجسّدةً في مخلوقٍ كئيب اللّون ينتمي إلى سلالة رجلٍ خرج من هذه الأنحاء يوماً متنكّراً باسم الفطيسي كحيلة لئيمة لإخفاء هويّة آثمة حملتها أجيال السلالة في لقب «لون اللعنة». وقد قرّر الباشا أن يطهّر حاضرة المملكة من جراثيم الأجناس المشبوهة فأرسل سلالة المدعو «غانم» إلى حذاء جبل نفوسه لتؤسس هناك فرعاً عُرف فيما بعد باسم «كولوغليّة العزيزية». وهاهو يحمّله اليوم وزر سلالة «لون اللعنة» ليدفنه في رمال «فزّان» حيّاً أو ميّتاً كما عبّر الباشا حرفياً. وعندما استفهم من الباشا عن معنى هذه العبارة الغامضة حدجه الباشا باستنكار قبل أن يقول: «لماذا تجتهدون في استنطاق ما أسقطته العبارة، إذا كان القول مترجماً في الإشارة؟ لماذا أضطرّ لأن أبتذل عضلة لساني فأقول: نصِّبْهُ عاملاً لي على هذه الفلاة السخيّة إن استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، فإن أعجزتك الحيلة فادفنه دفن قابيل لأخيه هابيل حتّى لا يقع عليه بصري في مملكة الشمال، فهل تعقل؟!». لقد عقل بالطبع لأن يقينه

بأن دوره سوف يأتي أيضاً يوماً فيجد نفسه منفيّاً إلى شرق الحاضرة أو غربها لأن سلالة «المكّني» جرثومة عريقة أخرى تشبثت بجلدة الحاضرة منذ أزمانٍ سبقت وصول أحمد الأكبر إلى الحكم فحاول الأخير اجتثاثها يوم أقدم على التخلّص من الأخوين المكّني غيلةً. ولكن السلالة لم تنقطع لأن الجرثومة لا تموت. وما لا يطيقه أهل السلطان ليس حضور هذه السلالات، ولكن خلود جرثومة هذه السلالات. ولهذا السبب يتّقون شرّها بتقريبها أو استخدامها حيناً، وبإبادة عرقها حيناً آخر تكفيراً عن أفضالها، لأن الإحسان هو مالا يطيقه الملوك.

وهاهو سليل آل المكّني (الذين دفعوا ثمن جهلهم بطبائع أهل المُلْك) يدخل بجيشه وطن العزلة الذي كان له الفضل الأوّل في تأسيس مجد أسلافه الأوائل بما وهبته لهم من ثروات.

أمر بنصب مخيّمه خارج أسوار واحة «مرزق» ودعا عقلاء الأهالي للاجتماع. في المجلس. لم يبحث مع القوم أي شأن، ولكنه سألهم في نهاية المطاف سؤالاً عابراً يقول: «مَن دلّني منكم على حميم المدعو «محمد الشريف» أجزلتُ له العطاء!».

في المساء قاد له الأشياخ «سعيد السويني» وسلّموه له يداً بيد ليقولوا: «منذ دخل إبليس، لعنه اللّه، قلب الرجل لم يطمئن لمخلوق غير ابن عمّه سعيد السويني هذا!». اختلى المكّني بابن

عمّ صاحب المسّ حتّى الهزيع الأخير من الليل. وفي الصباح فوجئت الواحة برأس الشقيّ محمد أحمد السويني معلّقاً على باب سور «مرزق» والدّماء مازالت تقطر منه بسخاء. عاد رسول الباشا لدعوة الأعيان للاجتماع. في المجلس اعترف إبن العمّ بتخليص الواحة من الفاسق على حدّ تعبيره. بل تباهى بعمله وتحدّث عن الطريقة التي استدرج بها إبن العمّ بإسهاب كأنّه يروي مأثرة بطولية. انتهى سعيد السويني من روايته فالتفت المكّني إلى الأشياخ ليلقي لهم بسؤال بريء: «ما عقاب القاتل في عرفكم؟» فأجابوا بصوت جماعي: «لم نعرف عقاباً لقاتلٍ غير القتل!» أمر رسول الباشا تنفيذ حكم القوم في المدعو سعيد السويني في الحال؛ فلم يحلّ الضّحى حتّى رأى أهل الواحة رأس ابن العمّ معلّقاً على باب السور إلى جوار ابن عمّه الشقيّ! استمرأ المكّني بسمة ملك الحظوظ الذي مكّنه من إخضاع الواحة دون إراقة قطرة دم واحدة، ففاتح الأشياخ في اليوم التالي بتنصيب سليل الفطيسي بديلاً لسلالة «الشريف»، ولكنه فوجئ بوجوم القوم. هيمن الوجوم المنكر زمناً قبل أن ينقلب إلى استنكار صريح. قال أكثر الأعيان وقاراً: «هل يرضي رسول الباشا الذي حقّق لنا الخلاص أن يرتدّ عن عطيّته فيحيل خلاصنا إلى قصاص؟». عاد الوجوم المزموم



يخيّم على المجلس فقرّر المكّني أن يجرّب حظّه: «هل يضيركم أن يحكمكم سليل من طينتكم؟» فتدخّل أكبر الشيوخ سنّاً: «آل الفطيسي لم يكونوا من طينتنا يوماً. ولم يلقّبوا باسم «لون اللعنة» إلاّ للتعبير عن سيرتهم كشذّاذ آفاق لم تطأ أقدامهم أرضاً إلاّ وأصابتها اللعنة، عليهم اللعنة!». فوجئ رسول الشمال بالقوم يردّدون خلف الشيخ عبارة «عليهم اللعنة» بصوت مهيب كأنّهم يتلذّذون بلعن إمام الشرور الرجيم لا سليلاً تائهاً لعائلة بائدة. سكت المكّني إجلالاً لصمتهم فعلا في المكان صوت آخر: «إذا أصرّ الباشا على تكبيلنا بسلالة عبد العبيد هذا فلن نضمن بقاء إنسان واحد في ديار هذه الواحة!»، فاستنكر المكّني: «هل يعقل أن تهجروا أرضكم وتبدلوا الوطن بالحياة في الخلاء؟». فحاججه الشيخ: «الهجرة ديننا، والإيمان هو وطننا!». طاف رسول الشمال وجوه القوم طويلاً. همهم لنفسه أخيراً: «يجب ألاّ نعوّل على هبات ملك الحظوظ دوماً، لأنه إذا وهب اليوم باليمنى، فلابدّ أن يستعيد في الغدّ باليسرى!». في فجر اليوم التالي استيقظ مبكراً. خرج إلى الخلاء الذي يستلقي جنوب الواحة. في السبسب العنيد الممتدّ إلى الأبد (كأنّه ينوي أن يلتحق بالسماء العارية، كأنّها تستعير عريّها من عريّه) احتفرت أخفاف الإبل طريقاً مستقيماً يستميت حتّى يبتلعه

الأفق. في هذا السبيل الممهّد بأحمال القوافل المتجهة صوب الأدغال سار في الركاب سلف العائلة ليكوّن ثروةً جلبت له في الأوطان صيتاً. وكان يمكن أن تحقّق لسلفيه المغدورين الأمان من جور السلطان أيضاً لولا حضور ذلك البعبع الذي لا يطيقه صحبان السلطان وهو الصيت. لأن الصيت، في عرف الملوك، جوهرة لم تُخلق إلاّ لتستقرّ شعاراً في رأس التّاج. وكلّ من سوّلت له النفس الأمّارة بالسوء الفوز بها فقد مارس جنس السّطو الذي لا يغتفر. وعلّ إخفاقه في تنصيب سليل اللعنة الملقّب بـ «الفطيسي» والياً على حاضرة الواحات ضربة حظّ من حيث ظنّه سوء حظّ؛ لأنّها رقيّة ستجبّ ذلك الصيت المهلك الذي ستجلبه ثرثرات الدهماء حول حكمته في دفن فتنة «فزّان» دون سفك دماء، ممّا سيؤذي أذن الباشا حتماً بدل أن يطرب لسماعها، فهل لفّق ربّ الأرباب ملّة الملوك من طينة أخرى تختلف عن طينة بقيّة المخلوقات، أم أن السرّ يكمن في طبيعة الحكم الذي يأبى إلاّ أن ينافس ربّ الأرباب في جبروت سلطانه فيقدّم البرهان على قدرته كل يوم بكسر حتّى عود الشجر إذا شيّع رأسه؟

نكبة أجداده بمثابة الوصيّة الصريحة التي تقول إن على من كرّس دنياه لخدمة أهل السلطان أن يحسب نفسه مجرّد ورقة

على شجرة خريف تنتظر هبّة الريح لتسقط.

بعد أيام تلقّى قرطاساً ممهوراً بتوقيع الباشا يأمره بمتابعة طريقه إلى «برنو» لإخضاع المتمرّدين على سلطان« محمّد الأمين». في الفرمان لاحظ استهانة الباشا بانتصاره المجّاني فلم يكلّف نفسه عناء الإشارة إليه ولو بكلمة واحدة. أليس هذا دليلاً آخر على وجود سوء النيّة؟

ولكنه امتثل فشدّ الرحال في اليوم التالي: سلك الطريق الصارم القديم الذي حفرته أخفاف قوافل أسلافه في صلد الصحراء الممتدّة إلى ما لا نهاية. شدّ الرحال لا ليخلع «محمّداً» عن العرش كما فعل بمعركة «فزّان، ولكن ليثبّت وجود «محمد» الآخر في جوف العرش. لأنّ أدعياء الدواخل هؤلاء لا ينتحلون اسم الرسول تيمناً برسالة الرسول، ولكنّهم يتستّرون بالاسم الكريم ليذرّوا الرماد في العيون. فهم يعلمون أنّهم لن يتمكنوا من خداع البسطاء إذا لم يتنكّروا وراء هذا القناع فيقرأوا على الملأ ما أن ينزلوا أسواق هذه الأركان مزامير البهتان التي يدّعون فيها انتماءهم المزعوم إلى سلالات الأنبياء ليشتروا بهذه الأكذوبة الأمان أوّلاً، ثمّ السلطان تالياً.وكان باشوات طرابلس يتندّرون بهذه الحيلة، ولكنّهم يستخدمونها كسيف مسلّط على رقاب الأدعياء: يباركون الأشقياء ما

حرصوا على تبعيّتهم لهم ومدّهم بالكنوز والمكوس، ولكنّهم يكشفون حقيقتهم، بل ويتسهزئون بانتماءاتهم فيطيحون بهم ويبيعونهم في الأسواق كسلالات عبيد كما فعل أحمد الأكبر الذي باع سلف هؤلاء الأوباش بقطعتي حديد صدئتين في المزاد ثم عاد فاشتراه بأبخس من قطعة الحديد لينصّبه من جديد والياً على «فزّان» إمعاناً في التحقير. فأيّ ذلّ يمكن أن يحتمله الإنسان مقابل أن ينعم بلحظة سلطان؟!

في الرحلة لإخضاع قبائل «برنو» حمل المكّني معه حمله الثقيل: سليل اللّعنة!

حمله معه ليتخلّص من الوزر هناك، أو «ليدفنه»، كما عبّر الباشا يوم وضعه غلاً في عنقه. تركه في عهدة «محمّد الأمين» بعد أن قهر المتمردين وأعادهم للطاعة، وقفل عائداً. ولكن سليل الفطيسي عرف كيف يفرّ من ديار «برنو» ليعود إلى واحة «مرزق» متنكرّاً باسم «محمّد» مدعياً الانتماء إلى سلالة الأشراف، تماماً كما فعل كلّ الأبالسة الذين أقبلوا على الصحراء من أوطان المجهول ليمتلكوا، بهذه التعويذة اللئيمة، الناس وما امتلكت أيادي الناس!

٣٠- الميعاد

«ديفيد بورتر» أوّل من رحّب بالتوقيع على وثيقة التعهّد بعدم الهرب مقابل حريّة التنقّل في المدينة التي اقترحها الباشا فَسَرَح في الحقول أيام وجود الأسرى في الزريبة بضاحية المنشية، ثمّ تسكّع في شوارع المدينة بعد نقل الأسرى إلى السجن الجديد الواقع داخل الأسوار الذي عُرف فيما بعد باسم «سجن النصارى». ولكنه لم يجرؤ على الذهاب لزيارة حارة «أهل الشتات» إلاّ بعد أن حظي ضبّاط «فيلادلفيا» بالإقامة في بيت المستر «كاثكارت» (قنصل أمريكا الطريد) بموجب عفو من الباشا لإثبات حسن النوايا.

لقد فوجئ منذ أوّل يوم بوجود حارتين في طرابلس لأبناء ملّته بدل الحارة الواحدة كما هو الحال في كل مدن الدنيا، وتعجّب لذلك كثيراً. تردّد طويلاً قبل أن يبدأ بزيارة «الحارة الصغرى»، ولكنّ حاخاماً أخبره بغياب زعيم الحارة خارج المدينة لإنجاز بعض الأعمال التجارية، فتوجّه إلى «الحارة الكبرى» ليقرع باب زعيمة القوم «ميزلتوب». وهي امرأة قيل له إنها ورثت العرش عن أمّها الملقّبة باسم «الملكة إستير» تيمّناً بسلفتها التي أوردتها أسفار العهد القديم لتلعب دور المنقذ لأبناء قومها من خلال علاقتها بملك الفرس إبّان الأسر

البابلي. «إستير طرابلس» أيضاً ارتبطت بعلاقة حميمة مع عليّ باشا الأب (كما روى له أهل الفضول) مضحيّة بسعادتها في سبيل إسعاد أبناء جلدتها. وهو ما فعلته ابنتها أيضاً، كما يقال، من خلال ارتباطها بعلاقة مع يوسف باشا في الزمن الذي سبق جلوسه على العرش، وتعرّضت للنفي إلى مالطا بسبب هذه العلاقة، ولكنّها عادت من المنفى بعد النصر الساحق الذي حقّقه يوسف على شقيقيه لتجد نفسها وريثة عرش والدتها التي قضت نحبها متأثّرة بصنوف التعذيب التي تلقّتها على يد المغامر «علي برغل»: فهل قضت الأقدار على نساء بني عبران أن يلعبن أبد الدهر دور الغانية «إستير» التي تقدّم نفسها قرباناً في سبيل إنقاذ شعبها كما تروي أسفار العهد القديم؟

انتظر في قاعة الاستقبال طويلاً قبل أن تظهر على السلّم امرأة مهيبة ورثت عن الأمّ بدانتها الأسطورية (التي حدّثه بها أهل الفضول) إلى جانب عرش الزعامة: ترتدي فستاناً كئيباً فضفاضاً مخرّم الأكمام، تستقرّ على جيدها المدجّج بأكوام الشحوم قلادة فضيّة تجسّد زواياها مسدّسة الأركان «نجمة داوود». مدّت له يداً مغمورةً بأكداس الشحم فلاحظ في سيمائها عندما توضّحها عن قرب جمالاً غابراً. رحبّت قائلة:

- ألا يخشى أسير القارّة المفقودة أن يثير الشبهات بزيارته إلى حارة أمّة الشتات؟

فداعبها قائلاً:

- لا يضير سجين المعقل الأصغر أن يخرج لزيارة معقل أكبر!

لمعت مقلتاها الغارقتان وراء سدود الشحوم بوميض المرح قبل أن تقول:

- هل يرى أسير المجهول في وجود الحارة سجناً؟

- بالطبع!

ثمّ استدرك:

- ليست الحارة وحدها سجن، ولكن المدينة كلّها سجن، ولو لم تكن سجناً لما كانت في حاجة إلى أسوار، بل ولما احتاج الداخل إليها إلى إذن دخول!

توعدته بسبّابة ممهورة بخاتم مسكوك من فضّة متوّج أيضاً بـ «نجمة داوود» قبل أن تقول:

يجب ألاّ تنسى أنّك تخاطب زعيمة قومٍ آمنهم وليّ أمر هذه الديار التي تنعتها بـ «السجن»!

هَمَّ بأن يعبّر لها عن اعتذاره، ولكنّها استوقفته:

- ولو كانت المدينة سجناً كبيراً حقّاً لما سُمِحَ فيها لعدوّ جاء يقصفها بالقنابل بالخروج إلى حقولها للنزهة!

- لا أملك إلاّ أن أعبّر للباشا عن امتناني لقاء تسامحه معنا نحن الضبّاط، ولكنّي لا أخفي عنكِ مدى الامتعاض الذي شعرت به عند مروري بالميناء لأرى كيف يعاند رفقائي لانتشال إحدى السفن الغارقة في البحر وهم يرتدون خرقاً لا نستطيع أن نسمّيها ثياباً في صقيع مثل هذه الأيام!

احتجّت المرأة:

- إذا أقبلتَ على داري لتتوسّل وساطةً لهؤلاء القتلة الذين قصفوا أطفال الملّة بالأمس فيجدر بك أن تعود من حيث أتيتَ!

تمتم «بورتر»:

-لم آتِ، يا سيّدتي، إلاّ للإطمئنان على أحوال الملّة!

حدجته «ميزلتوب» بحذر، ثمّ:

- حقّاً؟!

طأطأ «بورتر». هتمل:

- لم يأتِ بي إلاّ حنين التائه!

اختلست نحوه نظرة شكّ، ثمّ سألت:

- لا أظنّ أن ركنّا في الدنيا يمكن أن يخلو من أبناء الملّة حتّى لو كان هذا الركن أرض القارّة المفقودة!

- قد يوجد في القارّة المفقودة أبناء ملّة، ولكن لا وجود هناك



للحارة!

– ها أنت تعترف بأفضال الحارة على الملّة بعد أن رجمتها بالنعت المنكر منذ قليل!

ابتسم «بورتر» بحزن. طأطأ ليقول:

– ظننتُ أن الحارة التي نحملها في القلب أكثر مناعة من حارة تحميها الجدران.

استفهمت بنظرة، فأضاف:

– أعني متون «العهد»!

أجابت ببرود:

– هيهات أن تكفي متون «العهد».

– لماذا؟

– لأنّ.. لأنّ الناس إذا اجتمعت احتاجت إلى كيان لتيسير شؤونها الدنيوية!

أقبلت فتاة تحمل للضيف قدحاً من البرتقال فسكت «بورتر». تأمّل السائل لحظات قبل أن يتناول جرعة. قال:

– الحقّ أني أردت بالمجيء أن أروي ظمأي للقاء أبناء الملّة، لأنّي أحيا غريباً في الوطن الجديد!

قالت غائبة:

– كلّنا أغراب!

ساد وجوم. أضافت بعد حين:

– لسنا وحدنا الغرباء، ولكن كلّ الأغيار الذين التقيتهم في طريقك إلى هنا غرباء!

تململ الضيف في جلسته. استجار بالقدح فتناول جرعة برتقال أخرى. تردّد قبل أن يسأل:

– أردت أيضاً أن أستفهم عن سبيل للبقاء في هذه الديار!

استنكرت «ميزلتوب».

– تستفهم عن سبيل للبقاء في هذه الديار؟

همهم الرجل كأنه يحدّث نفسه:

– في قلبي ظمأ إلى أرضٍ بلون الزعفران. في قلبي ظمأ إلى الأرض التي تنطق بوصايا السلف. في قلبي.. في قلبي ظمأ إلى وطنٍ يتحدّث بروح العهد!

تطلّعت إليه بفضول. سكتت زمناً قبل أن تقول بلهجة تنطق بخيبة الأمل:

– في قلب كلّ منّا ظمأ إلى الأرض التي تتحدّث عنها، ولكنّنا نقضي العمر كلّه في الحارة برغم وجود الأرض التي تتحدّث عنها على بعد فرسخ!

– ها أنتِ تعترفين بإفناء حياتكم وراء جدران السجون!

ابتسمت «ميزلتوب» باستخفاف:

– هل التحقَت ببحرية القارة المفقودة طمعاً في العثور على أرض الميعاد؟!

تمتم الضيف:

– أرض الميعاد..

فقاطعته:

– لا وجود لأرض الميعاد في أي أرض!

غمغم:

– هل تعتقدين..

فقاطعته مرّة أخرى:

– لا وجود لأرض الميعاد في أرض الميعاد ولا في أي أرض، أرض الميعاد..

– هل تظنّين..

– صدّق إنسانة عرفت المنفى مبكّراً؛ المنفى الموروث والمنفى إلى جزر المجهول: أرض الميعاد فردوس مفقود، وإذا كان لغز مثل الحرية يعدنا بها فلا يفعل ذلك إلاّ لأنّه لغز، أعني بشرط القبول بالموت مصيراً!

سكت الضيف فأضافت المضيفة:

– أوصيك أن تعمل على إقناع رؤسائك لافتدائك بأسرع وقت وعُد إلى بحرك لأن تلك هي أرض ميعادك. لأنّ.. لأن منفاي في جزيرة مالطا علّمني أن البحر ما هو إلاّ صحراء من ماء، كما الصحراء ما هي إلاّ بحر من رمال!

٣١- الغبار

في بيت القنصل الطريد «كاثكارت» استقرّ ضبّاط «فيلادلفيا».
في القاعة الفسيحة التي تتوسطّ البنيان وقف القبطان «بينبريدج» مشدوداً إلى الأرفف السخيّة التي تطوّق الجدران مدجّجةً بكتبٍ مجلّدة تجليداً فاخراً، مصفوفةً بعناية في جوف الأرفف الخشبية المشذّبة، تعلوها طبقة من غبار لئيم يحمل في ذرّاته الخفيّة رسالة الفناء.

بجوار القبطان وقف «ديفيد بورتر» يتابع خلسةً إيماء الفضول في سيماء رئيسه. تمتم بعد لحظات:

– يدهش سيّدي أن يرى في بيت إنسان كـ «كاثكارت» كنزاً من هذا القبيل. أليس كذلك؟

تناول القبطان المنكوب مجلّداً سميناً كئيب اللّون، ممهوراً ببصمات المسحوق اللئيم، قبل أن يجيب:

– هذا يعني أنّنا نخطئ عندما نحكم على الإنسان ما لم ندخل بيته!

تحسّس جلدة الغلاف بحذر. تأمّل راحة كفّه الملوّثة بعدوى الوباء الذي سيفترس جسده أيضاً يوماً. أضاف غائباً:

– أعني أن كلّ حكم خارج بيت المحكوم هو حكم غيابي!

وافقه المرؤوس:



- بلى! بيت الإنسان هو قلب الإنسان، ولا نملك الحقّ في إصدار حكم على إنسان ما لم ندخل قلبه!

- لا نملك الحقّ في إصدار حكمٍ، فكيف إذا حمل هذا الحكم إدانة؟

تناول المرؤوس من الرفّ كتاباً. نفخ عنه الغبار فعطس مرّتين. تصفّح المجلّد، ثمّ راق له أن يتفلسف:

- الكتاب طريد الغبار. حيثما وُجِدَ كتاب فثمّة غبار.

صحّح القبطان:

- الأصحّ أن نقول إن الكتاب معشوق الغبار، لأنّ الغبار يطارد الكتاب ليفني الكلمة!

وافقه المرؤوس:

- هذا يعني أن الكلمة هي الطلسم الوحيد الذي أعجز الغبار في تأدية واجبه الخالد.

سرح القبطان في حلم:

- الكتاب والغبار. حجاب الخلود ووعاء الموت. الزمن في ملحمة العراك مع الهباء. حقّ للغبار أن يُقهر بيد الكلم. ولكن الهباء يكابر برغم ذلك فيطارد الكتاب أينما حلّ لأن الفناء ليس رسولاً، ولكنّه الربّ الذي لا يعترف بالأعجوبة حتّى لو كانت مسلّحة بروح الكلم.

- وبرغم ذلك فلا رهان يبقى لسلالة الإنسان غير الكلمة.

حاجج القبطان:

- اذا كنّا لا نستطيع أن نعترف بالكلمة كوريث للعالم، فإنّها أصلح عزاء للسجناء!

تطلّع إليه «بورتر» بفضول، فأضاف:

- هذا إذا أفلحنا في استثمار عدائها الخالد مع الزمن!

دسّ «بورتر» المجلّد في صف الكتب. علّق:

- قد تجدي الكتب في مداواة الإحساس بالوقت، ولكن هيهات أن تجدي في نيل الخلاص من كيد الدنيا. والدليل هو «كاثكارت» التي خذلته الحكمة في كسب الجولة مع الباشا برغم حضور هذا الكمّ الهائل من الكتب!

صحّح القبطان:

- تقصد خسارته في العراك مع الداهية الإيرلندي، وليس مع الباشا!

ابتسم «بورتر» فاستفهم القبطان:

- أنت لم تحدّثني عن السيرة مع زعيمة الملّة.

نكس «بورتر»، ثمّ أجاب بخيبة:

- زعيمة الملّة صدّتني، هذا إن لم أقل طردتني!

استنكر القبطان:



– طردتك؟

– قالت إن «أرض الميعاد» خرافة لا وجود لها!

تعجّب القبطان:

– وهل ذهبتَ لزيارتها طمعاً في الفوز بـ «أرض الميعاد» حقّاً؟!

ابتسم مريد العبور بحزن ممزوج بمسحة استخفاف. تنحَّى جانباً. جاور الشباك المطلّ على البحر. راقب قطع السفن التي تطفو فوق المدى الهادئ كأنها خرجت في نزهة لشمّ النسيم، أو غزوة لاصطياد الأسماك، لا استنفار لصدّ عدوّ. كان البّحارة يلوّحون بأيديهم لبعضهم بعضاً باسترخاء من يتبادل التحيّة، لا بانضباط جند يتبادلون المعلومات. ويبدو أن الناس يألفون البلايا (بما في ذلك الحروب إذا كُتب لها أن تعمّر طويلاً) فيستهترون لا إعلاءً لشأن مرض كاللامبالاة، ولكن استجابةً لهاجس خفيّ هو تجاهل الموت.

أجاب «بورتر».

– مَن منّا، ياسيّدي، لا يبحث عن «أرض ميعاده»؟

استدرك القبطان:

– أردتُ أن أتساءل عمّا إذا كنتَ قد ذهبتَ إلى هناك طلباً للجوء إلى هذه الديار بدل الذهاب للإطمئنان على أحوال أبناء الملّة.

– ولماذا لا أذهب إلى هناك للاستفهام عن طريقة المقام في

هذه الديار؟

تقدّم القبطان نحو مرؤوسه خطوات. جاور النافذة ليتساءل:

– لا أصدّق أنّك تتكلّم جاداً!

أجاب المرؤوس ببرود:

– ولماذا لا أتكلّم جادّاً؟ هل تراني أقوى على تحمّل صنوف الإذلال من كلّ الأسرى الذين تنكرّوا لدينهم مقابل العيش كإنسان، لا كبهيمة؟

تعجّب القبطان:

– لا أصدّق ما أسمع!

فأضاف المرؤوس:

– فليعلم سيّدي إذاً أنّي الأسير الوحيد ربّما في هذا المعتقل الذي لا يحتاج لأن يتنكّر لدينه كي يتحرّر من الأسر ويفوز بحقوق المواطن الطرابلسي!

– حقّاً؟

– إنه امتياز الديانة اليهودية!

عاد القبطان يتعجّب:

– هل بسبب وجود جالية الملّة؟

– ربما!

تفحّصه القبطان كأنه يراه لأوّل مرّة، فأضاف «بورتر»:

– ولكنه امتياز مخيّب للآمال إذا علمنا أنه يلغي امتيازاً

أعظم!

– يلغي امتيازاً أعظم؟

– بلى! إنه يحرمني من امتياز الزواج من بنات العائلة الملكيّة!

أطلق «بورتر» ضحكة عصبيّة قبل أن يبتلعها فجأة ليضيف:

– هذا هو سرّ إقلاعي عن أفيون السباق، وليس خلوّ الأمكنة من أرض الميعاد!

حشرج القبطان:

– سباق؟

– سباق الفرار من حطام «فيلادلفيا»!

عاد يقهقه بصوت عالٍ كأنّه أُصيب بنوبة مسّ. تابعه القبطان بدهشة قبل أن يستعيد الرجل صوابه ليقول بنبرة كآبة:

– إذا أخفقتُ في نيل «أرض الميعاد»، ثمّ حُرِمتُ التسلّل إلى مخادع صبايا البلاط على طريقة الداهية الإيرلندي، فماذا يتبقّى لأمثالي غير نفض الغبار عن أغلفة الكتب، والجلوس إلى هذه المنضدة لإفناء الأيّام في معاندة الزمن؟!

٣٢- الدرويش

في مقرّ إقامته بالقاهرة استقبل «وليام إيتون» في مساء أحد الأيّام رجلاً مريباً استجابةً لطلبه. فقد حام الرجل حول المقرّ منذ وصول البعثة الأمريكية ملتمساً الإذن له بالمثول بين يدي «سعادة الجنرال» (كما عبّر) ليطّلعه على أمر هام (على حدّ تعبيره أيضاً)، ولكنه نسي سيرة هذا «الأمر الهام» على ما يبدو يوم مَثُلَ بين يدي «سعادة الجنرال» لأنّه تحدّث عن إتقانه اللغة العربية، وجاء أملاً في الفوز بوظيفة ترجمان. تأمّله «إيتون» بفضول قبل أن يقرّر أمر استخدامه ليقينه بأن استخدام رجل أوروبيّ الهويّة، عربيّ اللسّان، مشبوه المظهر، عمل لن يخلو من مجازفة في بلدٍ يشهد غلياناً يهدّد بمنعطف تاريخي حوّله ساحة لصراع قوى جاسوسيّة (من فرنسيّة وإنجليزية وأمريكية ومملوكية وتركية وطرابلسية) مثل مصر، وهو الداخل إلى المتاهة حاملاً على منكبيه وزراً ثقيلاً يعرف جيّداً أن ضمان التوفيق في إبلاغ البلاغ ليس الحذر وحده (كما أوصى الأسياد في واشنطن)، ولكن السريّة القصوى.

كانت السيّماء تروي نصيباً ثريّاً من سيرة الرجل: أنف طويل ثخين في طرفه العلوي، ولكنّه مدبّب وشرس في نقطة انكساره السفلى، فم صارم مزموم، معوجّ قليلاً، ينتهي بأخدودٍ عميق

يتسلّط على مشارفه ذقن طويل ينتهي برأس مدبّب أيضاً. أمّا الوجنتان فبارزتان بروزاً منكراً كأن العظمتين الشقيّتين في عنادهما تتطاولان لإخفاء سرّ تفضحه المقلتان القلقتان الغامضتان المتوّجتان بحاجبين كثّين موصولين بخصلات شعر أشقر لجوج ينسدل على جبينٍ ناتئ شقيّ.

اعترف «إيتون» فيما بعد كيف هَمَّ بطرد الرجل تلبيةً لنداءٍ مجهول، ولكنّ إلهاماً غامضاً استوقفه فطلب أن يمهله أياماً.

ذهب لزيارة القنصل الأمريكي ليضع بين يديه أمر التحقّق من هوية الزائر الغريب، ثمّ نسيه نهائيّاً ما أن غرق في مراسم المثول بين يدي الوالي التركي أحمد خورشيد. ذهب إلى القصر في موكبٍ مهيب مسلّحاً بتميمة واحدة روّض نفسه طويلاً جدّاً كي يحسن استخدامها: الثناء!

ولم تخيّب التعويذة ظنّه بالفعل كما خاطب وزير خارجيّته عقب الزيارة. وتشاء الأقدار أن يكون التوفيق الذي حالفه في هذه الزيارة سبباً في استعادة سحنة الزائر الحيوانيّة التي ظنّها مجرد رؤيا من صنع بلبلة صارت له قريناً حميماً منذ زجّت به الأقدار في معمعان الحرب مع طرابلس.

بعث برسولٍ إلى قنصل بلاده ليأتيه بالخبر المنتظر، فلم يتأخّر الرسول بالخبر اليقين: عاد إلى سيّده حاملاً ملفاً سميناً

بدل تقرير مدوّن في قرطاس. اختلى «إيتون» لقراءة المدوّنة السخيّة في المخدع كما اعتاد أن يفعل مع المتون الشيّقة أو الجديرة بأن تُعامل معاملة المعشوقة كما راق له أن يعبّر على سبيل المزاح. في غرفة النوم سمعه الأعوان في ذلك اليوم يقهقه بصوت عالٍ حيناً، ويخاطب نفسه بلغة كالسباب حيناً آخر، ثمّ يعمّ الصمت قليلاً قبل أن تعلو الجعجعة من جديد مخلوطةً بضجيج سقوط أوانٍ على الأرض، أو تحطّم أوعية زجاجية أو فخارية، أو ارتطام بدنٍ، أو أبدانٍ، بالدواليب أو ربّما بمساند السرير، كأنّ الرجل يصارع أشقياء الجنّ لا تقريراً مفصّلاً عن سيرة رجلٍ بائسٍ مجبولٍ بسيماء حيوان منقرض!

في النهاية هيمن السكون فأدرك الأعوان أن سيّدهم استسلم أخيراً للنوم، ولكنه هبَّ في منتصف الليل ليقتحم أجنحة الأعوان بسحنة ممسوسٍ ليأمر بإحضار مخلوق أطلق عليه اسماً غامضاً هو «الأفّاق التيرولي»، فلم يفهم العسس بالطبع عن أيّ «أفّاق تيرولي» يتحدّث، سيّما وأنّهم لم يسمعوا يوماً بكلمة «تيرول». وكان عليهم أن يبذلوا جهداً عصيباً كي يدركوا أن المقصود ليس كائناً خرافياً من وحي أضغاث الأحلام، ولكنّه الزائر المريب صاحب الملامح المستعارة من دهور ما قبل التكوين. ولكن الأعوان لم يفلحوا، بالطبع، في العثور

على الرجل إلاّ في صبيحة اليوم التالي، فبدأ الاستجواب في الحال.

تسكّع «إيتون» في قاعة المقرّ مرتدياً بزّته العسكرية الموسومة بشارة «جنرال» قبل أن يلقي بأوّل سؤال:

– تقول إن اسمك يوجين.. يوجين ليتنسدورفر، أليس كذلك؟

فأجاب الرجل بلهجة ملهوف يتوقّع من جوابه مكافأة وربّما خلاصاً:

– بلى يا سيدي! إسمي يوجين.. يوجين ليتنسدو..

ولكن الجنرال المزوّر ما لبث أن قاطعه:

– مولود في ضواحي مدينة «ترنت» بمقاطعة «تيرول» في أكتوبر من عام ١٧٧٢. أليس كذلك؟

فوافقه «يوجين» بلهفة فضحت حرصاً مشبوهاً، فأضاف صاحب الاستجواب:

– ولكن «يوجين» ليس اسمك الحقيقي يا «يوجين». أليس كذلك؟

فبرطم «يوجين».

– يوجين.. يوجين هو..

– إسمك هو جرفاسيو.. جرفاسيو بروداسيو، أليس كذلك؟

– جرفاسيو برودا سيو؟

استدرك الجنرال:

- أردت أن أعرف عمّا إذا كان اسم «جرفاسيو بروداسيو» هو الإسم الحقيقي، أم أنه اللقب؟

تلعثم «جرفاسيو بروداسيو» لحظات قبل أن يجيب:

- بلى! يستطيع سيّدي الجنرال أن يعتبر الإسم الأخير لقباً!

تفحّصه «إيتون» ببزّة الزيف بإمعان قبل أن يقول:

- دعنا نعقد صفقة قبل أن نمضي في استجوابنا إذا شئت أن ننتهي إلى عهد يؤهلّك لتولّي منصب في فرقتنا هذه.

- صفقة؟

انكبّ الجنرال فوق ضحيّته ومضى يفترسها بعينين شرستين استمدّهما من سنوات عراكه مع مَلل العسكر، ثمّ حشرج في وجه الرجل:

- بلى! صفقة! صفقة لن تختلف كثيراً عن الصفقة التي عقدتها أنتَ يوماً مع المجهول ممّا أبقاك على قيد الحياة إلى اليوم الذي تجلس فيه في بيت ضيافة تابع للقنصلية الأمريكية في حاضرة مصر!

تردّد «برورداسيو» لحظات قبل أن يتمتم:

- لا أعرف عن أية صفقة يتحدّث سيّدي.

انحنى «إيتون» حتى لامس بقبعته جبين «برورداسيو»، ثمّ

همس:

– الصفقة مع ميفستوفلس!

استنكر «بروداسيو»:

– ميفستو فلس؟!

– أجل! ميفستوفلس ! هل نسيت؟

تململ الرجل في جلسته كأنّه يتأهب للفرار فأضاف «الجنرال».

– لولا الصفقة مع ميفستوفلس لتحوّلت عظامك في الجحيم إلى هباء من رماد منذ زمن بعيد!

– لا أعرف عمّا تتحدّث!

– سوف تعرف. أؤكدّ لك أنّك ستعرف عمّا قريب..

تنحّى «إيتون» جانباً. لوّح في الهواء بعصا الشرف. أضاف:

– أمّا بشأن الصفقة التي أعرضها عليك فلن تكلّفك سوى عملة بخسة برغم أنّك تراها كنزاً نفيساً لا لشيء إلاّ لأنّك لم تعتد عليها يوم خسرتها في الرهان مع حميمك ميفستوفلس الرهيب، فهل تحدس ما هي هذه العملة التي أشترطها ضماناً لصفقتنا؟

تطلّع الرجل إلى الجنرال يائساً، ولكن الجنرال المزعوم لم يرحمه:

– هذه العملة هي «الصدق»! هل تدري ما معنى الصدق؟

ابتلع «بروداسيو» ريقه بعسر فواصل «إيتون»:

– أردت أن أقول إن الأكذوبة كانت الديانة التي اعتنقتها منذ شققت عصا الطاعة على والديك ورفضتَ الاستمرار في دراسة اللاّهوت لتستبدله بدراسة ثالوث تتجادل فيه علوم متنافرة يقف علم الميكانيكا ركناً في هذا الكيان الغريب، ويقف الأدب في بنيانه ركناً ثانياً، وتشكّل علوم الزراعة ركنه الثالث، دون أن يخطر ببالك بالطبع أن الأيام ستخذلك يوماً لتذهب إلى الشرق لتتعلم لغة العرب التي تزاوج بين الأدب واللاّهوت في كلمة واحدة دالّة أصلاً على علم الأخلاق؛ لأنّ عبقريّتها أبت إلاّ أن تجعل من هذين القطبين علماً واحداً مادام قاسمهما المشترك الأعظم هو «الأخلاق». فهل أفلحت في التأويل، أم أن معرفتي بلغة هذه البلاد خانتني من حيث لا أدري؟!

تابعه «بروداسيو» بذهول ممزوجاً بفزع، ولكنّه توقّف عن خطوه ليضيف:

– أردت أن أقول إنّك لم تتخلَّ عن دراسة اللاهوت إلاّ لعدم جدوى تعاليم اللاّهوت بالنسبة لإنسانٍ وُلد من بطن الأمّ مطوّقاً بلغة العهد. أعني بالصفقة التي تحدّثنا عنها منذ قليل حتى أنّك لم تخطئ. عندما استبدلتها بدراسة علوم الآداب،

لأنّ الأدب في جوهره ما هو إلاّ القرين الشرعي للاّهوت؛ أمّا الزراعة والميكانيكا فهما الركيزتان الضروريتان لقيام كلّ كيان. فعلى أي شيء يدلّ هذا الفعل في ظنّك؟

التقط أنفاسه ليضيف:

– في ظنّي أنه يدلّ على قدرة خارقة على الحدس! ولولا هوسك بالكذب لبلغتَ بهذا الحدس أعالي تُعجز الخيال! فهل تصدقني القول الآن فتخبرني عن إسمك الحقيقي من بين طائفة أسمائك الكثيرة كي ندشّن سويّةً حجر الأساس لصفقتنا المنتظرة؟!

دَبَّ خطوات، ثمّ توقّف فجأة ليستدرك:

– هل تدري ما الذي يمكن أن تعنيه كثرة الأسماء المنحولة؟

هزّ «بروداسيو» رأسه نَفْياً، فأجاب الرجل المتنكّر في بزّة جنرال منحول:

– كثرة الأسماء في عرف السحرة تعني كثرة الأقنعة!

تعجّب الشقيّ القابع في ركن القاعة:

– كثرة الأقنعة؟

– بلى! كثرة الأقنعة. وعلّ امتهان ثلاثة علوم في وقتٍ واحد هو الدليل الأوّل على الجشع المبكّر في استعارة هذا الكمّ المهول من الأقنعة في حياة «جرفاسيو بروداسيو» المقبلة!

عاد «الجنرال» على عقبيه. توقّف في مواجهة ضحيّته ليغمغم

بروح الجنون:

– جرفاسيو بروداسيو! ياله من اسم! ها – ها – ها..

ابتلع ضحكته المزمومة سريعاً قبل أن ينحني على الرجل:

– أظنّ أنه الاسم الوحيد الذي حمل حقيقة «يوجين ليتنسدورفر» التي جهلها كلّ من عرفه منذ تاريخ الفرار من شبح اللاّهوت المسكين!

تمتم «جرفاسيو»:

– الحقّ أنّي لا أفهم ماذا تريد أن تقول!

زعق الجنرال:

– لا تفهم ما أريد أن أقول، أم أنّك لا تريد أن تفهم ما أودّ أن أقول؟ ألا ترى أنّك مازلت تستجير بقناع من حفنة أقنعتك برغم اتفاقنا المنتظر في إنجاز الصفقة؟

التقط «إيتون» أنفاساً. انتصب بقامته زمناً. ابتسم بغموض قبل أن يسعى في فضاء قاعة الاستقبال ملوّحاً بعصا الشرف في الهواء. قال بلهجة تفتعل اللامبالاة:

– يشرّفني، إذاً، أن أكشف لك سرّاً لم أفشه حتّى الآن لأحد، سراً لا أشكّ أنّك تعمدتَ أن تخفيه حتّى عن نفسك طوال سنوات هوسك الجنوني في استبدال الأقنعة. ومن الطريف أن يتعلّق هذا السرّ بقناعك الأوّل.

هتمل «جرفاسيو»:

– قناعي الأوّل؟

– بلى! قناعك الأوّل الذي ارتديته لتخفي هويّتك الأولى!

– هويّتي الأولى؟

رمقه الجنرال بنظرة ماكرة ذات معنى، ثمّ استدار وخطا نحوه حتّى انتصب فوق رأسه. زأر:

– هويّتك البولونية!

انكمش الرجل في مقعده كالقنفذ قبل أن يحتّج:

– هويّتي البولونية؟

غزا الشحوب وجنتيه البارزتين وهو يلهج بكلامٍ مبهم كالرطانة المجهولة، في مواجهته وقف «إيتون». في سيمائه استقرّت بسمة خبث:

– ها أنت تنفي الانتماء إلى ملّة البولون في حين لا تستحي من أن تسبّني بلغة البولون! ألا تدري أنّك تدقّ مسماراً في نعش صفقتنا المنتظرة فتدفنها قبل أن تولد؟

كان المدعو «جرفاسيو بروداسيو» يرتعد عندما تمتم:

– أرجو الغفران!

ردّ «الجنرال»:

– الغفران! يسرّني أن أسمع هذه الكلمة المهيبة من فم إنسانٍ

لم يجد حرجاً في أن يعادي الربّ منذ أوّل يوم في ميلاده على الأرض. وهو ما يدلّ على حضور الديانة حتّى في قلب المخلوق الملفّق من طينة شيطان!

سكت «إيتون». غاب بعيداً وهو يعتصر عصا الشرف بين يديه.

تمتم:

– يبدو أن من أطلق عليك لقب «بروداسيو» كان يتنبّأ، لأن تجربة دنياك تالياً أثبتت صواب النبوءة إذا تأملنا كلمة «بروداسيو» الدّالة في اللغة البولونية على معنى القذارة!

تحوّل الشحوب في سيماء «بروداسيو» إلى حمرة، ثمّ إلى لون أكثر كآبة كالسواد فهوّن «الجنرال»:

– أرجو ألاّ تسيء بي الظنون فتعتقد أنّي أترافع هنا لأدبّر لشخصك إدانة مّا، لأنّي لا أبدد وقتاً أنفس بالنسبة لي من كل شيء إلاّ لكشف حقيقة يجب أن تكون ركيزة صفقتنا المنتظرة. لأنّ.. لأنّ لا صفقة موفّقة دون ثقة متبادلة كما تعلم!

خطا سليل الدبلوماسية العنيد (المتنكّر في لباس العسكر) نحو النافذة المطلّة على النّهر الهاجع في الحضيض، المغلول في عزلته الموجعة بالسكون، فيبدو في استسلامه بحيرةً سخيّةً تفترش الأسافل لتغذّي جذور الجدران التي تطوّقها من الجانبين، لتكتب بهذه الروح الزهدية (التي كانت دوماً

خصلة الماء) سيرة الهبة الأسطورية التي كان لها الفضل منذ الأزل في إبداع هذا المكان وإبداع عبقريّة أهل هذا المكان فحقَّ لـ «يوليوس قيصر» أن يتساءل عن سرّ هذا الفيض فيجاهر باستعداده للتضحية بالجمال المجسّد في معشوقته «كليوباترا»، بل والتضحية بسلطان امتلاك العالم المتمثّل في الإمبراطورية، إذا وُجِدَ مَنْ يدلّه على منابع النّيل؛ لأنّ نهراً يخترق أعظم صحاري الدنيا وأشدّها قسوة وغموضاً دون أن يبدّد فيوضه لجدير بالهويّة الربوبية التي ألصقها به كهنة العالم القديم.

في غمر النّهر المخضوضر حيناً، والمزرقّ حيناً آخر، والمطبوع باللون الرصاصي حيناً ثالثاً، غرق «إيتون». وعندما تكلّم هذه المرّة كانت نبرة تسليم خفيّ تسري في صوته، كأنَّ التماهي مع الماء سحر قادر على تحرير الإنسان من الإرادة وإعادته إلى تلك الطبيعة الأولى التي يتجاذبه فيها جدل عناصر أربعة غير معنيّة بالشهوة (لأنّ همّها الجمال)، وغير معنيّة بالملكيّة (لأنّ همّها الحرّية)، وغير معنيّة بالسلطة (لأن رسالتها الإيمان):

– لا يفوتني أن أعبّر لك في البداية عن إعجابي بشخصك. هل تدري لماذا؟

سكت لحظة ثمّ أضاف:

- لأنّك استطعت أن تنجح في إنجاز ما أعجز الأغيار!

في مقلتي الرجل شعّت لهفة. في بدنه المزموم سرى شرر استنفار قبل أن يلفظ «الجنرال» العبارة بلهجة مَنْ يزفّ بشارة:

- لقد صنعتَ أسطورتك!

ساد سكون. ولكنّه كان سكوناً مزموماً تلاحقت فيه أنفاس السليل التيرولي من فرط الإنفعال، كأنّه لم يصدّق ما سمع فهمس لنفسه:

- صنعتُ أسطورتي؟!

ولكن «إيتون» المنتصب بجوار النافذة، المستسلم لمشيئة النّهر الأسطوري، لم يسمع الاستفهام، فاستنطق حلمه بالصوت المسموع:

- أنت تعلم أن قيمة كلّ منّا في مدى قدرته على صنع أسطورته، لأن صنع الأسطورة ليس همّ الشعراء وحدهم، ولكن صنع الأسطورة هو غاية كل إنسان في هذه الدنيا، والدليل هو أنت، برغم أنّك قد تكابر (كما يليق بكل وغد) فتدّعي أن صنع الأسطورة هو ما لم يخطر لك على بال، وكلّ ما فعلته هو أنّك حاولت أن تحيا كما يحيا الناس، دون أن تدري أن

سرّ الأسطورة إنّما يكمن في مثل هذه الروح التي تستميت في انتزاع ما لا تريد الحياة أن تهبه بالحسنى، ولا تهب أيضاً إلاّ ما تنتزعه الدنيا بالقوّة، وإلاّ بأيةّ حكمةٍ يفرّ «بروداسيو» الأب من رحاب قريته الوادعة في جبال «كربات» البولونيّة متنكراً في فستان فلاّحة ليستقرّ في «تيرول» لو لم تكن تلك الحكمة غريزة الدفاع عن النفس في مواجهة قوى الحياة الأقوى منّا دوماً؟ نحن لا نعلم اليوم (ولا أنت تعلم) أي جرمٍ ارتكبه الرجل في قريته المنسيّة، ولكن اليقين أنه استطاع النجاة بانتحال هويّة أخرى، واسم آخر، وشخصية إنسان آخر، على عادة كل الفارّين من وجه العدالة، ليأتي بك إلى الدنيا من جوف امرأة تيروليّة ذات أصول بولونيّة أيضاً، ليعرف العقوق بالطبع على يديك تمشياً مع طبيعة الأشياء يوم رفضتَ الامتثال لمشيئته في دراسة اللاهوت كأنّك تأبى أن تكفّر عن خطايا أخفاها عنك دون أن تدري!

التقط «إيتون» أنفاسه، ولكنه لم يتزحزح في وقفته بجوار النافذة:

– ذهبت لتعمل مسّاحاً إمعاناً في الاستخفاف بنفسك قبل أن يكون هذا الفعل تلبية لروح السخرية الكامنة في معنى الحياة على الأرض، لأن إنساناً سلخ الأعوام وهو يدرس هذا المزيج

العجيب من العلوم (الآداب والميكانيكا والزراعة)، ليس له أن يذهب ليعمل مسّاحاً لولا روح النكاية!

احتجّ «بروداسيو» فجأة:

– نكاية؟!

ولكن «الجنرال» لم يلتفت:

– نكاية تليق بتفاصيل السيرة التالية. بل هي نكاية لها ما يبرّرها، لأنّنا لا نفلح في شيء عادةً ما لم نتسلّح بروح النكاية!

لانت ملامح «بروداسيو» لأوّل مرّة إلى حدّ أعجزه أن يكتم ضحكة خبيثة. أضاف أسير النّهر، المجبول بلذّة الحلم:

– ثمّ تزوجتَ المرأة التي لم تكن لتناسبك ظنّاً منك أنّك تحتال على لؤم الأقدار، ولكنّك كنت تلبّي نداء النكاية دون أن تدري. ثمّ.. ثمّ حدث ما كان يجب أن يحدث. قررت أن تنجو كما نجا أبوك يوماً من سلطان العدالة فتركت عمل المساحة، وهجرت المرأة، والتحقتَ براية الجنرال «ورمرز» كجندي لا دفاعاً عن وطنٍ لم تَرَ فيه الوطن يوماً، ولكن لتجرّب وجبة طعامك ممزوجةً بطعم الدّم. وبدل أن تسعد بلذّة طعامك هناك اكتشفت وقوعك في كمين نصبه لجيشك الأتراك في الشرق، والفرنسيون في الغرب. استسلم حصن «منتوا» لنابليون فلذتَ بفرار سيدوم

طويلاً هذه المرّة لأنّه لا يزال مستمرّاً إلى هذه اللحظة التي تجلس فيها وراء ظهري. فما هي الحيلة الجديدة التي أعانتك في تيهك الجديد؟ لقد استجرتَ بأقدم حيلة ابتكرها الإنسان مستفيداً من تجربة ورثتها في الجينات عن سيرة الأب: تلك هي حيلة استبدال القناع! أعني انتحال اسم جديد هو «كارلو هوسندو» ليعينك في الالتحاق كجندي في جيش العدوّ، أي الالتحاق بجيش نابليون من باب السخرية، أو فلنقل بتعبير أصحّ، من باب صاحبة الجلالة: النكاية!

أطلق «بروداسيو» صوتاً غريباً كأنه مواء قطّ، ربّما ليكتم احتجاجاً، أو ضحكةً، أو إعجاباً، ولكن خطاب السيرة التي لفّقت الأسطورة مضت تتدفّق على اللسان المكبّل بالأحلام كأنّها قراءة في صحيفة اتّهام:

– ولكن سوء الحظّ (أو فلنقل حسن الحظّ الذي تتغذّى على فتاته كلّ نكاية حقيقية) تدخل هنا أيضاً ليجد المريد المعمّم بقناع «كارلو هوسندو» نفسه بين جدران السّجن لأن الفرنسيين اشتمّوا في مسلكه رائحة جوسسة. ولكن حسن الحظّ هرع لنجدته في هذه الورطة أيضاً بإتاحة فرصة قلّما يبخل بها على عشّاق النكاية. فقد أُلهِمتَ (كما أُلهِمتَ دائماً) باستدراج أحراس السجن إلى سهرة بوهيميّة تمكنت فيها من دس السمّ

للأشقياء في لفافة أفيون لتتمكّن من الفرار مرّة أخرى. لجأت إلى قرية سويسرية تنتصب على خاصرة الألب الشرقي كأنّها معبد خرافي ككلّ قرى هذه السلسلة الجبلية الأسطورية. هناك انتحلت لنفسك قناعاً جديداً في اسم «ليتنسدورفر» تيمناً بهذه القرية. في قمم الألب اكتشفت أنّك صنعتَ لنفسك ماضياً حقيقياً دون أن تدري. وهو اكتشاف يعني أنّك قطعت شوطاً في طريق النكاية الطويل. وهو ما شجعك على التمادي في استهتارك فحررتَ خطاباً وقحاً إلى الأب تطلب فيه عونه في الحصول على مبلغ مالي على سبيل الاقتراض دون أن تأتي على ذكر امرأتك المهجورة في الرسالة. وقد هرع الأب المسكين لنجدتك كما يليق بكلّ أب ابتلته الأقدار بأبوّة ابن ضالّ. بهذا المال ذهبت لتتسكّع في فرنسا من باب النكاية أيضاً لأنّ الفرنسيين جدّوا في البحث عن شخصك كجندي فارّ من الخدمة العسكرية أوّلاً، وكسجين ارتكب جريمة قتل ثانياً. وإمعاناً في التحدّي ذهبتَ طائعاً إلى السلطات هناك لتعرض خبرتك في العلوم الزراعية على البعثة العلمية الفرنسية التي كانت تتأهب يومئذٍ لمرافقة حملة نابليون على هذه البلاد، تماماً كما تتقدّم للبعثة العسكرية الأمريكية لتعرض خدماتك كترجمان اليوم!

استدار «إيتون» ليرنو إلى جليسه. غمز له بعينه فلم يحدس

«الأفّاق التيرولي» عمّا إذا كانت تلك الإشارة علامة تواطؤ، أم أنّها إيماء استخفاف. تطلّع إليه الرجل مليّاً قبل أن يواصل السّرد:

– كان يمكن بالطبع أن تقيم في أرياف هذه البلاد. تستقطع بعض الأفدنة وتستصلح أراضي النيل البورلولا وباء النكاية الذي يفترس قلبك. وبدل ممارسة مهنة كانت لك خياراً يوماً، نجدك تهجر الفرنسيس لترتمي في أحضان أعدائهم الإنجليز. ففي ربوعهم طاب لك المقام إلى حدّ قررت فيه تجريب حظّك في تحقيق الثراء. افتتحت مقهى درّ عليك ربحاً لم تحلم به، وفوجئت بعد زمن قليل بنفسك تقف على أبواب ثراء حقيقي فقررت أن تحقّق أوّل الأحلام فقمت بشراء بيت أنيق يستلقي على شاطئ الإسكندرية. ثمّ اكتشفتَ الفراغ أثناء تجوالك في جوف البيت وأحسست لأوّل مرّة بالعزلة فأطلقتَ العنان للسانك المعسول فصرعتَ عذراء قبطيّة حسناء دون أن تخبرها بالطبع عن عروسك التي هجرتها في «تيرول». وها أنت تهجر ضحيّتك الجديدة أيضاً لتنسحب مع جيش الإنجليز إلى المجهول. في «مسّينا» أُصبتَ بنوبة توبة مرضية قادتك إلى دير الكبوشيين لدراسة اللاّهوت في الظاهر، وطمعاً في الغفران في الباطن. خرجتَ من هناك (وياللمهزلة) بلقب ديني جليل هو «شمّاس»

لتذهب على الفور إلى أقرب دكّان لبيع الأسلحة. هناك اشتريت مسدّساً قديماً في نيّة لكسب القوت بقوّة السلاح هذه المرّة. ولكن ميفستوفلس هرع لنجدة مريده هنا أيضاً: تلك النجدة التي ستبدو في نظر البلهاء مصادفةً من تدبير القدر، ولكنّك وحدك أعلم بأنها حيلة أخرى من تدبير تلك القوّة التي تعتنق الشرور ديانةً لا بقصد الإساءة من باب الإساءة، ولكن لعلمها بأنّ ناموس الجدل القادر وحده على تحويل فعل الشرّ إلى خير؛ وهي تلك القوّة نفسها التي ترفض بالمقابل أن تفعل خيراً لا لشرّ في سليقتها، ولكن لأنها تعلم أن الخير في يقين الجدل لابدّ أن ينقلب شرّاً. وها هو المارشال «برون» الذي فررتَ من جيشه يوماً يقبل على الباب العالي في الآستانة كسفير لبلاده مشفوعاً بتزكية شخصية من شريكك القديم لأنه وحده يعلم كيف فررت من جيش هذا المارشال يوماً. وهو إذْ يدفع به إلى المكان الذي اتخذته ساحةً لنشاطك الجديد كمغامر خارجٍ عن القانون، فإنّه لا يفعل ذلك لكي يسيء إليك، ولكن لكي يكتب لك سيرة أخرى تناسب مواهبك على نحوٍ أفضل. فبأية حيلة قررت أن تنجو يا ترى؟ لقد استجرتَ بتلابيب حيلة لن تكون في عبقريّتها سوى وحي من الشريك القديم. عرفتَ كيف تنخرط جندياً في جيش الأتراك المتجه إلى مصر لزعزعة عروش المماليك، ولكن

قطاع الطرق ما لبثوا أن اعترضوا قافلة هذا الجيش فشتّتوا شمله في معركة مخزية لتجد نفسك عابراً للمرّة المائة. فهل ارتوى العابر أخيراً؟ كلاّ بالطبع. وها أنت تعبر الصحراء عائداً إلى القسطنطينية لتعبر الحدود فتعرض خدماتك على أعداء الترك المرابطين في القوقاز. ولكن سيماءك الكلاسيكية هذه لم ترق للروس كما يبدو فرفضوا استخدامك في جيشهم فقررت أن تعتنق دين محمّد من باب النكاية أيضاً بالطبع، لا من باب الإيمان بأيّة ديانة. وكان على من أقدم على عملٍ كهذا أن يتحلّى بشجاعة بدنيّة إلى جانب الشجاعة المعنوية، وهو ما لم ينقصك يوماً. وها أنت تذهب إلى سوق يتزاحم فيه القوم بالمناكب لتبرهن لنفسك على هذا النوع المبتكر من أنواع الشجاعة فتخرج من جيبك نصلاً فظيعاً، وتكشف عن عورتك أمام الملأ، وتنطق بالشهادتين بأعلى صوت قبل أن تجرّ النصل على أنفس عضلة في يقين رجل استكمالاً وحشيّاً للطقس الذي يشترطه الدخول إلى هذه الديانة. وكان عليك أن تستبدل القناع هنا أيضاً بالطبع تمشيّاً مع التقليد القديم، فاخترتَ لنفسك إسماً يناسب مقامك بين أمّة الأناضول هو:

مراد آغا!

استسلم الرجل المقنّع أيضاً بلباس جنرال لضحكة لئيمة. كان

يفترس جليسه أثناء محاولته كتم ضحكته الماكرة، ثمّ استعاد وقاره ليضيف:

- قررتَ أن تجرّب حظّك في التجارة هذه المرّة، برغم غرابة نوع التجارة الذي وقع عليه اختيارك؛ لأن ما معنى أن تهرع لحرم الجَمال بعد أن دستَ هذا المثال بقدميك طوال أيام حياتك الشقيّة سيّما إذا علمنا أن الجمال الذي اخترته ليكون لك عوناً في حياتك الجديدة لم يكن جمالاً مجرّداً، ولكنه جمال مخلوط بآي الربوبية. أي أنه جمال المثال. ولا أشكّ بالطبع في كون شريك الصفقة هو مَن هرع لنجدتك بهذه الفكرة. وها أنت تذهب إلى شطآن البحر الأسود لتروّج في «طرابزون» لسلعتك المكوّنة من حروز قرآنية أنيقة، مكتوبة بخطوطٍ غاية في جمال الصنعة، فشاع في تلك الأركان أمرك كدرويش مبعوث كرحمة من السماء دون أن تعرف سرّ هذا الصيت. ولكنّك قررت أن تستثمر الهبة على الفور فذهبت إلى قصر الباشا المصاب بالرّمد لتجرّب موهبتك في الدروشة على جسد هذا الشقيّ. وها أنت تتمتم على رأس الرجل بأورادٍ وثنيّة منطوقةٍ بخليط الرطانات، ثمّ لم تنسَ أن تستخدم حامض الليمون لتعتصره في عيني الباشا، وتضيف إلى هذا العلاج حليب إبل طازجاً غمرتَ به المقلتين الملتهبتين أيضاً. خرجتَ من هناك محمّلاً

بمالٍ وفير لقاء عملك المريب. وكان عليك أن تلوذ بالفرار من جديد قبل أن يُفتضح أمرك فشددت الآفاق نحو بلاد فارس برفقة قافلة قُدّر لها أن تقع في قبضة قطّاع الطرق، وكان على أفراد القافلة أن يدفعوا للّصوص أموالاً ليفتدوا أنفسهم كما في كل مرّة. وخلال إتمام الصفقة سمعتَ أحد اللصوص يغدق الثناء على كرامات أحد الدراويش الذي استطاع أن يشفي سعادة الباشا من العمى أثناء مروره بـ «طرابزون»، فما كان منك إلاّ إن قفلتَ راجعاً إلى ديار الباشا لتقبض ثمن صنيعك الإلهي!

جعجع سليل السلك الدبلوماسي المتنكّر في بزّة جنرال بضحكة لئيمة قبل أن يواصل القراءة في وثيقة تبدو صحيفة إدانة حيناً وشهادة براءة حيناً آخر:

– لم تمكث في ضيافة الباشا طويلاً، لأنّك قررتَ أن تبرهن لأمّة محمّد صدق نواياك باعتناقك دينهم (كأنّ جزّ قلفة عضو الرجولة لم تكن دليلاً كافياً!) فسافرت إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ. من الحرم انتقلت إلى جدّة حيث نزعتَ عنك أسمال الدرويش لتقابل اللورد «غوردون» عارياً من كل قناع، أو كاشفاً عن قناعك الأصلي بالأصح، لأنّك لم تتعرَّ يوماً من قناع. عملتَ ترجماناً لسعادة اللورد ورافقته في زياراته

الاستطلاعية إلى النوبة، ثم الحبشة، ثم الأقاليم المجاورة، قبل أن تعود بمعيّته إلى القاهرة. هنا كلّفك وليّ نعمتك الجديد بالإشراف على حفل الاستقبال المهيب الذي أقامه للأعيان وقناصل الدول الأجنبيّة احتفاءً بعودته سالماً من تلك الرحلة الشاقّة. وقد أبدعتَ في إتقان عملك إلى درجة أجبرت اللورد على مكافأتك، ولكنّك اخترتَ الوقت المناسب لتنتقم من الرجل جزاء عجرفته فرفضتَ الجائزة وأعلنت استقالتك من العمل لتذهب إلى الإسكندرية فتطرق باب زوجتك القبطيّة التي هجرتها منذ سنوات. وبدل أن ترتمي المرأة في أحضانك، كما توقّعتَ، فوجئت بها ترمي ورقة الطلاق في وجهك لا لأنّك هجرتها لأعوام، ولكن لأنّك تنكّرت لدين عيسى واستبدلته بدين محمّد!

استدار ليواجه ضيفه المنكمش حول نفسه في الزاوية ليخلص إلى القول:

– لا أحد استطاع أن يخمّن بالطبع ما الذي يمكن أن تتفتّق عنه عبقريّة كهذه بعد أن لخّصت في زمنٍ وجيز سيرة البشرية بأسرها: بتذبذبها وجرأتها، بحقيقتها وبهتانها، بأملها وخيباتها، بحضورها وضياعها، بحكمتها وجنونها، بزهدها وحرصها، بعظمتها وانحطاطها!

زفر «إيتون» بإعياء كأنّه هو من عاش أحداث روايته الثرية ثم عاد يتطلّع إلى النهر الذي بدأ يتسربل بفيوض الغروب الدامية. أضاف:

– لقد تسكعتَ على شواطئ تلك الديار التي اختطّها في الزمن البعيد رجل لا يختلف عنك كثيراً بروح الهوس هو الإسكندر الذي لم يكن ليلقّب بـ «الأكبر» لو لم يحقّق ما أعجزك وهو تسييس قاسمكما المشترك (وهو الهوس، أو فلنقل الجنون) في نظام محكم (ولا أقول حكيم) فأفلح في امتلاك العالم في حين أخفق في امتلاك نفسه، فكانت النتيجة خسارة مزدوجة: خسارة النفس وخسارة العالم معاً. وهو مصير كان من البديهي أن يحوم حولك أيضاً في ذلك اليوم الذي خرجت فيه للتنزه على الشاطئ فتداوي الدّاء بإلقاء نفسك في اليّم المتوثّب في الأسفل كالغول. ولكن ثقتك بقرينك القديم لا بنفسك ما لبثت أن هرعت لنجدتك هنا أيضاً. وها أنت تلتقي مَنْ ينبئك: بوصول بعثة عسكرية قادمة من مجاهل القارّة المفقودة في مهمّة غامضة. ولمّا كنت أعظم مريد للمجهول ولكلّ ما متَّ بصلة للغموض، فقد أسرعت إلى الحاضرة لتقرع باب بعثتنا طمعاً في خوض مغامرة مثيرة مستترة بقناع ترجمان!

التفت «إيتون» نحو الرجل فوجده يفرّ برأسه ذي الملامح

الغريبة ليحشره بين منكبيه البارزين كأنّهما عارضة خشبية في عمود فزّاعة. تقدّم نحوه ليضع يده على عظمة الكتف ويتساءل:

– هل تدري لماذا استثرتَ فضولي فلم أبخل على محادثتك بوقتٍ بخلت فيه على نفسي؟ لأني لا أخجل من أن أعيد فأقول إنه أنفس عندي من كل شيء.

سكت. زفر. انحنى كأنه ينوي أن يركع على ركبتيه. حشرج:

– فعلت ذلك لسببين إثنين: الأوّل، ليقيني بأنّك المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يعوّضني هذا الكنز المفقود، بل ويهبه لي. أمّا السبب الثاني فهو.. سكت مرّة أخرى. تطلّع إلى النهر. سرح في الحلم لحظات قبل أن يتمتم كأنه يخاطب نفسه:

– لأنّي.. لأنّي اكتشفت كم تشبهني!

انتفض بدن صاحب الأقنعة برجفة مفاجئة فاشتدّ الاعوجاج في شفتيه. تململ في جلسته، ولكنه لم ينبس، فأضاف «إيتون»:

– أرجو ألاّ تظنّ أني أضعت كلّ هذا الوقت لكي أدلي بهذا الاعتراف برغم استحقاق سيرة كسيرتك بأن تُروى بلسان «هوميروس»، أو بعبقرية «شكسبير»، ولكنّي فعلت ما فعلت لكي أمهّد لعقد صفقة مع شخصك تيّمناً بصفقتك القديمة مع

سلطان الظلمات!

استنكر صاحب الأقنعة:

- سلطان الظلمات؟!

تبّسم «إيتون» بسيماء استخفاف:

- جدير بك أن تتساءل عن فحوى صفقتنا بدل أن تستنكر عقد صفقة لها الفضل في إنجاز كلّ ما أنجزت بما في ذلك الصيت الذي تحقّق بفضله اليوم غنيمة قد تؤهلك لدخول التاريخ كبطل حقيقي بدل البقاء في التاريخ كمجرّد مغامر! فهل تمهلني قليلاً؟

ازداد الاعوجاج في فم صاحب الأقنعة، في حين تراجع «إيتون» نحو النافذة. عبث بعصا الشرف بين يديه بمهارة جنرال حقيقي قبل أن يمضي:

- خلاصة فحوى الصفقة بأشدّ اختصار يكمن في الجملة المشروطة التالية: إذا أفلحت في أن تنتزع أحمد القرمانلي من براثن المماليك وتأتيني به مصحوباً برجاله في غضون أسبوع، فإنّي لن أغدق عليك ما تطلب من أموال فحسب، ولكنّي سأعمل على تعيينك رئيساً لأركان حرب الحملة على طرابلس أيضاً، فما رأيك؟

ساد صمت مزموم حبس حتّى الأنفاس في الصدور. في النهاية

تكلّم صاحب الأقنعة المكلّل بحزمة الأسماء:

- وهل يملك جنرال الحرب تعيين رئيس أركان حرب؟

ابتسم «جنرال الحرب» بخبث قبل أن يجيب:

- أظنّ أني استخدمت التعبير العسكري الصحيح عندما قلت بالحرف:

«سأعمل على تعيين»، ولم أقل: «سأصدر قرار التعيين»، لأنك لا تعلم أنّي وإن لم أكن مخوّلاً بالتعيين إلاّ أن في صلاحياتي رفع الاقتراح إلى وزير الحربية لاستصدار قرار التعيين!

سكت صاحب الأقنعة. لاذ بالصمت طويلاً قبل أن يقول:

- هل يعلم سيدي الجنرال ما معنى أن يبلغ الإنسان أرض المماليك ويعود خلال أسبوع؟

- أعلم..

- إنّها مهلة لا تكفي للوصول إلى «المنيا»، فكيف بالذهاب ثمّ العودة من هناك؟

- ولكن أطول حياة تبدو غمضة بائسة وعاجزة عن بلوغ سماوات المجد، وبرغم ذلك وُجِدَ في الدنيا أناس استطاعوا أن يهزموا العجز ويدركوا سماوات المجد!

سكت صاحب الألقاب لحظات. قال أخيراً:

- إذا قرّر سيدي أن أطير طيران الطير فعليه أن يعيرني



أجنحة!

حدجه «إيتون» باستفهام فأوضح:

– تلزمني جليبة من الخيول في طريق الصعيد.

– تريد أموالاً لشراء الخيول في الطريق لاستبدالها، أليس كذلك؟

هزّ الرجل رأسه إيجاباً ثمّ أضاف:

– تلزمني الأذون من الباشا لعبور الأراضي التي يسيطر عليها الأتراك أيضاً.

– ستنال الأموال، وكذلك الأذون بالعبور.

سكت وهلة ثم أضاف:

– ستنال عفو الباشا على أحمد القرمانلي أيضاً. ستنال كلّ ما من شأنه أن يجعل منك طائراً بجناحين!

عاد «إيتون» يخطو في فضاء المكان. توقّف فجأة. التفت نحو ضيفه القابع في الركن. شيّع ذراعيه في الهواء كأنه ينوي أن يأخذ الرجل بالأحضان. لحظتها وجّه له «بروداسيو» سحنته السابقة على التاريخ مشفوعةً بسؤال:

– هل يستطيع سيّدي الجنرال أن يصدقني القول لو سمحت له بسؤال؟

رمقه «الجنرال» بنظرة شكّ، ثمّ أومأ مستفهماً. انتظر لحظات

مستنفراً قبل أن يسمع السؤال من فم سليل جبال «كاربات» المتستّر بهويّة «تيرول»:

– لماذا اختارني السيّد الجنرال لهذه المهمّة دون الناس جميعاً؟

تطلّع إليه «إيتون» بفضول مجدوح بدهشة. قال أخيراً:

– هل تصدّقني لو قلت لك إنّي اخترتك لهذه المهمّة لأنك تشبهني؟

عمّ سكون. هزّ الرجل القابع في الزاوية منكبيه الشبيهين بمشجبين هزيلين علامة الحياد، فأضاف «إيتون»:

– لم أخترك بالطبع لهذا السبب، ولكنّي اخترتك ليقيني بأنّك المخلوق الوحيد المؤهّل لأن يحسن القيام بعملٍ كهذا!

٣٣- أوليس

بحر ليبيا. مالطة . يناير ١٨٠٤م

على متن الفرقاطة «فكسن» اجتمع القبطان «بريبل» مع عدد من الضبّاط. جادلهم طويلاً حول ملابسات حصار طرابلس إلى أن استنتج:

– يدهشني استهتار الأغلبية التي تتسامح مع البحّارة فتبيح لهم اختلاس الخمور من مخازن السفن، والاستهانة بالأوامر، وإهانة من هم أعلى رتبة كأنّنا لم نغترب عن الوطن كلّ هذه الأعوام لخوض حرب، ولكنّنا خرجنا للاستمتاع بنزهة! ولا يعلم الضبّاط الذين يتساهلون مع مرؤوسيهم في ممارسة مثل هذه المخالفات أن سرقة قارورة «روم» هي تمهيد لارتكاب خطيئة أكبر هي عصيان التعليمات، وعصيان التعليمات جرم أخطر لأنه الخطوة الأولى لإثارة شغب قد ينتهي بالتمرّد. وحتّى إذا لم يجد صاحب الفتنة آذاناً صاغية، فإن السُّكر في عرض البحر هو الخطوة الأولى للفرار من السفينة إلى سفن الغرباء، هذا الفرار الذي استنزفنا كثيراً في الآونة الأخيرة حتّى حقَّ لي أن أسميّه الورم الذي يفترس سلاحنا البحري، فأيّ إجراء اتخذتموه حتى اليوم في سبيل وقف هذا النزيف؟

سكت القبطان «بريبل». كان يخطو فوق سطح البارجة «فكسن»

ذهاباً وإياباً أمام جمع الضباط. يتطلّع إلى يابسة الجزيرة التي تبدو من البحر كأعجوبة برزت من الغمر فجأةً لتصير للغرقَى، في تلك المتاهة المائية، طوق نجاة. أضاف:

– بعضكم يظنّني غافلاً عمّا يدور حولي حتّى إني لا أسمع التّهم التي ترميني بالقسوة، ولكنّي لا أعاني مرضاً حتّى أستخدم عقوبة جسدية كالجلد بالسياط للاستشفاء من هذا المرض، لأنّ كسب أي حرب عمل رهين بأقصى حدود الانضباط، برغم أنّي أكثر من يحاول أن يفهم سرّ هذه اللوّثة!

توقّف القبطان مرّة أخرى. تطلّع إلى الشاطئ المزروع بسفنٍ ترفرف على صواريها رايات مختلف الأمم. كانت شمس الصبح قد انتهكت كتل الغيوم بعد ليلة شتوية عاصفة استجاب لها اليمّ بمأتمٍ تمخّض فيه وتلطّم طوال الليل، ولكنّه هدأ ما أن تبدّد الغيم وعاد معبود القدماء يتسلّط في السماء.

تابع القبطان قرص الشمس العاري من السحب بلهفة سجين سكن وراء القضبان طويلاً. تكلّم بروح الحلم:

– لا تظنّوا أني أجهل ما يجري على متون سفن الأسطول، لأننا كلّنا سجناء لا البّحارة وحدهم. سجناء في زمن السلم، فكيف لا نكون سجناء في ظروف الحرب إذا اتفقنا أن ما يميّز البحّار على ظهر الباخرة التجارية عن البحّار على متن البارجة الحربية هو الإحساس المضاعف بالمكوث في السجن؟

عاد يخطو ذهاباً وإياباً عاقداً يديه وراء ظهره فتبدّى لفريقه الحربي، في تلك اللحظة، كئيباً مهدّداً بالشيخوخة أكثر من أي يوم مضى. واصل بصوت مشوّشٍ بوجل شاعرٍ يراود وحياً أو يروّض حلماً:

– هل قلت سجناً؟ كلاّ، كلاّ! إنه زنزانة في سجن. زنزانة محكمة في سجن منيع. ولهذا يبدو الفرار من السجن عموماً (الفرار من الزنزانة خصوصاً) حلماً لا بنيل الحرية فحسب، ولكنه حلم بالنجاة. حلم بالخلاص. حلم فوز بالحقيقة حتّى لو كان هذا الفوز لا يستغرق سوى غمضة؛ لأن الفرار من سفينة للاستجارة بجوف سفينة أخرى ليس سوى استبدال سجن بسجن، بل استبدال زنزانة هنا، بزنزانة هناك؟ ولكن في الانتقال يسكن سحر. في استبدال القيد بقيد آخر إغواء لا يقاوم. إن متعة العبور من متنٍ إلى متنٍ آخر (لا يختلف عن سابقه في شيء على الإطلاق) لا تعادلها متعة في الدنيا برغم الخطر المحدّق بالمجازفة. إن السباحة في مياه البحر هنا أثناء العبور إلى العالم الآخر يعادل، في نظر مريد الفرار، السباحة في مياه الأعراف، يعادل السباحة في مياه المطهّر المؤدّي إلى ضفاف الفردوس. هل يوجد بينكم من قرأ «الكوميديا الإلهية»؟ إن إحساس هذه النقلة هو ما نسمّيه عادةً سعادةً، هذا برغم علمنا

المسبق بأن ما ينتظرنا على الشاطئ الآخر من رحلة عبورنا ليس النعيم المنتظر، ولكنه النعيم المشروط بفقدان الحرية. إنه نعيم آدم المكبّل بالتحريم. أي إنه الجحيم بكلمة أخرى. الجحيم الذي فرّ منه سلفنا آدم انتصاراً للحرية. وهو ما يعني أن الوجه الآخر لكلّ نعيم هو دوماً جحيم!

توقّف مرّة أخرى. واجه جمع الضبّاط. انتهى إلى الخلاصة:

– ولكن الحكماء علّمونا عدم جدوى الفرار من الواجب طلباً للسعادة لأنّنا لم نولد لننال هذه العنقاء، ولكنّنا جئنا إلى الدنيا لكي نؤدّي الواجب، لأنّ فيه وحده تكمن السعادة التي نطلبها بالفرار منه. فهل هي حقّاً قسوة تلك القسوة التي تحثّ على ممارسة طقسٍ لا يختلف في ضرورته، بل وقدسيته، عن ممارسة شعيرة دينيّة كالصلاة؟

طاف وجوههم بنظرة شاملة قبل أن يأمرهم بالانصراف، ولكنه استدرك قائلاً:

– باستثناء النقيب «ديكاتور»!

تصرّم حبل المحفل سريعاً، ولم يخلف خلفه في المكان سوى رجل قصير القامة، موسّم بملامح طفولية، في مقلتيه الصغيرتين تسطع جرأة فطريّة. عاد القبطان يتطلّع إلى يابسة الجزيرة المسربلة بمسحة طينيّة صارمة تبدو من البحر

نتوءاً جبليّاً مباغتاً، تنتصب في شعفته المكابرة أبنية سخيّة لكاتدرائيات مطبوعة بتقنيات ثريّة لمعمار قوطيّ مهيب.

تكلّم القبطان دون أن يلتفت نحو الرجل:

– هل تصدّق أن نتلقّى الطعنة من الفرنسيس في حربنا مع طرابلس؟

في مقلتي النقيب سطع إيماء استفهام فواصل القبطان:

– تلقيت ما يمكن أن أسمّيه إخطاراً من قنصل الدانمارك بطرابلس «نلسون» يتحدّث فيه عن اعتراض تاليران على ضرب الحصار على مملكة يوسف باشا بمبرّر قانوني يقول بعدم جواز منع دول الطرف الثالث في الصراع بين طرفين من دخول موانئ الطرف المحاصر ما لم يكن وجود الطرف الذي يتولّى الحصار فعلياً على سواحل الطرف الذي يقع عليه الحصار. فهل تصدّق؟

تساءل «ديكاتور»:

– ما المقصود بعبارة «حصار فعليّ» هنا؟

زفر القبطان أنفاس الإعياء قبل أن يجيب:

– سوء النيّة كلّه مخفيّ في هذه العبارة، لأن الفرنسيين يرون حصارنا على طرابلس باطلاً من وجهة نظر قانونية ما لم يشمل انتشار سفن الطرف المحاصِر على طول ساحل الدولة

التي يقع عليها الحصار!

استنكر النقيب:

– الانتشار على طول سواحل الدولة المحاصَرة؟

ضحك القبطان بنغمة مرارة ثم قال بلهجة سخرية:

– تاليران يريدنا أن نحشد سفناً على ساحل يبلغ طوله ألفي كيلومتر لكي يصبح الحصار في نظره نافذ المفعول!

تعجّب النقيب:

– هل يدري السيد «تاليران» ما معنى حشد أسطول على ساحل بهذا الطول؟

تسكّع القبطان، ابتسم بحزن، ثمّ:

– لاشكّ أنه يدري، وإلاّ لما راهن على تعجيزنا بهذه العبارة اللئيمة التي تعني في الواقع حشد أسطول مكوّن مما لا يقلّ عن عشرة آلاف قطعة حربية على سواحل طرابلس!

علّق «ديكاتور»:

– يجب أن نقيم لبحّارتنا قدّاساً في كاتدرائية القديس بطرس شكراً للربّ على وقوع هذه الجزيرة في قبضة الإنجليز، لأنّي لا أتخيّل ما سيؤول إليه حال الحرب مع طرابلس لو احتفظ الفرنسيون بسلطتهم على الجزيرة.

احتّج القبطان:

– ولكنّك لا تدري أنهم مازالوا يكيدون لنا في بلدٍ فقدوا السيطرة عليه مثل مصر أمام أعين أعدائهم الإنجليز!

– حقّاً؟

– لقد فعل وليّ أمر الإسكندرية كل ما بوسعه لكي يعيق بعثة «إيتون» من العبور إلى الصحراء الليبيّة برفقة أحمد القرمانلي!

تردّد النقيب لحظات قبل أن يتساءل:

– هل يظنّ سيّدي أن العراقيل من وحي الفرنسيس؟

– لا أظنّ أنّها من وحي الإنجليز أيضاً.

انطلق القبطان في سعيه الحثيث فوق سطح البارجة، فانطلق النقيب يسعى إلى جواره. انقشعت أشتات السحب فاشتدّت زرقة السماء كأنّها تستعير زرقتها من شدّة زرقة مياه البحر الهاجعة في الأسافل بسكون مريب.

قال القبطان «بريبل»:

– يجب أن نعترف بأنّنا قصرنا في حقّ هذا الرجل!

استفهم النقيب «ديكاتور»:

– سيّدي يقصد الجنرال «إيتون»؟

حدجه القبطان باستنكار قبل أن يعترض:

– «إيتون» ليس جنرالاً، كما أنّنا لم نقصّر في حقّه بقدر ما

قصَّر في حقّ نفسه. ولكنّا قصرنا في حقّ صاحب العرش الشرعي أحمد القرمانلي!

تمتم النقيب بعبارة اعتذار فواصل القبطان:

• هل تتخيّل أنه خاطبني باستعداده في أن يبعث لي برهائن من أبناء أعرق القبائل كبرهان على صدق نواياه في الحرب ضد شقيقه الشقيّ؟

فعلّق النقيب ساخراً:

– الرهائن؟ ياله من منطق!

وافقه القبطان:

– كأنّنا قادة في جيوش «آجاممنون» جئنا لغزو الشرق بضرب الحصار حول «طروادة»!

تنفّس الغرب بنسيمٍ كسول فاستجاب اليّم برعدةٍ خفيفة، ولكنّها كانت كافية لميلاد تلك الغضون التي تتنامى بعناء لتتمخّض عن موج.

استدرك القبطان:

– على ذكر حصان طروادة: تساورني شكوك في وجود من يحاول أن يدسّ لنا هذا الحصان ليلعب ضدّنا دوراً أسوأ بكثير من الدور الذي يلعبه «نابليون»!

اختلس النقيب نحوه نظرة قلق، ولكنه لاذ بالصمت، فأوضح



القبطان:

- بالأمس اكتشفت في القنصلية وجود رزم كاملة من الرسائل المعنونة إلينا من الوطن، وحزم أخرى معنونة إلينا من طرابلس. بعضها مضى على استلامها عدّة شهور دون أن يكلّف جناب القنصل عناء تسليمها لنا، فأي قنصل هذا؟

تعجّب «ديكاتور»:

- تقصد «جوزف بولس» قنصلنا في مالطا؟

فسخر القبطان «بريبل»:

- بلى! إنه «جوزيف بولس» قنصل يوسف باشا السابق في مالطا، وقنصلنا اليوم في مالطا!

توضّح المرؤوس رئيسه بإمعان فحدجه القبطان قبل أن يؤكّد:

- أنا لا أمزح! لقد كان هذا الوغد قنصلاً لباشا طرابلس منذ سنوات، ولا أدري بأية حماقة استخدمته خارجيتنا كقنصل لنا في بقعة نتخذها قاعدة انطلاق في حربنا مع ربابنة القرصنة هؤلاء!

- هل يعقل أن نقنع بوجود خطأ؟

- ما أعلمه هو أنّه عطّل عمداً وصول رسائل «بينبريدج» المرسلة عن طريق قنصل الدانمارك. إنّها عشر رسائل: اثنتان

منها مكتوبتان بالحبر السرّي. كما أخفى رسائل الأسرى الموجهّة إلى ذويهم في الوطن. والأسوأ من كلّ هذا أنه أخفى مراسلات الضبّاط الموجهّة إلى وزارة البحرية في واشنطن، بل وعَنْوَنَ بعض الرسائل الموجهّة إلى الأسرى لإعادتها إلى مصادرها التي أُرسلت منها بمختلف الولايات، فما معنى هذا إن لم يكن سوء نيّة في رأيك؟

– عجباً!

سكت «بريبل». زفر بضيق، ثمّ:

– المأساة أنّنا لا نملك سلطة لعزل الوغد من منصبه، كما لم نملكها عند تعيينه، وكلّ ما استطعت أن أفعله لمعالجة المكيدة هو تعيين أحد التجّار ليتولّى متابعة مراسلاتنا في المستقبل.

علّق النقيب:

– على كم جبهة يريدوننا أن نحارب؟

أجاب القبطان:

– هذا هو الثمن الذي كُتِبَ على المحاربين أن يدفعوه إذا قبلوا بأدنى علاقة مع وكر المؤامرات المسمّى خطأً «وزارة الخارجية»!

عادا على عقبيهما. خيّم صمت لوقت قصير قبل أن يواصل القبطان:



– الحقّ أنّي لم استبقك لأحدّثك عن كلّ هذا، ولكن لأفاتحك في أمر أهم من مؤامرات السلك المدني!

توقّف فجأة. واجه مرؤوسه بسيماء صارمة. أغمض عينيه ثمّ عاد ففتحهما. في وجنتيه سرت رجفة. لفظ العبارة كأنه يلقي أمراً عسكرياً:

– يجب أن نحرق «فيلادلفيا»!

انتقلت العدوى إلى المرؤوس في الحال فانتصب بقامة مزمومة كأنه يستعدّ لأداء تحيّة عسكرية. ردّد العبارة بلهجة من ينوي تنفيذ الأمر العسكري لا بلهجة من يتعجّب، فأضاف الآمر:

– لن نستطيع كسر ظهر الباشا قبل أن نجرّده من سلاح رهيب كـ «فيلادلفيا»!

ظلّ النقيب ينتصب أمام آمر السلاح البحري بقامته المزمومة دون أن ينبس، في حين استكمل الآمر:

– لقد اخترتك من بين كلّ الضبّاط ليقيني بأنّك الوحيد القادر على تحويل هذه المغامرة إلى نزهة!

كانت سيماء النقيب الطفولية تشعّ الآن بإيماء امتزجت فيه الدهشة باليقظة بالأمل، ولكن القبطان لم يمهله:

– إذا كان «أوليس» قد استطاع الاحتيال لإدخال الحصان إلى حصون طروادة، فيجب أن تستخدم كل ما أوتيت من دهاء

للقضاء على الحصان داخل حصون الباشا!

تواجه الرجلان مشدودين إلى بعضهما بحمّى خفيّة (ولكنّها طاغية) فتبلبلت ملامح النقيب الشاب بوجدٍ جنونيّ أخفق في لجمه. أضاف القبطان بصوتٍ تهدّج بفعل انفعالٍ مسكونٍ بروح اليقين:

– إذا لم نؤمن بأنّنا نكتب في هذا البحر إلياذتنا فلن نكسب هذه الحرب!

تمتم «ديكاتور» وهو مازال محموماً بحلمٍ مجهول كأنّه وسوسة حنين:

– طرابلس! إنّها طروادة الشاطئ الرابع!

فشجّعه القبطان مازحاً:

– إذا ارتضيتُ القيام بدور «آجاممنون» في هذه المسرحية، كما يروق لبعض خبثاء البحر أن ينعتوني، فليس لك أن ترفض القيام بدور «أوليس» منذ هذه اللحظة!

٣٤- الحملة

صاح الباشا في حضور رسول شيخ النويرات:

– هذه طعنة في الظهر!

فوافقه الرسول:

– الشيخ أبو القاسم أيضاً، يا مولانا، يتحدّث كثيراً عن شِيَم الغدر في هؤلاء الأوباش!

فعاد الباشا يزأر:

– ألا تعلم حثالة الجبل تلك أن العصيان في زمن الجهاد ضدّ جيوش النصارى هو بمثابة الخيانة التي لا تغتفر؟

عاد المبعوث يصبّ الزيت في مرجل النار:

– إنه العصيان يا مولاي لسلطان إنسانٍ اصطفيتموه بفرمانكم ليكون لكم بمثابة والٍ على كلّ قبائل الغرب، فما معنى أن يشقّ أوباش «نالوت» عصا الطاعة عليه من دون كلّ القبائل إن لم يكن هذا العمل تمرّداً على سلطانكم أنتم، لا على سلطان مخدومكم المأمور الشيخ أبي القاسم النويري المحمودي؟!

– إنّهم يمتحنون صبري بتشكيكهم في قدرتي على ردعهم لمجرّد انشغالي بصدّ عدوان عدوّ يستهدفهم هُمْ قبل أن يستهدف يوسف باشا القرمانلي!

فتغنّى الرسول:

– صدق مولانا! إنّهم يمتحنون، بل يستهينون!

– بلّغ مخدومنا أبا القاسم، إذاً، أنّ الرجل الذي اعتاد أن يغفر خطايا العصاة في أوقات السلم، ليس له أن يغفر الحماقات في زمن الحرب. وسوف يأتيه المدد الذي لا يأتيه الباطل قبل أن يرتدّ عليه طرفه!

بهذه العبارة أَذِنَ الباشا لرسول قبيلة النويرات بشدّ الرحال، في حين أمر الحاجب باستدعاء الأبناء.

انتظر الباشا بجوار النافذة المشرّعة على مشهد بحرٍ يعجّ بالبوارج الحربية. في الشمال تلبّست الأفق جحافل غيومٍ كثيفةٍ، كئيبة. في الساحل توثّبت الأمواج المشفوعة بالشيب لتتناهب صخور الشطآن، ولكن سلطان الكواكب استهان بالتحدّي فمضى يهيمن على الحقول بأشعّة طاغية.

في القاعة اكتمل وصول الأبناء. تطلّع الباشا إلى وجوههم فابتسم بغموض. فهو لم يتفحّص سيماءهم إلاّ نادراً. لم يتفحّص سيماءهم لأنه لم يجد الوقت حيناً، ولم تتح له فرصة جمعهم دفعة واحدة حيناً آخر. فهل الوقت هو من أجرم في حقّهم حقّاً؟ فهذا الإبن البكر «محمّد» بك الذي قضى له ناموس السلالات الملكيّة بالخلافة دون وجه حقّ. في سيمائه رقّة ملامح مخجلة تفضح تخنّثاً منفّراً كأنّه تخنّث الأعلاج، فهل استغلّت أمّه انهمامه في حشد الأنصار، زمن حروبه الضارية

مع أخويه، فأدخلت علجاً من علوج القصر إلى مخدعها؟ أم أن ملامح الرعيان التي يراها الآن في الإبن الأصغر «أحمد» ما هي إلاّ ثمرة خطأ المرأة مع أحد الخدم من سلالة البدو؟ ولكن الأوسط من بين الأبناء «عليّ» يبدو أشبههم بجدّه «علي باشا» بأنفه الأفطس وشفتيه المفلطحتين كشفاه الزنوج كأنّه يريد أن يبرهن بهذا الشبه على صحّة زعم العوام القائل إن صاحب الاسم لابدّ أن يستعير ولو خصلة واحدة من خصال المسمّى عليه، فإذا لم يستعر خصال السليقة استعار خصلة من خصال البدن؟ ألهذا السبّب يا ترى صار الولد الأخير أقرب الأبناء إلى قلبه؟ ألا يعني شبه الإبن البكر بالنصارى سبباً خفيّاً في إنكاره لـ «محمّد» بك من دون كلّ الأبناء؟ ولكن.. ولكن ما موقع الابن الأصغر «أحمد» من بين هذين القطبين؟

سأل الباشا دون أن يكفّ عن ملاحقتهم بمقلتيه الماكرتين:

– جمعتكم لأسمع رأيكم في خونة تطاولوا على وليّ أمرهم في وقتٍ سخّرنا فيه كل شيء لصدّ عدوان عدوّ اللّه ، وعدوّنا، وعدوّ هؤلاء: إنّهم أوباش جبل نالوت الذين شقّوا عصا الطاعة على مخدومنا الشيخ أبي القاسم النويري. فهل نتحجّج بمحنتنا مع النصارى ونقف مكتوفي الأيدي في ظنّكم؟

لم يجب الأبناء. ظلّوا ينتصبون أمام الأب بقامات مكابرة، يتطلّعون إلى الفراغ كأصنام صمّاء. حام الباشا حولهم عاقداً

يديه وراء ظهره. توقّف أمـام ابنه البكر ليسأل بلـهجة ذات معنى:

– ما رأي الشاعر في عملٍ خالٍ من كلّ شعر كالخيانة؟!

أجاب الشاعر محاكياً لهجة الأب:

– الشّعر، يا مولانا، لا تعنيه النتائج، ولكنّه مغرم بالأسباب!

تعجّب الباشا فاختفت لهجة السخرية من خطابه:

– ماذا تريد أن تقول؟

– أردت أن أقول إن العصاة لم يشقّوا عصا الطاعة على جنابكم، ولكنّهم شقّوا عصا الطاعة على مخدومكم. وهو ما يعني في حكم المنطق أن واجب وليّ الأمر الحكيم أن يفتّش عن سبب التمرّد، لأنّنا لا نعلم يقيناً عمّا إذا لم ينتحل شيخ النويرات صلاحيات ربّ السماوات والأرض فقبض روح من شاء وعفا عن روح من شاء!

حدّق الباشا في عينيه لحظات. استنكر:

– هل تعتقد أيها الشاعر أن الشيخ النويري يجرؤ على الإساءة إلى قومي فيميت في الأرض ويحيي دون علمي؟!

أجاب الإبن وهو مازال معلّقاً ببصره في الفراغ:

– لقد قلت يا مولاي بأنّنا لا نعلم يقيناً..

تفحّصه الباشا بفضول. غمغم:

– عجباً!



فأضاف الشاعر:

- ثمّ إنّنا لسنا في وضعٍ اليوم يسمح لنا بإرسال حملة تأديب ضدّ أحد يا مولاي، لأنّ ما الذي يضمن لنا أن العدوّ لن يلجأ إلى الإنزال البرّي بعد أن أعجزه الحصار البحري كلّ هذا الزمن الطويل؟

تعلّق بصر الباشا بإبنه طويلاً، ثمّ اجتازه ليواجه الإبن المدلّل «عليّا». سأل بلهجة أخرى:

- بماذا سيتحفنا حفيد الدّاهية الأكبر يا ترى؟

فبرطم الأمير:

- شيخ النويرات لا يستحقّ هذه النجدة يا أبي!

هتف الباشا:

- ماذا؟!

فأجاب الأمير ببرود:

- ألم يقم سلف هذا الوغد بالإغارة على قافلة جدّي أثناء عبورها أراضيه في طريقها إلى تونس زمن محنة المدعو «برغل» برغم العهد المبرم بين قبيلته وسلالتنا؟!

تلعثم الباشا:

- ولكن.. ولكن الرجل كَفَّرَ عن سيّئات سلفه فيما بعد!

فخيّب الأمير ظنّه:

– لا أحد، يا أبي، يملك الحقّ في أن يكفّر عن أحد!

حدّق فيه الباشا بدهشة قبل أن يهتمل:

– هكذا؟

لاذ الإبن بالصمت فخطا الأب نحو الإبن الأصغر:

– هل ستخيّب ظنّي أنت أيضاً؟

أجاب الإبن بنبرة حماس لم ينتظرها الأب:

– أرى يا أبي أن يلقّن العصاة درساً لا لأنّنا سنجني من وراء هذا العمل عبرة فقط، ولكن لأن نبأ الدرس سيبلغ آذان الغزاة المرابطين في البحر فيعلموا أنّ حصارهم أعجز من أن يرهبنا أو يثنينا عن ردع الأطماع!

تأمّله الباشا طويلاً، ثمّ هلّل:

– أجل! أجل! نواياهم الخبيثة لن ترهبنا اليوم، كما لم يرهبنا حصارهم بالأمس! الحملة ستلقّنهم الدرس أيضاً، لأنّها ستشكّكهم في جدوى إرهابنا بالسكّير أحمد القرمانلي ظنّاً منهم أن التلويح بهذه الدمية سوف يرعبنا فنتنازل عن مطالبنا!

ربت الباشا بعدها على كتف الأمير بحرارة قبل أن يعلن:

– أنت مَن سيقود الحملة على الجبل!

٣٥- الحياء

بحر ليبيا. أوائل فبراير ١٨٠٤م

انطلق النقيب «ديكاتور» على متن «إنتريبد» من سراقوسة قائداً لجيش الحملة على «فيلادلفيا» البالغ تعداده ما يزيد عن ثمانين متطوّعاً. في الميناء لاحظ الربّان كيف انهمك بحّارة البارجة «سيرين» في استبدال قلوع السفينة الراسية في المرفأ ليتوّجوا الراية الوطنية المزروعة بحفنة النجوم براية أخرى موسومة بالخطوط الزرقاء هي راية الإنجليز تنفيذاً لأوامر القبطان «بريبل» لتمويه العدوّ.

انسابت السفينة بيسر على مياه بحر مسالم تلبيةً لنداءالصحو في سماء زرقاء مغمورة بشمسٍ يندر أن تتسامح في فصل الشتاء، فاستبشر الجند وقرأوا في المفتتح بشارة غيوب.

كان البحّارة يتندرون بسيرة الفتى الأشرم الذي استثناه قائد الحملة من بين جموع المتطوّعين بسبب صغر سنّه الذي لم يزد على التسعة عشر عاماً، ولكنّه بكى وتوسّل القبطان أن يسمح له بالانضمام إلى الفريق لأنّه.. لأنّه «يريد أن يرى المدينة!» كما عبّر حرفيّاً. تقدّم الطبيب «لويس هرمان» من الفتى الخجول فأمسك به من أذنه ليّوبخه مازحاً: «ما كان يجب أن تقول: «أريد أن أنضمّ إلى الحملة لأني أريد أن أرى المدينة»، ولكن

كان يجب أن تقول: «أريد أن أنضمّ إلى الحملة لكي يكون لي شرف الدفاع عن الوطن!». البحّارة المكوّمون في مقصورة ضيّقة كأنّها زنزانة تضاحكوا بصخب منكر مرّة أخرى. علّق أحدهم:

– تخيّلوا لو كنت أنا من برّر رغبته في الانضمام إلى الحملة بهذه العبارة المخزية! لاشكّ أن الآمر سوف يأمر عندئذٍ بجلدي مائة سوط جزاء الوقاحة!

هتف آخر:

– لم يبقَ لك إلاّ أن تضيف إلى عبارتك هذه عبارة تقول: «لأني أريد أن أنام في أحضان فتاة طرابلسيّة!» أيها الشقيّ!

ضجّ الجمع بالضحك فأضاف القبطان المالطي «سلفادور كاتلانو»:

– أو أن تضيف فتقول: «لأنّي أريد أن أتنزّه مع حسناء خلاسيّة في بساتين المنشيّة!»!

عقّبَ جرّاح الحملة «هرمان»:

– الأفضل من كل ما يمكن أن يقال هو: «لأنّي أريد أن أنام في أحضان إبنة الباشا!».

قهقهوا طويلاً إلى أن أوضح الطبيب:

– هل تدرون من المحظوظ الذي يحتضن إبنة الباشا؟!

شَعَّ في عيون البحّارة الفضول فأجاب البحّار المالطي

«كاتالانو»:

– إنّه الريّس مراد بالطبع!

علا بين البحّارة هرج. البعض صدّق، والبعض كذّب، والبعض الآخر تعجّب. في النهاية تدخّل «هرمان» الذي سبق له أن عمل طبيباً في بلاط الباشا ليقطع الشّكّ باليقين:

– عليكم أن تصدّقوا. زوج ابنة الباشا هو الوغد الإيرلندي، دفعها الباشا إلى مخدعه دفعاً لقاء عبقريّته في الشؤون البحرية!

احتجّ «كاتالانو»:

– كلاّ، ثمّ كلاّ! لم يدفعها الباشا إلى مخدع «العلج الإيرلندي» (كما يسمّيه الطرابلسيون) نظير عبقريّته في الشؤون البحرية، ولكنه دفعها إلى أحضانه لقاء حقده على الأمّة الأمريكية!

عاد البحّارة إلى الهرج، تندّروا طويلاً قبل أن يتكلّم الفتى المكبّل بغلّ الحياء فجأة:

– لو قلت للربّان ما اقترحتم أن أقول لما جلستُ بينكم الآن!

تطلّعوا إليه بإمعان ثمّ تبادلوا النظرات، ولكنّهم لاذوا بالصمت. في النهاية علّق أحد البحّارة المكلّف بمهمّة المرشد البحري:

– تريد أن تقول إن الفطرة تستطيع أن تقول ما يعجز أن يعبّر عنه بيان المنطق، أليس كذلك؟

الفتى لم يجب، فهيمن في المقصورة سكون إلى أن اقتحم المكان «جوزيف بينبريدج» شقيق القبطان الأسير الذي أقبل عليهم رسولاً من قائد الحملة «ديكاتور». وقف في المدخل لحظات قبل أن يزفّ لهم البشارة:

– أريد أن أخيّب ظنّكم بالتموين!

تبادلوا النظرات بدهشة فأضاف الرسول:

– اكتشفنا أن الفساد دبّ في حمولتنا من الأغذية كلّها!

عادوا يتبادلون النظرات. تساءل طبيب الحملة:

– هل هذه مزحة؟!

فأوضح شقيق القبطان الأسير:

– يؤسفني أنّها ليست مزحة!

احتجّ أكثر من صوت، وعبّرت أصوات أخرى عن دهشتها:

– لماذا لم يتم اكتشاف الفساد قبل الخروج إلى البحر؟

ولكن رسول الربّان خيّب ظنّهم:

– عليكم أن تكتفوا بالخبز طعاماً وبالماء شراباً، لأن القبطان لا ينوي العودة إلى الوراء حتّى لو عدمتم الخبز والماء أيضاً!

٣٦- التكوين

بحر ليبيا. ٧ فبراير ١٨٠٤م

تبدّى الشريط الساحليّ مع حلول الظهيرة. على سطح «إنتريبد» انتصب النقيب «ديكاتور». كان يحدّق في ماسورة طويلة ليرصد في عينها السّحريّة حركة أهل الشاطئ الرابع الذين جاء ليستعيد من حصونهم حسناءه المختطفة «هيلين» حيّةً أو ميّتة!

طاف الأركان المقابلة، مهتدياً بدهاء العين السحرية، وجاس في اليابسة المستجيرة بالتحصينات والقلاع إلى أن أدّى الطواف إلى المرفأ حيث تحتشد السفن. هناك استقرّت «الحسناء المفقودة» باستكبار جبل فتبدّت السفن الأخرى إلى جوارها كأبدان أقزام تجاور قامة مارد! أقبل عليه «سلفادور كاتلانو». وقف إلى جواره محاولاً أن يتبيّن بالعين المجرّدة الديار التي أطعمته يوماً من جوع وآمنته من خوف. غمغم بلهجة من يحدّث نفسه:

– لتلك الأرض حنين لم أعرفه في أية أرض!

تساءل النقيب دون أن يكفّ عن معاندة ماسورته:

– حنين؟

- صدّق أو لا تصدّق، ولكن هذه الأرض هي الوطن الوحيد الذي يسلب من مريده روح الوطن الأصل!

عَقَّبَ النقيب المتنكّر في زي قبطان سفينة تجارية مزيّفة:

- ألم تكن شَرَك «أوليس» في رحلة بحثه عن فردوسه الضائع «إيتاكا»؟

اعترض «كاتالانو»:

- سلبت روح الشقيّ «أوليس» بلذّة الفاكهة الخرافية، وسلبت روحي بسحر آخر.

- وما أدراك أن الفاكهة الخرافية التي أوقعت «أوليس» في الأسر ما هي إلاّ رمز، أو فلنقل إنها استعارة شعرية (إذا حقّ لنا أن نستخدم لغة الشعراء) لابدّ أن تعني شيئاً أبعد منالاً من مجرّد فاكهة حتّى لو كانت هذه الفاكهة خرافية!

استسلم البحّار المالطي لامتداد البحر المؤدّي إلى يابسة شاحبة، معفّرة بغبار الرياح الموسمية التي تهبّ من الصحاري الجنوبية، ترتفع فوق أحاضيضها شعاف مكابرة لأشجار النخيل، تجاور قاماتها أشجار أخرى أقصر قامة، كالرمّان والبرتقال والزيتون، تتشبّث بسيقانها نبوت أزهارٍ أسطورية الرائحة كالياسمين والريحان والرّتم ونبوت لأجناس أخرى من الزهور مجهولة الهويّة.

تمتم المريد المالطي بعبارة مستعارة من ملكوت الحلم:

– هناك تتجبّر روح التكوين!

تخلّى الربّان عن ماسورته السحرية ليلتفت إلى البحّار:

– هل قلت «روح التكوين»؟

لم يجب البحّار فأضاف الرّبان:

– لو كانت تلك الأرض مسكونة بروح التكوين كما تدّعي، فهل يُعقل أن تُقبل عليها غازياً؟

تمتم «كاتالانو»:

– أقبل عليها غازياً، لأنّي لم أهجرها طائعاً!

– ولكن روح التكوين تُنال عفواً، لا غزواً! هل تدري لماذا؟

لم يجب المريد فأضاف الربّان:

– لأن لا وجود في الدنيا لشيء يمكن أن يتفوّق على روح التكوين في الهشاشة، ولولا هذا الإعجاز لما أضعنا الطريق إلى فراديسنا المفقودة!

زفر المريد بسخاء، ثمّ:

– لا أدري ما إذا كانت روح التكوين هي ما يسكن هذه الأرض حقّاً، ولكن لابدّ أن يعترف كل من سكن هذه الأرض بأن التعبير عن حقيقتها هو ما يعجز العبارة.

ترصّد الربّان بماسورته شرق البحر. هتف:

– ها هي ذي راية الإنجليز تخفق فوق «سيرين» ممّا يعني أن ربّات الموسيقا سيأسرن بأغنيات المديح ضعاف النفوس قريباً!

ولكن مريد التكوين خيّب ظنّه:

– هيهات أن تأبى الهشاشة بهذه البساطة!

تعجّب الربّان:

– ماذا تريد أن تقول؟

سكت البحّار المالطي وهو لا يزال أسيراً في قبضة الأفق الجنوبي. تمتم همساً:

– نستطيع أن نتّفق في نعت روح التكوين بالهشاشة، ولكن علينا أن نعترف للهشاشة كأقوى قوّة عرفها الوجود.

تطلّع إليه الربّان بفضول ممزوج بإيماء يفضح دهشة، فأضاف البحّار:

– الماء أيضاً هشّ، ولكنه الأقوى من كلّ قوّة. الريح أيضاً هشّة، ولكنّها المارد الذي لا يضاهيه مارد، روح التكوين أيضاً هشّة، ولكن لا وجود لشيء أقوى من روح التكوين، وهاهي تعدّ لنا في الأفق مفاجأة كفيلة بعرقلة زحفنا نحو الوطن!

تبيّنه الربّان لحظات أخرى فأضاف البحّار القديم:

– ستهبّ العاصفة بعد قليل.



احتجّ النقيب بعبارة مبهمة، ولكنه لاذ بالصمت عندما لاحظ ارتفاع الموج، فأضاف عرّاف الغيوب إلى نبوءته نبوءة أخرى:

– العاصفة ستدوم طويلاً!

٣٧- الإيمان

بحر ليبيا. ٧ فبراير (مساءً) ١٨٠٤م

عادت المقصورة تضيق بالبحّارة.

في الخارج كانت زفزفة الريح قد بلغت الذروة، أو هذا ما ظنه بعض المتفائلين، في حين خيّب هذه الظنون مريد وطن التكوين الخبير بطبيعة الشاطئ الرابع عندما أكّد للمحفل أن ما يحدث ليس ذروة العاصفة، ولكنّه الأنفاس التي تسبق هبوب العاصفة. أغمض عينيه وانكفأ برأسه حتّى لامس صدره فظنّه الجمع ينوي أن يستسلم للنوم، ولكنه همهم بخمول:

- ولكن القبطان لا ينوي العودة بكم إلى الوراء حتّى لو استمرّت العاصفة عاماً كاملاً!

تسلّط على المكان صمت يخرقه صرير أخشاب السفينة في الدّاخل، وضجيج الموج الذي يهاجم المطيّة في الخارج. علّق أحدهم:

- يخيّل لي أن عظام جسدي هي التي تتفكّك، وليست أخشاب السفينة!

ولكن بحّاراً نحيلاً مكلّل الفودين بالشيب عَقَّبَ على سيرة القبطان الذي لا ينوي العودة إلى الوراء:

- إذا كان القبطان لا ينوي العودة إلى الوراء حقّاً فلماذا لم يقم



بواجبه بفحص الأغذية قبل الانطلاق كما يليق بكل قبطان؟
حاججه «كاتالانو» بلهجة حياد قرأ فيها البعض تواطئاً:
– القبطان يقول إن اللّحوم تعفّنت بسبب سوء التخزين، وشحنة المعلّبات المستلمة من الوطن انقضى أمد استعمالها قبل استلامها بوقتٍ طويل!
تذمّر أحدهم ساخراً:
– الخبز لنا طعام، والماء لنا شراب، في عاصفة قد تدوم عاماً، فيالها من رحلة!
فوبّخه الطبيب «هرمان» محاكياً لهجة السخرية في عبارة البحّار:
– لسان حال القبطان يقول: «هل ظننتم أنكم تستطيعون العودة بروح الحسناء من تحت أسوار طروادة دون دفع قرابين؟».
وافقه «كاتالانو» دون أن يرفع رأسه المتدلّي على صدره:
– تستنكرون التقوّت على الخبز والماء، وعاصفة تستغرق عاماً، وتنسون بقاء «أوليس» في هذا البحر بلا خبز وبلا ماء في رحلة استغرقت عشرة أعوام!
تضاحك بعض البحّارة. علّق المرشد البحري:
– يدهشني أن يكون تحرير أرواح أسرى الحسناء «فيلادلفيا» رهيناً بزهق روح الحسناء «فيلادلفيا»!
وافقه البحّار النحيل ذو الفودين الأشيبين:

– مفارقة حقّاً!

تدخّل طبيب الحملة «هرمان»:

– هذا يعني أن كتم أنفاس الحسناء «فيلادلفيا» هو القربان في خلاص أرواح أسرى «فيلادلفيا»؛ لأنّ قائد الأسطول لا ينوي أن يستأنف حرباً مع الباشا ما ظلّ هذا السلاح المميت بين يديه. وهو قربان لن يتحقّق ما لم ننقلب نحن قرباناً لتخليص «فيلادلفيا» من براثن الباشا!

سكت لحظة ثم أضاف:

– مفارقة أخرى، أليس كذلك؟

في النافذة عمّ الظلام فلم يدرِ أحد مّا إذا كان الغيهب بفعل الغروب، أم بسبب تكاثف الغيوم المدفوعة بعواصف الشمال.

تأمّل «كاتالانو»:

– «فيلادلفيا» مطيّة في سبيل إنقاذ روح المطيّة حتّى لو استعارت المطيّة روحاً بحكم احتوائها أرواح المطيّة!

وافقه الطبيب بصوتٍ زعزعه انفعال:

– التضحية بالجسد في سبيل إحياء الروح! هذا ما تعلّمه الكتب المقدّسة!

فصحّح «كاتالانو»:

– بل هذا ما نتعلّمه من الإيمان!

٣٨- البطولة

بحر ليبيا. ٨ فبراير (اليوم الثاني للعاصفة) ١٨٠٤م.

تزاحمت الغيوم المندفعة من الشمال وزحفت حتّى اقتحمت البحر المغلول بموجٍ ظلّ يتمخّض بروحٍ جنونيّة تتلاعب بمطيّة كانت بالأمس فقط حصناً عوّل عليه مَن لم يخامره شكّ في قدرته على خرق الأرض وبلوغ الجبال طولاً، فإذا به بغضبة عابرة من الطبيعة الأمّ يبدو نملة تتشبّث بلفافة محبوكة من خيوط قشّ تتقاذفها مشيئة الموج كدمية طفل. الرّبان «ديكاتور» هرع إلى القاع واختبأ في المقصورة أيضاً. أقبل عليه البحّار المالطي «كاتالانو» وهو يترنّح فيرتطم بهذا الجانب، وينزلق بعيداً ليرتطم بالجانب الآخر، إلى أن تلقّفه القبطان بيده ليجلسه إلى جواره. زفر دفعة أنفاس سخيّة ثمّ:

– كأنَّ الأقيانوس هو الذي يحتضننا، وليس بحر الشّعر الذي تغنّى به هوميروس!

علّق «ديكاتور»:

– تسيؤون الظنّ بالأقيانوس إذا ظننتم أنّه أقسى من بحر الشعراء هذا!

– يجب ألاّ نُلام على سوء الظنّ بأقيانوسكم لأنّ وصايا الشعراء هي التي لقّنتنا الخوف من الأقيانوس عندما صوّرته

في أشعارها شبحاً للمجهول وقريناً لمملكة الموتى!

ترنّحا معاً استجابةً لحركة المارد الذي يتلطّم من تحت مطيتهما كأنه يستبسل للتنصّل من مأواهما. تهكّم القبطان:

– وبرغم وصايا الشعراء فإنّ لا وجود في الدنيا لمملكة أموات مثل مملكة الأموات التي يخفيها جوف بحركم هذا!

حاول مريد بحر ليبيا أن يجد مبرّراً لوجود مملكة الموتى في أعماق البحر أنبت له من جوفه صخرة عجيبة اسمها «مالطا» راق له أن يستبدلها بأوطان الشاطئ الآخر المسمّى حسب تعبيره بـ «وطن التكوين»:

– حدث هذا بسبب روح القدمة التي تحدّثنا عنها مرّة.

– روح القدمة؟

– إذا آمنّا بأن اليابسة التي تستلقي على شطوط هذا البحر في امتداده المقابل هي البقعة الأولى التي انحسرت عنها المياه، فلاشكّ أنّها مؤهّلة بالطبيعة، أو بمنطق الزمان، أن تمسي أول بقعة تهرم. ولهذا نجد أرض الشاطئ الرابع صحراء (لأنّ ما هي الصحراء فعلاً غير شيخوخة الطبيعة؟). وأن تكون الأرض أقدم عهداً من كل أرض يعني أن تنجب من بطنها خلقاً أكثر عدداً ممّا أنبتته كلّ أرض. وإذا تكاثرت أعداد الخليقة تكاثرت بكثرتها الحروب لأن التاريخ علّمنا أن الإنسان في علاقته

بأخيه الإنسان ما هو إلاّ ذئب يتنهّز الفرص للانقضاض على ابن جلدته الذئب. ومذبحة طروادة لن تكون لنا أوّل دليل في هذه الملحمة، كما لن يكون حرث قرطاجة برهان مطاف. فهل صار هذا البحر الذي ألهم الإنسان الأشعار مقبرة الخليقة بفعل الظمأ إلى سفك الدماء، أم أنه صار مملكة أموات لنيّته النبيلة في إخفاء آثام مريده سليل وطن التكوين؟!

استمع القبطان باسماً. غمغم بغموض:

– وها نحن نذهب في حملة على الشطّ الآخر لنستقطع من لحمه حصّة تغذية المملكة السفلى كأنّها شهادة براءة للبرهنة على انتمائنا إلى سلالة الإنسان المعادي بطبعه لسلالة أخيه الإنسان كما تقول. فهل يثور في ظنّك استنكاراً؟

مال «كاتالانو» ببدنه حتّى داهم جليسه، ثمّ أجاب:

– لن يثور إلاّ استنكاراً بالطبع!

حدّق فيه القبطان مليّاً. استسلم لهزّة مباغتة. سأل:

– آمل ألاّ تكون قد جئت رسولاً لتثنيني عن عزمي في أداء الواجب!

– أداء الواجب؟

– ألم تقل إن الإنسان لأخيه الإنسان عدوّ؟

ابتسم البحّار بحزن. تلعثم بتمتمة:

– هل تصدّقني إذا قلت إنّي جئت لإقناعك بإرجاء «أداء الواجب» الذي تتحدّث عنه، لا بثنيك عن عزمك؟

تأمّله القبطان ملياً، ثم أجاب:

– كلاّ! لن أصدّقك!

– لماذا؟

– لأنّي أحدس ما يوسوس في صدور جنودي الذين بعثوا بك رسولاً!

نكس «كاتالانو»، فأضاف القبطان:

– إنّهم يظنّون أن مواصلة الحملة في طقسٍ كهذا، برأس مالٍ هو الخبز والماء، ليس بطولة، ولكنّه جنون!

– صدقتَ!

– يهمنّي أن أعلم ما تظنّه أنت!

سكت البحّار طويلاً. في النهاية أجاب:

– ما أظنّه هو: لا وجود لفرق بين البطولة والجنون!

٣٩- الحقيقة

بحر ليبيا. ١٢ فبراير (اليوم الخامس للعاصفة) ١٨٠٤م.

مضت السفينة تنتفض انتفاض جواد جموح؛ كأنّ الروح الماردة التي تسكن البحر قد صمّمت أن تنفضهم عن المياه بأي ثمن. ولكن البحّارة المحشورين في المقصورة استسلموا للنعاس برغم جنون الطبيعة كأنّهم يريدون أن يبرهنوا بهذا العناد على قدرة الإنسان على اعتياد حتّى البلايا لو تسلّح بنصيبٍ كافٍ من إرادة. وبرغم هذه الروح الجديرة بالإعجاب إلاّ أن رجلاً وقوراً، يجاور رجلاً آخر لا يقلّ في مظهره وقاراً، ظلّ مستنفراً طوال الليل فيستجيب لكل انتفاضة بغمغمات غامضة (ولكنّها مكتومة) كأنها لعنات الحنق. ذلك هو الجرّاح «لويس هرمان» طبيب الحملة المصاب بداء الأرق. إلى جواره تراقص رأس البحّار المالطي «سلفادور كاتالانو» المتدلّي على صدره كأنه وعاء معلّق في مهبّ الريح. همس الجرّاح:

– أنظر كيف ينام هؤلاء الأشقياء براحة بال البهائم!

أنكر عبارته بسبب عمق الصمت في الداخل؛ هذا الصمت الذي تضاعف بفعل طغيان الطبيعة في الخارج. ولكن الوحشة لم تثنه عن أن يضيف:

– أعرف أنّك تعاني الأرق مثلي تماماً، فلا تتظاهر أرجوك!

هسهس الخبيث «كاتالانو» بضحكة كالفحيح، ولكن الرأس المتدلّي مضى يترنّح بمرونة الوعاء المعلّق في مهبّ الريح.

تمتم:

– لماذا تصرّ في كل مرّة أن تفزع أحلامي؟

– أفزع أحلامك؟

– لقد زارني «أخيلوس» للتوّ، أو بالأصحّ، أنا من زاره في دنيا الظلال!

– هذا من تأثير ثرثراتك مع القبطان «ديكاتور» حول الأشباح التي تفتقّت عنها قريحة العجوز هوميروس!

احتجّ «كاتالانو» دون أن يفعل ما من شأنه أن يوحي بارتباط رأسه برقبته:

– قريحة هوميروس لم تتفتّق عن أشباح. هل تدري لماذا؟

لم يجب الجرّاح فأجاب جليس الجوار بالإنابة:

– لأنّ إبداع الأشباح عمل يعجز عن تشييد صرح الديانة!

– صرح الديانة؟

– لولا وجود الإلياذة لما عرف اليونانيون لأنفسهم ديانةً!

سكت لحظة ثم صوّب القول بقولٍ آخر:

– بل لما عرفت أجيال هذه الأمّة العبقرية الإيمان!

علّق ضحيّة الأرق:

– التفريق بين الديانة والإيمان هو أكثر ماراق لي في كلّ ما قلت وتقول.

سكت ثمّ:

– ولكن دعنا من هذا وحدّثني عن زيارة «أخيلوس».

– هل تدري بأيّة وصية شيّعني الرجل قبل أن تتدخّل أنت فتوقظني؟

غمغم الجرّاح:

– لم أوقظك!

واصل البحّار:

– قال لي بالحرف إن ما أشاعه «أوليس» فرية، لأنه لم يقل له في لقائهما إن المملوك في مملكة الدنيا أفضل من ملكٍ في مملكة الظلال كما ادّعى!

سأل صاحب الأرق بلهجة لم تخلُ من فضول:

– ماذا قال له إذاً؟

ولكن البحّار خيّب ظنّه:

– أيقظتني فانقطع حبل الوصيّة من منتصفه!

– لا!

استنكر الجرّاح حماسه المفاجئ فأضاف:

– هذا حال الوصايا في الواقع!

غمغم «كاتالانو» وهو مازال معلّقاً بين اليقظة والحلم:
– ماذا تريد أن تقول؟
– يجب ألاّ نصدّق رسولاً سمّى الأشياء بأسمائها فقال كل شيء إلى النهاية. هذا ما أردت أن أقول.
همهس البحّار بضحكة مرّة أخرى، ثمّ:
– ألا تظنّ أن النفي في حال «أخيلوس» حُجّة شافية؟
زعزعت المكان رجّة طاغية فتصادما بعنف. في الخارج بلغ زفير الريح الذورة، ولكن الدمية الملفقة من أعواد القشّ لم تنكفئ رأساً على عقب كما توهّم كوم البحّارة الذين زعزعتهم الزلزلة فهبّوا من نومة البهائم (كما وصفها الطبيب) وقد استولى على وجوههم الفزع. تبادلوا النظرات غائبين. ثمّ عادوا فتساندوا قبل أن يستسلموا للنوم من جديد.
انتظر عدوّ النوم حتّى هدأ الوضع، ثمّ:
– إذا كنت المسؤول عن قطع دابر الوصية حقّاً، فهذا ما لن أغفره لنفسي أبداً!
تمتم البحّار:
– هل تتلهّف لسماع شطر الوصية المفقود إلى هذا الحدّ؟
– ليس هناك ما هو جدير باللهفة مثل الجزء الضائع من أيّ شيء، فكيف إذا كان هذا الشيء هو الوصيّة؟



حشرج البحّار بصوت كالفحيح ثمّ:

– يسعدني أن أكتشف في شخصك هذه الروح: روح الظمأ إلى.. إلى الحقيقة!

ردّد الجرّاح غائباً:

– روح الظمأ إلى الحقيقة!

سكت ثم أضاف:

– أنت تتكلم بلسان كاهن حقّاً يا «كاتالانو»! أمّا أنا فلم أحسن التعبير عن أفكاري يوماً، وإلاّ.. وإلاّ ما معنى اللهفة إلى الأجزاء الضائعة من الأشياء (سيّما الأشياء ذات العلاقة بالوصايا) إن لم يكن ظمأً إلى الحقيقة حقّاً!

– وبرغم ذلك فإن «أخيلوس» قال كل شيء، في رأيي، لأنّ نفي قول شاع على ألسنة الناس حتّى صار تعويذة أجيال هو قبول صريح بنقيض القول!

قطب الطبيب جبينه مستغرقاً في التأمّل. صاح أخيراً:

– تريد أن تقول إن «أخيلوس» بهذا النفي يريد أن ينقل لنا رسالة تقول إن المملوك في مملكة الظلال أفضل من ملك في دنيا الأحياء (أو من نظنّ أنّهم أحياء) لأنّ.. لأنّ سرّاً يؤكّد هذه الأفضليّة لن نعلمه إلاّ بالمثول بين يدي مملكة الظلال؟

تمايل البحّار باسترخاء كأنّه يستمتع برقص المطيّة الذي

انقلب بتوالي الأيام طقساً سحريّاً. قال بخمول:

- هاجس الكلّ يكمن في حقيقة هذا السرّ. فلماذا لا نجرّب فكّ الطلسم؟

- فكّ الطلسمات حرفة الكهنة أمثالك، لا حرفة من يعانون عطب اللسان أمثالي!

سكت البحّار لحظات. سأل:

- اسمح لي بمحاكاة سلطان الجدل سقراط فأقترح الحل التالي للغزْ: بما أن الانتقال إلى مملكة الظلال من وجهة نظرنا يضمن شيئاً واحداً لن نختلف عليه هو الحرية، أفلن تكون الحرية عندها هي شهادة على ميلاد، بل هي الشهادة الوحيدة المتاحة (والمؤهّلة معاً) في أن تقلب ميلاداً (أو حياةً) ما حسبناه منذ قليل موتاً؟

غاب الطبيب بعيداً. غاب جليسه أيضاً. ولكن الطبيعة في الخارج أبت إلاّ أن تعلن عن حضورها بهجمة جديدة طوّحتهما حتى ارتطما برأسيهما بالسقف. تلاحما من جديد بمنكبيهما فقال الجرّاح:

- أعترف بأنّه اكتشاف، برغم.. برغم أن الوسواس يحدّثني بوجود حلقة مفقودة في كنزك هذا!

ابتسم البحّار بكبرياء عرّاف، ثمّ:

– مرحى! مرحى! هل تدري أنّي كنت سأشكّ في أمرك لو لم تجاهر بهذا الشكّ؟

صمت. دحرج رأسه على صدره ككرة قشّ. هتمل بصوت من اعتاد أن يحدّث نفسه بصوت عالٍ:

– الحلقة المفقودة هي الحقيقة أيها العزيز «لويس»!

– الحقيقة؟

تناطحا مرّة خرى، ثم عادا فتباعدا قبل أن يجيب البحّار:

– أليست الحقيقة هي الوجه الآخر للحرية؟!

ارتجّت المطيّة مجدّداً فتلاحما. تساءل حميم الأرق رغم أنف القيامة:

– ألن يعني هذا أن لا حقيقة قبل حضورنا في المملكة التي سبقنا إليها «أخيلوس»؟

تمتم البحّار:

– هل تسمح لي بتعديل صغير؟

التفت نحوه الجليس لأوّل مرّة، فأضاف البحّار:

– الحقيقة ذات حضور دوماً، ولكنّنا لاندرك حضورها حقّاً إلاّ بالحضور في المملكة التي صارت ملك يمين «أخيلوس»!

٤٠- القيامة

بحر ليبيا. ١٤ فبراير (اليوم السّابع للعاصفة) ١٨٠٤م.

في مقصورة القبطان تشكّى «كاتالانو»:

– فقدنا الفرق بين الليل والنهار بفضل هذه القيامة!

حاجج القبطان:

– الظلمة هي أقلّ ما ينبغي احتماله لمن قرّر عبور الجحيم!

اختلس البحّار نحو الربّان نظرة شكّ ثمّ استفهم:

– ولكن ما الدّاعي لعبور الجحيم؟

– لأن عبور الجحيم هو شرط الخلاص!

تهكّم البحّار:

– ظنّنا أنّنا جئنا لنخلّص، لا لنتخلّص!

– من لم يتخلّص، لن يخلّص!

استسلم «كاتالانو» لهدهدة المطيّة. غاب قليلاً، ثمّ عاد يستفهم بلهجة السخرية:

– جئنا لننزع من الطاغية سلاحاً يمكّننا من تخليص سجناء، فإذا بنا سجناء في منتصف الطريق. فهل يستطيع سجين أن يحرّر سجيناً؟

أجاب قبطان البحرية الأمريكية المتنكّر في سربال ربّان السفينة التجارية:



– يستطيع السجين أن يحرّر سجيناً إذا بُعث من رماده حيّاً. وهو لن يُبعث من الرماد حيّاً ما لم يذهب لعبور جحيمه طوعاً. هل قلتُ «طوعاً»؟ كلاّ! كلاّ! أردت أن أقول: «ما لم يذهب لعبور جحيمه فرحاً!»، لأنّ..لأنّ من رأى في عبور الجحيم فردوساً وحده لن يُقهر!

سكت لحظة. ارتجّ لحظات.. أضاف:

– أعترف لك بأنّي حاولت أن أجد جحيمي هذا مرّة، ولكن الأقدار خذلتني. ولم أكن لأتولّى أمر حملتنا هذه لو لم أرها فرصة لتحقيق حلمي المفقود.

– ولكن هل نذهب بحثاً عن جحيمنا بلا حُجّة؟

تطلّع إليه الربّان مستفهماً، فأوضح البحّار:

– أعني هل كنتَ ستخرج لمبارزة الباشا أصلاً لو لم تحارب بعبعاً يمثّله الباشا، لا الباشا؟

سكت القبطان. استسلم لانتفاضات السفينة واجماً. أجاب أخيراً:

– تريد أن تعرف لماذا يتوجّب عليّ أن أحارب الباشا: ألأنّه يهدّد حرّية الملاحة، أم لأنه يمارس الطغيان؟

سكت البحّار طويلاً. كان يتشبّث بالمقعد ليقاوم جنون المركبة فيبدو في استنفاره مزموماً، بل مهموماً. تمتم:

– قد أبدو بسؤالي جهولاً، ولكنّي أريد أن أعلم لماذا نستنكر

الطغيان؟

– نستنكر الطغيان لأنّه.. لأنّه، ببساطة شديدة، شرّ!

– لماذا هو شرّ؟

– لأنّه.. لأنّه امتلاك!

سكت الربّان ثم أضاف:

– امتلاك لا يقنع بامتلاك ما هو قابل للامتلاك، ولكنه ينتهي بامتلاك قدس أقداس غير قابل للامتلاك!

غاب البحّار في دنيا أحلامه. سقط برأسه إلى الأسفل حتّى كاد يلامس صدره ثمّ همس:

– هل يصحّ أن نقول إنه انتحال لصلاحيات الرّب؟

– إنّه انتحال لصلاحيات تفوق صلاحيات الربّ، لأنّ الربّ لم يمتلك الإنسان برغم أنه هو علّة وجود الإنسان!

اعترف البحّار فجأة:

– لهذا السبب استجرتُ يوماً بالبحر!

استفهم القبطان بالتفاتة، ولكن البحّار لم يلحظها لأنه انشغل بسرد الرؤيا:

– لا أعرف لماذا أشعرتني الأشياء بالتقزّز منذ الطفولة فلم أكن لأطيق حتّى اللباس الذي يستر جسدي، وكانت الأمّ تجد عسراً شديداً في تدثيري منذ الرضاعة كما رَوَتْ لي فيما بعد. وحتّى عندما ترعرعتُ كنتُ أتجرّد من الثياب لأجري عارياً

عبر الأزقّة المؤدية إلى البحر، كأنّي أتشبّه بهذا العراء الهائل (والمؤلم) الذي يطرحه البحر. ولكن الأمّ كانت تدركني دائماً لتسجنني بهذه اللفائف الكريهة التي تسمّيها هي ثياباً وأحسّها أنا على جسدي أوْسَاخاً! ولكن الزمن الذي روّض في نفسي قبول الألبسة ما لبث أن طرح في وجهي شبحاً أبشع هو: الأشياء! أو ما يمكن أن يسمّى بلغتكَ: أملاكاً.كنتُ أجتنب الحصول على الأشياء، فإذا فرضت عليّ، على نحوٍ مّا، كنت أبادر بالتبرّؤ منها بأسرع وقت: أتخلّص من الدُّمَى، من قطع النقود، من كلّ ما أتلقاه على سبيل الهبة. أتخلّص منها بروح من يغسل عن نفسه إهانة، وأبكي بصمت لأن ناموساً اعتنقه الناس أجبرني أن أحتمل عبء اللباس!

سكت لحظة. أغمض عينيه. استأنف الاعتراف:

– كنتُ أتقيّاً كثيراً عندما أرى الكلّ حولي يعبد الأملاك فيبخل على ذوي القربى بما امتلكت اليد. ومع الأيام تحوّل احتجاج البدن إلى خجل. خجلتُ بسبب انتمائي إلى هذه الملّة برغم علمي أنه انتماء لم يكن لي خيار فيه. والأسوأ من كل شيء هو العزلة التي صارت لي قدراً لأني لم أجد لي شريكاً في يقيني. وكانت النتيجة أن نوبات القيء تحوّلت نوبات ربو والتعفّف من كل شيء انقلب تأفّفاً من تناول الطعام، فتضعضعت

صحّتي. كنت أختلي بالبحر زمن المحنة، ولجوئي في النهاية إلى رحابه لم يكن سوى استجابة لندائه الخفيّ..

قفزت المركبة قفزاً فطوّحت بالجليسين إلى أعلى. ولكنهما عادا فسقطا متجاورين. اعتدل البحّار في جلسته ليواصل روايته:

– ركبت البحر ففوجئت بأن البحّارة وحدهم لا يملكون شيئاً، ولا يسعون لأن يمتلكوا أي شيء عكس أهل اليابسة تماماً. تنقلت بالسفن لأطوف أركان هذه الدنيا (نابولي، مرسيليا، برشلونة، طنجة، الإسكندرية، اسطنبول) إلى أن انتهى بي المطاف في طرابلس، في هذا التجوال كنت حريصاً أشدّ الحرص على المكوث في السفن كلّما توقفنا بالمرافئ كأنّي أخاف أن أخسر عافيتي فيما لو وضعت قدمي على يابسة تلك الموانئ. والحقّ أنّي لم أخطئ عندما أستعيد الآن مسلكي آنذاك، لأن ما هي العافية إن لم تكن حريّة الجسد؟ وما هي الحرية إن لم تكن عافية الروح؟

سكت. نكس. ابتسم. سأل:

– فهل تدري لماذا وضعت قدمي أوّل مرّة منذ زمن طويل جدّاً في ميناء طرابلس؟

لم يجب القبطان فواصل البحّار:

– لأنّي وجدتُ من أخبرني يوماً بوجود أُناسٍ في دواخل ذلك



الساحل يحتقرون الملكيّة مثلي، يحيون حاملين بيوتهم على ظهورهم أبد الدهر، ولا يحطّون في مكانٍ إلاّ ليهجروه في اليوم التالي إلى مكان آخر. فاستثار النبأ فضولي. نزلت لا حنيناً لارتياد اليابسة، ولكن لأجرّب العافية في ربوع اليابسة!

تمتم القبطان بروح من يحدّث نفسه:

– كلمة «عافية» للتعبير عن الحرية يروق لي!

– كنت أريد أن أغسل الخطيئة..

– الخطيئة.. أخطيئة الملكية تقصد؟

البحّار تجاهل السؤال، وربّما لم يسمعه بفعل معاندته الطويلة لدنيا الرؤى، فواصل:

– أدركت أن «أوديستي» البحرية أخفقت في تحريري من إحساسي الفاجع بالخطيئة (ربّما بسبب فشلي في إيجاد لغة مشتركة مع بحّارة السفن)، فتوهمتُ أن أشباههم من أشباح الصحراء أقدر على جلب الخلاص، ولكن هيهات!

تعجّب القبطان:

– هل أفلحتَ في الالتئام بأهل الصحراء حقّاً؟

زفر البحّار. صلب يديه حول صدره. ولكن رجّة زلزلت المطيّة شتتّه فتشبّث بطرف المقعد السفلي. انتظر حتّى استوى الفُلْك على المياه ليجيب:

– لم أخطئ عندما وصفتهم بـ «الأشباح»، لأنّهم دلّلوا على

حقيقتهم كأشباح حرفيّاً، وإلاّ ما معنى أن يفرّوا منك ليبتلعهم الخلاء ما أن يقع بصرك عليهم؟

– من عرف الحياة في ولاياتنا لن يدهشه ما قلت، لأنّ هذا حال بعض هنودنا هناك.

– إنّهم لا يتيحون فرصة للاقتراب حتّى إنّهم لا يبادلون أهل الاستقرار بضائعهم إلاّ عن بُعْد!

– عن بُعْد؟

– أعني.. يقفون على المشارف ليتركوا البضائع هناك ليتواروا وراء حجاب. فإذا أقبل الطرف الآخر بسلعته تركها إلى جوار سلعهم ليهجر المكان أيضاً ليعقبهم صحبان الشأن، فإن وجدوا المقابل عادلاً أخذوا السلعة وتركوا للشريك بضاعتهم، فإن وجدوا المقابل مجحفاً أعادوا الكرّة. فهل تدري لماذا يغالون في اتخاذ مثل هذه التحوّطات؟

سكت لحظات. أضاف:

– لكي لا يصابوا بالوباء!

– الوباء؟

– لا خوفاً من الإصابة بأوبئة الجسد بالطبع، ولكن فزعاً من الإصابة بداء الملكيّة؛ لأنّ.. لأنّ حبّ الملكية في عقيدتهم هو سرّ الوقوع في الأسر!

صاح القبطان:

– الوقوع في الأسر؟

سكت البحّار زمناً قبل أن يجيب:

– تعبير «الوقوع في الأسر» هو ما يستخدمونه للتدليل على الحياة تحت سقف مسكون بروح شرّيرة نسمّيها نحن طاغيةً. ويسمّيها هؤلاء الأشباح مخبولاً!

قهقه فجأة، ثمّ واصل بحماس مريب كأنّ عدوى المسّ، أو الخبل ، قد انتقلت إليه:

– أعترف لك، أيها القبطان، أنّي لم أحلم بشيء في دنياي كما حلمت بأن أستعير شجاعة أبناء تلك القبائل فأتحوّل بين يوم وليلة إلى شبح! ها – ها..

تابعه القبطان فاغر الفم فزمّ الرجل شفتيه كأنه يكافح لخنق الضحك، ثمّ:

– هل تستطيع أن تتخيّل إنساناً له حضور في دنيانا، ولكنه يمتلك القدرة، برغم ذلك، على التحوّل شبحاً؟

سكت. مال نحو القبطان بسيماء غريبة أنكرها الرجل قبل أن يحشرج:

– إنّها الحرية أيها القبطان!

حدّق القبطان في وجهه بقلق. هتمل وهو يبتعد ليستلقي بجسمه إلى الجانب الآخر:

– يخيّل لي أنّك مصاب بالدوار!

أطلق البحّار ضحكة مزمومة كأنها جعجعة مكتومة، ثم لاحق القبطان بجمع جسده ليقول:

– كم أتمنّى أن أسلخ جلدي سلخاً كلّما تذكرت قدرة هذا اللغز البائس الذي يجثم إلى جوارك فأتلاشى كما تتلاشى أشباح الصحراء تلك. ها – ها..

تململ القبطان في حركة تفضح نيّة للفرار وهو يهمهم:

– أنت محموم يا سلفادور!

ولكن البحّار الذي يتصوّره القبطان في تلك اللحظة شبحاً لا يختلف عن الأشباح التي يتلهّف للتماهي بها، بدأ يرتجّ فقال وهو يفزّ واقفاً:

– سأستدعي الطبيب «هرمان» في الحال!

انتفضت السفينة بشدّة في اللحظة التي هبَّ فيها البحّار من مقعده ليلاحق القبطان فتزعزع حتى كاد يسقط، ولكنّه استعاد توازنه برغم الهزّة الجنونيّة كأنّ روح المسّ التي سكنته فجأة غلبت روح المارد المهيمن في الطبيعة خارج الدمية. وفي غمضة كان «كاتالانو» يمسك بخناق «ديكاتور» ليلتحما معاً في جرم صارم يتدحرج في المقصورة الخانقة حتّى يعترضه هذا الجانب، ثمّ يعود أدراجه حتى يصطدم بالجدار الخشبيّ

المقابل. نفث البحّار في وجه القبطان المحتقن بحميّ الانفعال أنفاساً كألسنة اللهّب فواجهه الخصم بفحيح مكتوم كوصيّة إنسانٍ يحتضر:

– إذا كنت تعتقد أنّك ستخيفني بتلك السيرة، فأنت واهم!

حشرج البحّار بعينين جاحظتين كأنّ جحوظ عيني الخصم (أو القرين بالأصحّ) انقلب عدوى فانتقل إلى عينيه:

– بل أريدك أن تتمادى أيها الأبله، لأنّك.. لأنّك حتّى الآن تتخابث!

غمغم القبطان بصوت مخنوق:

– أتخابث؟

اندفعا بهزّة جديدة فتناطحا برأسيهما بعنف، وانزلقا حتّى ارتطما بالجدار الخشبيّ الآخر. استعانا برجليهما فاستندا على الجدار باستماتة كأنّ التحامهما وَحَّدَ أعضاء جسديهما في جرمٍ متعدّد الأيدي والأرجل. كانا يرتجّان ويرتجفان في التحامهما الجنونيّ عندما لفظ البحّار:

– تريد أن تطعمنا بطون الحيتان بدل أن نُنِيم الباشا في بطوننا؛ ولولا يقيني بأنّك رسول إبليس لقلتُ إنّك عميل الباشا!

غمغم القبطان وهو يحاول أن يخلّص رقبته من قبضة بحّار مالطا:

- أنت مجنون!

- نعم! أنا مجنون؛ ولكني أريد أن أتحطّم على صخور شواطئ طرابلس كما يقضي الواجب، بدل الانتهاء إلى نومة مخجلة في قيعان هذا التنّين أيّها البطل المزوّر!

عاند القبطان وهو يجاهد ليحرّر رقبته من قبضة البحّار:

- أنت تهذي! أنت..

تزعزعا برجّة عنيدة. قاوما ببطولة، ولكن لطمة الطبيعة كانت أقوى هذه المرّة، فسقطا. ولكنّهما ظلاّ في كبوتهما ملتحمين كقرينين حقيقيين. غمغم القبطان:

- لقد قرأتُ المنكر في عينيك منذ أوّل لحظة. فلماذا تريد أن تنحر معك هؤلاء الأشقياء إذا كنت قد بيّتَ السّوء منذ البداية؟!

استنكر البحّار:

- أعددتُ لهم نهاية البطولة، وأعددتَ لهم أنتَ نهاية العار، وإذا.. وإذا..

اختنق بالعبارة وهو يلفظ زَبَداً. مقلتاه تبدّتا ككرتين زجاجيتين بارزتين مخضّبتين بدمٍ قان. أضاف بعسر:

- إذا لم تأمر الآن بالتوجّه نحو سواحل طرابلس فسوف.. فسوف أجرجرك إلى أعلى لأقفز بك إلى بطن هذا الغول لترى بعينيك كيف يتحسّر سليل الآلهة في مملكة الظلال..

حاول القبطان أن يتملّص من قبضة البحّار: تلوّى بجمع جسده جانباً، ولكنّ رجلي الخصم المتصلبتين اعترضته مثل كمينٍ مبيّت، فنفث فحيحاً مهيناً كأنّه تعبير يائس عن قبول الصفقة لو لم تهرع لنجدته الطبيعة في آخر ومضة: تلقّت المطيّة لطمة عنيفة فاختلّ توازن الجِرْم على نحوٍ هدّد بانقلاب الركوبة رأساً على عقب. الصدمة زعزعت البدنين المتلاحمين لتطوّح البحّار جانباً. هوّنت الأصابع القبضة على عنق الربّان فاستشعر في ضائقته انفراجاً. تلقّف نفساً شحيحاً؛ لأنّ الخصم تصدّى له بساقين مستنفرتين مثل كمّاشة ليطبق عليه بكلكله كقدرٍ مسلّط. أحكم قبضته حول الخناق ملقياً بقفّاز التحدّي في وجه الطبيعة نفسها لينتفض القبطان بيأس طريدةٍ أعياها طغيان الشرك، فلم يقذف بالقول المعبّر عن رفع راية الاستسلام إلاّ بجهد بطوليّ:

– سآمر! سآمر.. بالتوجّه.. حالاً!

ولكن الخلاص من غضبة القدر لم يتحقّق برغم الاستسلام؛ لأنّ القبضة الجنونيّة التي استمرأت الحزم تصلّبت في انقباضها حول العنق البائس كأنها تتمرّد على إرادة ربّ القبضة. وكان على هذا الربّ أن يبذل جهداً بطولياً معادلاً لجهد القبطان الشقيّ كي يفلح أخيراً في السيّطرة على أعضائه، وإجبار أصابعه على الخضوع لمشيئته!

٤١- البعث

بحر ليبيا. ١٦ فبراير ١٨٠٤م.

على سطح «إنتريبد» هتف كاهن البحار «كاتلانو»:

– هل رأيت؟

في سيمائه شعّ إيماء غلبة قبل أن يضيف:

– ها هي التجربة تثبت أن الطبيعة نفسها تتنازل وترفع رايات الاستسلام عالياً إذا اصطدمت بشبح الشجاعة!

كان القبطان يختلس نحوه نظرات ارتياب طوال الوقت ليسرح ببصره عبر المدى المسربل بزرقة داكنة، تكاد تتحوّل سواداً حقيقيّاً، اعتاد البحر أن يستعيرها كلّما استباحته الأعاصير لأمدٍ طويل؛ كأنّها علامة خفيّة على بكارة. كأنّها استعادة لبكارة مفقودة يأبى هذا المجهول الرهيب المسمّى بحراً إلاّ أن يلقي بها هبةً لمريديه، مكافأةً لهم على صمودهم، أو شهادة منه على إكبارهم. السماء أيضاً تستجيب لنداء القرين الأرضيّ فتكتسب صفاءً يستنزل في زرقتها(بعد البلبلة) عمقاً. يستنزل أيضاً بكارة يهديها بالمجّان لكلّ مريد تطلّع إلى أعلى طلباً لعزاء، أو بحثاً عن حقيقة!

تنفّس «ديكاتور» هذا الشّعر الذي لم يكن بالأمس سوى حلم ينفي حضور الحلم، وهاهو الصفاء يفعل العكس فيكذّب



جنون الأمس الذي غيّب من الوجود كلّ هويّة باستثناء هيمنة الكابوس!

تطلّع إلى «كاتالانو» فإذا بالطبيعة قد استبدلته أيضاً لينقلب مخلوقاً آخر: كأنّ روح اللغز المسمّى إنساناً لا تخفي في خباياها إنساناً واحداً، ولكنّها تتستّر على مستودع حقيقي تتبارى في ظلمات قيعانه الأشباح.

أضاف «كاتالانو» بروح مرحٍ وهو يتوضّح الأفق:

– لم يبقَ إلاّ أن تأمر باستدعاء أفراد المفرزة لتوزّع عليهم الأدوار!

ولكن القبطان تجاهل الوصيّة ليعبّر عن هاجس آخر:

– كأنّنا خرجنا من بطن الحوت!

رمقه كاهن البحور بحذر، ثمّ:

– تُرى ما هو شعور شقيّ النبوّة «يونان» بعد الخروج من بطن الحوت؟

أجاب القبطان:

– البعث!

حدجه البحّار بإعجاب، ثمّ عاد يسرح في الغمر المغمور بفتنة الزرقة قبل أن يتساءل:

– بعث من رحلة دينونة، أم بعث من رحلة ديمومة؟

- في نظر أمم التكوين التي نفخت الحياة في روح الكتب المقدّسة لا وجود لفرق بين دينونة وديمومة!

تأمّل كاهن البحور سلاسة الارتعاشة التي انتابت الغمر كأنّها انتفاضة انتشاء وليست استجابة لنداء النسمة، ثمّ عقَّبَ وهو يعاند الأحلام:

- هذا يعزّز موقف الدراويش الذين لا يؤمنون بوجود فرق بين الحياة والموت!

التفت نحوه القبطان. في مقلتيه ومض بريق:

- هل يؤمن دراويش المسلمين بهذا حقّاً؟

ولكن الإغواء في البحر قاد كاهن البحر بعيداً فتمتم كأنّه يروّض مطلعاً لقصيدة، أو يستيعد أبياتاً في ملحمة منسيّة:

- بطن الحوت، بالنسبة لي،رحلة دنيا؛ والخروج منه ليس بعثاً إلى الحياة الدنيا، ولكنّه بعث من الحياة الدنيا!

٤٢- الحصان

بحر ليبيا. ١٦ فبراير (ليلاً) ١٨٠٤م

قُبيل منتصف الليل بقليل تجاورت قبالة الساحل الطرابلسي سفينتان متنكّرتان برايتين إنجليزيتين: لفظت إحداهما من جوفها عدداً من القوارب إلى المياه. استنزلت في القوارب جنداً. جدَّفَ الجند بالقوارب حتى التحقوا بالسفينة الأخرى. صعدوا متن السفينة في أجواءٍ لم يكن لبحّار الأمس أن يصدّقها لو لم يعشها اليوم: سماءٌ تغسّلت من أشتات السحب اغتسالاً، كأنّ زوابع الأيام الخوالي لم تهبّ بتلك الوحشية الخرافية لتزلزل كيان الكون، ولكنّها هبّت (مستعينة بفيوض الغيوث) لتضع موضع التنفيذ وصيّة غيوب بوجوب محوِ كلّ ما يكدّر صفو الطبيعة من الوجود. وها هي عناقيد النجوم تتغامز في الفضاء كفسيفساء ملفّقة من فصوص الجوهر، يضاعف سكون الأموات من أعجوبة الصنيع، كأنَّ الكون كلّه حبس في صدره الأنفاس ليتجسّس توجّساً لحدوث خلل، أو خشية لوقوع أمرٍ جلل.

في ناحية الغرب خاض هلال خجول في الخُضاب وهو يحتضر؛ ولكنه عاند وهو يلفظ أنفاس النزع الأخير، فجاد على الأفق بشعاعٍ شحيحٍ تلبّس اليمّ المنهك (ببطولات الليالي

الفانية) بكفنٍ من وميض.

في جوف السفينة بدأ القبطان المتنكّر في أثواب ربّان يوزع الأدوار على طاقم مفرزته الانتحارية: «سأصطحب أربعة عشر رجلاً إلى سطح «فيلادلفيا» لنباغت العسس هناك، وسيتبعنا «لورنس» و«مكدونو» برفقة عشرة رجال ليتّجهوا إلى السطح الأدنى حيث توجد المستودعات الأمامية. أمّا «جوزف بينبريدج» فسيرافق أحد عشر رجلاً للاستيلاء على غرفة القيادة. هذا في حين سيتولّى «مورس» حراسة قوارب «سيرين» لئلاّ يغتنمها بحّارة العدوّ ليفرّوا بها إلى الشاطئ، فهل بلّغتُ؟!». انتهى «ديكاتور» من توزيع الأدوار، ولكن لم يفته أن يضيف إلى الأمر وصيّة: «إذا فعل أحدكم ما توجّب عليه أن يفعل، فليفعل دون أمل في عودة؛ لأن الأمل في النجاة أفيون البطولة بدليل أنّنا لا نميت من يعجزنا أن نميت إلاّ إذا تحقّقنا بأنّنا أموات!».

انسابت الرّكوبة الأولى على المياه بيسرٍ كان بالأمس حلماً بعيد المنال، في حين تخلّفت قرينتها مسافةً مناسبةً كما أَمْلَى تدبير مسبق.

حول شبح «إنتريبد» تقافزت الأسماك كأنّها تهرع لملاقاتها، أو تستبشر بالوصول، فهتف كاهن البحور ما أن وقع بصره

عليها:

– ظهور الأسماك لأمّة الصليب دائماً فأل خير!

ابتلع البحر آخر جزء في قوس الهلال المخضّب بلون الدّم فعاد كاهن البحار يهتف:

– وهذا هلال المحمّديين يغرب، فتفكّروا!

انتهره القبطان المنتصب بجواره على السطح. ولكن «كاتالانو» تمادى:

– دعني أتنبأ لسلالة التّرك بالشؤم، لأنّ مَضْرَبْ المثل في الغباء هؤلاء استولوا على أوطانٍ لا يستحقّونها بموهبة وحيدة لاشريك لها هي: «أشهد أنّ لا إله إلاّ اللّه محمداً رسول اللّه»، فتعّجبوا!

هأهأ أحد القنّاصة بضحكة مكتومة،ثمّ عاد السكون يخيّم من جديد. لم يعد يُسمع سوى لغو الماء في ثرثرته الخفيّة مع جرم الدبّابة الزاحفة بيقين نحو الميناء المرصوص بأشباح السفن. من الشّطّ تراءت أضواء فوانيس المدينة الهامدة كأنّها تحبس أنفاسها أيضاً انتظاراً لخطر مجهول.

قطعت الدبّابة الزاحفة مسافة أخرى فتضاعف الزمّ في وتر السكون إلى حدّ تحوّلت فيه أنفاس البحّارة أصواتاً في آذان بعضهم بعضاً. وهاهي «إنتريبد» تقترب من «جنيّة البحار» الجاثمة باستكبار مجبول بحزن في المرفأ المظلّل بهامات

القلاع المدجّجة بالمدافع والبطاريات المحشوّة بالذخيرة، فلا ترتهب بهياكل الموت،ولاينال من سعيها الهلاك المنتظر، إلى أن هتف القبطان المتنكّر الآن في لباس بحّار مالطي:

– تأهّبوا!

في تلك اللحظة نفسها تقريباً انطلق من البارجة «فيلادلفيا» صوت منكر:

– من هناك؟

سادصمت مزموم أكثر من أية لحظة مضت. ولكن القبطان لكز البحّار المالطي بمرفقه فأجاب بلغة أهل مالطا المستعارة بمفرداتها أصلاً من لهجة أهل طرابلس:

– مركب تجاري مالطي!

ولكن الصوت المنكر استنكر:

– مركب تجاري مالطي؟

سكت ثمّ أضاف:

– نحن لا نتوقّع وصول أي مركب تجاري من مالطا!

ولكن كاهن البحار أجاب كأنه يقرأ جوابه في كتاب:

– لقد نجونا من العاصفة بأعجوبة، ونحمد الربّ أننا لم نفقد في تلك القيامة سوى المرساة. فهل نستطيع أن نستجير بالبارجة حتّى الصباح؟

ساد سكون. بعد لحظات سُمِعَ على سطح البارجة حوار مهموس فتمتم «كاتالانو»:

– إنهما يتشاوران فبماذا ينصح القبطان؟

فمازحه القبطان:

– الآن أنت القبطان!

من سطح «فيلادلفيا» علا الصوت بلهجة استجواب:

– ما اسم هذه السفينة؟

سكت الكاهن. كان يستنفر قواه مستجدياً مواهبه الكهنوتية فيفزّ العرق ليغمر جبينه بدل أن يفوز بالنبوءة. وفي اللحظة التي أيقن فيها بهزيمته انبثق الإلهام بوصيّة الخلاص: لقد تذكّر السفينة «ترانسفير» التي قيل له في مالطا إن الباشا ابتاعها منذ أمد لاستخدامها في الأغراض التجارية، وكانت تتأهب للانطلاق بحمولتها في اليوم نفسه الذي انطلقت فيه مفرزة «إنتريبد»، فيالها من لقية! فما كان منه إلاّ أن صاح ابتهاجاً باللُّقْيَة:

– إنها «ترانسفير»!

سكت الحارس، فانتظر الجمع القابع في بطن المطيّة كأنّهم جنود «آجاممنون» ينتظرون إشارة «أوليس» في جوف الحصان الخشبيّ لينطلقوا في الحملة لإضرام النار في مدينة

طروادة. وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما لحظوا ظهور قارب قادم من جهة «فيلادلفيا» فما كان من القبطان إلاّ أن أمر بإنزال قارب من «إنتريبد». رُبط الحبلان لشدّ السفينة المنكوبة (زوراً بالطبع) إلى جرم الجبل الأسطوري العائم المسمّى بـ «فيلادلفيا».

عاد القارب المخدوع على عقبيه حاملاً في جوفه الحبل اللئيم الذي سيتحوّل في عنق حامله مشنقة بعد قليل!

تلامس جرم «إنتريبد» أخيراً بجرم «فيلادلفيا» في عناق حميم انتظره الأجناد طويلاً. ولكنّهم سمعوا الصرخة المدويّة في اللحظة نفسها التي همّوا فيها بالخروج من مكمنهم في الجوف الخشبيّ:

– الأمريكان!

كان أحد العسس قد أبصر مرساة «إنتريبد» التي أعلن «كاتالانو» ضياعها في حواره مع الحارس، فانكشفت الخدعة؛ ولكن.. بعد فوات الأوان!

٤٣- البرزخ

مرفأ المدينة (نحو الساعة الواحدة

بعد منتصف الليل) ١٧ فبراير ١٨٠٤م

استمات الأحراس في الدفاع، ولكن الجوف الخشبيّ ظلّ يلفظ الأشباح المدجّجة بالسلاح الأبيض بلا انقطاع فتضعضع وضع الدّفاع. كان «ديكاتور» قد وضع الخطط وهدهد الأحلام منذ وقوع «فيلادلفيا» في الأسر كي يكون أوّل أمريكي يضع قدمه على سطح تلك الهامّة التي لم تعد في تفكير الإنسان الأمريكي لتعني سفينةً حربيّة منذ ذلك اليوم، ولكنّها انقلبت رمزاً أسطورياً مجسّماً يمثّل شرف الوطن. وكان «ديكاتور» يعلم أن أمل الفوز بقصب السبق في ارتياد هذا الصرح لم يكن حلمه الخفيّ وحده، ولكنه حلم كلّ جنديّ في الأسطول، بل وأمل كل مواطن في كلّ القارة الأمريكيّة. فهل تغذّى بهذا الحلم طوال الأشهر الماضية طمعاً في المجد؟ أم أن حافز الحمّى التي كانت هاجس الجميع لم يكن إرواء الظمأ إلى المجد، ولكنه الهوس لأداءالواجب؟ أم أن الأمل كان محبوكاً من هذين النقيضين معاً؟

لقد تمنّى بالطبع أن تكون الحمّى وليدة الحاجة لإشباع الواجب، لا الظّمأ المعبّر عن إنسانية الإنسان (أو أنانية

الإنسان) المتمثّل في نيل المجد، برغم أنه يعلم يقيناً أنّ المجد وهم. وها هو الآن يقف على بعد شبر واحد من تحقيق هذا الحلم الملتبس الذي صار لروحه طعام الأيام الأخيرة المقدّس. وهاهو يقفز (أو يحاول القفز بالأصحّ) إلى «طوق النجاة» المنتظر ما أن سمع صرخة الحارس وهو يستنجد بالزملاء، ولكن قوّة غيبية (كما سمّاها فيما بعد) تشبّثت بقدمه كأنّها أحبولة فسقط أرضاً. سقط في البرزخ الفاصل بين المطيتين ليلامس بأنفه حافة الحلم (جرم فيلادلفيا) ليغزو أنفه عطر لم يكتب له أن ينساه إلى الأبد: مزيج من رائحة الخشب المبلّل بالمطر، المجدوح بملوحة بحر ليبيا الغامض، وبرائحة أخرى أكثر غموضاً وسحراً من كل الروائح والعطور فاستسلم. استسلم للخدر المستعار من ممالك الأساطير، أو بالأصحّ من مملكة الحلم، ليكون هذا الإنتشاء بمثابة البديل للفوز بالحلم؛ لأن عطر تلك الكبوة استهواه فغاب زمناً لم يزد على الغمضة الواحدة، ولكن الإغواء كان كافياً لتفويت الفرصة التي انتظرها طويلاً. لقد تذكّر فيما بعد أنه فزّ حالاً برغم الوجد النابع من فيض العطر السرّي، ولكنّ جسده اصطدم بجسد فارس آخر كان يشاركه قطعاً حلم أولويّة الارتماء في أحضان الحسناء، هو «لويس»، فهوى بدوره إلى جواره أرضاً، ليكون الكنز من

نصيب فارس ثالث لم يخطر له على بال هو «مورس» الذي تجنّب العائق بوثبة جنونية ليجد نفسه على سطح «فيلادلفيا» ليتباهى بهذه البطولة التي وهبتها له الأقدار بالمجّان مدى الحياة.

أمّا «ديكاتور» فقد نهض وهو يعاند دوار العطر (هذا الدوار الذي ظنّه طاقم المفرزة بفعل السقطة) حتّى إنه لم يلحظ (في قيامة تلك اللحظة التاريخية من حياة البحرية الأمريكية) السيف المسلّط على رقبته من الخلف: كان أحد أحراس البارجة قد برز في مجال البرزخ فجأة كأنه شبح لفظه الغيب فاعترض جسم «ديكاتور» له طريق الفرار. سما السيف في يده عالياً، ولكن نصلاً آخر اعترض مسيرة السيف في الهواء في اللحظة التي هوت فيها كفّ الحارس بإعادة الكرّة، ولكن كفّ المنقذ المجهول كانت أسرع فأصاب النصل معصم الحارس الذي ندّت عنه صيحة ألم مكتومة قبل أن يترنّح ليهوي في المياه. لحظتها استعاد «ديكاتور» حضوره ليعي ما حدث. حدّق حوله بدهشة قبل أن يغمغم:

– لم أكن أدري أن زيارة البرزخ بهذه السهولة!

فأجابه الشبح بلهجة غريبة:

– سيّدي القبطان يعني عبور البرزخ!

تبيّنه «ديكاتور» في العتمة ثمّ برطم:

– هل أنت «كاتالانو»؟

لم يجب الشبح المنتصب على حافة البارجة برجل، والمنتصب على حافة «إنتريبد» بالرجل الأخرى كأنّ وقفته كانت الدليل على وجود البرزخ ببعديه: برزخ بين سفينتين حربيتين، وبرزخ بين عالمين. سأل القبطان:

– من أنت؟

فسمع في الجواب نبرة سخرية:

– أنا «الملاك الحارس»!

كانت خيبة الأمل قد أصابت القبطان بإحباط عميق فوقف يتفرّج على القيامة حوله بذهول أبله. وفي لحظة إلهام وجد نفسه يتوضّح الشبح بإمعان ليصيح:

– أنت ابن التسعة عشر عاماً!

سكت الشبح فأضاف القبطان ساخراً:

– ظننتُ أنّك تريد أن ترى المدينة!

فأجاب الفتى الخجول ابن التسعة عشر عاماً الذي رفض «ديكاتور» قبوله في الحملة فبرّر رغبته في الانضمام إلى المفرزة برغبته في رؤية المدينة:

– وهل كنتُ سأستمتع، ياسيّدي، برؤية المدينة لو لم أحسن

القيام بدوري كتعويذة؟!

عَبَرَ القبطان إلي البارجة، ولكنّه لم يستشعر في عبوره لذّة نزول أرض الفردوس التي انتظرها طويلاً: مرارة الإخفاق في الفوز بقصب السبق سلبت منه حلاوة النصر الوشيك. في تلك اللحظة فقط أدرك القبطان «ديكاتور» أن الحلم المحموم بارتياد رمز الوطن ذاك لم يكن دافعه أداء الواجب، ولكنه مجرّد تلبية للفوز بالمجد، فاستشعر الخجل في وقتٍ لا مجال فيه لتبكيت ضمير، أو لمعاندة الإحساس بالخجل. وهو إحساس لم تعوّضه حتّى بطولاته التي مكّنته قبل أيّ أحد آخر من بلوغ غرفة القيادة ليشرف من هناك على عملية إضرام النار في الكيان الذي كان حتّى تلك اللحظة رمزاً مقدّساً لحضور الوطن. أو لم يكن بعث العنقاء من رمادها رهيناً منذ الأزل بحرق بدن العنقاء؟ كان أفراد المفرزة يتفرّجون، في طريق عودتهم من غزوتهم، على الحريق وهو ينير بألسنته الذهبية الشرهة جدران القلعة حيث يقبع «كاهن القرصنة»، وتتطاول في امتدادها إلى أعلى لتضيء قلاع الدفاع المتوّجة بأجرام المدافع التي لم تفق من سباتها إلاّ الآن، وهاهي تزغرد بعد انسحابهم كأنّها تلقي بحممها في البحر ابتهاجاً بنصرهم، لا لردع عدوانهم!

كانوا يتهارجون. كانوا سكارى. كانوا يتسلّون بإحصاء كرات

القذائف المنهمرة من سطوح الأبراج فتستبيح وداعة يمّ يهدهد المطيّتين المنسحبتين من المرسى بحنان أمّ تطوّح وليداً في أرجوحة. وهاهو سلطان الغلبة يحوّل شظايا القنابل في وجوه الأبطال رذاذاً منعشاً ممزوجاً بالملوحة ورائحة سمك طازج وعطر محال. تندّروا في طريق العودة بخراقة مدفعية الباشا فقالوا إن الرجل لم يجد من يستعين به في حرب المدافع سوى الرعاة بعد التحاق أمهر الرماة بالجيش الذي خرج إلى الدواخل لتأديب العصاة. تباروا في تبادل النكات بروح من لم يصدّق الفوز بالنجاة إلى تلك اللحظة التي نبّه فيها أحدهم إلى غياب «كاهن البحار»!

٤٤- الحريق

السراي الحمراء. (اليوم التالي للحريق) ١٨٠٤م.

مثل القبطان «بينبريدج» بين يدي الباشا مرفوقاً بوزير الخارجية الدغيّس . وقف الرجلان أمام الباشا الغارق في جوف العرش بجرمه الهزيل الذي يذكّر بالدمية، ولكنه يتباهى بمزايا القامة فيقول إنها امتياز استعاره منه فريد عصره معبود النساء: نابليون!

تطلّع إليهما الباشا صامتاً. دامت وقفتهما تلك طويلاً قبل أن يتساءل الباشا أخيراً:

– ما رأي أسيرنا المبّجل فيما جرى؟

اختلس القبطان نظرة نحو الوزير المنتصب بالجوار، ولكن سيماء الوزير تقنّعت بالجمود. أجاب:

– أظنّ، يا سعادة الباشا، أن ما حدث لم يكن ليحدث لولا رفضكم مبلغ الأربعمائة ألف قرش ذهبي ثمناً للإتاوة!

سكت الباشا لحظات. على شفتيه ارتسمت بسمة سخرية. سأل:

– ألا يبدو لأسيرنا المبجّل أنّنا دفعنا ثمن تسامحنا بعمل قائد أسطولكم هذا؟

– ثمن تسامحكم؟

هبّ الباشا من جوف العرش. زأر:

– انتشلناكم من أوحال سجنكم لنسكنكم مقرّ قنصلكم الطريد خلافاً للتقاليد. لم نكتفِ بهذا الكرم، ولكنّنا أمرنا لكم بالخدم يقومون على خدمتكم بدل السجّانين خلاف التقليد. لم نكتفِ بهذا الاستثناء أيضاً، ولكنّا أمرنا بالسماح لكم بالتنزّه في ربوع المملكة، بل وقدّمنا لكم الجياد لتسرحوا في البراري وتتسلّوا باصطياد الغزلان. لم نكتفِ بهذا الصنع النبيل، ولكنّا قطعنا في تسامحنا شوطاً أبعد وأبعد عندما سمحنا لكم بالتنقّل في المدينة أحراراً مثلكم مثل أبناء الرعيّة تماماً، فتسكعتم في الأحياء، وارتدتم الأزقّة، وزرتم الحواري، ونزلتم قيعان الحانات حيث تشاجرتم بالأيدي كأنكم حثالة رعاع في مواخير نابولي أو مرسيليا، ولستم أسرى في بلادٍ تدين بتحريم الخمور!

سكت الباشا. تحرّر من أسر العرش. خطا نحو النافذة. اعترف الأسير:

– لن يخجلني، يا سعادة الباشا، أن أدلي في حضرته باعترافٍ لم يكن يوماً حكراً على شخصي في حقّ هذه البلاد؛ لأنّ كلّ من زارها قبلي، أو عرفها في عهدي، شهد لها، ويشهد لها، بتسامحٍ لا يجوز لنا أن نقارنه بتسامح بقيّة ديار المسلمين سواء في مغرب الأرض، أو مشرقها!

توقّف الباشا. واجه الأسير عاقداً يديه خلف ظهره. سأل بنبرة مرارة:

– لماذا تستخفّون بنا إذاً فتسيئون لهذا التسامح؟

– أخشى، يا سعادة الباشا، أن من أساء لهذا التسامح هم الفئة التي تجهل وجود هذا التسامح!

تعجّب الباشا:

– الفئة التي تجهل وجود هذا التسامح؟

– أعني جنود الأسطول الذين يرابطون في البحر!

اقترب الباشا من القبطان خطوتين. حدّق في عينيه بنظرة ثاقبة ذات معنى قبل أن يلقي في وجهه بأوّل بند في صحيفة الاتهّام:

– هل تتحدّث عن جهل الفئة المرابطة في الجبهة، أم عن جهلي بحقيقة مخاطباتك مع قائد تلك الجبهة؟

– يؤسفني ألاّ أفهم ما يعنيه سعادة الباشا.

– أردت أن أقول إن ما حدث لم يكن ليحدث لو لم ينقلب أسرى «فيلادلفيا» جواسيس بفضل تسامحي!

انتفض القبطان:

– جواسيس؟

رجمه الباشا بنظرة استخفاف. زأر:

- هل تظنّني أجهل خطاباتك إلى «بريبل» المرسلة ببريد قنصل الدانمارك «نلسون» إلى مالطا؟ أم تظنّ أن استخدامك الحبر السرّي في الكتابة سيجير طلسماناتك من حيلة تمكّنني من تشفيرها؟!

طأطأ الأسير. غمغم:

- يؤسفني كثيراً، يا سعادة الباشا، ألاّ أتمكّن من أداء الواجب نحو وطني دون أن يكون ذلك سبباً للمساس بوطن الباشا!

تطلّع إليه الباشا بغموض، فأضاف:

- أستطيع أن أتخيّل مدى الاحتقار الذي سيعاملني به سعادة الباشا لو لم أفعل ما فعلت!

تابعه الباشا بفضول من موقعه المجاور للنافذة. وعندما أشاح ببصره ليتعلّق بالبحر، المغمور بشموس الظهيرة، لاحظ الأسير كيف سطعت اللؤلؤة الثريّة المثبّتة في عمامته تحت الضوء ليتبدّى، في لحظة خاطفة، يائساً، مبلبلاً، مهموماً، ليستنزل هذا المزيج في وجهه سيماء نبل حقيقي؛ كأنّ الهزيمة وحدها تستطيع أن توقظ في قلب صاحب السلطان الضمير الذي اغترب.

تكلّم الباشا:

- يؤسفني أيضاً ألاّ أتحلّى بالتسامح دون أن أخون الناموس

القائل: «لا تثق بأحد!»، لأنّي ما جرّبت أن أتسامح يوماً دون أن أجد نفسي ضحيّة في هذه الصفقة!

تأمّل البحر في امتداده العنيد زمناً. لانت في وجهه سيماء البلبال قليلاً. استعاد إيماء الدّهاء في المقلتين. بعد لحظة كان وميض التحدّي يسطو على المحيّا:

– ولكن ثِقْ أن الحريق لن يجبرني على قبول قسمة الأربعمائة ألف قرش!

٤٥- الرؤيا

طرابلس. سجن النّصارى (بين الساعة الثانية عشرة والنصف والواحدة والنصف من يوم ١٨ فبراير) ١٨٠٤م.

من نافذة «سجن النصارى» التي تتقاطع في فوهتها القضبان الحديدية شاهد البحّار «وليام راي» الحريق. كان يتشبّث بالقضبان الكريهة بيديه الإثنتين ويرتجف. ظلّ مشدوداً إلى ألسنة اللّهب بقوّة غيبيّة أماتت فيه الحواس منذ اللحظة التي انتشر فيها الخبر بين الأسرى:

– فيلادلفيا! إنها فيلادلفيا تحترق!

ردّد السجناء منذ أمد شائعة تقول إن مراسلات تجري بين القبطان «بينبريدج» وقائد الأسطول «بريبل» بشأن خطّة سريّة للتخلص من «فيلادلفيا»؛ ولكنّه لم يصدّق. لم يصدّق وقتها، ولم يصدّق أيضاً عندما انطلق صوت أحد الزملاء ناعياً:

– إنها فيلادلفيا تحترق!

وهاهو يتشبّث بالقضبان ذاهلاً، عاجزاً، مزعزعاً بالحمّى، يحدّق في لهبٍ مهيب، مسربل بفتنةٍ غامضة، يعلو في البُعْد مبدّداً فلول ظلمة بعد منتصف الليل. لم يسمع صوت تبادل إطلاق النار، لم يسمع هدير المدافع المنبعث من سطوح الحصون، لم يسمع صخب السجناء الذين ابتهجوا، كما لم



53
الاصدار «٥٣» سبتمبر ٢٠١١

يسمع جدل أغيارٍ تحفّظوا. لم يسمع سوى وجيب قلبه الشقيّ وهو يقرع أجراس الخطر.

لا يدري كم استمرّ ذلك العرض الفاجع، ولكنه لا ينسى كيف قضى ليلته تلك: لقد هجع الأسرى في النهاية، ولكنه لم يتزحزح من مكمنه بجوار النافذة، يتشبّث بالقضبان الحديدية، ويرتجف بالحمّى حتى مطلع الفجر. في الصباح ذهب إلى المرفأ مع كبكبة الأسرى لمواصلة ترميم أحد قوارب الباشا ككلّ يوم. هناك وقف ليشاهد أشلاء أعجوبة البحار المتناثرة فوق الماء عقب الانفجار: نتف من حبال، بقايا أعمدة، شظايا أخشاب، طرف من عجلة القيادة، شريحة من وعاء بارود. وكلّ هذه القطع مدسوسة بختمٍ قاسٍ، تبدّى له في تلك اللحظة غيبيّاً إلى أبعد حدّ، هو: الفحم!

أحسّ بقضيب النار يلسع قلبه ليستولي على بدنه كلّه:

ألم يبثّ في هذا الجرم أنفاس الحياة يوماً ليتحوّل في عينيه الآن بقايا فحم بعد أن ابتلع اليّم الجرم؟ ألم يرفض أوامر القبطان بإتلاف كلّ ما أمكن إتلافه دون أن يقيم وزناً لقصاصٍ مستوجب جزاء كلّ عصيان؟ ألم يحاول أن يفعل كلّ ما بالوسع أن يفعل لإرضاء القبطان شريطة أن يعفيه من تخريب ذلك الصنع الرائع؟ ألم يدرك القبطان «بينبريدج» في ذلك اليوم

أن «فيلادلفيا» ليست سفينة في أسطول الوطن، ولكنّها الوطن مجسّداً؟ ألم يدرك ذلك المكابر أن «فيلادلفيا» ليست قطعة حربية، ولكنّها روحه هو مجسّدةً؟ فكيف خطر له أن يتآمر مع الأبله «بريبل» ليعدّ مكيدة حرق هذا الأثر التاريخي الخالد في تاريخ الولايات المجيدة؟ كيف فاته أن «فيلادلفيا» ليست جسده، ولكنّها روحه! روحه! روحه؟!

في المساء دفع رشوة للسّجان كي يأذن له بالخروج إلى حانة «ترافيرسو». هناك احتسى عدداً من كؤوس «روم» وخرج إلى الزقاق ليداوي الصداع باستنشاق الهواء الطلق. في الزقاق استشعر الدوار فاستجار بالأعمدة الرخامية الأربعة التي حدّثه الأهالي عن سيرتها فقالوا إن السلف الأوّل أقامها منذ الزمن الذي لا يذكره أحد لتكون بمثابة حجر الأساس للمدينة النواة الملقّبة باسم «أويا» الدّال في لغة القوم المنسيّة على معنى «الميلاد»، أو «الصرخة الأولى» الدّالّة على الحضور الفجائي في ساحة الدنيا على لغزٍ اسمه الإنسان. ويضيف الأهالي فيروون وصيّة أخرى ورثتها الأجيال عن أسلافهم تقول إن بقاء المدينة رهين ببقاء الأعمدة الرخامية الأربعة، وسوف تندثر في اليوم الذي سيلمس فيه لسان الزمن اللئيم الحجر المستقطع من صلد الجبل الصحراوي المجهول. وهاهم الأهالي يهرعون

إلى الأعمدة في كل مناسبة دينيّة ليدهنوا الجلاميد بالزيوت والمراهم ومستحضرات أعشاب مجهولة الهويّة لحماية الحجر من سلطان الزمان المتحالف مع أملاح البحر. ولكن الخبثاء ينفون هذا الزعم ليؤكّدوا أنّهم يمارسون هذه الطقوس تقرّباً لروح الحجر. وهاهو حرصهم على هذا المعبود يبلغ حدّ التّفنّن في خلع أقمشة نفيسة، منمنمة بأبدع التطرين، على تلك الأزلام التي تنتصب باستعلاء الأجرام المجبولة بمسوح الأزل في زوايا الشوارع الأربعة كأنّ وجودها في ذلك المكان برهان لا على بقاء المدينة وحسب، ولكنّها البرهان على بقاء أركان الدنيا الأربعة!

تشبّث بتلابيب رداء الجلمود الجنوبي ليغالب الدوار. أغمض عينيه فمادت الأرض وتمادى الدّوار ليتحوّل إلى غثيان. فهل تزلزل الجسد بسبب الأرق؟ أم انهار بسبب كؤوس «روم»؟ أم أن الجسد خذل بسبب غياب روح الجسد التي تلاشت بتلاشي ذلك الجرم الرهيب الذي أودع فيه يوماً روح الجسد؟ ألن يعني هذا أنّنا يجب أن نحترس من إيداع قلوبنا في أي شيء ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؟ ألا يعني ذلك أننا يجب أن نكفر بعشق الأشياء لقدرة الأشياء على مصادرة أنبل سرّ فينا؟ ألا يعني ذلك أننا نرهن أرواحنا بالمجّان عندما نعشق حتّى لو كان عشقنا لربّ

الأرباب، لأنّ لا حاجة لربّ الأرباب بعشقنا؛ ولو كانت له حاجة لعشقنا لما صار الربّ ربّاً أعجز خصاله هي الاكتفاء بنفسه؟ اشتدّ الغثيان فركع ليقيّأ. فوق رأسه وقف أحد السابلة. استنزل على رأسه سيلاً جارفاً من رطانة عرف أنها سباب، وقبل أن ينصرف توّج سيل الشتائم ببصقة رماها في وجهه. استعان بالجدار المقابل ليسعى في الزقاق المؤدّي إلي البحر. توقّف مراراً قبل أن يدرك باب البحر. هناك تلقّى هِبَةٍ باردة من أنفاس البحر. نهل من الأنسام بشراهة فانتعش وركن إلى الحائط. استسلم لخدر العافية الذي لا يعلو عليه في الدنيا ترياق. استرخى وسرح بعيداً. في البعد ما لبث الحلم أن قاده إلى بعد آخر. هناك طرق باباً كئيباً مدجّجاً بأحزمة نحاسية صارمة كأنّ قوّة غيبيّة خارقة شاءت أن تحصّن المكان بأمنع سبيل فأحسنت التدبير. طرق الباب بقبضته اليمنى، ثمّ بقبضته اليسرى، ثمّ بقبضتيه الاثنتين، ولكن بلا جدوى. عاند هناك طويلاً. عاند الباب المحكم القائم في خلاء موحش مستوربالظلمات.خلاء شبيه بتلك الأنحاء التي زارها مرّة في رحلة الصيد برفقة الضبّاط حيث أصاب «بينبريدج» ذلك الكائن الهشّ، البالغ الهشاشة، والبالغ الجمال برغم الهشاشة، الذي يسمّيه أهل تلك الأنحاء غزالاً. لقد استولى عليه الغثيان

يومها أيضاً حتّى إنه صام عن الطعام يومين كاملين لأنه ظلّ يتقيّأ أمعاءه كلّما تذكر مقلة تلك الذبيحة الشقيّة الناطقة باتّهام مجهول، بل الناطقة بإدانة صريحة في المدلول وإن ظلّت مجهولة بالبيان. يومها لم يغفر للقبطان «بينبريدج» ذلك الفعل الشنيع.

عاد يقرع الباب المريب بعنفٍ أشدّ حتّى نال منه الإعياء. تحت قدميه سمع فحيحاً منكراً فقفز جانباً. كشكشت الحيّة، وربّما الحيّات، بأذنابها في الغيهب فتراجع إلى الوراء. ولكنه وجد نفسه عاجزاً عن الفرار. كأنّ يداً خفيّة امتدّت لتضع القيد في قدميه في وقتٍ ازداد فيه جنون الفحيح الفظيع. وفي اللحظة التي أيقن فيها بنشوب الناب المسموم في عقبه، انفتح باب المحال على مصراعيه ليجد نفسه يقف مع القبطان الشقيّ وجهاً لوجه. كان الوجه مقنّعاً. كان مشوّهاً بسيماء قبيحة حوّلته مسخاً حقيقيّاً. كان ينظر إليه بعداء أيضاً. سأله بجفاء دون أن يحرّك لعضلة اللسان ساكناً: «ماذا تريد؟». تطلّع إليه باشمئزاز قبل أن يجد نفسه وقد تحوّل في لحظة إلى كتلة حيوانية مزمومة فيثب إلى خناقه. نشب في نحره يدين تصلّبت أصابعهما فانقلبتا قطعتين حديديتين حياديتين لا يملك عليهما سلطاناً. أطبق بهما على النحر ليقينه الغامض

بأنه لا يخنق إنساناً، ولكنه يمحو من الوجود مسخاً كريهاً يهدّد الإنسانية بأمرٍ جلل. جحظت عينا الضحيّة المزرية وبدأ اللسان من الفم يتسلّل ويتدلّى كأنه الحيّة. حشرج بأنفاسٍ كفحيح الحيّة أيضاً. بعد لحظات بدأ ينقلب ليتحوّل بين يديه إلى حيّة. تحوّل بين يديه أفعواناً حقيقيّاً يسدّد نحوه نظرة ساخرة من حدقته الخرافية. بعد عراكٍ طويل قذف المسخ في وجهه برضاب لزج، مقزّز، ليغمره بهذا المخاط في وجهه. في عينيه في منخريه. في فمه الفاغر بالحقد والاشمئزاز والفزع. هذا الفزع الذي كان علّة الصّيْحة التي انتشلته من غيبوبته، من كابوسه، ليهبّ واقفاً في مواجهة بحرٍ مجهولٍ وسخيّ ظلّ يمدّه في غفوته بالرؤى، كما زوّده دوماً بأحلام اليقظة، وبآمال الدنيا الجنونيّة!

استنشق هواء البحر بعمق قبل أن يحدّث نفسه: «كلاّ! كلاّ! لن أذهب لخنق المجرم «بينبريدج»! لأنّه.. لأنّه تذكّر زميله الهندي الأحمر، شبح «الميسيسيبّي»، الذي امتلك وحده سرّ العُقار المُسَكِّنْ لكلّ الآلام، بما في ذلك الألم الأسوأ من كلّ الآلام: ألم الحياة الدنيا!

٤٦- العرّافة

السّراي الحمراء. (أحد أيّام الثلث الثالث من شهر فبراير) ١٨٠٤م.

في خلوته بجناح الحريم أمر الباشا، بُعَيد القيلولة، باستدعاء السّعلاة التي تحوّلت كاهنةً للبلاط بقدرة قادر منذ حالفها الحظّ في أحد الأيام بالتّنبؤ بوقوع «فيلادلفيا» غنيمةً في يد الباشا.

أقبل الجرم المنفوش كقربة ماء، الملفوف بلحاف السواد، يسعى كأنه يتدحرج، إلى أن مَثُل بين يدي الباشا. حاولت أن تستر وجهاً مدوّراً، منفوخاً كالبطّيخ، بطرف لحافها في محاولة يائسة لإخفاء البتور العميقة التي خلّفها على الوجنتين المنفّرتين بقايا جدري قديم. كان الباشا يتطلّع من قضبان شبّاك جناح الحريم المطلّ أيضاً من جهته الشمالية على البحر عندما همهمت:

– مولاي!

ولكن الباشا لم يلتفت، ولم يستجب للنداء الذي امتزج فيه الوجل بالأمل بالإنكسار كأنّه يستجدي غفراناً على خطيئة مجهولة، ربّما ليقين مبهم عميق بخطر المثول (مجرّد المثول)

بين يدي صحبان الصولجان؛ لأنّ قصاصاً لابّد أن يتنزّل على رأس سليل الرعيّة حتّى لو تدخلّت الملائكة نفسها وشهدت له بالبراءة من جنس مثل هذه الذنوب المقدّرة دوماً من سلطان الغيوب.

أعادت المرأة النداء فتململ الباشا في وقفته قبل أن يسأل دون أن يحيد عن الشبّاك:

– أريدكِ أن تذكرّيني متى وأين رأيتك أوّل مرّة!

عضّت السعلاة المتنكرّة في جلد عرّافة البلاط على شفتها حتّى فزّ منها الدّم. سحبت طرف لحافها الكئيب لتداري فعلتها، ثم أجابت:

– في الرواق يا مولاي!

التقطت نفساً ثمّ أضافت:

– وجدتني يا مولاي في الرواق فقرصتني في عجيزتي هذه!

ها – ها..

قطعت ضحكتها ثم أضافت:

– لقد كنتَ شقيّاً يا مولاي!

ولكن الباشا لم يستجب لروح الدعابة، فتساءل بجفاء:

– ماذا كنتِ تفعلين في الرواق يوم قرصتك في مؤخرتك؟

– كنتُ.. كنتُ أكنس الرواق يا مولاي!

–تكنسين الرواق فقط؟

لعثمت المرأة قليلاً ثم استدركت:

– الحقّ أنّي كنت أكنس ما هو أسوأ ألف مرّة من الرواق. كنت أكنس نفايات الرجال في دورات المياه يا مولاي!

– ألستِ أنتِ القائلة يوماً: «ليس في الدنيا ما هو أسوأ من الرجال. فحيثما وقف رجل فثّمة قذارة!»؟

– بلى يا مولاي!

– بأية حيلةٍ كُتبت لك النجّاة من ذاك الشرك يا ترى؟

هلّلت المرأة بحماسة مفاجئة:

– بفضل مولاي بالطبع!

سكت الباشا لحظات قبل أن يبدأ فصلاً جديداً في الاستجواب:

– انتشلتكِ من مستنقع القذارة ذاك، كما كان يروق لك أن تنعتيه، لتجدي نفسكِ ربّةً في أنبل فردوس يستطيع صاحب المُلك أن يأتمن عليه مخلوقاً!

قاطعته المرأة:

– بلى! بلى، يا مولاي! لقد وجدت نفسي سلطانةً على مأكل مولاي!

– أي أنّني انتشلتكِ من أكثر أركان الدنيا قذارة لأنصبكِ ملكةً على أكثر أركان الدنيا نقاوة!

- بلى يا مولاي!

سكت الباشا. واصل بعد لحظة:

- لم أكتفِ بهذا الترفيع، ولكنّك فوجئتِ بنفسكِ في أحد الأيام وقد تربعتِ على عرش النبوّة بجرّة قلم!

احتجّت المرأة:

- فرمان مولاي أعظم شأناً من أن يكون جرّة قلم!

- ولكنك استهترتِ بهذا الفرمان لتجعلي منه ما هو أسوأ من مجرّد جرّة قلم!

استنكرت المرأة:

- لا أراني اللّه يوماً أسمح فيه لنفسي باستهتار..

احمرّت وجنتاها المجدورتان، وتزعزع جسدها المهول برجّة عنيفة. انهالت الدموع وتهيأت لولولة وشيكة لو لم يتدخّل الباشا لينتهرها:

- إيّاك أن تسمعيني عويلاً!

اختنقت المرأة بدموعها فسأل الباشا:

- عليكِ الآن أن تحدّثيني كيف فاتكِ أن تحذّريني من مكيدة الأوباش التي حوّلتني أضحوكة في نظر الناس!

استغاثت المرأة:

- هل يُعقل أن أخفي على مولاي..

قاطعها الباشا:

- دفاعك لن يجدي؛ لأنّك لو كنتِ صادقة في نبوءتك الأولى، لما كشفت مكيدة الأوباش زيف نبوءتكِ في المرّة الثانية.

لاذت المرأة بالصمت وهلة. في مقلتيها الدامعتين تلألأ وميض كالتحدّي. تمالكت نفسها لتسأل بلهجة أخرى:

-هل أطمع في نيل الأمان إذا نويت أن أصْدِق مولاي القول؟

التفت الباشا لأوّل مرّة. في وجهه قرأت سورة غضبٍ لم تعهدها. غضب ممهور بختم شحوب. فهل يُعقل أن ينكسر كبرياء أهل السلطان ليتبدّوا أكثر هشاشة من رعيان غنم استغفلتهم الذئاب فالتهمت معزاة؟ هل يفقد يوسف باشا وقار السلطان لمجرّد أن لصوصاً تسلّلوا إلى زريبته ليستردّوا طريدتهم التي اغتنمها منهم بالأمس؟

زأر الباشا:

- أفصحي!

سدّدت نحو الباشا نظرة وقحة. وهي وقاحة لم يكن ليغتفرها الباشا، بل لم تكن لتغفرها لنفسها، لو لم تكن وقاحة نبتت من اغتراب البصر. هذا الاغتراب الذي كان دوماً علّة تسبق كلّ استخارة، وغياب يبشّر بكل نبوءة.

قالت:

- استنطقت يا مولانا المرآة منذ أيام فلم أجد في البرّ سوى الغبار. في العجاج لم أبصر سوى أشباح لم أتبيّنها بسبب كثافة الغبار، فلم أجد مفرّاً من استبدال المطيّة. ذهبت إلى بئر الساحة لأستنطق الماء الذي لم يخذلني يوماً، فماذا رأيت يا مولاي؟

تلاحقت أنفاسها وتراقصت مقلتاها بالوجْد، ثمّ:

- في الماء رأيت الماء. هناك، عميقاً، في عين الماء رأيت خيالاً أيضاً، ولكن ستوراً محبوكةً بنسيج المياه كانت تشوّش الرؤيا، بل تغيّبها في كل مرّة. فاستنجدت بالرؤيا!

ردّد الباشا ساخراً:

- تستنجدين من الرؤيا بالرؤيا؟

ولكن المرأة لم تكترث:

- سهرت ليلتين، وفي الليلة الثالثة تلقيتُ الرسالة التي لم أجرؤ علي البوح بها لأني حسبتها تجديفاً في حقّ مولاي!

استيقظ في لهجة الباشا فضول:

- حسبتها تجديفاً؟

- الحقّ أنّي كتمتها فزعاً؛ لأنّي.. لأنّي لم أدرك حقيقتها إلاّ في اليوم الذي بلغني نبأ الحريق!

حدّق الباشا في عينيها المغتربتين،ثمّ:



– مـاذا تقول الرؤيـا عليكِ اللعنـة؟

زفرت المرأة بـإعيـاء. ضيّقت جفنيها حتى كـادت تطبق بـهمـا على المقلتين، ثمّ:

– رأيت في قبضة مولاي سيفاً ذهبيّاً لم أرَ لجماله مثيلاً. كـان مولاي يلوّح به في الهواء متباهياً، فتهلّل الجموع إعجاباً. لا أعرف كم مضى من الوقت الذي استغرقه لـهو مولاي بذلك السلاح الفتّـان، ولكن..

هتف البـاشا بلـهفة:

– مـاذا؟

– ولكنّي فوجئت بـالسيف يشتعل..

– السيف يشتعل؟

سكتت المرأة. التقطت أنفاساً. أضـافت وهـي لاتزال في قبضة الغيوب:

– صـار سيفاً من لـهب، كـأنّ اللّهب.. كـأنّ اللّهب استعار جذوته من لون الذهب!

زمّ البـاشا شفتيه، وتقدّم نـحو العرّافة خطوة. تمتم همساً:

– مـاذا تقولين؟

– اكتشفت تـاليـاً أن السيف لم يكن في الأصل سوى امتداد ليد مولاي!

هتف الباشا:

– السيف كان امتداداً ليدي؟

سكتت المرأة مأخوذةً. هتملت:

– كانت يد مولاي تحترق!

– عليكِ اللعنة!

سكتت المرأة. ساد سكون. في امتداد البحر زغردت طلقات القوارب الحربية، ثمّ توقّف تبادل إطلاق النّار. قالت الكاهنة:

– هل رأى مولاي؟ كنت أعلم أن مولاي سوف يقطع رأسي إذا تنبّأت له بقطع اليد!

تأمّلها الباشا طويلاً ثم:

– الواجب كان يقضي أن تخبريني في كلّ الأحوال!

واجهته الكاهنة بتحدٍّ:

– لم أفعل ليقيني بأن مولاي لن يتمكّن من فكّ طلسم الرؤيا حتّى لو فعلت.

– لماذا؟

تنهّدت المرأة:

– لأنّ النبوءة عدوّة الكبرياء يا مولاي.

بذل الباشا جهداً بطولياً كي يسأل:

– ماذا تعنين؟



- أعني أن قراءة النبوءات هو ما يعجز أهل الاستكبار، لأنّهم.. لأنّهم يقرأون في النبوءة الحرف، لا الاستعارة.

- لا أفهم..

تهدّل طرف لحافها فتكشفت وجنتاها عن أحافير كئيبةٍ، منكرة؛ ولكنّها لم تهرع لحجب العورة كما اعتادت أن تفعل، لأن المرأة لا تعود تبالي بحال حسنها إلاّ في اللحظة التي ترى نفسها في عداد الأموات.

قالت:

- أردت أن أقول أنكم تعنون، يا مولاي، بما تقول النبوءة، لا بما تخفي!

سكتت وهي لاتزال ترمق الأبديّة، ثم أضافت:

- لأنكم لا تدرون، يا مولاي، أن النبوءة الحقيقية تضمر دائماً عكس ما تظهر. وهي لهذا السبب كانت بالسليقة عدوّة الاستكبار الذي يُظهر عكس ما يضمر!

سكتت فتوضحّها الباشا بفضول قبل أن يفصح عن شكوك:

- يخيّل لي أنّكِ لم تخفي عنّي النبوءة خوفاً من بطشي، ولكن..

قاطعته لأوّل مرّة في دنياها:

- بلى! أخفيتُ عنك الرؤيا ليقيني بأنك لن تحسن قراءة الرؤيا،

فما الجدوى؟

سكتت. سكت الباشا. كانت تحدّق في أبديّتها، وكان الباشا يفترس وجهها الذي افترسه الجدري، إلى أن نطقت باستنتاجها الأقسى في اللحظة ذاتها التي زحفت فيها أشعة الغروب لتسطو على البحر المستسلم لسكونٍ مريب:

– الرؤيا، يامولاي، هو ما لا يليق بالملوك، وخطيئتي أنّي كشفتُ لك موهبتي، في حين كان يجب أن أخفيها!

تبادلا نظرة تخلٍّ، كأنّها اللامبالاة. أسبلت الكاهنة جفنيها المنفوشين لتضيف بنغمة كأنّها تحية وداع:

– مولاي لن يطيق إلى جواره وجود عرّافة!

استدارت لتمضي، فلاحقها الباشا:

– اعلمي، إذاً، أن الغفران هو ما لا يطيقه الملوك أيضاً!

٤٧- الوسيط

خاطب نجل الباشا أباه قائلاً:

- لم أندم على شيء كما ندمتُ على اقترافي هذه الخطيئة يا أبي!

احتجَّ الباشا:

- هل يليق أن نسمّي النصر خطيئة؟!

فتشكّى الإبن:

- إذا كان الكلّ يرى في النّصر فضيلةً فيؤسفني، يا أبي، أن أكون أوّل إنسانٍ يرى في هذا العمل رذيلةً!

تطلّع الأب للإبن بفضولٍ. في مشروع بسمته تجلّى ظلّ سخرية:

- يدهشني أن يعاني تبكيت الضمير فتى يافع خرج في أوّل حملة له لأداء فريضة، ثمّ عاد من الغزوة بالأسلاب..

سكت لحظة ثم أضاف فجأة:

- الرجال في مثل سنّك هذه، وبفضل بطولتك هذه، يتباهون حتّى إنّهم يمشون في أرض العِباد باستعلاء أرباب العباد، فكفَّ عن التشكّي وحدثني عن الأحداث!

ولكن الأمير تلوّى في وقفته أمام الأب كأنّه استمرأ الوجع:

- لا تحاول يا أبي أن تعزّيني فأنا شقيّ لأني ارتكبت

معصية!

– معصيّة؟

في حدقتي الباشا سطع استخفاف، ولكنه انقشع ليعقبه في المقلتين عطف:

– الشعور بارتكاب المعصية هو أوّل خطوة في سُلَّم الرجولة. كما أنّ الشفقة..

سكت الباشا. غزت الوجه سيماء البرود. تململ ثم أضاف:

– الشفقة مقبرة الرجولة!

عاند الإبن:

– ليست الشفقة يا أبي!

– ربّما خيبة الأمل التي تسمّم حياة كل فارس خرج في غزوة فخلفه العدوّ على النجوع.. أعني..

سكت الباشا. حدّق في عيني الأمير:

– هل تشعر بالذنب لأن النصارى باغتونا في عقر دارنا أثناء غيابك بالجيش؟

كوَّر الأمير قبضته. حبس في صدره أنفاس الغيظ فانتفخ شدقاه ليتبدَّى كضبٍّ غاضب:

– لم أكن، يا مولاي، لأشعر بالذنب إلى هذا الحدّ لو لم يكن الشيخ أبو القاسم هو السبب!

عاد الباشا يفترسه بنظرات الفضول:

– ولكن الشيخ أبا القاسم عميلنا كما تعلم، وواجبنا يقضي بنصرة عملائنا حتّى لا نترك رعيّة الدواخل دميةً في يد العصاة!

– الشيخ أبو القاسم عميل نفسه!

– عميل نفسه؟

زفر الأمير أنفاس الغيظ طويلاً. تململ في وقفته. نَفَّسَ أخيراً عن صدره:

– مولاي لا يعلم ما يفعله هذا الرجل بالرعية. إنه يتصرّف برقاب الخلق كأنّه ربّ الخلق. ينهك القبائل بالمكوس ليحيا بدم الذين لا يملكون إلاّ عرق الجبين حياة الملوك، ليرمي بالفتات لأسياده الملوك الحقيقيين الذين نصّبوه. وعندما تهبّ القبائل لتثأر لشرفها لا يجد هذا الجبان ما يفعله للاحتفاظ بعرشه المغتصب إلاّ طلب النجدة من الحاضرة!

سكت الأمير مزموماً في حين تابعه الباشا باهتمام ممزوج بالدهشة. تمتم:

– كأنّ شقيقك محمّد نَفَحَكَ بعدوى من وباء الشِّعْر!

ولكن الأمير تجاهل تعليق الأب ليكمل خطاب الإدانة:

– أكاد أجزم يامولاي أن طلب النجدة في ذلك الوقت العصيب

لم يكن سوى فخّ!

– فخّ؟

– بلى! فخّ!

استنكر الباشا:

– هل تظنّ أن للوغد صلة خفيّة بالعدوّ؟

– لو لم يستدرج الجيش بعيداً لما تجرّأ الأمريكان على اقتحام الميناء على ذلك النحو!

هبّ الباشا واقفاً. دبَّ خطوات. سأل:

– هذه شكوك، ولكن.. أين الأدلّة؟

– أعوانه حدّثوني بزيارات مشبوهة إلى جزيرة «جربة»، ولا يُستبعد أن يكون الأمريكان قد اتصلوا به هناك!

توقّف الباشا. غمغم لنفسه بصوت مكتوم:

– عجباً!

أضاف الأمير:

– شهود عيان آخرون أكّدوا استقباله رسل العدوّ أثناء نزول جنود الأسطول في ميناء «زوارة» للتزوّد بمياه الشرب!

– عجباً!

توقّف الباشا عن سعيه. تساءل غائباً:

– الوسيط قدر هذه الدنيا. كأنَّ الحياة لن تستقيم إذا عدم



الناس وجود هذه البليّة! فماذا يرتجي الوسيط إذا كان قد اقتطف فاكهة الوسط: الأمان من السيوف التي تحصد رؤوس أهل الحكم، والأمان من السياط التي تنهش جلود أهل السُّلَّم الأسفل؟

هتف الأمير:

– يريد المزيد يا مولاي! الوسيط لا يقنع بشيء يا أبي، والشيخ أبو القاسم النويري أكبر برهان!

دبّ الباشا ساهماً. هتمل غائباً:

– هل قلت المزيد؟

توقّف بجوار النافذة. تطلّع إلى البحر الساكن كمستنقع راكد صادَرَ منه السكون زرقته. صادر هيبته. صادر جنونه. صادر السكون من البحر بحراً.

سمع الأمير صوت الملك أخيراً:

– على عرين «المزيد» يرابط الموت!

٤٨- السّبيكة

لفظت العرّافة أنفساها في يوم وصول الشيخ «أبو القاسم» النويري إلى المدينة تلبيةً لدعوة الباشا. لفظت الشقيّة أنفاسها بعلّة مجهولة كما أذاع البلاط، ولكن في ألسنة الحاشية جرت شائعة أخرى تقول إن الباشا دسّ لها في الطعام سمّاً مميتاً، لأن خبثاء الخدم رأوه يختلي بـ «صاحب الترياق»، كما اعتادوا أن يلقّبوا الهندي الأحمر في الآونة الأخيرة، قبل اختناق المسكينة بتلك الغصّة الرهيبة التي انتشلت روحها بيومين. وها هو الباشا يعتكف في جناحه حداداً على المخلوقة التي وهبته «فيلادلفيا» بنبوءة، واستردّتها منه بإخفاء النبوءة.

اختلى الباشا بنفسه حزناً، في يوم أمر فيه بقرع الدفوف ابتهاجاً بوصول عامله على دواخل المملكة الغربية بما في ذلك امتداد السلسلة الجبلية نحو الحدود التونسيّة.

وقف في النافذة ليتطلّع من طوابق القصر العليا على موكب الضيف المهيب وهو يتوسّط فرسانه في شوارع المدينة، ممتطياً جواداً ناصعاً، متوّجاً بسرج مطعم بعروق الذهب، تحيط به جموع الدهماء كأنه أحمد القرمانلي الأول، أو.. أو يوليوس قيصر، أو حتّى الإسكندر الأكبر!

كان الدراويش يتقافزون حول الموكب كقردة الأدغال،



يتصايحون بقراءة الأوراد، في حين مضت الفرقة الملكيّة تعزف الأناشيد الوطنية وهي تتقدّم الموكب. في المؤخرة نفخ الأهالي في المزامير وهم يتراقصون ويقرعون الطبول كأنّهم يستقبلون محمد الفاتح لا وغداً نكَّلَ بأخوتهم في الجبل بالأمس مستخدماً يدهم هم المتمثّلة في جيشهم!

في ساحة الرّخام، المواجهة لقوس ماركوس أوريليوس، شاهد مراسم استلام الهديّة: سبيكة حقيقيّة من ذهب أبريز كشف عنها الرسول الملكي المكلّف «مليطان»ليعرضها في عصر ذلك اليوم أمام الجموع، قبل أن يضعها بين يدي الضيف، فتعالت الهتافات بحياة وليّ النعمة يوسف باشا، و.. بحياة ضيفه الكبير.

في مساء اليوم التالي كان الباشا يستضيف الشيخ على مائدة العشاء ليحاوره قائلاً:

– هل لي أن أعلم أيّ شيء حيّرك؟

طاف الشيخ وجوه الأعيان مستفهماً. وعندما لم يهرع لنجدته أحد أجاب:

– نداء الباعة!

تبادل الباشا مع الأعوان نظرة ذات معنى، ثمّ:

– نداء الباعة؟

عاند الرجل شريحة لحم لحظات، ثمّ أجاب:
- الحقّ أنّي لم أفهم ما يقولون بصياحهم مع صلاة الفجر.
أحدهم كان ينادي تحت نافذتي: «بورييه..!»!
تعجّب الباشا:
- بور.. ماذا؟ هل قلتَ: «بورييه»؟
أجاب الشيخ وهو ينهش اللحم نهشاً:
- أجل! أجل! كان يردّد طوال الوقت: «بورييه» هذه، فما معنى«بورييه»؟
تبادل الباشا مع الأعوان نظرة استفهام فتدخّل مفتي الديار الطرابلسيّة:
- لا وجود لكلمة «بورييه» في معجم المملكة!
أطلق بيت المال ضحكة، فعقَّبَ الريّس مراد:
- فضيلة الشيخ أبو القاسم على حقّ. أنا عانيت الأمرّين أيضاً في فهم لغة الباعة سنوات حداثة عهدي بطرابلس!
قال مليطان:
- مطلع هذه الكلمة تركي اللسان، ولكن..
فهتف الدغيّس:
- أحسنت! أحسنت! ها أنت تضع لنا العربة أمام الفرس؛ لأنَّ..
لأنَّ الكلمة لن تكون في ظنّي إلاّ «بوريك»!



تضاحك الجمع. ضحك الباشا أيضاً، فتساءل الضيف:

– ولكن ما معنى «بوريك» هذه؟

وجّه الباشا إلى الجمع سؤالاً:

– مَنْ منكم يفسّر لفضيلة الضيف كلمة «بوريك»؟

جاء دور المفتي:

– شطيرة محشوّة بخليط اللحم المفروم والبصل المقلي!

تساءل الباشا:

– هل يبدو لكم هذا التعريف مناسباً؟

عَقَّبَ الدغيّس:

– ليس تماماً!

ولكن الباشا حاصر الضيف بسؤال جديد:

– حدثتنا عن أمرٍ حيّرك، ولكنك لم تحدّثنا عن الأمر الذي أزعجك.

انشغل الشيخ بمضغ اللحم المستور بشرائح الشحم فسال الدّهن على وجهه حتّى غمر لحيته المخضّبة بالحنّاء. برطم:

– العفن!

استنكر الباشا:

– العفن؟!

تبادل الأكابر نظرات الاستنكار أيضاً، فأضاف الشيخ:

- رائحة المدينة لا تطاق!

ابتسم الباشا بتسامح. تمتم:

- المدينة ستبدو للزائر القادم من الصحراء بيتاً للنفايات حقّاً، ولكن لابدّ أن يوجد في هذه المدينة شيء أعجبك، فلنقل قلعة، أو بستاناً، أو.. وردة!

انقضَّ الرجل على قطعة لحم أخرى مثقلة بالشحوم، ثمّ أجاب:

- لم ينل إعجابي في مدينتكم شيء كما نالت سبيكة الباشا إعجابي!

تضاحك الأكابر طويلاً. أشبعوا العبارة بالتعليقات الجانبية، فتكلّم الباشا:

- يسعدني أن تكون السبيكة قد نالت إعجاب فضيلة الشيخ، ولكن عليك ألاّ تنسى مع ذلك الوصيّة القديمة القائلة: «الاحتفاظ بالذهب أصعب من نيل الذّهب، فاحترس!».

بعد انتهاء حفل العشاء عاد الضيف إلى بيت الضيافة ليجده العسس في صباح اليوم التالي في فراشه صريعاً. كان جسده مثقوباً بطعنات من نصل مدبّب كأنَّ القاتل كان يتسلّى ببدن ضحيّته فينقش عليه برأس النصل الغامض رموزاً مبهمة.

من البيت اختفت سبيكة الذهب بالطبع، فأعلن الباشا عن



مكافأة مجزية لمن يتمكّن من القبض على الفاعل. وقد فوجئت المدينة بعد يومين بالقبض على بائع «البوريك» القابع على الرصيف تحت نافذة بيت الضيافة ليشنق بدم الضيف المغدور. كان البائع الشقيّ يصرخ ببراءته طوال الطريق إلى المشنقة، ولكن الأحراس كانوا يلوّحون بالسبيكة الذهبية في وجهه، وفي وجوه الأهالي الذين تجمهروا حول الكوكبة ليصرخوا:

– ها هو الدليل! ها هو الدليل!

في غيهب الغروب كان رأس الرجل قد استقرّ على باب «هوّارة»، في حين عادت السبيكة الذهبيّة لتستقرّ بسلام في خزانة الباشا!

٤٩- الفردوس

نابولي. مقرّ حكومة المملكة. أبريل ١٨٠٤م

في البنيان المهيب، الرومانيّ المعمار، المنتصب على الشعفة الجبليّة، المطلّة على الضفّة الشمالية من بحر ليبيا، كان السّير «جون أكتون» يستقبل في مكتبه القبطان «بريبل» قائد أسطول الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب مع طرابلس، ليبادر ضيفه ما أن فرغ من مراسم الاستقبال:

– كيف تسير حملتكم على الطاغية؟

تبسّم قائد الأسطول بسمة صارمة، وتطلّع إلى الرجل الذي يعتمر طربوشاً من الشعر المستعار بلونه الغريب قبل أن يجيب:

– لا أريد أن أتباهى، ولكن ما حقّقناه أخيراً سيرة تجري على كلّ لسان!

قطب وزير المملكة الأوّل والمشرف العام على البحريّة جبينه فتغضَّنَ وجه الرجل كلّه بشبكة من التجاعيد. استفهم بدهشة مفتلعة:

– سيرة تجري على كلّ لسان؟

– بلى! أعني استردادنا لـ «فيلادلفيا»!

توضّحه الرجل ببرود الإنجليز التقليدي ثمّ سأل بلهجة



سخرية:

– هل قلتم:«استرددنا»؟

– بالطبع!

– أليست «فقدنا» هي الكلمة المناسبة بدل كلمة «استرددنا»؟

– الفقد في حال «فيلادلفيا» استرداد!

تأمّله الرجل. زمّ شفتيه، وابتسم بعينيه لحظات. بسمة ماكرة ممزوجة بإيماء غامض كأنه استخفاف مكتوم. قال:

– حرق سفينة مفقودة في حربٍ تشرف على الدخول في عامها الرابع، ثمّ نقول..

سكت فجأة، ولكن بسمة الاستخفاف مضت تسطع في المقلتين. ويبدو أنه ملّ التستّر بهذا القناع فقرّر أن يكشف عن سرّه:

– قارّة عظمى تنجح في انتزاع حريّتها من برثن أسد لا تغرب الشمس عن مملكته، ثمّ تخفق في زعزعة عرش قرصان! أليست هذه مفارقة الزمان؟

في سيماء القبطان لمع وميض التحدّي:

– لو كانت زعزعة عرش هذا القرصان أمراً يسيراً لما أعجزكم وأعجز قارّتكم كلّها على مدى أعوام وأعوام، برغم جلوسه على بعد رمية حجر من معاقلكم! وها نحن نهبّ لنجدتكم بعد أن أعيتكم الحيلة!

رمقه الوزير بدهشة، ثمّ سأل:

- هل تخاطبني الآن بصفتي النابوليتانيّة، أم بهويّتي الإنجليزيّة؟

- بكلتيهما!

سكت وزير المملكة الأوّل لحظات ظلّ خلالها يحاصر ضيفه بنظرات لجوجة كأنّه يريد أن يكتشف في ملامح الضيف نوايا أخرى خفيّة. قال:

- أردتُ أن أقول: لا جلالة الملك فرديناند، ولا أنا كوزير أوّل في مملكته، نستطيع أن نمدّ يد العون لطرفٍ يقود حرباً خاسرة منذ أعوام..

قاطعه القبطان:

- نحن لا نقود حرباً خاسرة!

تضاحك الوزير باستهزاء فاضح، ثمّ جادل:

- لو لم تكن حربكم ضد باشا طرابلس خاسرة لما ملأتم الدنيا عويلاً!

استنكر القبطان:

- ملأنا الدنيا عويلاً؟

- ألم تستجدوا تدخّل نابليون منذ سنوات؟

سكت القبطان. احتقنت وجنتاه بالدّم فلم يعرف الوزير مّا إذا

كان الغضب هو السبب، أم الخجل. قال القبطان بخيبة أمل:

– الإحتكام إلى الوساطة ليس استجداءً لتدخّل!

– حسناً! ماذا نسمّي إذاً سعي سفرائكم وهرولة قناصلكم في أركان الدنيا الأربع وهم يتوسّلون الوساطات؟ ألا يبدو موقفكم مضحكاً وأنتم ترون هؤلاء الأشقياء وهم يطرقون أبواب الأباطرة، ويتمسّحون بحصون الممالك طلباً للتدخّل؟

تمتم «بريبل» بحنق:

– ذاك عمل إنساني لم نكن لنسمح به لو لم تستوجبه الرحمة بأرواح الأسرى!

زفر الوزير أنفاس انفعال مستعار من طباع النابوليتانيين لا من طباع الإنجليز:

– أنت لا تعلم كم توجّع جلالة الملك عندما بلغه نبأ تدخّل سفير قيصر روسيا لدى الآستانة ليطلب عون سلطانٍ لم يعترف باشا طرابلس بسلطته يوماً!

اعترف القبطان:

– ذلك كان خطأ شجبه الرئيس جفرسون نفسه!

ولكن وزير البلاط النابوليتاني الأوّل لم يرحمه:

– الاستجارة بمعطف نابليون كان وساطةً، واللجوء إلى قيصر روسيا كان خطأ، ولكن ماذا عن استجداء وساطة ملك

إسبانيا؟

التقط الوزير نفساً، ثمّ أضاف:

- ألا تدري حكومتكم المدفونة وراء المحيط ما يجري حول حوض بحرنا هذا؟ ألا تعلم حكومتكم أن ملك إسبانيا هو آخر من سيعمل على كسر شوكة باشا طرابلس لسبب بسيط هو أنّه يحسب تلك المملكة شاطئاً رابعاً لإسبانيا بعد أن حكمها أسلافه لزمن يزيد عن المائة عام؟

- أنتم أيضاً تسلطتم يوماً على تلك الأرض أمداً يزيد على تسلّط الإسبان بأضعاف، ولكنكم لا تجدون اليوم حرجاً في أن تستعدوا على حكّامها الدنيا!

قال الوزير بلهجة من أُسقط في يده:

- ذاك كان في زمن الرومان، ونابولي لم تعد جزءاً من روما منذ زمن بعيد.

غاب القبطان لحظات. قال أخيراً:

- يحقّ لسعادتكم أن تستقصوا الضمانات في حلفٍ نعرضه عليكم ترونه أنتم صفقة تستوجب استيفاء شروط الصفقة. إذا اعترفت لكم الآن بالخلاف العميق بين سلطاتنا المدنية وسلطاتنا العسكرية (وهو خلاف لم يعد خافياً على أحد) فلا أفعل الآن ذلك لكي أبرّر عويلنا الذي تتحدّث عنه، كما لا أفعل ذلك لتعزيز بنود الصفقة، ولكن لأعبّر لك عن غصّة شخصيّة

سمّمت علاقاتي(بل وحتّى صداقاتي) مع جناح سلطاتنا المدنيّة طوال الأعوام الماضية. أعني..

سكت مزموماً بانفعالٍ مجهول قبل أن يضيف:

- أعني أني أوافقك تماماً في كل ما قلت بشأن التصرّفات المهينة التي شكّكت الأمم ببطولات أمّتنا الفتيّة!

سكت القبطان. سكت الوزير الأوّل أيضاً. تبادلا نظرةطويلة، ثمّ غرق كلّ منهما في عالمه. غرق كل منهما في دنيا الحلم الذي شَقَّ حضور الإنسان إلى جوار أخيه الإنسان شقّين إثنين: شقّ نغترب فيه بالحضور إلى الأغيار، وشقّ نولد فيه ميلاداً ثانياً بالعزلة، لأنّ.. لأنّ الحلم وحده عزلة.

من هذه العزلة عاد الوزير النابوليتاني بالشهادة على حسن النيّة:

- إذا سمحتُ لنفسي أن أبوح بكلّ شيء خلافاً للتقاليد الدبلوماسية السائدة، فلم أفعل لكي أجسّ نبض مدى جدّيتكم في هذه الحرب، كما لم أفعل استجداءً لضمان (لأن لا ضمان في أية حرب بالطبع)، ولكن لأخفي، بما قد يبدو في نظركم استفزازاً، سعادتي بوجود قوّة في هذا البحر العظيم (الذي لم يكن لهذه البلاد مجرّد غنيمة وحسب، ولكنه كان عبر الأجيال أرجوحة أحلام) تكافح بإخلاص كي تستعيد لهذا الوطن

المتمثّل في البحر اعتباره المفقود على يدي باشاوات طرابلس.

فبأية حصّة نستطيع أن نساهم؟

أخرج القبطان من جيب سترته البحرية قرطاساً مطوياً بعناية.

فرده أمام الوزير وبدأ يتلو القائمة:

– نريد من الزوارق المسلّحة عدداً لن يقلّ عن ثماني قطع. ومن قوارب حاملة مدافع الهاون قطعتين، ومن المدافع النحاسية طويلة المدى ثماني قطع على أن يكون العيار من الفئة الثانية والثلاثين، فإن تعذّر فمن الرابعة والعشرين. هذا إلى جانب العربات المحمّلة على القوارب الصغيرة. لاأخفي على صاحب السعادة: بهذه القوّة (إلى جانب الأسطول بالطبع) أستطيع أن أحطّم جناح الباشا الشرقي.

سكت لاهثاً، ثمّ أضاف بوجد:

– أريد أن أمحو «درنة» و«بنغازي» من الوجود!

هَمَّ الوزير بأن ينبس، ولكن القبطان لوّح بالقائمة مضيفاً:

– أريد أيضاً كميّات وفيرة من مسحوق البارود، وكرات المدافع، وقطع البنادق مع الذخيرة، و.. السيوف أيضاً. فإذا استطعتم إقناع جلالة الملك بهذه العطيّة فسوف أكفيكم شرّ الباشا، لأنّ هذا السلاح كفيل بفكّ لغز التنّين الجاثم على صدر «طيبة» إلى الأبد!



ردّد الوزير:

– التنّين الجاثم على صدر «طيبة»! يالـه من تشبيه شعري سيعجب جلالة الملك حتماً، برغم.. برغم أحزان المقصلة!

استفهم القبطان:

– أحزان المقصلة؟

تطلّع إليه الوزير غائباً. أضاف:

– عقيلة الملك شقيقة «ماري أنطوانيت»!

سكت ساهماً، ثمّ أضاف بلهجة من يشاهد طقس الإعدام الفظيع:

– نحن لا نستطيع أن نتخيّل نبأ حزّ رأس ملك عن جسد الملك، فكيف إذا كان الرأس الذي احتزّته المقصلة هو رأس ملكة، وفوق ذلك حسناء، وفوق هذا وذاك، رأس حسناء بصيت «ماري أنطوانيت»! فإذا أضفنا إلى هذا كلّه صلة القرابة بين الملكتين، فتخيّل شعور الملك طوال هذه الأعوام!

غمغم القبطان:

– إعدام «ماري أنطوانيت» كان عاراً في جبين الثورة الفرنسية!

ابتسم الوزير. علّق:

– العار هو ألاّ تكتفي الثورة الفرنسية باقتراف هذا العار،

ولكن في أن تبدأ بحياكة المكائد التي من شأنها الإطاحة بكل ممالك الدنيا!

تبادلا نظرة ذات معنى قبل أن يتساءل القبطان:

– هل ينوي نابليون بظنّكم الإطاحة بمملكةنابولي أيضاً؟

ابتسم الوزير بتسامح. أجاب:

– يدهشني ألاّ تحدسوا ذلك!

سكت لحظة ثم أوضح:

– خطر نابليون على ممالك قارّتنا أكبر من خطر باشا طرابلس على حريّة ملاحتنا!

توجّع القبطان بآهة مكتومة، ثمّ غاب بعيداً. غاب الوزير أيضاً. قال أخيراً:

– هل أستطيع أن ألمّ بقوّتك البحرية قليلاً؟

اعتدل القبطان في جلسته وتأهّب لسرد التقرير:

– عدد البوارج الحربية حتّى الآن سبع بوارج هي «كونستيتيوشن» ذات الأربعة والأربعين مدفعاً. و«آرغوس» مزدوجة الشراع ذات الثمانية عشر مدفعاً. و«سيرين» ذات الثمانية عشر مدفعاً أيضاً عيار الأربعة والعشرين باونداً. و«سكيرج» ذات الستة عشر مدفعاً. و«فكسن» ذات الستة عشر مدفعاً. و«ناوتيلوس» ذات الستة عشر مدفعاً أيضاً. وأخيراً

«إنتربراين» ذات الإثني عشر مدفعاً. بالإضافة إلى ستة مدافع طويلة مع زورقين مسلحين. أمّا تعداد الجيش فهو ألف وستون جندياً.

هزّ الوزير رأسه طوال الوقت الذي استغرقه قائد الأسطول في سرد قوّته البحرية. قال شارداً:

– أصارحك بأن المملكة لم تكن لتبخل عليكم بالعون لو لم يتهدّدها شبح نابليون؛ لأن نابولي كانت بمثابة اللقمة السائغة الأولى في فم تنّين طيبة، ولاتزال تمثّل هذه اللقمة بحكم الموقع. وقد حاولت المملكة التمرّد على قدر هذه اللعنة طوال الأعوام الماضية فحاصرت أشباح الشاطئ الرابع كما تفعلون أنتم الآن، دون جدوى..

قاطعه «بريبل»:

– لا أظنّ إزالة عرش «فرديناند الرابع» أولويّة في مخطّط «نابليون» الآن مادامت المملكة تستجير بذلك الأسطول الأسطوري الذي حطّم أسطورة أسطوله في «أبي قير»!

– تستطيع مملكة نابولي أن تتحصّن بأسطول «نلسون» الأسطوري من أركان شبه الجزيرة الثلاثة، ولكنّها لا تستطيع أن تجير نفسها من أطماع «نابليون» من حدودها البريّة في الشمال.

التقط السير «جون أكتون» أنفاسه ليضيف:

– أضف إلى هذا الهاجس همّ القلاقل بالدّاخل..

– ما أعلمه أن الإنجليز أجاروكم من هذا الصداع أيضاً!

– الإنجلير يستطيعون أن يجيرونا من كلّ شيء باستثناء همّ الداخل ! وإذا كانوا قد استطاعوا أن يخمدوا اللّهب، فإن ذلك لم يكن للعلّة سوى مسكّن؛ لأنّ الجمر مازال يتوهّج تحت الرماد. ولكن.. ولكن برغم كل شيء فإنّ ما حيّرني دوماً هو سرّ الشاطئ الرابع.

استفهم «بريبل» بإيماء في السيماء فأضاف السير«أكتون»:

– ما سرّ قوّة أهل تلك البلاد حتّى يُعجزوا كلّ هذه القوى؟

شَرَدَ القبطان، فسكَنَ الوزير الأوّل. في الخارج احتجبت الأجواء بغيوم كثيفة مصحوبةً بحملات ريح شمالية لجوجة. بعد لحظات قرع المطر زجاج النوافذ كأنّه رسول يهبّ لنجدة القبطان بالإلهام:

– أظنّ أن سرّ قوّة هؤلاء في الحنين إلى المطر!

في مقلتي الجليس قرأ القبطان إشارة استهزاء. أضاف:

– ما الإنسان، يا صاحب السعادة، سوى قطرة مطر!

انقشعت إشارة الاستخفاف من عيني الجليس، ولكنه لم ينبس. واصل القبطان:

– يجب ألاّ ننسى أنّهم قبيلة إنسانية ابتلتها الطبيعة بالحرمان من الفردوس، فلم تجد مفرّاً من هذا القصاص إلاّ بالإندفاع إلى الساحل. هناك لم تجد في الغمر الماء المنشود (أو الفردوس المنشود بالأصح)، ولكنّها وجدت في البحر صحراء أخرى من ماء؛ لأن الماء الذي لا يجير من ظمأ، ولا يروي زروعاً، ليس ماءً، ولكنه خلاء آخر لا يختلف عن الصحراء التي فرّوا من جحيمها. فأين يجد الخلاص هذا الإنسان الذي جنى عليه المكان؟ لا خلاص له، في ظنّي، إلاّ في استثمار هذا البحر. ولا استثمار للبحر غير اغتصاب كنوز هذا البحر: اغتصاب الكنوز التي يحملها قبل اغتصاب الكنوز التي يخفيها. لقد فكرتُ طويلاً في طبيعة القوم الذين شاء لي الربّ أن أحاربهم ليقيني بأنني لن أستطيع أن أكسب حرباً على عدوّ أجهل حقيقته. وقد انتهيت إلى قناعة أراها اليوم اكتشافاً جديراً بالتأمّل وهي أن سيرة «الفردوس المفقود» التي آمنّا بها بفضل تلقين الكتاب المقدّس ما هي إلاّ هذا الحنين المجنون إلى الماء، إلى البستان، إلى الحياة، من قبل إنسان الصحراء، سيّما إذا علمنا أن الصحراء هي مهد الكتب المقدّسة كلها!

تابعه السير «أكتون» بفضول مجبول بدهشة حقيقية:

– ألن يعني هذا أنّنا نخطئ إذْ نظنّ أنّنا نحارب قراصنة؟

- بالطبع نخطئ! وهذا الخطأ هو سرّ فشل الأمم الأوروبية في إلحاق الهزيمة بأهل ما اعتدتم أن تسمّوه «الشاطئ الرابع» طوال الأعوام الفانية!

تبادلا نظرة حميمة لأوّل مرّة من اللّقاء. تساءل الوزير الأوّل:

- ألا يعني هذا أنّنا يجب أن نستسلم لقدر الإتاوة؟

- تصبح الإتاوة ثمناً عادلاً (بل طبيعيّاً) للغيوث التي استأثرنا بها من دونه فيما لو استطعنا إقناع سادة ممالكنا بعدالة قسمة يرونها حقّاً طبيعيّاً، في حين نراها حسنةً مغتصبة!

اشتدّ عزف المطر على زجاج النوافذ كأنّ الطبيعة تأبَى إلاّ أن تقول كلمتها أيضاً بلسان سرّها الذي لم يتجلَّ يوماً كما تجلّى في ملحمةالمطر.

قال الوزير:

- لقد حاربناهم دوماً من واقع الدّافع الديني ظنّاً منّا أنهم يحاربوننا تعصّباً لمعتقد، أو فلنقل تغليباً لمعتقد بالمقارنة مع معتقد!

تكلّم القبطان بلهجة اليقين:

- المعتقد الديني دوماً حُجَّة، ولم يكن يوماً بسبب!

حدّق الوزير في وجه القبطان بعينين زرقاوين ذكيتين، ثم سأل:

- لماذا نحاربهم إذاً؟

أجاب القبطان ببرود:

- أعترف لك بأن الأنسب أن نبادر بدفع هذه الهبات طوعاً بدل أن نبدّد في الحروب ثروات طائلة تفوق في قيمتها أضعاف قيمة هذه الإتاوات. ولكن ماذا نفعل إذا كنّا منذ البدء مجرّد دَمُى لتأدية دين إسمه الواجب؟

في عيني الوزير سطع وميض كالاستنكار:

- دين إسمه الواجب؟

- بلى!

سكت الوزير لحظة. تعجّب:

- هل يُعقل أن يفوق أداء الواجب الحقيقة سلطاناً؟

- إذا كنّا قد خُلقنا من طينة أداء الواجب فأنّى للحقيقة أن تجد لها مكاناً إلى جانب هذا البعبع؟

احتجّ الوزير:

- لا أصدّق ما تقول!

احتجّ القبطان:

- إذا كنت لا تصدّق فجرّب أن تقنع جلالة الملك بفكرتي عن عدالة القسمة التي حدّثتك عنها، وسوف تجد أنّه سيقتنع بتزويدي بكلّ ما ورد في القائمة عن طيب خاطر، في حين

سيستنكر، بل وسيشكّ في قواكم العقليّة، فيما إذا حاولتم إقناع جلالته بحقّ الإتاوة!

في الخارج انتظم إيقاع معزوفة الغيوث بفضل اعتدال حملات الرياح الشمالية فتغنّى مريد الأوطان البحرية السير «جون أكتون»:

– كأنّي أرى هذا البحر، من وجهة نظر أهل شاطئه الآخر، صحراء في صحراء. وما سفننا في هذه الصحراء سوى طرائد!

تململ القبطان في جلسته قبل أن يعلن:

– ولكن قانون الطرائد، يا صاحب السعادة، هو الذي حتَّمَ وجوب البحث عن قوارب النجاة!

سيرة القوارب في العبارة صارت بعد قليل حُجَّة القبطان ليهوي بجليسه من شعاف الحُلُم إلى حضيض الواقع:

– إذا رفض صاحب الجلالة تزويدنا بالقوارب على سبيل الإعارة، فنحن على استعداد لدفع ثمنها بسعر معقول!

٥٠- الريح

بحر ليبيا. ٢٨ يوليو ١٨٠٤م.

في صباح هذا اليوم استيقظت المدينة لتجد أفق البحر مزروعاً بالبوارج الحربية على طول الغمر المجابه لساحل اليابسة. حول أشباح البوارج الحربية طافت حشود الزوارق السريعة بأعدادٍ سخيّة لم تشهد المياه الأقليمية لها مثيلاً قبل ذلك اليوم. على أرض اليابسة تراكض جنود البحرية ذهاباً وإياباً: بعضهم انشغل بإبعاد حشود الفضوليين من مواقع الخطر، في حين هرول آخرون وهم يحملون الأوامر الصادرة من مقرّ البحرية في قلاع الجوار إلى ربابنة السفن المنتشرة في المرفأ. في سطوح الحصون المشرفة على المرسى نشطت حركة الجنود أيضاً. ولم يكد قرص الشمس يرتفع عن مستوى المياه في الشرق سوى أشبار حتّى شاهد زحام الفضول كيف استوى دهاة المدفعية وراء آلاتهم الكئيبة الجاثمة كالتنانين فوق القلاع المعلّقة بين السماء والأرض، وفيما كان يوسف باشا يتساءل في مجلسه الحربي عن سرّ عناد هؤلاء الأبالسة منقطع النظير كان القبطان «بريبل» قائد الأسطول يراقب من ماسورة عين سحرية تحرّكات قطع الأسطول الطرابلسي الحربي ليجيب الطبيب «لويس هرمان» عن استفهامٍ مماثل

يقول حرفه: «لماذا لا تدفع حكومتناإتاوة كم تبدو زهيدة إذا قورنت بالأموال التي تُدفع، والدماء التي تُسفح، والجهود التي تُبذل على مدى الأعوام تلو الأعوام؟»:

– حكومتنا لن تستطيع أن تفعل ذلك حتّى لو شاءت، لأنّها تدري أن حربنا مع طرابلس ليست حرب منافع كما يظنّ البعض، ولكنّها حرب إرادتين: إرادة تأبَى إلاّ أن تستثمر بحراً تراه ثروتها الوحيدة، أو فلنقل قوتها الوحيد فتستميت في فرض إرادتها على الملاحة لأنّها تعتبر البحر أرضها. وإرادة أخرى انبعثت بالأمس من بطن القمقم بأعجوبة. وأعجوبة هذا البعث هو ما يهبها صلاحيّة رفض الاعتراف باحتكار البحار حتّى لو كانت الحُجّة إرادة الحياة. أي أننا نستميت في الحرب لا انتصاراً لكبرياء، ولكن للتحرّر من ظلمات القمقم والنفاذ إلى ضياء العالم القديم بأي ثمن. أي أن الحرب في النهاية صدام بين عالمٍ يريد أن يحيا، وعالم يريد أن يستكمل شروط الميلاد فيتحرّر!

تأمّله الطبيب «هرمان» بفضول ثمّ تساءل:

– تريد أن تقول أن حربنا مع طرابلس هي صراع بين عالمين: عالم قديم يريد أن يبقى على قيد الحياة، وعالم جديد يريد أن يبرهن لنفسه أنه على قيد الحياة؟



عـاند القبطـان مـاسورة المنظـار لـحظات. أجـاب دون أن يلتفت:

– أردتُ أن أقول إنّنـا نـحـارب طرابلس لأن إرادة الـحرية أقوى حتّى من إرادة الـحيـاة!

تعجّب الطبيب «هرمـان»:

– هل يرى سيّدي القبطـان أن إرادة الـحريّة أقوى من إرادة الـحيـاة؟

– بـالطبـع!

تنقّلَ بمنظـاره السـحري في أرجـاء السـاحل المقـابل ثمّ أضـاف:

– ألاَ يذهـب النـاس أفواجـاً منذ فـجر التـاريخ لتقديم الـحيـاة قربـانـاً على مذبح الـحريـة؟

في تلك اللحظة انتصب إلـى جوارهمـا شبـح ليصوّب القول بنبوءة:

– يفعل أخيـار النـاس ذلك لإيمـانهم بـأن لا وجود لـحريّة حقّاً إلاّ فـي الموت!

فـأكمل القبطـان نبوءة الشبـح دون أن يتنحّى عن عدسة العين السحريـة:

– يفعلون ذلك ليقينـهم أيضـاً بلا وجود لـحيـاة حقّاً إلاّ في الـحريّة أيـهـا العزيز «ديكـاتور»!

تمتم الطبيب:

– لا وجود لحرية إلاّ في الموت، ولا وجود لحياة حقيقيّة إلاّ في الحريّة؛ فيالها من أحجية!

سكت لحظة متأمّلاً، ثمّ صرّح باكتشاف:

– ألن يعني هذا أن الحياة ليست في الحياة، ولكنها في الموت؟

أجاب القبطان لاهياً:

– ألا ترانا نتلهّف لأن نموت منذ جئنا لا لننال أمجاداً، أو لنشبع الجوع المخجل إلى بطولات مزوّرة، ولكن لكي نحيا الحياة الأخرى التي تقع وراء الموت؟

تدخّل النقيب «ديكاتور»:

أَلاَ يقال أن أفضل ما يتوجّب على الإنسان أن يفعله في هذه الدنيا هو أن يعبر هذا الجحيم فيموت بأسرع وقت ممكن؟!

حدجه الطبيب بنظرة ماكرة قبل أن يقول:

– لا تقرأ علينا مزامير كانت بالأمس سبباً في فقداننا للّصدِّيق « سلفادور كاتالانو»!

حدجه النقيب بدهشة، ثمّ سأل:

– هل تظنّ أنّ مزاميري هي التي ضيّعت ذلك الشبح الذي تسّميه «الصّدّيق كاتالانو» حقّاً؟

اختلس الطبيب نحوه نظرة خفيّة. هتمل:

– دخل الشقيّ ليختلي بك في مقصورتك في آخر ليالي العاصفة إنساناً، وخرج من تلك الخلوة إنساناً آخر، أو.. أو شبحاً وليس إنساناً بالأصح!

خيّب «ديكاتور» ظنّه:

– كاتالانو كان شبحاً منذ البداية، وما يدهشني كيف لم تلاحظوا ذلك طوال الرحلة!

حدجه الطبيب بشكّ فأضاف النقيب:

– كاتالانو كان شبحاً استعار جسداً إلى حين، ثمّ تحرّر ليعود شبحاً بمجرّد انتهائه من الواجب!

– الواجب؟

– ألم يكن تحرير «فيلادلفيا» من الأسر واجباً؟

تنقَّلَ الطبيب ببصره بين الضابطين، فتكلّم القبطان:

– كي يفهم الطبيب «هرمان» ما يجري في البحار حقّ الفهم عليه ألا يكتفي بمعارف طبّ الجسد، ولكن عليه أن يتبحّر في علوم النفس أيضاً!

في تلك اللحظة هبّت أنفاس مفاجئة فتزعزع توازن البارجة بعنف. هتف القبطان بحنق:

– اللعنة!

كانت السماء تتباهى بطبيعتها الصيفّية المعتادة منذ قليل:

زرقة عميقة بلا نهاية وليدة عراءٍ طاغٍ، أبديّ، يَعِدُ بصيف مجبول بلهب صحراويّ قاسٍ، فيستجيب البحر لمزاج السماء بسكون بحيرة، ويتلبّس بزرقة عميقة أيضاً كأنّها محاكاة متقنة الصنع لزرقة القرين الأعلى. لم تكن أجواء ذلك النهار الصيفي أجواءً، بل كانت استسلاماً. كانت خلوةً. كانت حضوراً لطبيعةٍ بلا حول ولا قوّة. كانت تسليماً انتظره قائد الأسطول طويلاً كي يطلق الإرادة المكبوتة من قمقمها أخيراً: إرادة الحريّة التي تحدّث عنها كثيراً. فبأي حقّ ينقلب مزاج الطبيعة ليخالف قانون الطبيعة في لحظة؟ بأيّ حق تهبّ الريح الشمالية في منتصف فصل الصيف إن لم تكن هذه المكيدة تدبيراً مبشرّاً بخللٍ في ناموس الكون؟ أيعقل أن يفلح سحرة اليابسة الصحراوية في ترويض الطبيعة إلى حدّ تسخير الريح لتكون للقوم عوناً في حربهم ضدّ الأغراب؟

خاطب القبطان الرجلين غاضباً:

– أيعقل أن تهبّ الريح في مثل هذا الوقت من العام؟

سحب ماسورة المنظار ليضيف:

– بدأت أؤمن بقدرة دراويشهم على تحريض الريح حقّاً!

فأجاب الطبيب:

– الطبيعة حليف مريد الطبيعة ياسيّدي القبطان، ومحنتنا

أنّنا تنكّرنا لهذه الربّة يوم اتخذناها خصماً، في حين استجار بها أهل تلك اليابسة استجارة الوليد بتلابيب الأم! فكيف لا تستجيب الطبيعة الأم لأحلامهم، أو لا تهرع لنجدتهم؟!

شرد القبطان لحظات، في حين زفزفت الرياح بلحونٍ مجهولةٍ فلبّى اليّم النداء في الحال. تعالت الأمواج كأنّ مارداً لئيماً استيقظ في الأعماق فجأة فبلبل المياه، ودفعها إلى أعلى. في السماء تبدّد الصفاء كأنه لم يكن منذ قليل سوى كذبة، وحلّ محلّه غمّ معلول بجحافل غيوم داكنة حثيثة في زحفها نحو الجنوب. كوّر القبطان قبضته في وجهها كأنّه يتوعدّها ثم أمر بانسحاب الأسطول إلى عمق البحر!

٥١- التقنية

بحر ليبيا. ٣ أغسطس ١٨٠٤م

جمع القبطان ضبّاط الأسطول ما أن استعاد البحر العافية ليزفّ لهم مفاجأة:

– اليوم ستشهدون حدثاً فاصلاًفي تاريخ حربنا مع طرابلس، لأنّنا قررنا أن نهاجم المدينة!

ساد وجوم مزموم قبل أن يستفهم «ديكاتور»:

– هل لنا أن نعلم ما يمكن أن يعنيه هذا القرار يا سيّدي؟

فأجاب القبطان بلهجة أكثر غموضاً:

– الهجوم يعني الهجوم، والمدينة في هذا العمل المسلّح هي الهدف!

تبادل الضبّاط نظرات الاستفهام فسأل النقيب «ديكاتور» مرّة أخرى:

– هل يعني قرار الهجوم على المدينة احتلال المدينة، أم أن النيّة هي تدمير المدينة؟

فتهكّم القبطان:

– وهل تظنّ أن بالإمكان احتلال المدينة دون تدمير المدينة؟

تبادل المحفل نظرات الشكوك، ولكنّهم عادوا يفوّضون النقيب «ديكاتور» بإيماءات صامتة ليقينهم بأن بطولته في الحملة



على «فيلادلفيا» تخلع على شخصه حصانةً كفيلةً بغفران الفضول الذي لا يُغتفر في حضرة ربّ الحرب. النقيب لم يجد مفرّاً من حمل الصليب:

– ولكن احتلال المدينة، يا سيدي، يستوجب إنزالاً. والإنزال يستدعي إعداد خطّة محكمة لمواجهة المقاومة على اليابسة. أمّا تدمير المدينة فلن يكون تدميراً إذا حقّق الهدف الذي لن يكون كما أعتقد أبعد من إسكات بطاريات العدوّ وشلّ المقاومة في صفوفه!

وافقه المحفل بهمهمة مكتومة، فأضاف النقيب:

– نحن نريد أن نعلم يا سيّدي أين نقف لكي نعرف كيف نبدأ!

ولكن القبطان راقب قبس الصبح وهو يتسلّل ليخضّب أفق الشرق بالدّمّ، ثمّ زفر بسخاء كأنّه الإعياء، ثم خاطب مفرزته الحربية:

– ما آمركم به هو «الهجوم على المدينة»، ولا أملك الحقّ في إصدار أمر هو من شأن ما ستسفر عنه النتائج، لأن الإنسان الحكيم، كما يقال، ليس من يضع الخطط وهو يتأهّب، ولكنه الإنسان الذي ينطلق بالعمل فلا يستجيب إلاّ لما تمليه مستجدّات الطريق، بدل الإصغاء لوسوسات الخطط!

التفت إلى الجمع ليستنتج:

- القائد الحربي ليس كاهناً فيتنّبأ!

بعدها تولّى الآمر توزيع الأدوار على فريق الضبّاط ونوّاب الضبّاط ليتكامل انتشار الأسطول مقابل سواحل المدينة مع حلول ظهيرة يومٍ صحوٍ واعدٍ بأنفاس القيظ ككلّ أيّام هذا الوقت من كلّ عامٍ؛ كأنَّ العاصفة التي باغتت الأسطول منذ أيام لم تكن سوى خلل في ناموس الطبيعة التي كثيراً ما يروق لها أن تستبيح سكينة فصلٍ بجنون فصلٍ آخر لتستنزل، بمثل هذا الشذوذ، شآبيب الرحمة في قلوب أبناء الشمس، في حين تبلبل أبناء الظلمات الذين يعدّون مثل هذا التذبذب غدراً.

ويروي مؤرّخو البحرية الأمريكية كيف بدأ القصف عند الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم، ليجابه بقصفٍ مكثّف وصفه القبطان «بريبل» (على ما يروي هؤلاء المؤرخون) بـ «المخيف» في البداية. ولكنه مالبث أن عبّر عن خيبة أمل أخرى عندما أضاف بعدها بقليل: «هذه ليست قذائف. إنّها حمم من فوهة جهنّم!». ولكنه لم يأمر بانسحاب الأسطول برغم هول القصف المضادّ، بل حَثَّ على الصمود مستعيناً باستخدام آخر إنجازٍ تفتّقت عنه عبقريّة التّقنية الحربية: القنابل العنقوديّة!

٥٢- القدّيس

في ذلك اليوم الذي طاف فيه النذير شوارع المدينة منادياً بفحوى فرمان الباشا القاضي بوجوب خروج الأهالي إلى الضواحي المجاورة والانتشار في الحقول، كان سجّانان إثنان يجوبان الزقاق المؤدّي إلى باب البحر وهما يقودان سجيناً مهيباً مقيّد اليدين، ومكبّل الرسغين بغلّ ملفّق من سلاسل الحديد، يعتمر عمامةً بدوية معفّرة بأردان الحبوس، مرتدياً ثوباً فضفاضاً متوّجاً بصديريّ عديم الأكمام مطرّز بنمنمةٍ دقيقةٍ، مطعّمةٍ بعروقٍ فضيّةٍ تبدو في إتقانها تحفةً تصلح للفرجة، لا ميدعاً لثوبٍ فضفاض.

كان الناس قد بدأوا رحلة الفرار أفواجاً. في الزقاق المؤدّي إلى ساحة «ماركوس أوريليوس» اعترض سبيل السجّانين جمع الفضوليين، فسمع السجين أحدهم يهمس في أذن رفيقه:

– هذا هو الفارس الذي عادت به حملة ابن الباشا على الجبل منذ شهور!

توقّفت الكوكبة ليقول آخر:

– يقال إن جنود الحملة انتزعوه من مخدع عروسه ليلة الزفاف ليجيئوا به إلى الباشا عربون النصر، لأنه في تلك الحرب كان رأس الفتنة!

جاور السجين الكوكبة وهو يتطلّع إلى السماء الزرقاء باستعلاء، ويخطو بين سجّانيه خطو بعيرٍ مقيّد الرجلين: خطوٌ يبدو كزحفٍ، ولكنه في عناده حثيثٌ. علّق صاحب فضول ثالث:

– أمر الباشا بإخراجه إلى الميناء ليطعمه لبارود النصارى!

أقبل جواد يجرّ عربةً مترفةً من الجهة المجابهة فدفعت المسيرة نحو الجدار الأيمن حيث التحم جمع الفضوليين، في اللحظة التي تكلّم فيها أحدهم بعبارة سقطت في أذن السجين بوضوح كأنها منطوق حكم من قاضٍ مجهول:

– ميتة شهيدٍ دفاعاً عن وطن، أنبل من ميتةٍ في أحضان امرأة!

كان السجين يبتسم بغموض وهو يتطلّع إلى السماء بفضول عرّاف يفتّش في الفضاء عن نجوم السعود. عَبَرَ به السّجانان البوابة إلى المرفأ. هناك كان ينتظره قارب صغير شبيه بقوارب الصيادين. في جوف القارب وقف ثلاثة رجال يرتدون لباس البحريّة، تبادل الرجال الثلاثة مع السجانين نظرات صامتة، في حين غاب السجين في المدى الأزرق المستسلم لسماءٍ مسربلةٍ بشمس هجيرٍ طاغٍ يحيل عمق الزرقة في البحر مرآةً لعمق الزرقة في السماء. أومأ أحد رجال القارب إلى أحد السجّانين فتبادل السجّان مع زميله نظرة قبل أن يخرج من

جيبه مفتاح الأصفاد. انحنى لينهمك في فكّ قيود السجين في اللحظة التي تزعزع فيها المكان بانفجارٍ عنيف. ارتجّ القارب فترنّح الرجال في جوفه واستبسلوا ليسندوا بعضهم بعضاً، ولكن عبثاً؛ لأنّ أحدهم فقد التوازن في وقفته فأفلت من زميليه ليسقط في الغمر المتمخّض بفعل القذيفة المعادية. خاض جندي البحرية في الماء فهرع أحد الزميلين بنجدته مستعيناً بمجداف القارب. غالب السجين ضحكة، ولكنّ رذاذاً سخيّاً غمر وجهه فَشَرَقَ بالملوحة. اختنق بضحكته وبدأ يسعل بشدّة. نطق لأوّل مرّة:

– ياللخسارة!

رمقه السجّان باستنكار قبل أن يتساءل:

– عن أيّة خسارة تتحدّث أيها الشقيّ؟

بصق السجين قبل أن يجيب:

– أليس خسارة أن تذهب كلّ هذه الصحراء من الماء هدراً؟

تكلّم السجّان الآخر:

– أنسب لك أن تهديني هذا الصديريّ بدل تضييع الوقت في الهذر عن الماء المهدور!

حدجه السجين بازدراء ليشيح بوجهه جانباً في اللحظة التي زغردت فيها قذيفة جديدة أطاحت بقلوع أحدى السفن الراسية

في الميناء. تمخّض البحر بجنون، وعلا الصخب على طول الساحل، قبل أن تستيقظ بطاريات الحصون العليا من سباتها لتردّ على القصف بالقصف المضادّ.

وجد السجين نفسه طليق اليدين والقدمين، يجلس بين جنديين صارمين، ليواجه البحّار الثالث الذي انهمك في قيادة القارب، بين زحام القوارب الحربية وأجرام السفن، بوجدٍ مثير للإعجاب، غير آبهٍ بشظايا القنابل التي مضت تغسل وجوههم بالرذاذ المشبع بطعوم المرارة، والملوحة الممزوجة بمذاق البارود.

الجندي مارد القامة الذي جلس إلى يمينه تطلّع إليه بفضول طوال الوقت، قال أخيراً:

– ما كان يجب أن تبخل على السجّان بالصديريّ!

لم يجب فعلّق الجندي المواجه باسماً:

– الصديريّ تحفة حقّاً!

فتدخّل المارد:

– ما جدوى أن يحتفظ المحارب بحطام الدنيا (حتّى لو كان هذا الحطام كنزاً حقيقياً) إذا كان يدري أنه لن يعود؟

قال الجندي المجاور:

– هو لا يعلم أن كلّ من تجرّأ ووضع رجلاً في مياه البحر فهو على مرمى شعرة من بطون الحيتان!



زغردت في الفضاء قذيفة جديدة. سقطت على بعد أشبار من رصيف المرفأ. تطايرت الشظايا إلى الأركان الأربعة. استجاب لها البحّارة بالهرج. على سطح البارجة الحربية المجاورة صرخ جنود وهم يتوعّدون بقبضاتهم رماة المدفعيّة المرابطين على قمّة الحصن الفرنسي المشرف على الميناء ليحرّضوهم على القصف.

سأل المارد المجاور:

– لا أحسبك تريد للصديري أن يكون لك في بطن الحوت كفناً لعلمي بأن الكفن هو الحِمْل الوحيد الذي لا تستثقلونه في سفركم الأبديّ في الصحراء فتحملونه أينما حللتم!

تطلّع إليه السجين بنظرة كئيبة. قال:

– الصديريّ ليس كفناً. إنّه تميمة!

استنكر المارد:

– تميمة؟

لاذ الفارس بالصمت فقال صاحب المجداف:

– آمل ألاّ يكون الصديريّ تميمة من صنع العروس الضائعة!

اختلس نحوه المحارب نظرة غائبة. غزا وجهه شحوب، فنكس ليلوذ بالصمت.

قال جندي الميسرة:

– أجو ألاّ تتوهّم أنّك ذاهب لمنازلة فرسان سيّئ الذكر الشيخ النويري برغم فوزهم بلقب «النمور» الذي خلفه عليهم قائد الحملة الأمير أحمد؛ لأنّ..

تردّد لحظة قبل أن يضيف:

– لأنّ الأمريكان ليسوا كبقيّة النصارى!

صَوَّبَ مارد الميمنة:

– زميلي يريد أن يقول إن الأمريكان أسود حقّاً برغم كونهم نصارى، فاحترس أن تعوّل على مواهبك الفروسيّة كثيراً!

قال صاحب المجداف:

– ستخضع لامتحانٍ عصيب حقّاً إذا كانت حريّتك رهينة العودة بثلاثة رؤوس من صفوف العدوّ، كما قضى الوعد الوارد في فرمان الباشا!

لم يستجب السجين لاستفزاز الأجناد طوال رحلة القارب البائس نحو حشود السفن الحربية المنتشرة في الجانب الشرقي المواجه لصخرة «الخالوصة». كان القصف المتبادل قد اشتدّ عندما بلغ القارب أعتاب سفينة تعجّ بالبحارة، بعضهم يتشبّث بالبنادق، وبعضهم مدجّج بالسيوف والخناجر. على سطح المطيّة البحرية انتصب مدفع مهيب اشمأزّ لمرآه السجين فأشاح بوجهه جانباً. اقتنص صاحب المجداف الاستياء في

سيماء الرجل فلاحظ على الفور:

– أنت لن تضطّر لقتل النصارى بالأسلحة التي تصيب العدوّ عن بُعْد، لأنّنا نعلم أن ذلك يُعَدُّ جبناً في عرفكم، فلا تخف!

غمز صاحب المجداف لرفيقيه بإشارة ذات معنى ليضيف:

– لقد تشاءم لمرأى المدفع لأن وقوعه في الأسر كان بفضل فوهة هذا الغول!

تضاحك الأحراس، ولكن صوت انفجار هائل أخرس ضحكاتهم وطيَّر صاري إحدى السفن المجاورة للقارب الحربي البحري المكتظّ بالمحاربين، فعاد الهواء يتشبّع برائحة غريبة كانت خليطاً من الأملاح والأسماك والبارود.

انتصب صاحب المجداف في جوف قاربه البائس ليصيح بأعلى صوت:

– السّجين!

تراكض الأجناد على سطح القارب الحربي. أطلّ عليهم من علٍ الأجناد مراراً كأنّم يتسلّون بمشاهدة حيوانٍ عجيب. أعاد صاحب المجداف النداء بأعلى صوت:

– أرجو استدعاء الآمر لاستلام السجين البدوي!

استمّر الصخب زمناً قبل أن يطلّ الآمر ببزّته الرسميّة. كان قصير القامة، بدين البدن، ببشَرة نقيّة أشبه ببشرة النصارى.

لـوّح بيده للأحراس إشارة إِذْنٍ بـالصعود. ولكن السجين اعترض:

– أريد سيفي!

تبادل الأحراس نظرات خفيّة فأضاف السجين بعناد طفولي:

– لن أصعد قبل أن أقبض على ضبّة سيفي!

صاح الآمر من علٍّ:

– ماذا يحدث؟

أجاب صاحب المجداف:

– السجين يريد سيفه!

التقط نفساً قبل أن يضيف:

– يقول إنه لن يصعد قبل أن يقبض على ضبّة سيفه!

تغنّت بطاريات قلعة الإنجليز بنشيد موجع في اللحظة التي غاب فيها آمر القارب الحربي عن الأنظار. كانت القذائف المعادية تتساقط على طول الساحل لتمتحن صبراليمّ فترتفع الأمـواج في الفضاء كالزوابع مخلوطةً بذيول الدخان. في الشمال الشرقي حيث تتبعثر أشباح السفن الحربية شبّ حريق، فلم يدرِ السجين عمّا إذا كان الهدف المشتعل سفينة موالية، أم أنّها سفينة معادية.

بالجوار مرّت مطيّة عامرة بالجنود في طريقها نحو شمال

شرق الساحل. على سطحها تصايح البحّارة. صرخ أحدهم مخاطباً أحد أجناد القارب الحربي حيث غاب الآمر:

– في الناحية الأخرى بدأ الاشتباك بالسلاح الأبيض!

فعلّق مارد الميمنة:

– هذا يعني أن السفلة ينوون الاستيلاء على المدينة!

أطلّ الآمر على سطح القارب. لوّح في الهواء بالسيف المدسوس في غمرٍ جلدي بائد. نهض السجين ليصعد سلّم القارب الحربي فمازحه صاحب الميسرة:

– آمل أن تحسن استخدامه على نحوٍ أفضل من استخدامه ضدّ جيش الحملة على الجبل!

انطلقت من فوهة المدفع قذيفة في اللحظة التي وضع فيها السجين قدمه على متن المركبة الحربية، فتوالت صيحات الاستحسان من حناجر الجنود؛ لأنّ القذيفة ألحقت أضراراً بأحد قوارب العدوّ كما أعلن الآمر بسحنته الصفراء التي تشبه وجوه النصارى.

تفقّد السجين سيفه في حين زحف القارب الحربي نحو مراكب العدوّ المصطفّة بكثافة في جهة الشمال الشرقي من موقع صخرة «الخالوصة»، أو «صخرة الخلاص» كما أطلق عليها الباشا يوم صارت شركاً للبارجة المفقودة «فيلادلفيا».

هناك كانت بعض القوارب قد التحمت مع مراكب العدوّ في قتالٍ مميت لصدّ هجومها المركّز على الساحل.بعد قليل كان القارب في قلب المعمعة. ولا يدري السجين كيف وجد نفسه فجأة في مواجهة مع جنود النصارى الذين اقتحموا القارب دون أن يعرف متى وكيف. في الفضاء المغسول بشمس القيلولة تلامعت الأنصال، واختلط صليل السيوف بزئير المحاربين فاستيقظ في قلب الفارس الصحراويّ الأسير رزٌّ غامض كأنّه صهيل الخيل فاستعر. اقشعرّ البدن بحمّى مكَّنَتْ الكفّ من التماهي بمقبض السلاح في اللحظة التي انقضَّ فيها أحد أسود النصارى على صاحب المدفع ليصرعه بضربة واحدة. سقط الجندي على ظهره دامياً فهمَّ النصرانيّ بملاحقته بضربة أخرى من سيفه، ولكن الفارس السجين اعترض النصل في الهواء بسيفه. كان أسد النصارى عملاقاً عامر العضل، يمسك سيفه بيديه الاثنتين إمعاناً في إرهاب الخصم وتحميل الضربة قدراً مضاعفاً من قوّة. التفت إليه الوحش وهمّ بأن يتخلّص منه بحيلة مماثلة، ولكن الفارس تحاشى النازلة بقفزة خاطفة ليطعن الأسد برأس السيف الذي راق له دائماً أن يستخدمه كحربة أيضاً كلّما سنحت الفرصة.

انهار الوحش على ركبتيه بعنف زعزع القارب. ولكن سقطته



لم تنقذ صاحب المدفع الشقيّ من نوبة النزع الأخير.
تدفّق على سطح القارب فوج جديد. خلف الفارس صاح الآمر:
– ابتر أذنيه!

لم يفهم السجين لأنه تلقّف ثلاثة أسود ضارية في آنٍ معاً. إثنان مسلّحان بسيفين صقيلين، أما الثالث فلوّح في وجهه بحربة شرهة محاولاً أن يطعنه بها. ولكن الخفّة التي راق لأقرانه في القبيلة أن يطلقوا عليها «خفّة الطيف» هرعت لنجدته مرّة أخرى. طار جانباً فأخطأه سلاح الداهية. صدّ ضربة خاطفة من سيف أحدهم ليسدّد طعنة جنونية لصاحب السيف الآخر. ترنّح الرجل، واطلق أنيناً عميقاً، ولكنه لم يسقط. هرع لنجدته أحد جنود القارب فانتهز الفرصة لينتهي من الخصم الجريح. صَدَّ ضربةً لئيمة من زميل الجريح ليقفز جانباً. في تلك القفزة غافل الجريح بطعنة خرّ على أثرها إلى جوار صاحب المدفع. صار النزال بعدها عادلاً: صارع جندي البحرية الطرابلسية أحد المهاجمين، وعاند هو المهاجم الثاني. لم تطل المبارزة بعد ذلك سوى دقائق. أطاح بالخصم بطعنة ماكرة سدّدها خطفاً تحت الحزام. تراجع الجندي الأخير إلى الوراء أثناء عراكه مع الجندي الطرابلسي، بعد قليل هوى خارج الحاجز ليسقط في الماء. هتف الآمر:

- ابتر آذان قتيليك، لأنّك سوف تحتاج لإقامة البرهان على عملك!

كان صهيل الخيل مازال يطنّ في أذنيه بشدّة عندما استدار ليجيب الآمر ساخراً:

- ألن يكفي أن يكون الآمر شاهداً؟

ولكنّ قديفة ولولت في الفراغ كصفيرٍ منكر قبل أن تهوي فوق سطح الزورق. انفجرت لتحصد جانباً من الزورق لتصرع في طريقها عدداً من البحّارة. سقط السجين أيضاً. وعندما أفاق وجد جسده مبلّلاً فلم يدرِ حتّى تلك اللحظة ما إذا كان العرق هو ما بلّله، أم رذاذ مياه البحر المتطاير في الهواء، أم النّزيف الناتج عن الشظايا. تطلّع في المكان ليكتشف أن القنبلة طيّرت المدفع، بل وقاعدة المدفع أيضاً. في تلك اللحظة شاهد قارب العدوّ يقترب ليلامس جرم القارب الجريح. غالب الدوار لثوانٍ، ولكنه انتصب على قدميه في اللحظة التي اقتحم فيها فوج النصارى سطح المركب. انتشروا عبر الأركان ليجد نفسه مطوّقاً بالأنصال. بدأ النزال. انسلّ يسرةً بحثاً عن حاجز يحمي ظهره، ولكن الحاجز تهشّم بفعل القذيفة أيضاً، فترنّح وكاد يهوي في اليّم. صَدَّ هجمةً قادها محارب صارم الملامح، مفتول العضل، أشرم الشفة، سمع زميلاً يناديه باسم«ترب»، أو

«تريب» أو ربّما «تراب»، في اللحظة التي هوى فيها آخر بسيفه على منكبه. انشغل بصدّ الوحش المدعو «تراباً» فاستشعر في المنكب وخزاً: لقد تمكّن منه الرجل الآخر بسبب خطأ. بسبب سوء تقدير المسافة. بل.. بل عليه أن يعترف بالحقيقة فيقول إنه بسبب تباطؤ لم يغفره لنفسه في نزالٍ يوماً. ولكن عليه أن يستوعب الدرس إذا شاء أن ينجو. عليه أن يستوعب الدرس ويحترس بما يكفي في الضائقة القادمة. وهو ما لم يكن ليتحقّق إن لم يتحرّر من الوزر. إن لم يتنصّل من الجسد، إن لم يتخلّص من الحِمْل. إن لم يستعر خصال الطيف في الحال.

اعتنق يقين الأشباح فتحرّر من الطوق. انضمّ إليه أحد الأجناد فخفّف عنه الوطأة. ولكن الملقّب بـ «التراب» مضى ينازله ببسالة مدعوماً بعون قرينه اللعين الذي سمع له اسم «هنلي» أو ربّما «هنري»، في رطانة «تراب».

ويبدو أن إفلاته من الفخّ الذي نصباه له بتلك الحيلة الحربية اللئيمة لم يرق لهما فاستشرسا. شنّا هجوماً جديداً، بنفسٍ أعند لم يكن لينجو منه لو لم ينجده الحدس، ولو لم تُجِره روح الطيف. شَنَّ هجمة مضادّة فأصاب المدعو «هنلي» بطعنة في المعصم الأيمن. توجّع، ولكنه لم يستسلم. وفي لحظة وجد نفسه في طوق جديد. وجد نفسه أسيراً في الطوق الذي لم يطقه

يوماً. الطوق الذي كان سبب كلّ بلاياه. الطوق الذي صار سرّ وقوعه في قبضة الباشا، والطوق الذي كان قبلها سرّ انتفاضة ضدّ سلطة الشيخ النويري: طوق تجلَّى تارةً في جور المكوس، وتجلّى كرّةً أخرى في طغيان المسلك، وتمادى مراراً ومراراً في الحبوس، وبلغ الذروة في فرض مشيئة الدمية الفانية على مَن وُلدوا من بطون الأمهّات أحراراً، ليحبّ هؤلاء من أحبّت لهم الدمية الفانية أن يحبّوا، ويكرهوا من شاءت لهم الدمية الفانية أن يكرهوا يقيناً منها أنّها خوِّلت أن تحييهم إذا عَنَّ لها أن تُحيِيّ، وأن تميتهم إذا عَنَّ لها أن تميت، كأنَّ الملّة لم تُخلق إلاّ لتكون رُقى بين يدي هذه الدمية الشقيّة.

وها هو الإحساس بالطوق يكتم في صدره الأنفاس فيستأسد. لا يستأسد وحسب، ولكنه يفرّ. يفرّ من جسده. يستيقظ المجهول المخبّأ في دهليز مجهوله ليحقّق بطولة التحوّل التي رآها الأقران في القبيلة دوماً أعجوبةً. يتحوّل طيفاً بعيد المنال. يتحوّل شبحاً حقيقيّاً يتخطّى الحدود ويفرّ من الجسد إن يُطِعْه الجسد فيفرّ بالجسد. الفرار من الجسد الذي لا ينصاع للمشيئة الخفيّة فيفرّ طوعاً هو سرّ القوّة التي استطاع أن يستوحيها من عزلة الصحراء ومن إرادة الحرية التي لا يلهمها ركن في الدنيا كما تلهمها الصحراء. وعليه الآن أن يفعل كلّ ما بوسعه

للإفلات من الطوق برغم سيول الغزاة التي تتدفّق بلا توقّف ملوّحةً بالأنصال في الهواء، وبرغم تبدّد جنود الباشا دون أن يدري كيف. لم يدرِ السجين بالطبع أنه ينازل أبطالاً قالت المصادر التاريخية عن أحدهم (وهو البطل «تريب» الذي استبقاه في ذاكرته باسم «تراب»! إنه قام بأشرس نزال سجّله تاريخ البحرية الأمريكية على متن زورق، لأنه (كما أورده مؤرخو البحرية الأمريكية حرفيّاً): «كان النّزال المميت الذي لم تكن اللهفة إلى الغلبة غايته بقدر ما كان حبّ البقاء على قيد الحياة هو الغاية». لم يدرِ مريد الحرية هذا أيضاً أنه نازل أيضاً، وفي الوقت نفسه، البطل الآخر، المدعو «جون هنلي»، الذي دخل التاريخ أيضاً بفضل تلك المبارزة بالذّات.

لقد أوردت المصادر التاريخية للبحرية الأمريكية أيضاً أن السجين أثار إعجاب المحاربين الأمريكيين بل ودهشتهما فقرّرا أخذه أسيراً. أشارا له بنيّتهما هذه بسيفيهما تارةً، وبالإيماء تارة أخرى. ولكن الرجل سخر منهما (كما ورد حرفياً في متون المؤرخين نقلاً عن مذكرّات هذين البطلين)، بل لم يزده هذا العرض المهين إلاّ جنوناً، لأنه ما لبث أن فكّ الحصار بوثبة واحدة ليهاجم من ركنٍ آخر. في هذه الهجمة أصاب «هنلي» بجرحين: أحدهما في صدره، وثانيهما في عجيزته.

أمّا «تريب» فقد تلقّى طعنة في منكبه الأيسر. كان الأسود الثلاثة الآن يصولون على السطح المهشّم بالقذائف، المفروش بالجثث والجرحى، المغسول بالدّم ومياه البحر الممزوجة بالملح والبارود وأشلاء الأسماك التي لاحقتها القذائف إلى الأعماق لتنسف أجرامها الهشّة بسلطة الإنفجارات الوحشية، ثمّ تقذف بأجزائها إلى الأعالي كأنّها نثار في مأدبة قرابين وثنيّة!

في ذلك الوقت كانت بعض القوارب قد وقعت في يد الأمريكيين، وكان من بقي على قيد الحياة من جنود طرابلس قد وقعوا في الأسر، فجثموا بأيدٍ مشيّعة على رؤوسهم في انتظار قدرهم. وكان آمر القارب المحطّم أيضاً أحد الذين استسلموا. وقد راقب النزال بجبين ينزف بغزارة، ولكنه حثّ السجين على الاستسلام برغم الوجع مردّداً:

– استسلم أيها الشقيّ فالمعركة قد انتهت!

حول القارب تحلّقت قوارب الأمريكان. على الأسطح وقف بعض الجنود لمشاهدة النزال يتقدمهم النقيب «ديكاتور» بطل الغارة على «فيلادلفيا». كان «تريب» مغسولاً بالدّم بعد أن أُصيب حتّى تلك اللحظة بثمانية جروح في الرأس، وجرح في المنكب، وجرح في الصدر. أمّا «هنلي» فأصيب بعدد لا يقلّ في أجزاء

مختلفة من جسمه. كما كان السجين ملوّثاً بالدماء من قمّة رأسه حتّى أخمص قدميه. ولكن الاشتباك لم يتوقّف. ويبدو أن الخصمين قد اكتشفا نقطة ضعفه فعملا على تشديد الخناق عليه كلّما استطاعا إلى ذلك سبيلاً، فيتضاعف جنونه في كلّ مرّة فيفلت ليباغتهما بالطعنات من الخلف، أو من الأركان، إلى أن انتهى من «هنلي». سقط المسكين فجأة، في وضعٍ لم يقرأ فيه أحد خطراً، وبطعنه لم يشهد لها أحد أثراً: كأنّ ما حدث كان كبوة عابرة لرجلٍ يمثّل دوراً في لعبة هزلية. ولكنه توارى من الخشبة، فتوارت معه قوى الخصم أيضاً. خارت قواه مع الطعنة التي وجّهها «تريب» لصدر السجين فمزّقت الصديري البهيّ الذي طوّق صدره كحصنٍ حصين. وبرغم الوهن إلاّ أن الرجل استجمع كلّ ما تبقّى من قوّة لينزل بالسيف على رأس «تريب». وقع «تريب» على ركبتيه، ولكن تلك كانت السقطة التي وضعت خاتمة للقتال المجنون. فقد انتهز الفرصة ليدفع نصل السيف في بطن السجين عميقاً. لحظتها أيقن الفارس أن لحظة التخلّي عن الجسد قد حانت أخيراً بعد أن خذله الجسد.

خَرَّ ليسمع صهيل الخيل، وزغاريد الصبايا لآخر مرّة.

على سيمائه ارتسمت بسمة غامضة كأنّها محاولة يائسة للتعبير عن اللغز المسمّى في لغة أهل الدنيا: سعادة! أو.. أو

المسمّى في لغة أهل العزلة: حريّة!

كتّاب الحوليات يروون أن النقيب «ديكاتور» قال عندما وقف فوق جسد فارس البادية ورأى هالة الأحجية التي حاول الشهيد أن يعبّر عنها ببسمته الغامضة:

– يا إلهي! إنّه يبدو كقدّيس!

٥٣- المهزلة

بحر ليبيا. أغسطس ١٨٠٤م

حدَّثَ القبطان «بريبل» مرؤوسه النقيب «ديكاتور» فقال:

- لن يهنأ لي بال حتّى أُسَوِّي مدن هذا الساحل بالتراب كما فعل أسلافنا بـ «طروادة»، أو.. أو أحرثها حرثاً وأنثر في أرضها ملحاً حتّى لا تعود تنبت زرعاً كما فعلت سلالة «طروادة» بعدوّتها «قرطاجة»!

تأمّل «ديكاتور» وهو يسرح في المدى الأزرق المسكون بهدوء مريب:

- يذهب الهيلينيون لتخريب «طروادة» ثأراً لشرف امرأة مختطفة، فيذهب أخلاف أمّة «طروادة» لمحو سلالة «قرطاجة» بعدها بألوف السنين كأنّهم يردّون ثأراً مبيّتاً!

حاجج القبطان:

- يجب ألاّ تنسى أن سبب نكبة «طروادة» هم أسلاف أهل «قرطاجة»!

تعجّب النقيب:

- حقّاً؟

- ألم تكن ذريّة «فينيقيا» الشقيّة التي أقامت كيان «قرطاجة» يوماً هي سليلة تلك الذرية التي اختلست «هيلين» لتلقي بها

في أحضان البليد «بوريس»؟

سرح القبطان لحظات. أضاف:

– آمل ألاّ يكون الموقع عملاً من قبيل المصادفات!

عَقَّبَ النقيب:

– جنوب غرب «طروادة»، جنوب شرق «قرطاجة»!

ولكن القبطان استنطق الحلم:

– لكلّ زمانٍ طروادته..

صوَّبَ النقيب:

– كما لكلّ زمان قرطاجته!

تغنَّى القبطان:

– ستوجد دوماً «طروادة» ما وُجِدَ في الدنيا يونان!

وافقه النقيب محاكياً:

– وستبعث إلى الدنيا «قرطاجة» ما وُجِدَ في الدنيا رومان!

فتهكّم قائد الأسطول:

– أو أخلاف يونان!

وافقه النقيب:

– أو أخلاف رومان!

فعرّج القبطان على ديار الباشا:

– يجب أن نجبر الباشا على نسيان الإتاوة إلى الأبد.

– بل يجب أن ينسى الفدية أيضاً!

– لقد بلغت به الوقاحة منذ أيام حدّاً جعله يخاطب «بينبريدج» قائلاً إنه ما كان ليعترف بالأمريكيين إلا كرعايا لمملكة إسبانيا لولا حاجته الماسّة إلى المال!

استنكر النقيب:

– رعايا لمملكة إسبانيا؟

– هذا ما خاطبني به «بينبريدج» في آخر رسائله..

سكت ليضيف بعد لحظة:

– «بينبريدج» قال أيضاً إن الباشا مازال يخاطب ملك إسبانيا بعبارة «ملك إسبانيا والهند» إلى يومنا هذا!

تعجّب النقيب:

– أيّة هند يعني الوغد؟

أجاب القبطان ببرود:

– أمريكا بالطبع!

جعجع «ديكاتور» بضحكة عصبيّة. كتم القبطان ضحكة أيضاً.

علّق النقيب:

– مسلك يليق بمهرّج!

• عقب القبطان:

– ما توصّلتُ إليه هو أن السلطة عمل لا يرتضيه إلاّ من أوتي

موهبة تهريج!

زفر بيأس ثم أضاف:

- ويبدو أن المخلوق الذي ينكر وجودنا على خارطة الدنيا هو أكثر من أتقن القيام بهذا الدور من بين كلّ أسلافه. فهل هذا لحسن الحظّ، أم لسوء الحظّ؟

سكت. تشبّث بالعارضة بيديه الإثنتين. تأمّل برّ المياه المستسلم للسكون. ثمّ:

- أعني هل يشرّفنا أن نحارب مهرّجاً دون أن نحتقر أنفسنا؟

أجاب النقيب وهو يغيب في الأفق العاري:

- لسنا نحن من اختار أن نحارب المهرّج، ولكن المهرّج هو الذي اختار لنا الحرب!

- ألا تستخفّ بنا الأقدار عندما تختار لنا مهرّجاً ليلقّننا الدرس تلو الدرس؟

ساد صمت قبل أن يجيب النقيب:

- هذه رسالة صارت هاجسي منذ زمن بعيد، لأنّ.. لأن..

سكت لحظات. أضاف:

- لأنّ فحواها لن تعني إلاّ تأكيد وصيّة «العهد القديم» عن باطل الأباطيل!

ابتسم القبطان بغموض قبل أن يقول:

- يُقال إن لعبته المفضّلة هي التنكّر!

- التنكّر؟

- يروق له على سبيل المثال أن يرتدي ثياب امرأة بدوية ليزور بيت امرأة شقيقه المخلوع في جوف هودج..

ضحك النقيب بصوت عالٍ فأضاف القبطان:

- تخيّل ملك مملكة يشوّه وجهه بالوشم، ثم يلفّ جسده في لباس امرأة ليندسّ بعدها في بطن هودج محمول على ظهر جمل ليذهب لزيارة بيت شقيقه لينزو على امرأته!

استنكر النقيب:

- ينزو على امرأته؟

تطلّع إليه القبطان بفضول كأنه يستغرب جهله بأفعال الباشا التي تجري على كلّ لسان بما في ذلك بحّارة الأسطول، ثمّ:

- إنّها عشيقته!

تبادل النقيب مع رئيسه نظرة. قال بلهجة خيبة:

- ظننتها رهينته!

- وهل يضير الرهينة أن تتحوّل عشيقة؟

ولكنه ما لبث أن استدرك:

- في البدء أسند لها المهرّج دور الرهينة في مهزلته، ولكنّه قلب الدور إلى المعشوقة استجابةً لمطلب فرضه تطوّر أحداث

المهزلة. أعني أنّه فعل ذلك انتقاماً من شقيقه عندما تحالف الشقيق مع النصارى ليستردّ عرشه!

– قيل لي إن الفضل في وصول الرجل إلى العرش يرجع إلى هوسه بهذا المرض الذي نسمّيه تنكّراً!

علّق القبطان:

– لو احترف الرجل الهوس إشباعاً لروح ذلك العبث الذي يحيا في روح كلّ منّا لكنت أوّل من يغفر له كلّ خطاياه، ولكن لا ندينه هنا إلاّ ليقيننا بأن استخدامه للتنكّر (ولبقيّة حِيَل التهريج)، لم يكن يوماً إلاّ وسيلة رخيصة للاحتفاظ بالعرش المغتصب!

تمتم النقيب غائباً:

– روح العبث الذي يحيا في روح كلّ منّا..

ولكن القبطان انتزعه من غيبته:

– ولكن لماذا لا تحدّثني عن الاستعدادات للجولة الكفيلة بوضع حدّ للمهزلة، بدل إضاعة الوقت في الحديث عن بلهوان المهزلة؟!



٥٤- الحصانة

بحر ليبيا. ٧ أغسطس. ١٨٠٤م

على متن الزورق التاسع في أسطول «بريبل» تجاور رجلان ماردان كأنَّ قائد الأسطول اختارهما لقرانهما في المزايا البدنيّة التّي تُذكّر برياضييّ المصارعة أو مريدي كمال الأجسام: أوّلهما كان «كالدويل» آمر القارب الذي لم يكن ليفوز بهذا اللّقب لولا شرف الاشتراك في مفرزة «فيلادلفيا»، والثاني هو «سبنس» صاحب المدفع الذي لم يكن ليحتمي من فوهات المدافع بامتهان الجلوس خلف فوهات المدافع من باب تقدير مواهبه في القنص بقدر ما لعبت خبرته الطويلة في معاندة شؤون الأسطول منذ تكوينه الدور الأوّل في الفوز بهذا الامتياز.

ارتجَّ القارب استجابةً لهبّة ريح مفاجئة فعلّق صاحب المدفع:

– أيعقل أن تهبّ الريح لنجدة الباشا حتّى في أغسطس؟

تفقّدَ آمر القارب الساحل من عدسة الماسورة السّحرية. قال:

– لو عشتَ عاصفة الليالي السّبع كما عشناها زمن الحملة على «فيلادلفيا» لأيقنتَ ألف مرّة بوجود حلف مشؤوم بين الباشا والريح!

انحنى «سبنس» ليتفقّد جوف المدفع. عبث في الجوف لحظات قبل أن يقول:

- يقال إنّه داهية في تسخير السحرة كوسيط في هذا الحلف!

فسخر «كالدويل» دون أن يتخلّى عن عدسة الماسورة السّحرية:

- تسخير السحرة كوسيط؟

ثمّ بعد لحظة صمت:

- السحرة أعجز من أن يؤتوا القدرة على استنفار الريح كلّما وقفت قطع أسطولنا قبالة هذا الساحل الملعون، لأنّهم.. لأنّهم ببساطة مجرّد سحرة، وليسوا آلهة!

- هل تريد أن تقول إن في هذا الباشا تتخفّى مواهب أخرى لا نعلمها؟

ابتسم «كالدويل». أزاح الماسورة جانباً. تطلّع إلى السماء العارية المتوّجة بشمس الظهيرة القاسية. قال:

- منذ ألفين وخمسمائة عام كانت هذه السواحل هي نقطة التّماس بين طبيعة الشمال وطبيعة الجنوب. في أرضها ترتع الفيلة بجوار الدببة، ولكن ألفين وخمسمائة عام كانت كافية لتقويض طبيعة الشمال وهيمنة الطبيعة الجنوبية المدعومة برياح الصحراء لتمحو من الدنيا أثر الصقيع في رياح الشمال.



فبأيّ حقّ يحدث الخلل اليوم فتتمرّد الريح على مشيئة الطبيعة فجأة لو لم يوجد في وليّ أمر هذه الديار سرّ؟

تطلّع إليه «سبنس» بفضول قبل أن يقول:

– هل تؤمن بوجود سرّ في صاحب هذه الديار حقّاً؟

أجاب «كالدويل» غائباً:

– في وليّ أمر كلّ دار يوجد سرّ!

تابعه صاحب المدفع ساهياً، فأضاف آمر القارب:

– الحاكم سرّ يدبّ على قدمين!

توضّحه صاحب المدفع بإمعان قبل أن يتساءل:

– حتّى لو كان طاغية كباشا طرابلس؟

أجاب «كالدويل» بيقين:

– وليّ الأمر سرّ يدبّ على قدمين حتّى لو كان طاغية!

تردّد «سبنس» ثمّ:

– أيعقل هذا؟

تكلّم «كالدويل»:

– نحن لا نعلم شيئاً عن طبيعة الصفقة المبرمة بين مَنْ قرّر (أو قرّرت له الأقدار) أن يتولّى أمر الناس، وبين القوّة المخوّلة منح هذه الهبة المريبة المسمّاة في لغتنا سلطاناً. ولكن مشاهدتي الطويلة لجنس الطغاة في مراكش أو تونس

أو الجزائر تبيح لي أن أجزم بأن سرّاً رهيباً يكمن في طبيعتها أعجزني فهمه دائماً، برغم يقيني بعماء القوّة المخوّلة المنح فلا تبالي بنتيجة المنحة، أعني.. أعني..

سكت الرجل لحظات. ازدرد ريقه بعسر. أضاف:

– أعني أن تلك القوّة غير معنيّة بنتيجة الصفقة التي نسمّيها نحن شرّاً!

تأمّله صاحب المدفع بغموض، ثمّ:

– هل تريد تبرئة هذه البدعة من اليقين الشائع الذي يؤكّد هويّتها المشبوهة كعطية من يد عدوّ الربّ؟

ضحك «كالدويل» باستخفاف. قال:

– لا أدري مّا إذا كان ذلك تبرئة لها من هويّتها الشيطانية، أم أنه إدانة لها بسبب هويّتها الربوبية!

– تعجب «سبنس»:

– هويّتها الربوبية؟

– أليس الحكم محاكاة ما لحكم الحاكم الأعظم؟

– ماذا تريد أن تقول؟

سكت الآمر. تفقّد الساحل المدجّج بالأبنية والحقول المكتظّة بقامات النخيل. أجاب:

– كنت أظنّ أنّ حكم الإنسان لأخيه الإنسان ما هو إلاّ عدوان



على صلاحيات خالق الإنسان، ولكنّي اكتشفت من خلال مشاهداتي لأهل الحكم أن الطبيعة الإلهية للحكم لا تتحوّل لعنة في عنق مريد الحكم دائماً، ولكن كثيراً ما تكون هذه الطبيعة لحاكم الدنيا حصانة!

سكت لحظة ثم أضاف بحماسة مفاجئة:

– هذه الحصانة هي ما يجير صاحب الحكم من غضب الربّ في حال الطغيان!

استنكر «سبنس»:

– يدهشني أن يغفر ربّ السمارات والأرض الطغيان لصاحب الحكم كمكافأة عن محاكاة!

قال «كالدويل»:

– ألا يبدو الحاكم في نظر الناس خليفة الربّ في الأرض؟

ابتسم بغموض ثم أضاف:

– الحقّ أن الحاكم لا يبدو خليفة الربّ على الأرض في نظر الناس وحدهم، ولكنه يبدو كذلك في نصوص الشرائع أيضاً.

أطلق ضحكة عصبيّة قبل أن ينتهي إلى القول:

– الشرائع تنعت الحاكم خليفةً للربّ على الأرض حتّى لو كان طاغية!

٥٥- البطولة

انتظم السّخاء في أنفاس الشمال الغربي فتمخّض البحر بموجٍ حثيث. اضطربت المطايا، ولكن قائد الأسطول لم يأمر بانسحاب السفن. مال «سبنس» على الآمر «كالدويل» ليهمس في أذنه:

– ما يدهشني هو إصرار القائد على قصف السّكان!

ابتسم آمر القارب بغموض. سَرَح بعيداً. توضّح اليابسة التي تلاصق الرابية المتوّجة بالأبنية المطوّقة بسورٍ يلتفّ حولها كحزام، فأضاف صاحب المدفع:

– أيّ فخرٍ في دكّ بيوت الأبرياء؟

كانت بسمة الغموض لاتزال ترتسم على شفتي آمر القارب عندما أجاب:

– القبطان لابدّ أن يدكّ بيوت الأبرياء، لأنّ الأبرياء طعام البطولة!

استنكر «سبنس»:

– أخون ضميري لو وافقتك!

ولكن الآمر استمات أيضاً:

– لا ينتصر محارب ما لم ينشر في صفوف العدوّ الذّعر.

ولا ينشر الذّعر في صفوف العدوّ ما لم يرتكب الفظائع بحقّ الأبرياء!

هتف «سبنس»:

– نخون الحقيقة لو أطلقنا على عملٍ كهذا اسم البطولة!

سخر الآمر «كالدويل»:

– وهل ظننت أنّ في البطولات يوجد ظلّ لبطولة؟

تأمّله البحّار مليّاً، ثمّ انكبّ على جوف المدفع ليطعمه زاداً قبل أن يتمتم:

– ولكنّي أرى في عمل القبطان أول أمس بطولة.

تساءل «كالدويل» بنبرة استهزاء:

– أرجو ألا تظنّ أن القبطان تنازل للباشا عن الأربعة عشر جريحاً من باب التسامح!

تطلّع إليه البحّار مستفهماً فأضاف:

– انتظر القبطان أن يجني من عمله نفعاً، ولكن الداهية خيّب ظنّه!

تأمّله البحّار حائراً، ثم سأل:

– ألهذا السبب يأمرنا اليوم بحرق المدينة حرقاً؟

تمتم آمر القارب وهو يستلّ الماسورة السحرية ليسدّد فوهتها نحو أبنية المدينة كأنّه ينوي محوها بآلته المريبة قبل أن

يأمر بمحوها بفوهة المدفع. قال:

- يدهشني ألاّ تكتشف أن كلّ أفعالنا الجديّة ما هي إلاّ تلبية لشهوتنا في الانتقام! أمّا البطولة فلا وجود لها إلاّ في التنازل عن البطولة!

كتاب 53 دبي الثقافية
الاصدار «٥٣» سبتمبر ٢٠١١

٥٦- الذخيرة

بجوار القارب التاسع ظهر القارب الثالث الموضوع تحت إمرة النقيب «ثورن»، بعد لحظات اقترب من الميمنة القارب الأوّل أيضاً، فأومأ «سبنس» لرئيسه مستفهماً. تطلّع إليه «كالدويل» أيضاً. كان يلوّح بماسورة عدسته السحرية في وجه مرؤوسه ساهماً. زفر الشمال بأنفاسٍ جديدة فرفرفت أجنحة الصاري بحماس. الغمر استجاب أيضاً بمخاض زعزع بدن القارب فتعالى هرج البحارة. قال «سبنس»:

– أعتقد أنّنا يجب أن نبدأ.

مضى الآمر يلوّح بالماسورة بيد ليتلقها باليد الأخرى كأنّها عصا. كان يتطلّع إلى الخلاء المؤدّي إلى اليابسة التي تستلقي غرب الرابية المتوّجة بجدران العمران. تأمّل زحام الأبنية التي تبدو من البحر كطودٍ جبليّ ينحني شمالاً في نيّة للقفز في مياه الميناء. قال الآمر:

– لم نأتِ إلى هنا إلاّ لنبدأ!

التفت إليه صاحب المدفع بفضول ممزوج بدهشة. هيمن سكون مشوّش بوشوشة الريح وصخب مخاض الغمر. بعد لحظات انطلقت من فوهة مدفع الزورق التاسع أوّل قذيفة. رسمت في فضاء الظهيرة ذيلاً فاتناً بلون البخار قبل أن تسقط في جوف

الحصن المنيع.

من القارب الثالث انطلقت قذيفة أخرى. تلتها قذيفة من القارب الأوّل الرابض على الميمنة. بعدها زغردت القذائف من قوارب الأسطول المسلحّة المنتشرة غرب المدينة. ترنّمت المعزوفة بلحون المجهول لحظات قبل أن ينطلق هدير النشاز من حنجرة البارجة الحربية «كونستيتيوشن» المرابطة في العمق خشية وقوعها غنيمةً لبطاريات الميناء.

في المدينة تصاعدت أعمدة الدخان. في قلعة «الفرنسيس» استيقظت البطاريات من غفلتها لتتغنّى ملهوفةً بأناشيد الدفاع.

في القارب الأوّل، عند جذع الصاري، وقف الآمر «سومرز» يتفقّد سير العمليات بعدسته السحرية أيضاً عندما سمع الهواء يتغنّى بمعزوفة المجهول. انتابته قشعريرة فتراجع خطوتين في اللحظة ذاتها التي سقطت فيها القذيفة على المكان لتحطّم الصاري نصفين! بعد دقيقتين كان القارب التاسع يستقبل قدره أيضاً محمولاً في قذيفة بائسة لم تكن لتحدث أية أضرار حقيقية لو لم تنفذ إلى مستودع الذخيرة. تزلزل القارب بانفجار طيّر البدن في الهواء أمتاراً ليسقط في المياه شظايا. طار البحّارة أيضاً ليسقطوا في البحر أشلاء. طار «سبنس» أيضاً

في الهواء. لم يعرف كم استغرقت رحلته المدهشة تلك، كما عبّر تالياً في رسالته إلى أمّه؛ ولكنه عندما عاد، ووجد نفسه جالساً وراء خشبة ينتصب فوقها المدفع، ورأى حوله أشلاء رفاقه العائمة مع شظايا الأخشاب في المياه القانية بالدّم، وجد يده تمتدّ لتحشو المدفع. حشا المدفع بسهولة، ولكنه استمات حتّى تمكّن من إشعال الفتيل. قفز في الماء بعدها. غاص في الماء ناسياً أنه لم يحسن السباحة يوماً. لم يحسن السباحة لأنّه رأى في الماء عدوّاً منذ تجربة غرقه في النّهر زمن الطفولة، فخاف الأب أن تتحوّل كراهته لجنس المياه مرضاً فأخذه إلى قسّيس القرية الهزيل كقطعة حطب علّه يفلح في مداواته من عداوته للماء. استمع ذلك الشبح للأب وهو يروي السيرة، وعندما انتهى حدّق القسيس في عينيه طويلاً قبل أن يبوح له بوصيّة لم ينسها تقول: «اِسْتَجِرْ بما تخشى، احترس ممّا تهوى!».. اقترح على الأب أن يلحقه بِعَبَّارة القرية ليستعيد العلاقة مع الماء. استطاعت عبّارة النهر أن تغذّي فيه حبّ الملاحة، وكان لها الفضل في التحاقه بالبحر تالياً، ولكنها لم تنجح في قهر خوفه من المياه. وها هو يغوص الآن في الماء بلا أمل في النجاة. ولكن الغريزة كانت فيه أقوى من فقدان الأمل، لأنه عاند المياه مستميتاً في طلب النجاة. مستميتاً في طلب الحياة.

في رحلته القصيرة، الباسلة، رأى رؤوساً مشوّهة ملطّخة بالدّم، وأذرعاً مقطوعة، وأجساداً حوّلها الانفجار قطعاً من لحوم. في الأعماق نهل من الملح السائل قبل أن يقع بصره على الآمر الشقيّ «كالدويل» مبتور اليدين والساقين فلم يبق منه سوى الجزء الواقع بين المنكبين والعجيزة. أمّا الرأس فمفقود أيضاً. والبطن مبقورة لتلفظ أمعاءً مغمورة بالدّم تتناهشها أسماك السردين الشقية. سترة «كالدويل» كانت العلامة الوحيدة الدّالّة على تلك الكتلة من اللحم التي كانت منذ لحظات فقط إنساناً يحمل اسم «كالدويل»!

كان قد بدأ يشعر بالغثيان، ثم الدوار، حتّى إنه لم يعرف كيف وجد يده تتشبّث بالخشبة المستقطعة من مجداف القارب التي بعثت به من جديد إلى الحياة، ليعلم بعد النجاة أن نصف الزملاء البالغ عددهم ستّة وعشرين رجلاً هم وحدهم من تبقّى على قيد الحياة.

٥٧- اللّغز

في صباح اليوم التالي عقد القبطان «بريبل» مجلسه الحربي على متن البارجة «كونستيتيوشن». دبّ أمام جمع الضبّاط حانقاً قبل أن يخاطبهم قائلاً:

– أيعقل أن يسخر منّا الباشا في اليوم الذي قررنا فيه محو مدينته من الوجود؟

علّق النقيب «سومرز»:

– أخشى أن يكون القدر هو الذي سخر منّا، يا سيّدي، وليس الباشا!

حدجه القبطان خفيةً ثم استفهم:

– ماذا تريد أن تقول؟

تبادل «سومرز» مع «ديكاتور» نظرة خاطفة قبل أن يجيب:

– أردت أن أقول إن السير «أكتون» هو مَنْ سخر منّا، وليس الباشا.

سكت لحظة، ثم أضاف:

– الذخيرة!

توقّف القبطان عن سعيه، فأوضح النقيب:

– ذخيرة ملك نابولي كانت مغشوشة!

افترس القبطان مرؤوسه بنظرة صارمة. احتجّ أخيراً:

– لو كانت ذخيرة ملك نابولي مغشوشة كما تقول لما فقدنا ثلاثة عشر رجلاً في انفجار القارب التاسع!

عاد «سومرن» يتبادل نظرة مع «ديكاتور». طأطأ قبل أن يجيب:

– هنا تكمن سخرية القدر يا سيّدي.

استفهم القبطان بنظرة كالوعيد فأضاف النقيب:

– الذخيرة الوحيدة التي كانت قابلة للانفجار الحقيقي كانت ذخيرة القارب التاسع، أمّا ما تبقّى فلم يكن سوى مسحوق لذرّ الرماد في العيون!

سكت القبطان. سكت النقيب. سكت الجمع. هيمن صمت. ولكن «ديكاتور» كان الضابط الوحيد الذي لاحظ كيف سرت رجفة في وجنة القبطان اليمنى قبل أن يحشرج بسؤال:

– ولكن ما النفع الذي يمكن لملك نابولي، أو لمخدومه السير «أكتون» أن يجنيه مقابل غشّ عدوّ عدوّه على هذا النحو الرذيل؟

ساد صمت مزموم مرّة أخرى قبل أن يتدخّل «ديكاتور» بمرافعة:

– أخشى أن نظلم ملك نابولي إذا سلّمنا بأ نّنا ضحيّة مكيدة من تدبيره!

استفهم القبطان بإيماءة تنّم عن نفاذ الصبر فأوضح المرؤوس:

– يجب ألاّ ننسى نوايا «نابليون» ضدّ ملك نابولي إذا شئنا أن ننصف الرجل.

حدّق «بريبل» في سيماء بطل «فيلادلفيا» بإمعان مجدوح بغضب، ثم برطم:

– ولكن ما علاقة مصابنا بنوايا «نابليون» ضدّ ملك نابولي؟

لاذ «ديكاتور» بالصمت لحظات. تململ في جلسته. ثمّ:

– الجواسيس!

قطب القبطان حاجبيه مستنكراً فمضى «ديكاتور»:

– أخشى أن يكون جواسيس «نابليون» هم مَن دسّ الذخيرة الفاسدة لملك نابولي تمهيداً ليوم المواجهة!

تطلّع إليه القبطان بفضول ممزوج بالدهشة قبل أن يتساءل:

– هل هذا يقين، أم مجرد تخمين؟

سكت «ديكاتور» لحظات منكّس الرأس. تململ في مقعده مراراً قبل أن يجيب:

– إذا أعجزنا العقل في فكّ لغز، فليس لنا إلاّ الاستجارة بالمنطق!

٥٨- الإيمان

لم يهنأ القبطان «بريبل» بالبشارة التي تلقّاها من قبطان البارجة الحربية «جون آدامن» (المتمثّلة في قرب وصول تشكيلة بحرية جديدة مكوّنة من قطع أربع هي «الرئيس»، و«الكونغرس»، و«كونستيلوشن»، و«إسكس»)، لأن بشارة الرسول كانت مرفوقةً بخبر صدور قرار تنحيته من منصب قيادة الأسطول وتوليه «صمويل بارون»، الأقدم منه رتبة، خليفة له. قبطان البارجة «جون آدامن» عبّر عن أسفه قائلاً:

– كُلّفتُ بإبلاغك أيضاً أن القرار ليس طعناً في كفاءتك، ولكن اللوائح الإدارية سلطة عمياء!

فأجاب القبطان:

– كيف لا تكون لوائح البحرية سلطة عمياء إذا كانت تستضيء بقوانين وضعيّة كانت منذ الأزل أكثر عماءً؟

عاد بعدها إلى مقصورته ليختلي بنفسه. هناك اكتشف أن الحرب أنسته وجود الخصوم نهائياً. اكتشف أن حياة البحر أنسته الحضور في الدنيا حيث لا يتحقّق النجاح إلاّ ملوّثاً بنصيب كبير من كيد. وكيف لا ينسى إذا كان البحر بطبيعته كوكباً آخر مقطوع الصلة بالدنيا وبأهل الدنيا؟ لقد ظنّ أنه نجا من حسد الخصوم، ومن كيد الأعداء المتنكرين في



أبدان الأخلاّء، بفضل عزلة البحر، ونسي أن صيت حملاته الحربية سوف يبلغ آذانهم ليقضّ مضاجعهم، ولن يهنأوا إذا لم ينتقموا؛ وهاهم يختارون أسوأ الأوقات لتمرير مكيدتهم. اختاروا الوقت الذي أصبح فيه على بُعْد شبر من الفوز، فكيف السبيل اليوم لإفشال مخطّطتهم؟ قبطان «جون آدامز» أفاد بأن «بارون» قائد الأسطول الجديد لن يصل قبل شهر على الأقل نظراً لضرورة التوقّف في مضيق جبل طارق، ثمّ التوقّف في سواحل مرّاكش، وكذلك في موانئ الجزائر، لإنجاز مهام تتعلّق بالنشاط القنصلي مع بلدان الشمال الأفريقي. هذا يعني أن القدر أمهله شهراً على الأقل كي ينجز ما أعجزه إنجازه في أعوام مضت. فهل هذا عمل من قبيل الإعجاز؟ لن يكون ذلك عملاً من قبيل الإعجاز إذا استنفر الإرادة في حدودها القصوى. لن يكون ذلك عملاً من قبيل الإعجاز إذا آمن بأن الوقت الذي كان فيما مضى حليفه قد انقلب منذ اللحظة خصمه، بل عدوّه. السرّ في القدرة على إيمانٍ ليس ككل إيمان. إيمان من جنس آخر. إيمان من جنس المسّ، أو.. أو ربّما من جنس الجنون. ولكن.. هل تسعفه طبيعته (التي كثيراً ما يحلو لها أن تقدّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى) أن توقظ فيه إيماناً من هذا القبيل؟

٥٩- الخيبة

قصف «بريبل» المدينة ليلاً لأوّل مرّة.

ويقال إنه فعل ذلك تلبية لاقتراح حمله إليه رسول الأسير «بينبريدج» قبل بدء الحملة الجديدة بأيام بدعوى نشر الذّعر في أهل المدينة ممّا سيجبر الباشا على التنازل. وقد تلقّى «بينبريدج» قنبلة أطاحت بجدار بيت «كاثكارت» الشرقي كأنها مكافأة من الأسطول على وصيّته البائسة، فأصيب بجراح. ولكن جراحه لم تَحُلْ دون قيامه في اليوم التالي بتحرير مكتوب جديد شديد اللهجة موجّه إلى قائد الأسطول عبّر فيه عن خيبة أمله في القصف الذي لم يصب في المدينة جداراً واحداً باستثناء بيت القنصل الطريد «كاثكارت» الذي كان مقرّاً للقنصلية الأمريكية وصار بعد نكبة «فيلادلفيا» مأوى لسجناء البارجة المنكوبة!

اختلى القبطان بنفسه في مقصورته طويلاً قبل أن يخرج من هناك بمقترح جديد أرسل به إلى الباشا. كان حانقاً فارتكب بسبب الحنق حماقة كما اكتشف فيما بعد: لقد استخدم في خطابه إلى الباشا سلاحاً معيباً في عرف الدهماء، فكيف في حربٍ بين القادة؟ لقد لجأ إلى التهديد! بلى، بلى. لقد توعّد

الباشا بأن أسطولاً مكوّناً من أربع قطع مدمّرة سوف يصله خلال أيّام، وسوف يكون بعد وصول هذا الأسطول في حلّ من أيّ عهد إذا لم يقبل الباشا اليوم (وليس غداً) بمبلغ الثمانين ألف دولار بدل النصف مليون دولار التي يمنّي نفسه بالحصول عليها مقابل حريّة الأسرى. كما اعترف للباشا في خطابه ذاك بأن المبلغ المذكور هو لشراء «ماء الوجه» حقّاً، وليس بأية حال ثمناً مأمولاً؛ ولكنه أفضل على كل حال من لا شيء، بل وأفضل ألف مرّة من تلقّي كرات القنابل بدل المبلغ!

ختم القبطان خطابه بوجوب رفع راية بيضاء فوق قصر السراي في أمدٍ يجب ألاّ يتعدَّى الساعة العاشرة من صباح الغد.

في الغدّ انتظر القبطان حتى الساعة الثانية عشرة، ولكن الراية البيضاء لم تظهر! جنّ جنون القبطان. ولمّا لم يكن الجنون نصيحاً حكيماً في يومٍ من الأيام فقد قاد قائد الأسطول لارتكاب حماقات كثيرة أخرى. ففي الثاني من شهر سبتمبر من عام ١٨٠٤م هاجم «بريبل» المدينة بكل قواته البحرية. ولا أحد استطاع أن يدرك سبب خيبة الأمل العظيمة التي نتجت عن ذلك الهجوم الذي قُدّر له أن يكون آخر هجوم للأسطول تحت قيادة الشقيّ «بريبل». البعض أرجع السرّ إلى سوء التدبير، في حين علّق آخرون سب الفشل على مشجب حليف الباشا القديم

المتمثّل في الريح الشمالية التي هبّت بعنف مريب بعد بدء القصف بساعتين فقط. ولكن خيبة الأمل لم تتوقّف عند هذا الحدّ. فقد تلقّى القبطان في اليوم التالي خطاباً قاسياً من «بينبريدج» يؤنبّه فيه على تبديد ذخيرة الولايات المتحدة النفيسة في الهواء، معبّراً عن دهشته كيف لم يلحظ خلوّ المدينة من السكّان بعد أن هجّرهم الباشا ليلاً ليهيموا في الحقول!

انهار «بريبل» على مقعد بالمقصورة شاحباً. غاب بعيداً. لاذ بالصمت طويلاً. ثمّ أمر باستدعاء النقيب «ديكاتور». كان يلوّح بمكتوب القبطان «بينبريدج» ساهماً عندما انتصب قبالته بطل حريق «فيلادلفيا». تمتم دون أن يردّ على تحية البطل:

– لا جدوى!

استفهم النقيب، ولكنّه كرّر الكلمة مرّتين قبل أن يقول بلهجة يأس:

– فتّشوا عن «وليام إيتون» أينما وُجِد!

القسم الثاني

٦٠- الأدوار

غرب الإسكندرية فبراير ١٨٠٥م

انتهى «وليام إيتون» من قراءة تقريره في حضرة أحمد بك، فتأمّله باشا طرابلس المنتظر طويلاً، ثمّ ردّد الحيثيات عن ظهر قلب:

– ثلاثمائة فارس من سلالة البادية. سبعون نصرانياً من مختلف الأجناس. مساعد قبطان بحري واحد. ضابط واحد. سبع قنّاصة بحر. وقافلة بعائر تزيد عن المائة دابة..

سكت لحظة ثم أضاف:

– ياله من جيش!

ولكن «إيتون» ما لبث أن تدخّل ليصوّب خطيئة صغيرة وردت في متن الحلم المنطوق بلسان البك:

– لقد نسي سعادة الباشا رئيس أركان الجيش!

فاستدرك أحمد بك:

– ليتنسدو.. ليتنسدور.. دورفر!

ابتسم ليضيف:

– اسم يكفي لكسر عضلة اللسان! لماذا لا نكتفي بتسميته «دور»؟!

ولكن «إيتون» أضاف لتصويبه تصويباً آخر:



– كما نسي مولانا الباشا تسمية قائد الجيش!

ابتسم أحمد بك وهو يتأمّل بزّة «إيتون» المرصّعة بالنجوم الذهبية:

– الجنرال «وليام إيتون»!

أطلقا ضحكة في آنٍ معاً قبل أن يعلّق جنرال الحملة:

– تستطيع أن تقول إنّنا الآن مملكة طرابلسية مصغّرة!

وافقه البك:

– مملكة طرابلسية مصغّرة ومتنقّلة!

سكت لحظة ثم أضاف:

– كأنّنا في حلم!

فتفلسف جنرال الحملة:

– الدنيا حلم!

علّق أحمد بك:

– كأنّنا أطفال نلهو!

– إذا آمنّا بأن الدنيا حلم، فماذا يضير لو آمنّا بأناس هذه الدنيا كأطفال لا همّ لهم إلاّ أن يلهوا؟

سكت أحمد بك. سرح بعيداً. قال بلهجة من يروّض حلماً:

– يدهشني إيمانك بما تفعل!

– إن لم أؤمن بما أفعل فلن أفلح!

توضّحه أحمد بك بفضول. ثمّ:

– أنت تتصرّف كجنرال حقيقي!

– أنا منذ اللحظة جنرال حقيقي حقّاً، ولو لم أقنع نفسي بهذا الدور، فكيف أقنع به جنود الحملة؟

سكت لحظة ثم أضاف:

– أنصح سعادة الباشا أن يتصرّف منذ اللحظة كباشا طرابلس الحقيقي أيضاً!

ردّد أحمد بك بغموض:

– باشا طرابلس!

فحرّض «إيتون»:

– يجب أن تؤمن بأنّك باشا طرابلس الحقيقي، لأنّك أنت باشا طرابلس الشرعيّ، لا يوسف باشا الزّور!

تابع أحمد بك دبيب الرجال في المكان. هتمل:

– لم أكن لأسعى في طلب العرش لو لم يدفعني يوسف إلى ذلك دفعاً!

٦١- الماء

بعد ثلاثة أيام من بدء الرحلة غرقت القافلة في بحر الرمال العظيم الذي أعجز حتّى سليل الآلهة الإسكندر الأكبر في رحلة بحثه عن معبد «آمون» في متاهة صحراء ليبيا قبل ألوف الأعوام.

فوق هامة رابية رملية وقف «وليام إيتون» ليشاهد طابور البعائر وهي تنزل السهل المطوّق بالسيوف الرملية من جهات الدنيا الأربع، متعرّجةً في مسيرها كأنّها أفعوان خرافي. كان جفاف أنفاس الصحراء الذي لا يطاق قد بدّد فيه رطوبة البدن حتّى آخر نقطة فتيبّس العود، وتشقّقت الشفتان، وجفّ الفم، وتحوّل اللسان في الفم قطعة حطب. تذكّر قدماء الليبيين وهم يتوعّدون قرص الشمس بقبضات أيديهم على ما يروي أبو التاريخ، ثمّ يخرجون في حملة حربية لغزو الريح الجنوبية التي تميت زروعهم، فلا يعودون من غزوتهم تلك أبداً. استعاد في وقفته أيضاً شبح الإسكندر وهو يعاند تلك الريح نفسها بروح اليقين بالانتماء إلى سلالات الألوهة، لا بروح البطولة الإنسانية التي نصّبته ملكاً على الدنيا. ولولا روح اليقين هذه لما أفلح في الوصول إلى معبد الّه سيوة. عليه أيضاً أن يستجير بروح اليقين إذا شاء أن يقهر الصحراء التي لا تُقهر ويبلغ في

رحلته شوطاً أبعد من معبد إلّه سيوة، ألاَ وهو: معبد إلّه درنة!
ولكن قائد الحملة «وليام إيتون» لم يدرِ حتّى تلك اللحظة أن يبوسة الأبدان في ناموس الصحراء ليست سوى مكوس عبور العراء. أمّا الظمأ فهو القربان الأعظم الذي كان عليه أن ينتظره بعد ثلاثة أيام أُخر. فهل الخطيئة نتيجة سوء تقدير دليل الرحلة، أم سوء تدبير الأفراد الذين استنزفوا زاد الماء في أربعة أيام بدل الأسبوع كما كان مقرّراً؟ ففي حين اقترح صاحب البعائر الصوم عن الطعام لمغالبة العطش، أوصى الدّليل بالسير ليلاً بدل المسير نهاراً. بعدها علا الجدل: استنكر البعض اقتراح الصوم، في حين فضّله فريق آخر. وآثرت فئة المسير ليلاً، واستنكرته فئة أخرى بدعوى عدم قدرتها على النوم نهاراً؛ فلم يجد قائد الحملة مفرّاً من الاحتكام إلى مشيئة القرعة. صاحب حزمة الأسماء المريبة (الذي لقّبه الأمير أحمد بك باسم «دور») وحده انتصب جانباً معلناً عدم المشاركة في اللعبة وهو يبتسم بغموض. وعندما سئل عن معنى هذه النكتة أجاب بأنه يرفض أن يكون طرفاً في قرعة تفرض أحد أمرين لا ثالث لهما لأنّه لا ينوي أن يتنازل عن مبدأ جُبِل عليه منذ الطفولة. وعندما سئل عن هذا المبدأ أجاب ببرود حسده عليه جنرال الحملة:

- عهد أبرمته مع نفسي ألاّ أستبدل عاداتي بأي ثمن!

تأمّله الجنرال بدهشة، ثم استفهم بلهجة تفضح استخفافاً خفيّاً:

- ألا يبدو عهدك هذا تحدّياً للقدر يا رئيس الأركان؟

فأجاب «بروداسيو» وبسمة الغموض مازالت تومض في مقلتيه القلقتين:

- ما الحياة الدنيا سوى تحدٍّ يوميّ لمولانا القدر يا سعادة الجنرال!

واصلت القافلة مسيرها ليلاً استجابة لمشيئة القرعة، في حين تخلّى سليل «تيرول» عن السير في ركابها ليقضي ليلته فوق كثيب رملي تلبيةً لبنود عهده القديم. ولكنّ اللئيم أدركها في اليوم التالي أثناء استسلامها للقيلولة ليتناول نصيبه من طعام بائس مكوّن من قطعة بسكويت في كل وجبة مع بضع حبيبات من الأرز. ولكن «بروداسيو» عرف كيف يستعين سرّاً على شحّ الطعام وانعدام الماء ببضع حبّات من برتقال كان قد اختطفها من أحد البساتين في الإسكندرية قبل الانطلاق.

في اليوم السادس استطاع الدليل أن يقف بالقافلة فوق فوهة البئر الموعودة. ولكن أهل الحملة فوجئوا بحفرة بئيسة مغمورة بالتراب، مطوّقة الفوهة بحزام من قشور الملح، ممهورة الجوف

برموز خفيّة طبعتها الحشرات بأرجلها الكريهة، بعد أن انتظر القوم أن يجدوا في البئر الموعودة كياناً حجرياً أملس الفوهة، يطلّ على هاوية عامرة بماء قراح، متوّج القمّة بدلوٍ جلديّ مشدود إلى بكرة خشبية. تبادلوا النظرات بذهول قبل أن يتساءل جنرال الحملة مخاطباً الدليل الشقيّ:

– هل أنت على يقين أن هذه هي البئر المنتظرة؟

فأجاب ذلك الرجل الصموت، الغامض، المثيل للطيف لا لمخلوق من لحم ودم بهزّة من رأسه، فما كان من سليل «تيرول» إلاّ أن أطلق ضحكة مجلجلة، في حين شمّر الدليل عن ساعديه وقفز داخل الحفرة ليبدأ الحفر صامتاً. انطلق يحفر بهمّة دون أن يطلب العون من أحد. ولم يهرع له أحد بالعون إلاّ بعد أن انتشل طيناً مبلّلاً بالماء. بعد الوصول إلى الماء كانت تنتظر القوم مفاجأة أخرى. فقد قرّرت الحملة أن تلعب دور الحاشية فقدّمت للأمير أوّل نصيب تمّ استخراجه من الماء. تناول البك جرعة فتعلّقت به الأبصار. استبقى الأمير الجرعة في فمه قبل أن يبتلع السلسبيل. أغمض عينيه أيضاً. قطب الجبين ثمّ ابتلع السائل. مكث طويلاً مقطب الجبين، مغمض العينين. سكن طويلاً بوعاءٍ مرفوع إلى شفتيه قبل أن يتشجّع أخيراً ويبدأ فيتجرّع الماء بنهم. غمر الغمر ذقنه وسال على لحيته، ولكنه

لم يكفّ حتّى أتى على النصيب المدسوس في الإناء، فجاء دور الجنرال. تناول الجنرال جرعة واحدة، ولكنّها كانت كافية لأن يفقد طوره: ألقى بالوعاء وبصق جانباً قبل أن يقذف مع البصقة سيلاً من رطانة عبّرت في يقين القوم عن سباب بذيء.

جال بعدها في الوادي الأجرد وهو يردّد:

– سمّ! سمّ! هذا ليس ماءً، ولكنّه سمّ!

ثم هرع ليواجه الأمير قائلاً:

– كيف احتمل الباشا شراباً كهذا؟

فأجاب أحمد بك ضاحكاً:

– احتملتها لأنّ طعمها ليس أكثر مرارة من جرعة «روم»!

٦٢- المال

١٧ مارس. الصحراء الليبيّة. ١٨٠٥م.

تحرّرت القافلة من وعوثة بحر الرمال وتلقّفها عراء صارم، مفروش بحصباء رمادية اللون، تستوي حيناً، وتتعالى حيناً آخر في ظهور مسطّحة كقباب خرافية لا تلبث أن تهوي في أحاضيض سمحة تتخلّلها نبوت بريّة هنا وهناك فتستعيد القوافل العابرة اليقين الضائع بالحضور في الأرض بعد اغترابها الطويل، والموجع، بالسير فوق وحول ذرّات هشّة، رجراجة، لئيمة، كأنّها الوهم، توحي بسعيٍ في الهواء، أو فوق سحاب، لا دبيب فوق أرض.

فوق هامات هذه الروابي تعالت أطلال الأبنية المهجورة لأقوامٍ فانية سكنت هذه الأنحاء في أزمنة سحيقة تلبّست فيها الطبيعة مسوحاً أخرى. في ركنٍ قصيّ، يجاور نصباً مهيباً، توحي ذروته مثلثة الأضلاع بهويّته كمعبد لربّة الصحراء الأولى «تانيت»، استلقت فوهة البئر التي أصرّ قائد الحملة «إيتون» أن يكون أوّل من يستطعم ماءها. تعلّقت الأبصار بالرجل وهو يتناول الجرعة الأولى: حبس أنفاسه. أغمض عينيه. زمّ شفتيه وهو يتشبّث بالوعاء بيديه الإثنتين. و.. سكن. سكن كأنّه يؤدّي طقساً. كأنه يمارس الصلاة. سكن فسكن القوم

بمن فيهم الأمير. حبسوا أنفاسهم أيضاً كأنهم يحاكونه. زمّوا شفاههم وأغمضوا عيونهم كأنّهم أصيبوا بعدوى. هيمن سكون. حتّى الجِمال توقّفت عن اجترار أعشاب البرّ التي التقمتها في الطريق وسكنت. جياد الحملة أيضاً سكنت وحبست الأنفاس. الصحراء أيضاً سكنت في انتظار نبأ الكاهن عن حقيقة الماء.

في النهاية نطق الكاهن نبوءة الماء:

– هذا هو السائل الوحيد الجدير بحمل اسم «الماء»!

ضجّ بعدها القوم. نهلوا من الماء، ثمّ تهارجوا، وتمازحوا، ورقصوا، لأنّ ما لم يخطر ببالهم يوماً هو أن يكون الماء الذي لم ينتبهوا لوجوده سبباً لفرح. لأنّ ما لم يخطر ببالهم يوماً هو أن يكون هذا السائل الهشّ، الخالي من شروط الوجود في الدنيا (كاللّون والطعم والرائحة) سبباً كافياً لنيل ما لا يُنال في حضيرة الدنيا وهو: السعادة!

ولكن ما لم يخطر لهم على بال أيضاً هو أن ينسوا بعد وهلة حقيقة الماء كرسول لأعجوبة السعادة، ليتورطوا في نزاع بسبب عدوّ الماء (وعدوّ السعادة) وهو: المال!

فقد فوجئ «إيتون» بصاحب البعائر يطلبه لخلوة على انفراد. هناك، في الجزء المهدّم من بنيان المعبد، طالبه بدفع ما أسماه بـ «المبلغ الإضافي». تعجّب «إيتون»:

- ما معنى «المبلغ الإضافي»!

حدجه صاحب البعائر بعينين لعوبتين قبل أن يعلن:

- لأنّنا نشهد دخول الشهر الثاني من رحلتنا!

ذهل «إيتون». خنق غضبة، ثمّ:

- لقد اتفقنا على أن أدفع على الجمل الواحد أحد عشر دولاراً لقاء الرحلة، لا لقاء الشهر!

استنكر الرجل:

- حتّى لو استغرقت الرحلة عاماً؟

زفر «إيتون» أنفاس الانفعال. قال:

- الرحلة لن تستغرق عاماً، ثمّ.. ثمّ يجب ألاّ تنسى أن اتفاقنا في البداية كان يقضي بأن تأتيني بمائة وتسعين جملاً بدل المائة والسبعة جمال الذين نستخدمهم اليوم، ولو فعلت لكان سعي القافلة أسرع، لأنّ الحمولة على الجمل ستكون وقتها أقلّ كثيراً!

عاند الرجل:

- ولكن الحمولة هي نفسها، في حين يبدو المبلغ المدفوع أقلّ إلى النصف تقريباً فيما لو كان عدد الدواب المطلوب ضعفاً!

- الحمولة هي نفسها حقّاً، ولكن سير القافلة أبطأ بكثير أيضاً. وهو ما يعني أن الوقت الضائع هو بمثابة الذهب الذي أخسره

أنـا، لا أنت!

أثنـاء الجدل حـام حولـهمـا شبـح فـي غيـهب الغـروب. طـاف فـي المكـان لـحظات ثم اقتـرب. وقـف بـالـجوار كـالمتـردّد ثـمّ تدخّل:

– كم يخجلني أن أسمع جدلاً حول المـال في حضـرة المـاء!

حـاول «إيتون» أن يتبيّنـه، ولكنـه أخفق فسـأل:

– من أنت؟

لم يجب الشبـح، ولكنـه نطق بـإنذار بدل الإجابـة علـى السؤال:

– إذا جـاء ذكـر أحدكم على المـال حرمتـه المـاء!

غيّبتـه العتمـة فـي حـين سـأل «إيتون»:

– من كـان هذا؟

فـأجـاب صـاحب الجِمـال:

– لا أدري! ربّمـا دليل القـافلـة!

٦٣- المستنقع

السراي الحمراء (البلاط) مارس. ١٨٠٥م

انتهى الطبيب «كودري» من مراسم فحص الباشا وبدأ في لملمة معدّاته الطبيّة استعداداً للخروج عندما استوقفه الباشا:

– أنت لم تخبرني عن رأيك في الخبر!

تطلّع الطبيب نحو الباشا مستفهماً، ولكن الباشا حدجه بشكّ قبل أن يوضح:

– خبر وفاة أحمد!

لاح إيماء الفضول في سيماء الطبيب فحذّر الباشا:

– لا تحاول أن توهمني بأنّك لم تسمع الخبر!

ترافع الطبيب:

– ولكنّي لم أسمع الخبر بالفعل!

أطلق الباشا ضحكة عصبيّة وهو لايزال يعاند الثياب التي نزعها عند إجراء الفحص. قال:

– لا أحد يمكن أن يفوقكم في التظاهر يا ملّة النصارى! ولكن دعنا من هذا وخبرني عمّا إذا كان في الإمكان أن يكون الخبر صحيحاً!

نظر إليه الطبيب بدهشة قبل أن يحاجج كأنه يدفع عن نفسه تهمة:



– لا أخال سعادة الباشا يظنّني عرّافاً حتى أتنبّأ بما تخفيه الغيوب!

قهقه الباشا بأريحيّة نادرة وهو مازال يجلس على السرير ليدلّي ساقيه فلا يدرك الأرض من فرط قصر القامة، فتذكّر «كودري» عبارة قرأها مرّة تقول إن الحقد الذي ينام في صدور الأقزام يكفي لإزالة الدنيا من الوجود تسع مرّات على الأقل. قال الباشا بنبرة سخرية:

– ولِمَ لا تتنبأ؟ ألست طبيباً؟

– همّ الطبيب الجسد، يا صاحب السعادة، أمّا الغيوب فمهنة الكهنة!

– لا تحاول أن تقنعني بأن الجسد والروح ليسا سبيكة واحدة..

قفز من السرير فتدحرج بقامته المضحكة في المكان ليضيف:

– سبيكة ملعونة يستوي من امتهن شأنها، ولكن.. ولكنّي لا أخفي عليك في كلّ حال: أنا سعيد بهذا الخبر، لأني.. لأني قرأت فيه فأل خير!

دبّ في المكان عاقداً يديه وراء ظهره كعادته، ثمّ توقّف فجأة ليعلن بلهجة رسميّة:

– ولكن هذا لم يمنعني من أخذ أ بناء زعماء القبائل كرهينة في هذا القصر!

تعجّب الطبيب:

– رهينة؟

تقدّم الباشا نحوه خطوتين، ثمّ أضاف:

– في أقبية القصر سوف تجد أبناء أكابر المملكة، وكذلك أولاد أوفى الخلاّن (إن كان لخلاّن أوفياء وجود) إلى جانب أبناء الأعيان بالطبع!

دبّ في المكان خطوات. واجه الطبيب فجأة بسحنة منكرة قبل أن يأمر:

– أريدك أن تعتني بهم كأنّهم أولادي، لأن سلامتهم أمانة في عنقي!

ابتسم بغموض فتشجّع «كودري»:

– الحقّ أنّي لا أفهم يا صاحب السعادة..

تردّد لحظات، ولكن بسمة الباشا هوّنت عليه:

– إذا كان أحمد قد هلك، فما الدّاعي لاستجلاب الرهائن؟

– لأنّي.. لأنّي تعلّمت ألاّ أصدّق أيّ شيء، وألاّ أثق بشيء، ولا بأحد!

حدج الطبيب بخبث قبل أن يضيف:

– هل تحسبني أخشى هؤلاء الأمريكان الذين يحاربونني الآن لأعوام؟

سكت، ولكن وميض الغموض اشتدّ في مقلتيه القلقتين. ثمّ:

– اعترف لك بأنّي لا أخشى إلاّ أقرب أقربائي، ليقيني بأنهم أشدّ طمعاً في عرشي من طمع الأغراب، ومن طمع أعدى الأعداء. هل تعرف لماذا؟

زفر أنفاساً حبيسة قبل أن يجيب:

– لأنّهم أكثر خلق اللّه استهانةً بي!

استنكر الطبيب صادقاً:

– أكثر خلق اللّه استهانةً؟

– بالطبع! وأنا لا ألومهم على ذلك، لأنّهم يرونني كل يوم، وكلّ ساعة: يرونني وأنا أتناول الطعام مثلهم، وأرتاد المرحاض مثلهم، وأتعرّى أمامهم، وأتجشأ مثلهم، وربما أسوأ منهم، فمن حقّهم أن يستيهنوا، لأنّهم يقولون في قرارة أنفسهم: «ما الذي يميّز هذه الحشرة حتّى تضع الأقدار مصيرنا في يدها لتحكمنا وتقرّر مصيرنا؟». ولهذا السبب عليّ كي أنجو من كيدهم أن أتسلّح لا بعقل واحد ككلّ الناس، ولكن بألف عقل؛ وأن أمتلك لا حدساً واحداً ككل الناس، ولكن ألف حدس، وأن أستعين لا بخمس حواس، بل بألف حاسّة، وأن أستجير بمواهب أخرى

خفيّة لا تخطر ببال بشر! هذا إذا شئت أن أبقى على قيد الحياة بين هؤلاء لأني أستطيع أن أتخلّص من كلّ الأعداء، وأستغني عن الأصدقاء، ولكنّي لا أستطيع أن أستغني عن هؤلاء، كما لا أستطيع أن أستغني عن الرعية!

أنصت الطبيب بذهول. بلع ريقه بعسر، ثم سأل:

– هل يأمنني صاحب السعادة لو سألته سؤالاً؟

تسكّع الباشا محاولاً أن يخفي بسمة غريبة. غمغم:

– لا يفتح الإنسان قلبه لأخيه الإنسان إلاّ ليسأل سؤالاً، أو ليجيب عن سؤال!

قال الطبيب:

– ألا تبدو السيرة التي رواها سعادة الباشا منذ قليل تعبيراً عن جحيمٍ يحسدنا عليه «دانتي»؟

توقّف الباشا. استدار. حدّق في سيماء الطبيب بسحنة صارمة. همس الطبيب:

– أريد أن أذكرّ الباشا بأنّي لم أكن لأجروً لو لم يهبني الأمان!

لانت سيماء الباشا فجأة. بل لم يلبث أن انطلق في قهقهة منكرة لوّح على أثرها برأسه إلى الوراء. كانت مقلتاه مبلّلتان بالدموع عندما استعاد هدوءه ليقول:

– أصدقك القول: لم أكن أدري أن الأمر سينتهي بي إلى الجحيم

الذي تتحدّث عنه، لأنّ.. لأن جوف العرش يَعِدُ بالفردوس!

– الفردوس؟

سكت غائباً. شعّ وجهه ببراءة حقيقية عندما أضاف:

– كانت تبهرني مراسم جلوس أبي على العرش. كنت أتسلّل ليلاً لأجلس في جوفه فأتخيّل نفسي معبوداً، لا عبداً، دون أن أدري لماذا. كان الجلوس في العرش واعداً، واعداً، واعداً؛ لا أعرف بماذا. كنت كالذبابة التي ترى في هذا العرش اللئيم جوفاً ملآناً عسلاً. ولم أكن أدري أن الارتماء في أحضانه يوقع في العسل حقّاً، ولكنه العسل الذي ينقلب وَحْلاً، لأن الذبابة لا تستطيع أن تتحرّر من وعوثته إلى الأبد!

سكت. رمق الطبيب. كان يرتجف عندما أضاف:

– بلى! العرش ما هو إلاّ مستنقع من عسل!

٦٤- الخيانة

على مشارف الحدود نزل معسكر الحملة رسول حاملاً رسالة إلى «إيتون» من قائد الحملة البحرية الأمريكية على طرابلس القبطان «بـارون» الذي خلف القبطان «بريبل» على قيادة الأسطول. قرأ «إيتون» الرسالة. ثمّ خرج إلى الخلاء. كانت الأمطار قد سبقت وصول القافلة إلى تلك الصحراء فارتوى الرّبع. وهاهو يخوض في وحول الطين، ويجتاز في جولته أنهاراً حقيقية من مياه نقيّة يئس من رؤيتها من فرط ما اكتحلت عيناه بغبار بحر الرمال العظيم المجبول بأنفاس رياح الخماسين.

كانت الأرض تستوي، ثمّ لا تلبث أن تهوي: تستوي في أسطح صارمة مكسوّة بطبقة أحجار مستديرة، كئيبة اللون، متساوية الأحجام كأنّ يداً خرافية قطعتها بعناية بأداة أسطورية، ثمّ صفّفتها على هذا النحو الهندسي الخارق كشهادة إعجاز، لأن انطلاق الفرشة الجنوني الذي يتراص ويتوالد حتى يغيب في الآفاق إنّما يبرهن على تحدٍّ شبيه ببرهانٍ غيبيّ بين قطبين غيبيين. ولكن الامتداد يتزعزع بالخلل أيضاً، لأن أمطار الدهور تحتفر في الكيان مسارب شقيّة تستقيم في جداول حيناً، وتفيض حيناً آخر في مسالك كعروق البدن تسرح في

البرّ خفيّة لتغذّي أحاضيض جانبية تعترض الامتداد المميت في وديانٍ تحتضن الروافد قطرةً قطرة لتذهب بها إلى أبعد الأوطان. في قاع أحد هذه الوديان شاهد «إيتون» بقايا سيلٍ تخلّف من غيوث الأيام الماضية، فوقف ليملأ عينيه من النهر الزائل لأن شمس الصحراء لن تبقي عليه طويلاً. حاول أن يتأمّل معجزة الماء المستلقي في الأسفل، ولكن همّ الرسالة بلبله فارتحل بعيداً. وهاهي الخيانة المدبّرة بيد البشر تفسد عليه متعة الهبة التي فاجأته بها الطبيعة. وهاهي الشمس الغاربة تغمر ذيول الماء بفيوض الغسق فيستجيب الماء بألقٍ دامٍ، غامضٍ، ينطق، في حلفه مع الصمت المهول، لغة شعرٍ مجهول. ينطق شعراً بروح المجهول. ولكن هشاشة الشعر ما لبثت أن عبّرت عن هويّتها المستعارة من هويّة الربّ الذي لا يشرك بنفسه أحداً: فرّ الإلهام، وانقشعت النشوة لأن دخيلاً اقتحم على المريد خلوته. إلى جوار «إيتون» انتصب مساعده في شؤون الحملة «أوبانون». وقف لحظات قبل أن يهلّل:

– الماء والصمت!

لم يستجب «إيتون» فأضاف:

– قطبان لا يجتمعان إلاّ بأعجوبة!

لم يستجب «إيتون» أيضاً فأوضح المساعد:

– أعرف أن الخطاب حوى أخباراً مخيّبة للآمال!

التفت نحوه «إيتون» بغتة، ثمّ عاد يراقب الماء عندما سأل:

– هل تظنّ أن الرئيس يمكن أن يكذب؟

في سيماء «أوبانون» ارتسمت آي الاستنكار. صاح:

– جفرسون؟

لم يستجب «إيتون» فترافع «أوبانون» بلهجة الاستنكار ذاتها:

– كلاّ! كلاّ!

– هل تظنّ أن الرئيس يمكن أن يخذل؟

حدجه «أوبانون» خفية قبل أن يجيب:

– كلاّ!

– هل تظنّ أن الرئيس يمكن أن يتراجع عن وعد؟

– الرئيس جفرسون؟ كلاّ!

لحظتها تخلّى «إيتون» عن حدقة الماء ليواجه حدقة أخيه الإنسان:

– لماذا يحاول «بارون» إذاً، أو من يقف وراء «بارون»، أن يقنعوني بأن ما ينوون فعله بنا هو عمل يحظى بمباركة الرئيس جفرسون؟

غلغل المرؤوس النظر في عيني الرئيس قبل أن يستفهم:

– ولكن ما الذي ينوون أن يفعلوه بنا أكثر ممّا فعلوه بنا حتّى الآن، أو بما فعلته بنا الصحراء بالإنابة عنهم؟



رمق «إيتون» قرص الشمس المخضّب بالدّمّ قبل أن يجيب:

– إنّهم يخونون!

هبّ «أوبانون»:

– يخونون؟

– إنهم يخوننا، ولا يكتفون بأن يخونونا، ولكنّهم يدعوننا أن نحذو حذوهم فنخون أيضاً!

– نخون أيضاً؟

غرق القرص الدّامي في هاوية وراء امتداد الصحراء الأبدي فخلّف في الأفق أرديةً مسربلةً بكل الألوان. في قاع الوادي اكتأبت حدقة الماء بغياب الضياء فاكتحل الغمر بغيهب غامض. في خطاب جنرال الحملة اقتنص المساعد نغمة المرارة:

– لم أكن لأورّط نفسي في هندسة هذا المشروع لو لم أنتزع الموافقة من فم جفرسون شخصيّاً. هل تدري لماذا؟

تطلّع إلى بقعة الماء الموسومة بالعتمة في القاع قبل أن يجيب:

– لأنّي لم أكن لأثق بدهاة العسكر، لأنّي أكثر من اكتوى بنار كيدهم! وهاهم يعيدونني إلى نقطة المنطلق بادّعاء يقول إن جفرسون هو صاحب الفكرة!

– ولكن عن أية فكرة تتحدّث؟

زفر «إيتون» أنفاس اليأس. نَفَّسَ أخيراً:

– يريدوننا إفهام أحمد بأن الولايات المتحدة لا تتعهّد بإعادته إلى عرش طرابلس في حال استطاعت أن تجبر يوسف على إحلال سلم بشروط معقولة!

تنفّس الشمال بنسمة مشبعة برائحة البحر. ولكن الأنفاس انقطعت فجأة فابتلع السكون الدنيا من جديد. حشرج «أوبانون»:

– ما معنى هذا؟

لم يجب «إيتون» فأضاف «أوبانون»:

– ألاَ يوحي هذا بقرب إنجاز صفقة؟

ألقَى «إيتون» على اللقية الملقاة في قاع الوادي نظرة أخيرة، حزينة، قبل أن يستدير في طريق العودة إلى المخيّم. إلى جواره سار المساعد صامتاً إلى أن قال «إيتون»:

– الطاغية الذي يبدو بعبعاً ما هو إلاّ دمية منفوشة تخفي أجبن مخلوق؛ ويوسف سوف يرضخ لأكثر الشروط ذلاًّ في الساعة التي سيعلم فيها باجتياز حملتنا الحدود الطرابلسية. وأظنّ أن فحوى رسالة «بارون» ما هي إلاّ تلميح بقرب التسوية!

هتف «أوبانون»:

– أيعقل أن يستغنوا عن عملنا قبل أن ننتهي من مهمّتنا؟

– ولماذا لا يتسغنون عن مهمّتنا إذا كانت مهمّتنا قد أفلحت في إنجاز مهمّتهم؟

سكت «إيتون». عاد يزفر أنفاساً حبيسة. أضاف:

– خطيئتي أنّي ظننت أنّي أُعلي راية العدالة بهذا العمل قبل أن أحسب نفسي جنديّاً في جيش الوطن، ونسيت أن السّاسة لابدّ أن يعترضوا طريقي كما فعلوا دائماً، لأن حساباتهم لا شأن لها بإعلاء شأن العدالة، ولا بإعلاء شأن الوطن، ولكن دين السياسة: هو المنفعة!

احتجّ «أوبانون»:

– ولكن أي نفعٍ يمكن أن يُرتجى من ممارسة الخيانة؟

– يصحّ هذا لو تكلّمنا بمنطق النزاهة، ولكن النزاهة هي ما لم يعترف به ناموس السياسة يوماً مثلها مثل التجارة!

تفجّع «أوبانون»:

– بأيّ لسانٍ نستطيع أن نعبّر للشقيّ أحمد عن هذه الفعلة اللاّأخلاقية؟

– مصاب الرجل سيكون في نظرك أعظم ألف مرّة لو أخبرتك بأن حملتنا هذه هي آخر أمل للرجل لا في الخلاص وحسب، ولكن في الحياة!

٦٥- الجموع

في هذه الأثناء كان يوسف باشا قد استيقظ من أوهامه المستوحاة أصلاً من أمانيه بهلاك أخيه في وقتٍ سبق وصول قافلة الشرق التي أكدّت بلوغ أحمد خليج «بمبا» مدجّجاً بجيش من كل الأجناس، فما كان من الباشا إلاّ أن أمر باستدعاء العلج المعروف باسم «غورجي» (قرين إحدى بناته وأب بعض أحفاده) في زمن عصيب عانت فيه البلاد من إفلاس لم تعرف في تاريخها له مثيلاً بسبب حروب جنونية لم تكن لتنشب يوماً لو لم تكُن بمثابة الطعام الذي غَذّى أهواء الباشا ليدفع أهل البلاد الثمن. وهو ما لمّح له الطبيب «كودري» في مذكرّاته بالقول إن طرابلس في تلك الآونة كانت إقليماً خاوياً كقشرة بيض يكفي لاكتساحه فريق صغير من المغامرين المدعومين بحفنة بحّارة! وقف العلج «غورجي» بين يدي جدّ ذريّته يومها وقد أخفق في إخفاء ضيقه. وهو ما لم يكن ليخفى على الداهية يوسف باشا الذي توضّحه طويلاً قبل أن يتساءل:

– هل ما أقرأه في عينيك تنصّل من واجب منتظر، أم هو خوف من فشل؟ برطم «غورجي»:

– مولانا يعلم..

فقاطعه الباشا:



الإصدار «٥٣» سبتمبر ٢٠١١

– سأسرّح بمعيّتك محمد بك إذا كنت تخشى عناد القبائل!

اعترف علج القوقاز لأحد خلاّنه فيما بعد كيف خمّن نوايا الباشا، ولكن الداهية حدس سرّ تردّده فقطع عليه خطّ الرجعة بعبارة، فامتثل. خرج إلى الدواخل لتجنيد أبناء القبائل برفقة علي بك بدل محمّد بك، لأن الباشا ما لبث أن تراجع عن نيّته في تسريح الابن البكر بمعيّته كما وعد. طاف «مصطفى غورجي» قبائل الشريط الجبلي لأسابيع قبل أن يعود إلى الحاضرة دون أن يفلح في تجنيد رجل واحد!

فكّر علج القوقاز طويلاً في الطريقة الأنسب للتعبير عن خيبته فلم يجد أنسب من الحقيقة!

وقف بين يدي الباشا ليسمع من فمه عبارة توقّعها:

– ما معنى هذا؟

استجمع تلك الشجاعة الخبيئة التي مكّنته من شذّ الآفاق من جبال القوقاز النائية، ولم تخذله أبداً، ليخاطب الباشا قائلاً:

– رسالة!

تفحّصه الباشا بدهشة مجدوحة بآي استنكار قبل أن يتوعّد:

– رسالة؟

– أردت أن أقول إن مولاي يستطيع أن يقرأ في عودتي الخاوية رسالة الرعية!

– ماذا تريد أن تقول أيها الشقيّ؟

– أردت أن أقول إن أهل الدواخل رفضوا الامتثال لأمر مولانا بالإجماع لكي يبلّغوا سعادتكم رسالة تقول إنهم لا ينوون الانخراط في جيشكم اليوم بعد العذاب الذي ذاقوه على يد جند المكوس بالأمس!

ساد صمت مزموم أيقن فيه العلج بالنجاة لأنه تعلّم في سيرته الدامية مع سادة هذه الدنيا أن أفضل حيلة للإفلات من قصاص الملوك هي عمل ما من شأنه إرباك الملوك. وهاهي المفاجأة تعقد لسان الداهية فتمهله لأخذ زمام المبادرة من جديد:

– حدّثوني عن بطش أجناد المكوس فقالوا إنّهم دأبوا طوال السنوات الفائتة على تجريدهم من ثلاثة أرباع المحاصيل أو المواشي ليتركوا لهم الربع بدل أن يفعلوا العكس. وبلغت بهم القسوة حدّاً جرّدوا فيه حليّ النسوة من رقابهن! فبأيّ حق يُطلب منهم اليوم تقديم أبنائهم للانخراط في جيش مملكة لم تعد مملكتهم منذ زمن بعيد؟

فاض قلب علج القوقاز بالنشوة التي لا تعادلها نشوة، لأنها نشوة الشجاعة التي عرف دوماً أنها تفوق نشوة النصر لذّةً، لأن الحياة الحقيقية ليست سوى لحظة حرية، ولحظة الحرية

ما هي إلاّ لحظة شجاعة!

غمغم الباشا بصوت كالهمس:

– ولكن لماذا لم يتظلّموا؟

تطلّع إليه «غورجي» بنظرة استخفاف قبل أن يجيب:

– قالوا إنّهم تظلّموا حتى بّحت حناجرهم وسَعُوا حتى حَفَتْ أقدامهم، ولكن هيهات أن تدرك أصوات الرعية آذان البلاط!

في اليوم التالي بعد اللقاء طاف نذير الباشا أزقّة المدينة بنداء يدعو أهل الحاضرة للتطوّع بجيش تعداده عشرة آلاف جندي لصدّ غزوة النصارى التي تتخذ من دمية العمالة أحمد بك ذريعة لاحتلال البلاد (على حدّ تعبير النذير) على أن تتجمهر الجموع في الساحة المواجهة للسراي بعد صلاة الجمعة «لإرهاب عدوّ اللّه وعدوّكم»؛ حيث سيلقي وليّ الأمر خطاباً هامّاً بالمناسبة!

ويروي الطبيب «كودري» في حوليّاته أنه ذهب إلى الساحة ليستمع لخطاب الباشا في الجموع الموعودة فوجد الساحة خالية!

٦٦- الحنين

ضاحية المنشية. المقرّ الصيفي. مارس ١٨٠٥م

قال محمّد بك:

– بأيّ حقّ أوجدني، إذا كان لم يفعل إلاّ ليحقّرني؟

في المكان حامت الأم. دخلت إحدى الإماء تحمل وعاءً فانتهرتها للاّ حوّاء بإيماءة صارمة فأدبرت الأمَة فزعة. دبّت للاّ حوّاء ذهاباً وإيّاباً قبل أن تتوقفّ لتخاطب الابن:

– التحقير هو ما لم يكن ليخطر له على بال. كلّ ما هنالك أنه لم يعتد المخالفة. حتّى جدّك عليّ باشا لم يخالفه يوماً في شيء!

فاستهزأ البك:

– هذا يعني أن جدّي هو من جنى عليه!

قطعت الأمّ مسافة نحو الباب المشرّع على البستان. عادت على عقبيها لتقول:

– رحم اللّه أمّي؛ كانت الإنسان الوحيد في المملكة الذي خالفه جهاراً ثمّ نجا من بطشه!

تطلّع إليها البك بنظرة تفضح وميضاً كالفضول، ولكن الأمّ استجارت بالباب المؤدّي إلى فسحة البستان المزروع بأشجار احتفت بحلول الربيع فتنفّس المكان بعطر أجناس الزهور

المجبول برطوبات الأرض المبلّلة برذاذ المطر الموسميّ. شدّت المرأة الوشاح حول جيدها وراقبت قطّة تتسكّع تحت شجرة اللّون. كانت رياح الشمال قد سكنت منذ الصباح، ولكن أشتات السحب مازالت تتجمّع على الساحل فتتبدّى من حقول المنشية كتلاً هائلة من عهن منفوش مصبوغ بأشعة الغروب الدامية. انتصبت المرأة كأنها تتجسّس على السكون، أو تتلذّذ بالعزلة التي افتقدتها دوماً في رحاب السراي. قالت وهي لاتزال تلاحق القطّة:

– لقد هدّدته مرّة بأن تلقي بك من السطح عندما حاول أن يدسّ السمّ في طعام بعض الخصوم!

حدّق البك في الفراغ قبل أن يعلّق:

– ليتها ألقت بي من السطح يومها!

خيّم السكون. اقترحت الأم فجأة:

– لماذا لا ننتقل للجلوس في الحديقة؟

ولكن الابن تحجّج بالصداع، فتأمّلته الأم بنظرة غائبة قبل أن تقول:

– لماذا لا تذهب في رحلة صيد؟

ابتسم الابن بحزن قبل أن يجيب:

– هل تصلح رحلة الصيد بديلاً عن رحلة الحرب؟

التفتت الأمّ نحو البستان. كانت القطّة لا تزال تحوم حول جذع شجرة اللوز. قالت:

– رحلة الصيد أنبل مائة مرة من رحلة الحرب!

– تقولين هذا بروح الأمومة!

استنكرت الأمّ:

– روح الأمومة؟

– أردت أن أقول إنّك تقولين هذا لأنّكِ لا تريدين لإبنك أن يموت في الحرب!

التفتت نحوه فأشاح ببصره. تساءلت:

– لا إخالك تريد أن تلمّح لتواطؤ بيني وبين أبيك!

لم يجب الإبن فأضافت الأمّ:

– اعلم إذاً أن ضرة المرأة الحقيقية ليست امرأة أخرى،ولكنّها الحرب. ذلك لا يَصْدُق على الأمهات فقط، ولكن على كلّ النساء؛ لأن المرأة أدهى من أن ترى بطولة في أن يقتل الرجل رجلاً أو أن يُقتل بيد رجل مهما كانت الأسباب. وإذا كان على الرجل أن يتسلّى فلماذا لا يكتفي بالصيد لهواً؟

التفتت المرأة نحو الرجل القابع في جوف أريكة تنتصب في ركن الدار المغمور بالعتمة فوجدته يلوذ بالصمت وظلّ بسمة استخفاف يرتسم على شفتيه. أضافت:

– أردت أن أسأل: لماذا على الرجال أن يكونوا طعاماً للحرب إذا كان بإمكانهم أن يستبدلوا الحرب بالصيد؟

تمتم محمد بك من ركن عتمته:

– لابدّ أن يكون الرجال طعاماً للحرب إذا شاؤوا أن يحكموا!

استنكرت الأمّ:

– أن يحكموا؟

راقبت قطّتها وهي تتقافز حول الجذع وتنبش تربة الجوار كأنها تفتّش عن طريدة ضائعة، ثم أضافت:

– ولماذا عليهم أن يحكموا؟

أجاب رجل الركن بيقين:

– وهل يحيا الرجال، يا أمّاه، إن لم يحكموا؟

استدارت. سدّدت نحوه نظرة غريبة لم يتبيّنها الرجل في العتمة. غمغمت المرأة بنبرة مريبة:

– أعترف لك بأنّي لم أعرف سعادة في حياتي كالسعادة التي استشعرتها ساعة علمتُ بقرار الباشا تعيين أخيك عليّ قائداً للحملة على درنة بدلاً منك!

تبادلا في العتمة نظرة مزمومة دامت لحظات قبل أن تضيف بصوت يرتجف:

– لأنّك إبني البكر الذي أريده أن يبقى لي ابناً، لا حاكماً!

تكلمّ الابن:

– هل تريدين ابنك البكر ابناً حتّى لو كان ميّتاً؟

توضّحته في عتمة المساء زمناً قبل أن تتساءل:

– ماذا تريد أن تقول؟

– أردت أن أقول إن ابنك لن يبقى على قيد الحياة إن لم يحكم!

ساد الصمت طويلاً قبل أن يسمع الابن وصية الأم:

– أُفَضِّل أن يبقى ابني البكر في قلبي حيّاً حتّى لو مات، على أن يبقى ظلاً وهو يمسك بصولجان!

خيّم الصمت. ساد الغيهب. طلب من الأمّ أن تتركه ليخلو بنفسه متحجّجاً بتمادي الإحساس بالصداع. ألقت المرأة على القطّة نظرة أخيرة قبل أن تنسلّ خارجة من الدار. الخلوة! الخلوة! الخلوة في حلفها المقدّس مع السكون. الحلم الأبدي في الخلوة المكبّلة بغلّ السكون. غيبوبة الغيوب. الإلهام المحتجب بستور المجهول . ينبوع الشّعر المجبول بالهاجس الذي نحسّ والذي يستحيل أن ندرك. حافز الوَجْد ولذّة الحقيقة. هناك! هناك فقط في ما وراء البرزخ تستدرج الحقيقة بفيوض الانتشاء. هناك في عبور البرزخ فقط تهيمن أبيات الطريدة، أبيات القصيدة المنشودة التي استعصت على الكلم طويلاً، طويلاً!

سحب من جيبه آلة الخلاص. لوّح بالآلة في الهواء غائباً. حدّق في عتمة انقلبت ظلمة. غمغم بصوت مسموع:

– الآن سوف ألبّي أمنيتك يا أمّاه!

ثم.. وضع الآلة على الصدغ الأيمن، و.. ضغط! ضغط على الزناد في اللحظة التي قفز فيها شبح (قيل تالياً إنّه القطّة) في هجمة غريبة زعزعت الكفّ: انطلق الدويّ، وفزّ من الرأس الدّمّ، غمر الأصابع حارّاً، لزجاً، يسيل في الحضن حيث استقرّت الآلة. بدأ الدوار. دوار! دوار مصحوب بغثيان، ولكن.. لماذا لم يعبر البرزخ؟ ولماذا لم يسمع لحون الحنين في قصيدة الحلم؟

٦٧- السّراب

في الليل، عندما سمع الباشا خبر محاولة الانتحار، اختلى بنفسه في الجناح الخاص الملحق بمكتبه حتّى الصباح. قبيل الظهيرة أمر باستحضار الهندي الأحمر الملقّب في أوساط البلاط بـ «صاحب العشبة السحرية». وقف الرجل في مواجهة الباشا وهو يلوك عشبته ذائعة الصيت بخمول. أومأ له الباشا بالجلوس، ولكنه لم يتسجب. صلب يديه النحيلتين حول صدره وتطلّع إلى نقطة مجهولة تقع وراء الباشا، وربّما وراء الدنيا، وهو يحرّك فكّيه البارزين بكسل رآه الباشا دائماً اعتزازاً بالنفس مثيراً للإعجاب.

قال الباشا:

– بلغني البارحة نبأ قرأت فيه آية سوء!

ثم حدج ضيفه خلسةً قبل أن يضيف:

– لاشكّ أنكم تؤمنون بالفأل في ديار العالم الجديد!

احتجّ الرجل وهو يحدّق في الفراغ كأنه مشدود إلى فتنة لا يراها سواه:

– ديارنا ليست جديدة، وعهدنا بالدنيا أقدم من عهدكم بها. ولا يليق بـ «قنّاص السراب الكبير» أن يردّد أباطيل الرجل الأبيض!

مال يوسف باشا إلى الأمام ليتبيّن الرجل كأنه يكتشفه لأوّل مرّة، ثمّ:

– ماذا؟ هل وصفتني بـ «قنّاص السراب»؟

صحّح الهندي الأحمر:

– قنّاص السراب الكبير!

تفحّصه الباشا بفضول قبل أن يستفهم:

– لماذا تراني قنّاصاً كبيراً للسراب؟

تفصّد زبد من فم الرجل. توقّف عن المضغ، ولكنه لم يتنازل عن غيبته عن المكان:

– لست أنا من لقّب السيد المبّجل بالاسم الجليل!

تابعه الباشا باهتمام قبل أن يستوضح:

– من لقّبني بالاسم الجليل إذاً؟

أجاب الرجل بنغمة يقين حسده عليها الباشا:

– إيهامهي!

– إيها..

استعصى نطق الاسم على لسان الباشا فهرع الهندي لنجدته:

– إيهامهي! إله «المسيسيبّي» إيهامهي!

ارتسمت سيماء الاستخفاف في وجه الباشا برغم الهمّ، ثمّ:

– هل بلّغك الاهك إيها.. إيهامه هذا باللّقب في المنام؟

– بل في ما تسمّونه في لغتكم يقظة، ونسمّيه في عقيدتنا مناماً!

ابتسم الباشا برغم المحنة. سكت متأمّلاً لحظات قبل أن يواصل الاستجواب:

– هل تريد أن تقول إن دنيانا في عقيدة ملّتكم منام، والمنام هو اليقظة؟ أومأ الرجل برأسه علامة الإيجاب فسأل الباشا:

– أيعقل أن يلتقيك هذا الربّ وجهاً لوجه ليلقّنك هذا اللقب الغريب؟

اعترض صاحب العشبة السحرية:

– الإله إيهامهي لا يظهر عبثاً، واللقب في عرفنا وصيّة!

– وصيّة؟

– بالطبع!

افترسه الباشا بنظرة فضول قبل أن يستفهم:

– وما فحوى هذه الوصيّة؟

مضى الرجل ينتصب في مواجهة الباشا كصنم مسبوك من معدن النحاس. أجاب وهو يعاند عشبته المجهولة ويسرح في رحاب الغيوب:

– تأويل الوصية في ناموس إيهامهي دائماً من شأن صاحب الوصية، وليس من شأن الرسول الذي يحمل الوصيّة!

تابعه الباشا صامتاً لحظات قبل أن يلحّ:

– ألن تستطيع أن تسمعني تأويلاً للوصيّة حتّى لو توسّلتك أن تفعل؟

هزّ الرجل رأسه نفياً، ولكنه لم ينبس. ساد الصمت زمناً قبل أن يعود الباشا لسيرة الفأل:

– ولكن دعنا الآن من اللّقب وحدّثني عن الطريقة التي تستخدمها ملّتكم في إبطال مفعول النّحس!

سكن الرجل لحظة، ثم أجاب:

– ذلك من شأن السحرة، وليس من شأن مريد النّبوت!

– مريد النّبوت؟

– إيهامهي زرع في صدري سرّ العشب، ولن يغفر لي إذا حاولت أن أتطاول في شؤون الغيوب!

سكت الباشا. زفر أنفاس الإعياء بسخاء قبل أن يلقي بآخر سهم:

– أيعقل أن تعدم حيلة تبطل مفعول السّوء؟

فعاند الرجل:

– لا يجوز لـ «قنّاص السراب الكبير» أن يدفعني لاستبدال لقب خصّني به الإله إيهامهي، لأبحث لنفسي عن لقب حجبه عنّي!

– استبدال اللقب؟

تساءل الباشا بسيماء مزمومة في حين أجاب صاحب الأعشاب السحرية ببرود:

– لقد اتّفقنا منذ قليل على منزلة اللّقب في عرفنا، لأنه الهبة الوحيدة التي تعبّر عن سرّنا الذي لا يعلمه إلا إيهامهي!

عاد إيماء السخرية يطفو في سيماء الباشا. تمتم:

– حقّاً؟

ثم أضاف بلهجة من يخاطب نفسه:

– يدهشني أن أجهل حتّى السّاعة اسمك! أليس هذا اكتشافاً مدهشاً؟

جعجع بضحكة مكتومة قبل أن يسأل:

– هل لك أن تسمعني الهبة التي خصّك بها الإاهك من دون الناس جميعاً؟

توقّف الرجل عن المضغ. جمدت فيه السيماء. في مقلتيه ومض ألق غامض. أعلن:

– طيف النحلة!

تأمّله الباشا مليّاً قبل أن يستفهم:

– طيف النحلة؟

أعقب سؤاله بضحكة خبيثة قبل أن يضيف:

– أعترف بأنه لقب لا يخلو من شعر، ولكنّي لا أجد له صلة



برسالتك في الدنيا كفارس في تلفيق السموم!

فترافع «طيف النحلة»:

- الطيف روح إيهامهي، والنحلة كاهنة الحقول. وعندما تتنازل روح الإله إيهامهي لتسكن جسم كاهنة الحقول فلابدّ أن يشهد المعبد سخاء المحصول الذي يستوي بلسماً شافياً بين يدي من شاء الشفاء، كما ينقلب سمّاً زعافاً بين يدي من شاء الدّاء!

في سيماء الباشا انقشع إيماء السخرية ليحلّ في السيماء غياب. غمغم بعد لحظات:

- يجب أن أعترف الآن بأن التخلّص من العرّافة كان خطأ!

فسمع من الصنم المنتصب قبالته كمعبود وثني قديم صوتاً كأنه النبوءة:

- لقد أبدعتْ لك كاهنة المعبد يومها بلسماً، ولكنّه تحوّل بين يدي «قنّاص السراب الكبير» سمّاً!

٦٨- المواجهة

الصحراء الليبيّة. أبريل ١٨٠٥م

يسهب مؤرخو البحرية الأمريكية في وصف حملة «إيتون» على درنة بروح تلك الرومانسية اللّصيقة بكل مغامرة، والمعبّرة حقّاً عن ظمأ الإنسان لصنع الأسطورة. ففي الوقت الذي تسخر فيه بعض المتون من المبالغات التي دأبت الصحف الأمريكية على نشرها (مثل تضخيم تعداد جيش الحملة من رقم فعلي بائس إلى رقم فلكي يتجاوز ستة آلاف جندي)، أخذت متون أخرى على عاتقها سرد تفاصيل الرحلة مشحونة بأجناس المفارقات والمغامرات والمخاطرات وحتّى البطولات وذلك لاستكمال شروط تستدعيها الأسطورة، بل وتستوجبها روح الشِّعْر المهيمنة في كلّ طبيعة صحراوية. فإذا عنَّ للمشاهد تأمّل الخيبات التي عانت من ويلاتها الحملة فلن يكمن السرّ في النشاز الذي حملته القافلة في جوفها كجرثومة ورم خبيث وحسب، ولكن في سبب آخر كان ورماً خبيثاً حقّاً لا في جسد حملة «إيتون» وحدها، ولكن في سليقة كلّ مسير جسيم، ألاَ وهو: الإحساس بوجود خطّ الرجعة! فهذا الإحساس اللئيم بوجود البديل (حتّى لو كان وسواساً موهوماً) هو فأل هزيمة محقّقة؛ لأنه عمل لا يختلف عن اقتناء أرض في الارياف لاستزراعها

مع الاحتفاظ ببيت بديل في المدينة، أي مع وجود فرصة للفرار من المواجهة. وكلّ فوز يشترط الاستماتة في المواجهة حتّى لو كان فلاحة أرض كانت لأعوام يباباً! وهاهم ضعاف نفوس الحملة يتصيّدون الحُجّة تلو الحُجّة للعودة في كلّ مرّة إلى الوراء! إلى مصر! وهو خذلان مخجل لم يقتصر على ملل الدهماء، ولكنه كثيراً ما طال أصحاب الشأن أنفسهم. وكان على قائد الحملة «إيتون» أن يبذل في كلّ مرّة جهداً بطوليّاً في سبيل إقناع باشا طرابلس المنتظر بالسير إلى الأمام لم يكن ليقلّ أبداً عن جهوده البطولية الأخرى كمهندس للحملة وملهمها الأوّل منذ كانت فكرة سخر منها العسكر، واستفزّت الأفاعي في محفل الدبلوماسية المسمّى وزارة الخارجية، إلى أن أمست واقعاً فعليّاً قريب المنال.

ففي كلّ مرّة يتسلّل فيها الشكّ إلى قلب أحمد بك، كان «إيتون» يهرع لنجدته بوصايا تصلح لشدّ أزر الصغار أكثر من صلاحيّتها لقهر ضعف العقلاء مثل: «إيّاك أن تفكّر في وجود مأوى لك هناك، في الصعيد! تذكّر دوماً أنّك في هذه الصحراء عابر سبيل؛ وعابر السبيل لن يكتب له أن ينجو من الهلاك عطشاً فيما لو فكّر في وجود البئر التي خلفّها في الوراء! ثمّ.. ثمّ ماذا تركت خلفك حتّى تتشبّث به وتراه قشّة غريق؟

الهزيمة؟ أم أوهام الألفي؟ أم القوارير؟ في الصعيد لا ينتظرك إلاّ عارك!». ولم يكن «إيتون» ليستمرئ قراءة مثل هذه المزامير في أذن صديقه الشقيّ لو لم يجد روح الطفولة في شخص ذلك الرجل النبيل الذي ابتلته الأقدار بسلسلة نكبات تكفي لنفي قدّيس عن هويّته؛ وربّما لعبت النكبات بالذّات دوراً في تحريره من رذائل أهل السلطان لتصير له البراءة ديناً. لتصير له السذاجة هويّةً. وكم كان الرجل سيبدو جذّاباً بهذه السجيّة لو لم تخالطها خصال معيبة كالتردّد في اتخاذ القرار، أو سوداوية المزاج، أو نوبات الغضب المباغتة، وحتّى الاستهتار بالمسؤولية. وكم عانى «إيتون» كي يكبح في الرجل مثل هذه الصرعات! وهاهو يعترف تالياً للمخلوق القادم من «تيرول» بفضل العون لا في الاحتيال على أحمد بك في مواصلة الرحلة وحسب، ولكن في ردع زمرة البدو أيضاً. ففي اليوم الذي بلغت فيه القافلة تخوم طبرق، وظنّ «إيتون» أن من حقّه أن يتنفّس الصعداء لأنها يقيناً نقطة اللاعودة، فوجئ الجميع بصاحب البعائر وهو يهدّد بالعودة من حيث أتى إذا لم تُدفع له أجور دوابه المستحقّة كاملة! كان هذا الوعيد هو العاشر في حساب العدد منذ انطلقت القافلة، وكان «إيتون» يفلح في كلّ مرّة في تدبير بضعة دولارات على سبيل الاقتراض من أفراد الحملة

بعدما خذله «بارون» الذي دأب على إرسال الرسل إليه مراراً دون أن يدعم موقفه بسنت واحد! وهاهو الوغد الآخر، صاحب الجمال، ينتهز فرصة استبشارهم بالوصول ليبدأ ابتزازه من جديد. حاول «إيتون» أن يقنعه بالانتظار حتى الوصول إلى البحر حيث تنتظرهم السفن المكلّفة بدعم الحملة، ولكن الرجل استكبر. تدخّل أحمد بك أيضاً، ولكن انضمام عدد كبير من مرافقي الحملة إلى البدوي النّهم زاد الأمر تعقيداً. بدأ التلاسن، بل والتنابز بالألقاب، وتهيّأ كل طرف للدفاع عن النفس: اصطّف النصارى في جانب، واتّخذ الأعراب وضع التأهب بعد أن استجاروا بأسلحتهم. طاف أحمد بك الفريقين كالأبله، ولكن لم يعره أحد اهتماماً. بلغ التوتّر الذروة عندما تصدّى «بروداسيو التيرولي» لأكثر الأعراب عدواناً فاحتكم الأخير لمسدّسه: صوّب الفوهة نحو صدر الخصم وانتظر. انتظر على أمل أن تحدث معجزة تنقذه من ارتكاب جرم سيكلّفه الحياة ثمناً؛ ولكن لم يتطوّع آحد لإنقاذ الموقف. كان سليل تيرول يفترس البدويّ بنظرة تحدٍّ بصدرٍ عارٍ وكفّ خاوية. وعندما لاحظ تردّد الخصم قرّر لأمرٍ مّا أن يمضي في الاستفزاز شوطاً أبعد. أمر:

– اضغط!

استحال الخصم كتلة مشدودة من الأعصاب، والغضب، و..الجنون. ولكنه برغم ذلك لم يضغط. تقدّم بعدها سليل تيرول خطوة إلى الأمـام، بل خطوتين، ولم يتوقّف إلاّ في اللحظة التي أحسّ فيها الفوهة تلامس صدره. زأر وهو يفترس الرجل بحدقتين مجنونتين:

– لن تعبر إلى الوراء إلاّ على جثّتي!

سأل الرجل:

– هل هو رهان؟

أجاب التيرولي:

– فليكن رهاناً!

قفز بينهما «إيتون» فجأة، ولكن صاحب حزمة الألقاب أزاحه بحركة من يده قبل أن يصيح في الخصم بإهانة لا تُغتفر في عرف البدو:

– اطلق إذا كنت حقّاً رجلاً؟

لم يحتمل الرجل. ضغط على الزناد. ضغط مرتين. ضغط ثلاثاً، ولكن الرصاصة لم تنطلق. كان يرتجف من فرط الغضب، في حين هلّل النصارى، وكبّر المسلمون. تقدّم «إيتون» وانتزع المسدّس من كفّ الرجل. تعلّقت به الأبصار وهو يستخرج الرصاص من جوف المخزن..

قبل أن تواصل القافلة رحلتها تقدّم البدويّ من سليل تيرول طلباً للغفران!

أمّا جنرال الحملة «إيتون» فحام حول رئيس أركان جيشه المزعوم طوال المسافة التالية لينتهز أوّل فرصة فيهمس في أذنه بكلمة واحدة:

– ميفستوفلس!

استجاب لها «بروداسيو» بضحكة خبيثة، فأضاف «إيتون»:

– إنه الاسم الحقيقي من بين أسمائك الكثيرة الذي أخفيته عن الجميع، ولكنّك لن تستطيع أن تخفيه عنّي!

٦٩- الطّيف

السراي. أبريل. ١٨٠٥م

في البلاط اليوم علا هرج. بدأ الصخب في جناح الخدم. ثم فاض ليجتاز الممّرات الخلفية حتّى أفضى إلى أروقة القصر المدجّجة بالعسس. هناك حاول بعضهم اعتراض المارد، ولكنه أزاحهم من طريقه كأنّه يهشّ ذباباً ومضى ليعبر بخطوات واثقة نحو جناح الباشا. وروى أحد شهود العيان تالياً أن أحد هؤلاء الأحراس استلّ سيفه وحاول أن يسدّد طعنة للمارد الأهوج، ولكنه عثر في اللحظة التي لامس فيها النصل جسد الرجل فسقط أرضاً. أمّا أحد زملائه الذي شاهد ما حدث فاحتكم لمسدّسه في الحال، ولكن لا الطلقة الأولى أفلحت في إصابة المارد، ولا الطلقة الثانية. أمّا الطلقة الثالثة فلم تنطلق، لأن الرجل كان قد أدرك الحارس لينتزع السلاح المميت من يده ويرمي به بعيداً كأنّه قطعة خشب وليس آلة حربية. بذل الحارس جهداً أخيراً في أداء الواجب باعتراض المارد بجمع بدنه، ولكن الإعصار المجهول طوّح به بعيداً كأنه قشّة. اقتحم الرجل الباب على الباشا بعد أن حطّم في طريقه أبواباً كثيرة. انتصب في قلب الدار في اللحظة التي كان فيها الباشا يستيقظ من غفوة القيلولة ويستعد لقرع الناقوس لاستدعاء الخدم.

توضّح الشبح بعينين مغلولتين بإغفاءة القيلولة ثمّ عاد فأغمضهما. فرّك عينيه بعصبية كأنه يطرد كابوساً قبل أن يغمغم:

– ماذا يحدث؟

عاد يتبيّن الصنم المنتصب فوق رأسه قبل أن يسأل:

– من أنت عليك اللعنة؟

في تلك اللحظة اقتحمت المكان ثلّة من الخدم المدعومة بعدد من الأحراس. هرع أحدهم ليهمس في أذن الباشا بعبارة. اعتدل الباشا فوق الفراش وهمهم:

– هل هذا أنت يا «طيف النحلة»؟

لم يجب الجلمود النحيل المنتصب في قلب المخدع. تطلّع إليه الباشا لحظات ثمّ طرد زحام الخلق بإشارة من يده. انسحب العسس، ولكن أحد الحجّاب لم يمتثل فانتهره الباشا بنظرة صارمة فاختفى في غمضة. خيّم صمت قبل أن يسأل الباشا:

– هل أصاب «طيف النحلة» اليوم سوء؟

كان المخلوق النحيل الذي انقلب مارداً فجأة يواجه الباشا في وقفته، ولكنه لا يرى الباشا. كان يتطّلع إلى نقطة مجهولة تقع فوق رأس الباشا. في مقلتيه فراغ وهو يحدّق في الفراغ عندما لاحظ الباشا:

– لا أظنّك توقفتَ اليوم عن المضغ إلاّ لأمرٍ جلل، فهل نفد المخزون من عشبة الأسحار؟

لحظتها نطق الهندي الأحمر لأوّل مرّة:

– أردت أن ألقي على «قنّاص السراب الكبير» آخر تحية قبل الوداع!

هتف الباشا متعجّباً:

– تحيّة الوداع؟

أجاب «طيف النحلة» وهو مازال يجوس في غيوب الفراغ:

– قررت أن أذهب لأن روح الميسيسيبّي تنادي!

– روح الميسيسيبيّ؟

– إيهامهي!

ابتسم الباشا وهو يستعيد روح السخرية:

– أه!

ثم أضاف:

– وهل هذه حُجّة كافية لتبرير تحطيم الأبواب واقتحام الخلوات؟

– لقد طلبت الإذن بالدخول على «قنّاص السراب الكبير»، ولكن الأرواح الشريرة منعتني!

– هل قلت الأرواح الشريرة؟

– أيقنت أن وجود هذا العدد الهائل من أرواح الشرّ هو السبب الذي جعل من سيّد هذا البيت قنّاصاً للسراب!

تأمّله الباشا بفضول. تلاشت سيماء الاستخفاف من وجهه عندما تمتم:

– أرجو ألاّ يكون هذا هو التأويل المفقود لوصيّة الاسم!

ولكن «طيف النحلة» تجاهل الاستفهام ليقول:

– قررت أن أعود إلى النّهر، لأن الإنسان لابدّ أن يعود يوماً إلى النهر!

عاد إيماء الاستخفاف يطفو على وجه الباشا:

– ولكن كيف ستعود إلى النهر دون فِدْيَة؟

ابتسم ثم أضاف:

– هل نسيت أنّك أسيري؟

هتف الهندي الأحمر من دنيا غيوبه:

– لم أكن يوماً أسيراً عند أحد، ولن أكون أيضاً!

– ماذا ستفعل عندما سآمر بتصفيدك في الحديد ورميك في ظلمات القبو؟

– يستطيع «قنّاص السراب الكبير» أن يعتقل البيت الذي يسكنه الطيف، ولكن هيهات أن يمتلك القدرة على حبس الطيف؟

حدّق فيه الباشا طويلاً. هتمل غائباً:

– الطيف!

ردّد الكلمة مراراً قبل أن يسأل ساهماً:

– بأية حيلة تنوي تحرير الطيف من القمقم عندئذٍ؟

أجاب «طيف النحلة»:

– تحرير الطيف من بيت الطيف هو الخصلة الوحيدة التي ميّز بها النهر روح النّهر عن أسماك النهر!

همد الباشا في جلسته متأمّلاً. تمتم وهو مازال غائباً:

– هل هذه أحجية أخرى للتعبير عن إرادة الموت في لغتكم؟

لم ينتظر جواباً فأردف بنبرة أَسَى:

– سيحزنني أن يخلو وكر الأرواح الشريرة هذا من الطيف، لأنك كنت لي العزاء الوحيد طوال هذا الوقت!

مدّ يداً راجفة ليقرع الجرس. هرع الخدم. أمر الباشا:

– هَيِّئُوا قارباً لحمل «طيف النحلة» إلى الأسطول في عرض البحر!

وضع الرجل كفّه النحيلة على صدره، ثمّ انحنى إلى الأمام، انحنى في حضرة الباشا لأوّل مرّة فلم يعرف الباشا عمّا إذا كانت الانحناءة تعبيراً عن الامتنان جراء الاستجابة، أم هي تحيّة وداع. هتف:

– مهلاً! مهلاً!

فتح دولاباً يجاور مسند المخدع. عبث في الجوف لحظات قبل أن يستخرج خاتماً مرّصعاً بفصّ كبير من جوهر وعدداً من العملات الذهبية. تناول الخاتم بيدٍ والعملات الذهبية في الكفّ الأخرى. قال وهو يشير إلى الخاتم:

– أريدك أن تضع في إصبعك هذا الخاتم كي تذكرني به هناك على ضفاف النّهر لئلاّ تنسى أن لك صديقاً خلّفته فيما وراء البحر!

ثم هزّ كفّه الأخرى التي تقبض على حفنة القطع الذهبية قبل أن يضيف:

– أمّا هذه فستستعين بها على السبيل.

ولكن سليل النهر لم يُبدِ حماساً لاستلام العطيّة فتساءل الباشا:

– هل ارتكبت خطأ دون أن أدري؟

استقام «طيف النحلة» بقامته ليستحيل في استكباره ووجومه وغيابه جلموداً من جديد. قال:

– قبول الهدايا في عرفنا إثم لن يغفره «إيهامهي»، فليعذرني «قنّاص السراب الكبير»، وليطمئن إلى أن الذكرى لن ينقذها الذهب من النسيان إذا لم تذهب غنيمةً في القلب!

توجّع الباشا بآهة فأضاف الرجل:

– هذا ما ورثناه في وصايا «بوبول فوه»!

تمتم الباشا ذاهلاً:

– بوبول..

استعصى الاسم على نطق الباشا فأنجده الهندي الأحمر:

– بوبول فوه كتابنا المقدّس!

تعجّب الباشا:

– هل تملكون كتاباً مقدّساً أيضاً؟

– كلّ الناس يملكون كتاباً مقدّساً. الناس لن يكونوا أناساً إن لم يملكوا كتاباً مقدّساً!

– لماذا ينكركم النصارى، إذاً، ويشيعوا في كلّ الدنيا أنكم عبدة أوثان، وأنّهم الملّة الوحيدة التي تملك كتاباً مقدّساً؟

كزّ على أسنانه ليضيف حانقاً:

– اللعنة على النصارى!

ألقى الخاتم والقطع الذهبية فوق الخزنة التي تجاور السرير ثم همهم غائباً:

– كم أحسد أناساً يحيون حياة لا يتعاطى فيها الناس هدايا!

قال «طيف النحلة»:

– قيل لي إن في صحاريكم تحيا قبائل تعتنق يقيناً لا يختلف عن يقيننا في أعالي النهر الكبير.

تطلّع إليه الباشا كأنه استيقظ للتوّ من حلم. عقّب:

– تلك قبائل لم أملك عليها سلطاناً بعد لحسن حظّها، وآمل ألاّ يأتي اليوم الذي ستسمح به الأقدار بدخولها إلى حظيرة هذه المملكة الملعونة!

أشاح بوجهه جانباً قبل أن يلفظ من فمه كلمة الوداع.

٧٠- الرأس

خاطب «إيتون» مساعده «أوبانون» ما أن اعتلى هامة الجبل الأخضر الذي تتسلّق «درنة» خاصرته المشرفة على البحر:

- هذه هي الكعبة التي تسابق أئمّة الحكمة في العالم القديم ليحجّوا إلى أراضيها!

سحب أنفاساً نقيّة سخيّة وهو يسرح ببصره ليتأمّل كيف تتلّهف المدينة لملاقاة بحر ليبيا الذي لم يشهد لزرقته عمقاً، ولا لسحره مثيلاً، كأن هذه المدينة لم تخلق إلاّ لتتعشّق البحر، والبحر لم يُخلق إلاّ ليتعشّق المدينة: كثيرة هي المدن التي تنتصب فوق حضيض البحر، قليلة هي المدن التي تتعشّق البحر، ويتعشّقها البحر. أضاف:

- هذا الشّعر الخفيّ سبب كافٍ لتسابق أهل الحكمة اليونان لارتياد أرضها وإقامة مدنهم العريقة في رحابها.

علّق «أوبانون»:

- إنه ليس الجبل الأخضر فقط، ولكنه جبل ليبيا الأخصب!

ردّد «إيتون» وصية الأجيال كأنه يقرأ في كتاب:

- سوف يعضّ بنانَ الندم، كلُّ من لم يهرع لنيل نصيب من الأرض الليبيّة السخيّة، في موسم توزيع الأراضي!

التقط نفساً. سأل:

– هل تذكر هذه النبوءة التي صارت سبباً لإعادة اليونانيين الأوائل إلى رحاب ليبيا بعد فرارهم منها يوماً؟

– بالطبع! النبوءة الليبيّة الأقدم عهداً التي استعارتها عرّافة معبد دلفى!

مضى «إيتون» يتلذّذ بالمشهد. قال:

– ولكنّي لا أصدّق أن تكون خصوبة الأرض هي السبب الوحيد الذي جذب الأجيال تلو الأجيال للحجّ إلى ربوع هذا الوطن، والدليل أنّها ركن الدنيا الوحيد الذي استطاع أن يُنسي الشقيّ «أوليس» وطنه «إيتاكا»!

طاف «أوبانون» الأنحاء المكسوّة بالستور الخضراء الممتّدة حتّى تغترب في هاوية المياه الزرقاء. اقترح:

– هل يسمح سيّدي الجنرال أن يقبل منّي تفسيراً؟

لم يستجب الجنرال فأضاف المرؤوس:

– من هذه الأرض تفوح رائحة غيبيّة!

– رائحة غيبيّة؟

سكت «أوبانون » طاف المشهد. غاب لحظات. عاد:

– هل نستطيع أن نسمّي هذه الرائحة «روح التكوين» على سبيل المثال؟

ردّد «إيتون» غائباً:

– روح التكوين..

هزّ رأسه مراراً كأنه يستجيب لنداء مجهول، أو لإيقاع لحون، قبل أن يهلّل:

– روح التكوين! هذا يروق لي..

سكت. تغنّى:

– هذا تعبير جدير بأن يفوز بلقب: اكتشاف!

تطلّع إلى مرؤوسه بإعجاب طفولي، ثم استخرج من جيبه قرطاساً أصفر اللون فتح طيّاته قائلاً:

– لا أستطيع أن أجاري فروسيّتك في تطويع العبارة، ولذلك شئت أن أستشيرك في بضعة سطور كتبتها في خلوة البارحة، رأيت أن أبعث بها إلى والي درنة «مصطفى بك»!

انكبّ الرجلان فوق القرطاس فقرأ «إيتون»:

– «سيّدي! لم آتِ إلى هذه الديار غازياً، ولكنّي جئت عابراً. فإذا قضى تسامحكم على الإذن لنا بالتزوّد بحاجاتنا من الأغذية والمؤن فسوف نجزل لكم دفع الثمن. آمل أيضاً ألاّ يدفعكم اختلاف الدين إلى سفك دماء رجال لا يكنّون لكم حقداً لإيمانهم بأنّهم لا يعبدون وإيّاكم إلاّ الربّ الواحد الأحد، وما اختلاف الديانة سوى اختلاف في الطريقة المؤدية إلى المعبود، لا الاختلاف في وحدانية المعبود. وقد وعدني «أحمد

باشا» بإبقائكم في منصبكم حال استعادته عرشه المغتصب في الحاضرة. والسلام!».

انتهى «إيتون» من القراءة فتبادلا نظرة. ابتسم «أوبانون» فسأل «إيتون»:

– لو كنتَ في مكان هذا الرجل فهل تقبل؟

تردّد «أوبانون» لحظات قبل أن يجيب:

– يجب ألاّ ننسى أن الرجل زوج شقيقة الباشا يوسف!

حدّق «إيتون» في وجه مرؤوسه بإمعان قبل أن يستفهم:

– ماذا يمكن أن يعني هذا؟

– أعني أن مصيره مشدود إلى مصير يوسف باشا بحبل وثيق!

حاجج «إيتون»:

– إذا كان يريد الأمان فقد وهبته الأمان، وإذا أراد المنصب فقد وعدناه بالاحتفاظ بالمنصب!

شكّك «أوبانون»:

– المشكلة ليست في إقناعه بالحصول على الأمان أو على المنصب، ولكن في إقناعه بصدق نوايانا!

احتّج «إيتون»:

– هل في هذه الصيغة ما يمكن أن يستثير الشكوك؟

غمغم «أوبانون» حائراً:

– لا أدري!

عادا بعدها إلى المعسكر. هناك سلّم الجنرالُ المكتوبَ إلى أحد البدو وبعث به رسولاً إلى أسوار المدينة، فلم يتأخّر الجواب: عاد الرسول بالمكتوب نفسه ممهوراً بعبارة واحدة مكتوبة بيد «مصطفى بك» تقول: «رأسي، أو رأسك!».

٧١- الأسود

درنة. ٢٨ أبريل. ١٨٠٥م

بدأ القصف الساعة الثانية بعد الظهر.

لفظت السفن قنابلها في إيقاعٍ متتابع كأنّها تروّض لحن شجنٍ، لا معزوفة هلاك: قذفت «هورنت» أوّلاً، ثمّ تلتها «ناوتيلوس»، ثمّ «آرغوس» كأنّ ربابنة السفن الثلاث قرّروا أن ينصّبوا أنفسهم قادة في فرقة موسيقيّة فتعمّدوا الابتداء من النغمة الدنيا في سلّم السيمفونية بقذائف «هورنت» ذات العشرة مدافع، ثمّ «ناوتيلوس» ذات الإثني عشر مدفعاً، ثم «آرغوس» ذات الستة عشر مدفعاً، فتعلو النبرة الصوتية في كل مرّة درجة أشدّ وقعاً كما يملي قانون «الليجرو» في كلّ سيمفونية كلاسيكية. على الساحل زغردت بطاريات الدفاع في القلعة أيضاً. ولكن حنجرة حسناء الساحل لم تصمد في وجه عنف «الليجرو» طويلاً، فما لبثت أن لاذت بالصمت. لم يجد بعدها المريدون سوى الفرار والانضمام إلى الجيش الذي تولّى الدفاع عن المدينة. وتقول تقارير البحّارة الذين شاركوا في الحملة إن انضمام هؤلاء إلى جيش الدفاع ألحق بجيش الحملة خسائر رهيبة: لقد كانوا نخبة في جيش «بك درنة» ودهاة لا يجارون في فنون القنص. وهاهم يصيبون الجندي

الذي يقف وراء المدفع الوحيد في جيش الحملة كلّها، فأصيب الهجوم بالشلل، تضعضع الصفّ الأمامي وبدأ يتراجع. سقط بعض الجنود، وتفرّق البعض الآخر، في حين ظلّ أشقياء القنّاصة يصلون الصف الثاني بنيران حامية متخذين من جذوع النخيل في السهل متاريس منيعة. لحظتها أدرك «إيتون» بحدس اليائس، لا بموهبة الجنرال، أن الانسحاب سيكون بمثابة النهاية للحملة كلّها فقرّر أن يستجير بالجنون كقارب نجاة وحيد برغم يقينه بأنه مميت.

انتصب ليأمر بأعلى صوت:

– درنة أو الموت! هجوم!

وصف «إيتون» جنونه تالياً بالقول: «كنّا أسوداً تخطو نحو أفواه الأسود: أسد منّا، وعشرة أسود في الجبهة المقابلة. ولكن الإحساس باللاّمفرّ هو ما كسر صمود جيش الخصم»!

فرّ «مصطفى بك» ليستجير بالجامع الكبير، ولكن مقامه هناك لم يدم طويلاً، لأنه لم يكن ليطمئن لحمى بيوت اللّه المهدّدة من قبل أناس نصارى لا يؤمنون في يقينه بوجود اللّه، فالتجأ إلى المكان الوحيد الآمن ألا وهو: الحريم!

اندسّ «مصطفى بك» في حريم أحد أعيان المدينة لأنه تذكّر أنه المكان الوحيد الذي أجار عدوّه اللدود «أحمد بك» يوم نزعه من بكوية درنة بأمر من يوسف باشا منذ أعوام. ولكن

«إيتون» الذي رأى في خصمه صيداً سميناً كفيلاً بافتداء القبطان «بينبريدج» فيما لو أمسك به أسيراً، احتال عليه للخروج من ذلك الحرم مراراً، ولكن بلا جدوى. لقد كان الوغد داهية حقيقية لأنه كان يفطن للفخّ في كلّ مرّة. في النهاية قرّر «إيتون» الضرب بالتقاليد عرض الحائط واقتحام حرم الحريم. ولكن ربّ الحريم وقف في وجه «أحمد بك» بحضور «إيتون» ليقول:

– يحزنني أن تفعل بالرجل اليوم ما لم يفعله بك بالأمس إكباراً للحرم!

طأطأ «أحمد بك» يومها، ثم اختلس نحو «إيتون» نظرة كأنه يستنجد به قبل أن يقول:

– لست أنا من يريد أن يثأر منه اليوم كما ترى.

استنكر الرجل:

– ماذا؟ هل تنازلت للنصارى عن دينك أيضاً مقابل أن يُعيدوك للعرش؟

حدجه «أحمد بك» بحزن قبل أن يترافع:

– تعلم أنّي أكثر الناس زهداً في استعادة العرش، ولكن..

سكت. طأطأ. أضاف:

– ولكن استعادة العائلة الرهينة بين يدي الطاغية واجب ظننت أنّك أوّل من يهبّ لعوني حتّى لو لم أطلب العون، فكيف

إذا طلبت ذلك؟

حدّق الرجل في عيني «أحمد بك» ثمّ:

- ماذا تريد أن تقول؟

- أردت أن أقول إن من حقّي أن أفتدي صغاراً لا ذنب لهم مقابل وغد محشوّ بذنوب الدنيا حشواً!

هزّ ذلك الشيخ الوقور (الذي لم تذكر المصادر التاريخية عن هويّته شيئاً) رأسه مراراً قبل أن يستنكر:

- هل تريد أن تشتري شرف عائلتك بشرف عائلتي؟

فزع «أحمد بك».

- استغفر اللّه!

- هل تريد أن تلوّث سمعتي بانتشال أسير استجار بالحريم نفسه الذي أجارك بالأمس من الأسير ذاته؟

لوّح في وجه الأمير بعكّازه الباذخ، المطعّم بعروق الفضّة، ثمّ أضاف:

- تستطيع أن تقتحم باب الحريم إذا كنت تريد أن ينقلب عليك رجالك أنفسهم قبل أن ينقلب ضدّك أهالي المدينة التي جئت تحكمها!

بعد يومين فرّ «مصطفى بك» من ديار الحريم ليلتحق بجيش حسن بك (مملوك يوسف باشا) الذي وصل «درنة» وعسكر على مشارف المدينة.

٧٢- القذيفة

كان من حقّ جنرال الحملة أن يجزم بقدرة قذيفة أن تغيّر مجرى حرب، وأن تغيّر مجرى تاريخ أمّـة، وربّما تاريخ البشرية، مادامت قد استطاعت في ذلك اليوم من شهر مايو من عام ١٨٠٥م أن تغيّر مجرى معركته الأولـى مع جيش حسن بك في اللحظة التي أيقن فيها بالهزيمة. فقد شاهد من عدسة منظاره السحرية كيف تدفّق أولئك الرجال العتاة (الذين انتقاهم حسن بك من فرسان القبائل في طريقه من طرابلس إلى درنة) ليتلبّسوا ضفتي الوادي كأنهم أسراب جراد. دحروا أوّل مواقع جيش «أحمد بك» ، بل جرفوه كسيل عرمرم، ليقتحموا المدينة. تصدّت لهم فرق من جيش أحمد كانت تحتمي بزوايا الأزقّة وأركان الأبنية، ولكنّهم احتلّوا الشوارع وبلغوا ساحة السوق. أضحوا على بعد أمتار فقط من القصر العتيد الذي كان دوماً هدفاً لكل قتال ينشب في هذه البقاع، لأنه كان المأوى الذي يستجير به الحكّام ليمسي اليوم مقاماً لـ «أحمد بك» أيضاً. أدركوا في هجومهم الفِنَاء المواجه للقصر برغم تطوّع الأهالي للمقاومة، وقيام السكان بإطلاق الرصاص على الجنود من شرفات البيوت، أو لجوء النساء لدلق الماء المغلي فوق رؤوسهم من سطوح المنازل. لحظتها انفجرت في قلب

الجمع الذي أحاط بالقصر قذيفة المجهول. انفجرت على بُعد خطوة من مدخل القصر، فتطايرت أجساد القتلى، وانصرم حبل الصفوف. بعدها تزعزع الفرسان وتناثروا. بدأوا التراجع فحمل على الجنود أنصار «أحمد بك». انسحبوا من المدينة في اللحظة التي صار فيها النصر في متناول اليد. والنصر إذا تبخّر بعد أن صار في متناول اليد فعسير، وربّما يستحيل، أن يُنال مرّة أخرى؛ كأنّه تلك الفرصة التي تمنحها الحياة لكلّ سليل حياة مرّة واحدة، فإذا أفلتها فلا تُستعاد إلاّ بأعجوبة!
وهذا ما حدث مع جيش مملوك الباشا حسن بك يومها أيضاً. لقد حاول أن يستعيد كنزه الضائع مراراً بعدها، ولكن المعارك التالية برهنت على سجيّة الحرب ككرّ وفرّ، ولكن الغلبة تبدّت بعيدة المنال. حاول ذلك الرجل العنيد الذي أثار إعجاب «إيتون» وغضب «أحمد بك»، أن يسترجع غلبته المفقودة، وعندما تخلّى عنه الحظّ قرّر أن يلتجئ إلى الحيلة: أعلن عن مكافأة فلكيّة قدرها ستة آلاف دولار لمن يتمكّن من اغتيال «إيتون» وعندما يئس عاد فأعلن عن مكافأة خرافية أخرى قدرها ضعف المكافأة الأولى لمن يتمكّن من أن يأتي به حيّاً. ولكن بلا جدوى. بعد أيام قرّر أن يستبدل الحيلة بالغدر فدسّ للعدوّ جارية حسناء في محاولة لقتله بالسمّ. ولكن يقظة

الداهية «إيتون» أفشلت هذه المحاولة أيضاً. بعدها لم يجد مفرّاً من العودة إلى الساحة مستخدماً جلائب الإبل كمتاريس متحركة للوقاية من قذائف النصارى الشيطانية. ولكن أصحاب القطعان بدأوا ينسلّون من ساحة المعركة الواحد تلو الآخر ساحبين أنعامهم التي بدأت تتساقط بشظايا قنابل السفن المرابطة على الساحل، فأمر بالانسحاب. انسحب، ولكنه بدأ حصاراً محكماً على المدينة استمّر طوال شهر مايو من ذلك العام برغم تسلّل اليأس إلى الجنود فبدأوا يفرّون من المعسكر. وهاهو ساعده الأيمن نفسه الذي أوردته المصادر التاريخية باسم «الحاج اسماعيل» يفرّ إلى مصر أيضاً حاملاً معه خزنة أموال الحملة كلّها. ولكن الجنّي حسن لم يبالِ، وهاهو يعاود الكرّة في العاشر من شهر يونيو ممّا حدا بـ «إيتون» أن يذهب ليهمس في أذن «أحمد بك» بالقول: «لو سَبَقَنَا هذا الممسوس إلى المدينة بيوم واحد لما استطعنا أن نحلم بدخولها إلى الأبد!».

٧٣- الوزر

تلقّى «حسن بك» من يوسف باشا مدداً سخيّاً في اليوم ذاته الذي تلقّى فيه «إيتون» من قائد الأسطول «بارون» رسالة بدل المدد المأمول. في اليوم التالي زحف الجنّي حسن على المدينة واشتبك مع جيش «أحمد بك» في معركة الحياة أو الموت، في حين قام «إيتون» بحشر جنود البحرية في حصن البطارية المشيّد على الشطّ واعتلى البنيان ليشاهد، برفقة ساعده الأيمن «أوبانون»، سير المعركة من عدسة ماسورة المنظار السحري. ظلّ في ذلك اليوم يلصق عينه بعين العدسة الماكرة مسدّداً الفوهة نحو السهل في الأسفل كأنه ينوي قصف الجيش المعادي بقذيفة من تلك العين! كان يهتف بين الحين والآخر بعبارات مثل: «رائع!» ليكرّرها مراراً، أو عبارة: «احترس!» ليكرّرها أيضاً. كان يبارك حيناً، ويحذّر حيناً بقامة مزمومة تستجيب لحال الكرّ أو الفرّ بين الجيشين، فيتلوّى أو يتراجع خطوات، أو ينحني بقامته إلى الأمام، كأنّه يشارك في نزال السلاح الأبيض الذي لم يكن ليقف فيه موقف المتفرّج المغلول اليدين لو لم يكن نزالاً بالسلاح الأبيض الذي يتداخل في معمعانه الجنود من الطرفين فيمنع استخدام سلاح البحرية المرابط على الساحل، أو بطاريات الحصن المشرف على



حضيض السهل كما استنتج ساعده الأيمن «أوبانون». وقد عبّر عن دهشته من بطولات «أحمد بك» مراراً. وكي يقيم الدليل لساعده الأيمن على القول مرّر له الماسورة السحرية مرّتين كي يقف على بطولة الرجل بنفسه قبل أن يخاطبه قائلاً:

– ألا ترى أنّنا ظلمنا الرجل؟

أجاب «أوبانون» وهو يتصيّد جواد «أحمد بك» في قلب جيش العدوّ:

– لسنا نحن من ظلم الرجل، ولكن داء الإنسانية القديم هو الذي ظلم الرجل: الشائعة!

– الشائعة؟

– الشائعة التي أطلقها الباشا فصدّقها «بينبريدج» الذي روّج لها في تقاريره السريّة إلى قادة الأسطول الذين تولوّا بدورهم إقناع سلطات الولايات بها!

حدجه «إيتون» بنظرة لوم قبل أن يقول:

– وأقنعوك بها أيضاً ضمن من أقنعوا!

أجاب «أوبانون» وهو ما زال يراقب من الماسورة صولات «أحمد بك» في قلب المعمعة:

– أعترف بأنهم أقنعوني بها أيضاً، وقد احتفظت بهذه القناعة إلى الأمس القريب لسببٍ بسيط هو أن «أحمد بك» لم يفعل ما

من شأنه أن يبرهن على بطلان هذه القناعة!

توجّع «إيتون»:

– اللعنة على دنيا تنصّب الأكذوبة حَكَمَاً يقضي بإدانة الأبرياء قبل أن تثبت إدانتهم فتجني عليهم إلى الأبد!

قال «أوبانون» وهو يتابع قتال السهل من علياء الحصن بإمعان:

– بلى! تستطيع أن تقول إن الشائعة جَنَت على حياة هذا الشقيّ وألصقت به البلاهة والجبن والعبث لا لشيء إلاّ لطبيعته المسالمة المعادية للعنف المناقضة لطبيعة شقيقه يوسف!

– قارن موقعه اليوم وهو يشقّ الطريق لجنوده بسيفه في دغل جيش يفوقه عدداً، مع موقع شقيقه يوسف يوم قصف «بريبل» المدينة بالقنابل!

زفر باستخفاف قبل أن يضيف:

– لقد اختبأ الدّعيّ في قبو البنيان محتمياً بتلابيب نساء الحريم كأنه الفأر!

ابتسم «أوبانون»:

– وبرغم ذلك فإن يوسف هو من يملك الحقّ في إطلاق الأحكام التي تتحوّل شائعات قاتلة ونافذة المفعول فتحيي من تريد أن تحيي وتميت من تريد أن تميت لا لشيء إلاّ لأنه باشا؛ وكلمة

الباشا فرمان يجد آذاناً صاغية حتّى في محافل الأعداء!

أزاح «أوبانون» الماسورة جانباً بحركة مفاجئة ليواجه رئيسه بسؤال:

– ولكن لماذا بحقّ يسوع لا تأذن لنا بالاشتراك في القتال؟

تململ «إيتون» في وقفته قبل أن يجيب:

– يجب ألاّ ننسى أننا جند في البحرية الأمريكية، واشتراكنا..

قاطعه «أوبانون»:

– إذا كان سيّدي يمنعنا من شدّ أزر هذا الإنسان البائس الذي فعلنا المستحيل كي نأتي به من صعيد مصر، احتراماً لمشاعر الأهالي فهو مبرّر باطل، لأن.. لأنّ الأهالي هم من قدّم بالأمس الدليل على امتنانهم لعملنا عندما هتفوا بحياتنا في الشوارع، بل ووصفونا بـ «المخلّصين من جور الطاغية يوسف باشا!»، فما مبرّر الامتناع؟

سكت فتبادل مع «إيتون» نظرة طويلة، مشحونة بالانفعال، ثمّ أضاف:

– أردت أن أقول إن عليك، ياسيّدي، أن تطلق أيادينا إذا كنت تنوي حقّاً أن نكسب هذه المعركة لأنّها رهاننا الوحيد الذي سيتوّج انطلاقتنا إلى طرابلس!

حدّق «إيتون» في عينيه طويلاً، ثمّ تنحّى جانباً. دبّ على

السطح الفسيح المدجّج بالمدافع المصوّبة نحو كلّ صوب. عاد أدراجه ليواجه المرؤوس:

– رسول «بارون»..

شيّع نحو الرجل نظرة ذات معنى، ولكن «أوبانون» لم يستجب فأوضح بسؤال:

– ألم تسأل نفسك عن سبب وصول رسول من قائد الأسطول بيدين خاويتين من الدعم المطلوب؟

هزّ «أوبانون» رأسه حائراً فأضاف «إيتون»:

– المفاوضات!

فزّت من مقلة «أوبانون» دهشة، ولكن «إيتون» فرّ ببصره بعيداً. فرّ أبعد من السهل، ومن السطح المؤدي إلى الجبل، بل وأبعد من الجبل، فرّ نحو الأفق الذي يعتلي الجبل، كأنه يستنجد بما وراء الأفق؛ يستنجد بالمجهول الذي يسكن السماء؛ بالمجهول الذي تخفيه السماء:

– بدأ المستر «لير» قنصلنا بمرّاكش المحادثات مع طرابلس بطلب من الباشا، وسلطاتنا تمنع التورّط في النزاع في اللحظة التي تبدأ فيها المباحثات حسب بنود الاتّفاق!

الدهشة في عيني «أوبانون» تحوّلت استنكاراً بالتدريج. غمغم بعسر:

– ما معنى هذا؟

هزّ «إيتون» منكبيه، ولكنه لم يعد من رحلته إلى ماوراء الآفاق عندما أجاب:

– هذا يعني أن العسكر شرعوا بقطف ثمار عملنا قبل أن ننهي مهمّتنا!

ساد صمت. حدّق «أوبانون» في وجه «إيتون» طويلاً قبل أن يحتجّ:

– إنّهم.. إنّهم يقطفون ثمار تضحياتنا، لا عملنا..

دبّ في المكان ليتحرّر من فورة الانفعال. قال وهو يقتفي أثر رئيسه كأنّه يؤدّي طقساً في مسرحية محاكاة. عاد على عقبيه فجأة ليواجه «إيتون»:

– ولكن ماذا بشأن وزرنا البائس؟

ابتسم «إيتون» بمرارة قبل أن يجيب:

– وزرنا الآن كلّه في هذا الوزر!

ألحّ المرؤوس:

– هل يعتقد سيّدي أن هذه هي كلمتهم الأخيرة؟

سكت ثم استدرك:

– أعني هل نقنع بِرهاننا على الجواد الخاسر؟

تكلّم «إيتون» بلهجة تفضح خيبة أمل:

– حدسي حدّثني بأنّهم لم يكلّفونا عناء هذه الحملة إلاّ كذريعة لاستئناف هذه المفاوضات، ولكنّي خنتُ حدسي فاقتصّ منّي حدسي!

سأل «أوبانون»:

– ولكن كيف ستزفّ هذه «البشرى» لصاحب الشأن؟

تردّد «إيتون». عاد يتطلّع إلى الأفق المزموم الذي يرسم برزخاً بين شعفة الجبل ورحاب السماء. أجاب:

– قول الحقيقة يستوجب أحياناً بطولة تفوق فِعْل البطولة!

٧٤- النّاووس

قبل أن تبدأ مفاوضات الصلح مع المندوب الأمريكي القنصل «لير» أمر الباشا بحشر الأسرى الأمريكيين في أقبية تحت بنيان السراي، موصولة بحجرات البلاط بمسارب لئيمة تتعرّج في الأسافل كمتاهة خرافية. عبر هذه الدروب تسلّل الباشا ليشرف بنفسه على تشييد خندق خفيّ لصيق من الخارج بدار مستطيلة تكوّن مركز الأقبية بتوسّطها للغرف الجانبية، فيبدو هذا القبر السرّي مثل ناووس يطلّ على السجن الرئيس (المتمثّل في قبو المركز) بفتحة سريّة يستطيع المخلوق المسجّى في الجوف أن يرصد من خلالها حركة السجناء، بل ويسمع لا أقوالهم فحسب، ولكن همساتهم أيضاً. في هذا الناووس الفظيع قضى يوسف باشا ثلاث ليالٍ متتالية ليتجسّس على الأسرى علّه يفلح في التقاط ما من شأنه أن يصلح للاستخدام كحجّة في المفاوضات بعد أن اكتشف بالمصادفة أخيراً بتحوّل القبطان «بينبريدج» إلى جاسوس حقيقي ظلّ يمدّ قادة الأسطول طوال الوقت بأخطر أسرار المملكة متخذاً من قنصل الدانمارك رسولاً!

استعان الباشا في تشييد هذا الشَّرَك بأحد دهاة فنّ المعمار الذي استقدمه من تونس خصيصاً لهذا الغرض، فأغدق عليه

ذهباً ما أن انتهى الرجل من عمله، برغم أن الأقدار لم تكتب له أن يستمتع بهذه العطيّة، لأن الباشا أرسل وراءه أحد القتلة الذين اعتاد أن يستأجرهم للتخلّص من الخصوم (كما فعل مع الشيخ أبي القاسم) ليخنق صاحب المعمار بحبلٍ فظيع مفتول من مسد قبل أن يجتاز الحدود عائداً إلى بلاده. وأُشيع بعد وقوع تلك الحادثة أن الباشا تخلّص يومها من الأجير أ يضاً بأن دسّ له سمّاً بيده في قطعة حلوى أثناء تناول الشقيّ بعض المرطبات مع الباشا احتفاءً بإنجازه عمله دون أن ينسى الباشا بالطبع أن يستعيد من جيوب أجيره القطع الذهبية التي وهبها لصاحب المعمار كأجر على عمله الخبيث تماماً كما فعل مرّة عندما كتم أنفاس الشيخ المغدور أبي القاسم! وقد لجأ الباشا إلى حيلة الناووس هذه بعد أن فشل في إجبار أعوانه على تسخير الجواسيس لتزويده بخفايا الأعداء ووساوس الأصدقاء، أو من يدّعون زوراً أنّهم أصدقاء كزعماء القبائل أو أعيان المدن أو رجال الحاشية أو حتّى نساء الحريم. وقد بلغ به الغضب مرّة حدّاً لطم فيه وجه «مليطان» بالمنسأة لإخفاقه في انتزاع ما يمكن أن يفيد في كشف نوايا أحد زعماء القبائل الذي رفع فيما بعد راية العصيان. ردّد في أذن الرجل يومها وهو يمسكها بأصابعه قائلاً: «الإنسان أيها البليد ما هو إلاّ لسان، ولا أحد يستطيع أن يكتشف ما يدور في قلب الإنسان

إذا لم يعرف ما يجري على لسان هذا الإنسان بعيداً عن آذان أخيه الإنسان كلحظات الاسترخاء في أحضان المحظية، أو لحظة الخلوة مع الحميم، أو لحظة النشوة مع النديم، اللّذَة هي الطريق إلى حقيقة الإنسان، والبوح لا يصدق إلاّ بالاطمئنان إلى الحرية، ولا حرية بالطبع في حضور وليّ أمرٍ صغير، فكيف بحضور وليّ أمر كيوسف باشا؟». وكان يروق له في مثل هذا الموقف أن يترنّم بتميمته القديمة التي اختلسها من شقيقه أحمد: «لا تثق بأحد!» ليضيف إليها ترنيمة اعتنقها أخيراً تقول: «حقّاً إذا لم تجتهد بنفسك فلن يجتهد بالإنابة عنك أحد! وإذا لم تحرس نفسك لن يحرسك بالإنابة أحد! وإذا لم تخدم نفسك بنفسك فلن يخدمك بالإنابة أحد! لن يخدمك أحد حتّى لو كنت ملكاً كيوسف باشا القرمانلي!». هذا اليقين (أو الوسواس) دفع الباشا للتنكّر في لباس الخدم والذهاب إلى حضيرة أبناء الأعيان وزعماء القبائل الذين أخذهم كرهائن ما أن بلغته خطّة النصارى بنزع عرشه من تحته بمساعدة قبائل الدواخل بعد نجاح الأوباش في احتلال درنة. اندسّ بين الخدم يومها وعاد بالحقيقة التي أخفتها عنه الحاشية وحجبها أعوان الزور. وهاهو يعود اليوم من اعتصامه بذلك الناووس الرهيب بحقيقة أشدّ مرارة تقول حرفيّاً: «إذا لم يتنازل اليوم قبل الغدّ

فإنه لن يفقد العرش فقط، ولكنه سيفقد حياته أيضاً، لأنه لم يتخيّل لنفسه يوماً حياة خارج جوف هذا العرش!».

عاد من رحلته الرهيبة في جوف ذلك الناووس ليأمر بإحضار قنصل الإسبان في المملكة السنيور «دي سوزا» الذي تطوّع لإدارة المفاوضات مع الأمريكان بالإنابة عن الباشا. فَقَدَ الباشا الصواب، كما أشيع في ذلك اليوم، عندما خاطب القنصل الإسباني قائلاً إنه يريد الصلح بأي ثمن، بل وبلا أي ثمن!

وقيل أن الدهشة استولت على السنيور «دي سوزا» فلاذ بالصمت طويلاً قبل أن يستفهم من الباشا عمّا إذا كان جادّاً، فما كان من يوسف باشا إلاّ أن أعاد العبارة الجنونية مرّتين.

تردّد السنيور بعدها لحظات قبل أن يعترض:

– ليسمح لي سعادة الباشا، ولكن هذا لا يليق!

سكت، ثم تشجّع ليضيف:

– المنطق لا يجيز تحت أي ظرف أن يتنازل صاحب الحقّ عن فدية تبلغ الثمانمائة ألف قرش ذهبي إلى.. إلى..

حدّق في عين الباشا بتحدٍّ مفاجئ قبل أن يكمل:

– إلى لا شيء!

سخر الباشا:

– صاحب الحقّ؟ هل قلت «صاحبّ الحقّ»؟ الحقّ هو عدم



امتلاك صاحب الحقّ أيّ حقّ إذا عدم القوّة. القوّة وحدها تجيز لصاحب الحقّ أن يدّعي امتلاك الحقّ!

سكت بسيماء قانية، ثم أضاف:

– وقد اكتشفت اليوم أنّي لا أملك القوّة التي تؤهلني لأن أكون صاحب حقّ!

احتجّ «دي سوزا»:

– ولكن توجد قوانين، أو فلنقل أعراف، تجيز حتّى للمهزوم أن يستميت في نيل بعض الحقّ!

استنكر يوسف باشا:

– بعض الحق؟ وهل يتجزّأ الحق؟

– أعني هناك ما يسمّى في لغة التفاوض: «حفظ ماء الوجه!».

أطلق الباشا ضحكة عصبيّة. صاح:

– أريد أن أعفيهم حتّى من ماء الوجه! كل ما أطلبه أن يأخذوا أسراهم بلا مقابل إذا شاؤوا شريطة أن يرحلوا عن درنة!

تأمّله السنيور «دي سوزا» طويلاً قبل أن يقترح:

– هل يسمح لي سعادة الباشا أن أنتزع من بين أيديهم ما يمكن أن يحفظ ماء الوجه مع تلبية شرط الجلاء عن درنة؟

زفر الباشا بإعياء قبل أن يجيب:

– ذاك شأنك كمفوّض مطلق الصلاحيات!

٧٥- الرحيل

درنة. حصن الساحل ١٢ يونيو ١٨٠٥م

لم يكتفِ القبطان «بارون» برسالة الرسول، ولكنه ألحق الرسول بعد يومين برسالة أقوى حُجّةً وأوضح حرفاً هي البارجة الحربية «كونستيليشن» التي هلّل لها الأهالي وأنصار «أحمد بك» ما أن لاح شراعها في الأفق ظنّاً منهم أنها أقبلت لنجدتهم بحاجتهم من الذخيرة والعتاد والمدد الحربي، دون أن يدري هؤلاء الأشقياء أنّها إنما أقبلت لتخذلهم، وتدفن آمالهم بدل أن تنجدهم! أقبلت لتخذلهم وتسرق فرحهم بالغلبة الساحقة التي حقّقوها للتوّ ضدّ جيش الباشا بقيادة المملوك «حسن بك» برغم بؤس عدّتهم وقلّة عددهم. وأنَّى لهؤلاء الأشقياء الأبرياء أن يصدّقوا حقيقة البليّة التي يمكن لمثل هذه البارجة أن تحملها إذا كانوا يجهلون حتّى ذلك اليوم ما يمكن أن يُرتجى من إمامة الخسّة المدعوّة سياسة، أو ما يمكن أن تسفر عنه روح الصفقة النفعية التي تفوق في لؤمها وفي قدرتها، على تدبير الغشّ، الصفقة التجارية الرخيصة؟ وها هو المغترب القديم «وليام إيتون» ينزع بزّته العسكرية المرصّعة بالنجوم الذهبية المزوّرة كما تتحرّر الحيّة من جلدها ليرتدي لباسه المدني استعداداً لتلقّي الطعنة الأخيرة في الظهر، وليتلقّى

رصاصة الرحمة كما عبّر تالياً، ليذهب لاستقبال قبطان البارجة منكّس الرأس، لأنه لم يكن في الحملة سوى جندي خرج لتأدية الواجب امتثالاً لأمر، وعليه أن يستجير بالتسليم ويمتثل أيضاً عند صدور الأمر المضادّ ليقينه بأن المذنب في هذه الهزيمة ليس قانون الانضباط المنصوص عليه في ناموس جيوش الدنيا، ولكنه محاكاة لناموس الحياة، بل هو ناموس الحياة بحذافيره؛ لأن ما هي الحياة الدنيا إن لم تكن حملة؟ وما هو الإنسان في هذه الحملة سوى جندي لابدّ في النهاية أن يُخذل مهما حقّق من غلبة أو حتّى من سلطان؟
ولكن الذهاب لتلقّي الأمر بالانسحاب من درنة كان أهون بكثير إذا قيس بالذهاب إلى «أحمد بك» لإبلاغه بالفحوى المنصوص عليها في رسالة الغدر! إلاّ أن على عاتقه وحده يقع واجب حمل هذا الصليب. وهو إحساس مرير، بل مهين، ولكن الضرورة تُملي حَمْله مثله مثل أحمال كثيرة في حملة الحياة التي على الإنسان أن يحملها في طريقه كي يسترضي ذلك اللغز المدسوس في القلب المسمّى ضميراً والذي لا يقنع بقربان غير أداء الواجب.

أقبل «إيتون» على رفيق الحملة «أحمد بك» بُعيد الظهيرة. أقبل عليه قبل أن يغتسل الرجل من دماء المعركة، وقبل أن يلتقط

الأنفاس من هول النجاة من التهلكة.

وقف في مواجهته ليقول بلا تمهيد:

- يحزنني ألاّ أقبل عليك اليوم لأهنّئك بالنصر!

تأمّله «أحمد بك» بفضول، ثمّ ابتسم قائلاً:

- هذا ما لم يدهشني منذ رأيتك بهذا اللباس!

كانت هالة الإنسان العائد لتوّه من قبضة الموت لاتزال تحلّ في سيمائه المجهدة عندما أضاف:

- الجنرال لا يستبدل قيافة الجندية بثياب مدنية بلا سبب!

ابتسم «إيتون» أيضاً. قال بحزن:

- أمّا أنت فتبدو اليوم ملكاً حقيقيّاً أكثر من أيّ وقت مضى!

سأل «أحمد»:

- هل بفضل إحراز النصر؟

هزّ «إيتون» رأسه وهو يرمق صديقه بإعجاب، ثمّ أجاب:

- أضاءت لي أنصال السيوف حقيقتك التي أخفاها عنّي القناع!

- القناع؟

- كلّنا يتحصّن بقناع كما تعلم، والبلايا وحدها قادرة على تبديد هذا القناع.

سكت ثم أضاف:

– أليس محزناً ألاّ يتعرّف الرفيق على حقيقة الرفيق إلاّ في ساعة الوداع؟

اقترح «أحمد» فجأة:

– هل بوسع الوقت أن يمهلنا كي نتمشّى؟

سارا متجاورين في درب البستان الذي يطوّق القصر. الدرب نفسه الذي داسه «مصطفى بك» بقدميه منذ أسابيع، وسبقه هو فداسه بقدميه منذ سنوات، والأقدار وحدها تعلم من سيدوس بقدميه تراب هذا البستان بعد أيام.

قال «أحمد بك» فجأة:

– تسيء بي الظنّ لو اعتقدتَ أنّي صدّقتهم!

توقّف «إيتون» فتوقّف «أحمد بك» أيضاً. كان في مقلتي «إيتون» دهشة حقيقيّة مجبولة بالألم والشكوك وإيماءات أخرى. أضاف «أحمد بك».

– لقد صدّقتك أنت، ولكن ما عشته في هذه الدنيا كان كافياً لكي لا أصدّقهم، بل كان كافياً لكي لا أصدّق أحداً على الإطلاق. وما أدهشني طوال الوقت هو كيف صدّقتهم أنت!

تعجّب «إيتون»:

– إذا كنتَ لا تصدّقهم فكيف قبلتَ هذه القيامة منذ البداية؟

– أنت تعلم أنّي ترددت طويلاً. بل وترددت منذ أوّل يوم إلى هذا

اليوم، ولكن القيام بمغامرة أفضل من الوقوف مكتوف اليدين.
أفضل من معاقرة الخمور والاختباء تحت عباءة «الألفي»! ثمّ..
ثمّ لماذا تظنّ أنّي أملك الحقّ في أن أضحّي بصداقة صديق لمجرّد يقيني بأن من يقف وراءه كاذب؟

توضّح «إيتون» الرجل المنتصب أمامه بإمعان كأنه يكتشفه لأوّل مرّة، ثم:

– ألا يعني هذا أنّك كنت تكنّ لي شفقة خفية طوال الوقت؟

ابتسم «أحمد بك»:

– لماذا لا تقول إنّي معجب بك طوال الوقت بدل أن تقول إنّي مشفق عليك؟

– معجب بي؟ ألن يعني هذا أنّك كنت تخدعني طوال الوقت كما خدعوني هم؟

احتّج «أحمد بك»:

– أليس جديراً بالإعجاب ذلك الإنسان الذي يؤدّي عمله بإخلاص، فكيف إذا أدّى هذا الإنسان عمله بروح من يراه مسألة حياة أو موت؟

قطعا بعدها شوطاً أبعد في سعيهما. تساءل «أحمد بك»:

– ما يعنيني الآن هو البحث عن حيلة لإنقاذ أنصاري، فكم من الأيام أمهلوا للرحيل؟

نَفَّسَ «إيتون» عن صدره بزفرة سخيّة، ثم:

– لم يمهلونا يوماً واحداً!

سكت «أحمد بك». قال بعد خطوتين:

– هل تتسع السفينة لكلّ الأنصار؟

ازدرد «إيتون» ريقه بعسر قبل أن يجيب:

– خصصّوا لي سرير بحّار، وسأفعل ما بوسعي كي أجبرهم على إيجاد سرير لك بجواري. أمّا الأنصار..

تمتم «أحمد بك»:

– أنت تعلم ماذا يعني التخلّي عنهم لسيوف يوسف المسلّطة على رقابهم بيد مملوكه «حسن»..

– يحزنني أن أعلم، ويحزنني أكثر ألاّ أملك حيلة لإنقاذهم ممّا ينتظرهم!

سكت «أحمد بك». توقّف ليواجه «إيتون»:

– ولكن ماذا بشأن عائلتي؟

– قضت الاتفاقية بالتحاق العائلة بك في غضون عامين على الأكثر!

أربدّت سيماء «أحمد بك» لأوّل مرّة. اختفت هالة الإنسان العائد من مجاهل الأبدية وتلبّس الوجه اكتئاب. طأطأ أرضاً ليتمتم همساً كأنه يناجي القدر: – هذه هدية ليوسف، لأن السنتين

مهلة كافية لقتلي كمداً!
طأطأ «إيتون» أيضاً، ولكنه لم يفلح في النطق بكلمة عزاء واحدة، بعدها هرع «أحمد بك» لإنقاذه:
- هذا يعني أنّي لا أستطيع أن أعوّل على نيل المنحة المالية أيضاً.
برطم «إيتون»:
- صدقت! المعاهدة لم تتضّمن بنداً حول أية إعانة مالية!
تقدّما في البستان خطوات صامتين قبل أن يتساءل «أحمد بك»:
- ولكن ماذا بشأنك أنت؟
قال «إيتون» بأريحيّة مفاجئة:
- سلّمتُ قبطان السفينة استقالتي من أيّ عمل رسمي باليد نفسها التي تسلّمتُ بها قرار الجلاء عن درنة!
هيمن بينهما صمت لم يدم طويلاً، لأن كان عليهما أن يرحلا في الدقائق التالية على متن السفينة إلى سراقوزة. في السبيل إلى هناك استمتعا باستعادة تفاصيل حملتهما الصغرى، لأنهما أدركا أنّها ما هي إلاّ فصل من مسرحية حملتهما الكبرى التي ستُخْتَتَم أيضاً يوماً برغم أنّهما لن يمتلكا عندها القدرة على استعادتها أبداً!

القسم الثالث

٧٦- السُّلالة

البلاط. جناح الحريم. يناير ١٨١١م

أطلق علي يوسف باشا ضحكة هستيرية في وجه الأمّ ثمّ زعق ساخراً:

– شاعر! شاعر! بسلاح بدعة كالشعر ينوي هذا الأبله أن يغزو عرش المملكة الطرابلسية! ها – ها – ها – ها.. أليست هذه مزحة الدهر؟

كتمت للاّ حوّاء غضبة فأضاف الابن لاستخفافه استفزازاً آخر:

– إنّه.. إنّه درويش!

احتجّت الأمّ:

– رجموا السلف محمّد أحمد القرمانلي يوماً بالدروشة أيضاً، ولكن هذا اللّقب لم يمنعه من أن يكون درساً في سيرة السلالة كلّها!

– كان درساً؟ أيّ درس؟

– درس الإنسان الرحيم الذي لم يسفك دماً، ولم يخن عهداً!

قهقه الابن مرّة أخرى. حاجج بلهجة استهزاء:

– لم يسفك دماً، ولم يخن عهداً! ها – ها .. الأجدر بك، يا أمّي، أن تقولي إنه كان وصمة عار في جبين الأسرة القرمانلية بدل

أن تنعتيه بالرحمة، لأنّ.. لأنّ أي ملك هو ذلك الملك الذي لا يسفك الدّم، ولا يخلف الوعد؟!

هتملت المرأة:

– ها أنت تتحدّث بلسان أبيك!

عَقَّبَ الابن بنبرة التحدّي:

– من دواعي الشرف أن أتحدّث بلسان أبي، لأنّي.. لأنّي ابن أبي ولا أتباهى بالانتماء إلى عرق محمد أحمد القرمانلي على طريقة محمّد بك!

هرش جبينه غائباً ثمّ أضاف:

– يقال إنه مصاب بمرض مجهول أقعده عن الاختلاط بالناس فلم يجالس في حياته مخلوقاً باستثناء ذلك البستاني المدعو «سليمان» الذي صار له قريناً وحيداً إلى حدّ أنه لفظ أنفاس النزع الأخير في اللحظة التي بلغه فيها نبأ وفاة خلّ دنياه ذاك! أظنّ أن هذا هو المصير الذي سينتهي إليه خلفه محمّد يوسف أيضاً! ها – ها – ها..

حدجته الأم باستنكار، ولكنها لاذت بالصمت. تململ علي يوسف في جلسته وعدّل وضع عمامته فوق رأسه ثمّ قال:

– كلّ الدلائل تشير إلى أن جلوس محمد على العرش سوف يكون على السلالة فأل سوء!

استنكرت للاّ حوّاء:

– الدلائل؟

– بلى! كل الدلائل بما في ذلك نبوءات العرّافين!

تأمّلته الأمّ طويلاً قبل أن تتساءل:

– ماذا تريد؟

حدّق في عينيها طويلاً قبل أن يعلن:

– أريدك أن تتخلّي عنه!

– أتخلّى عنه؟

أجاب ببرود:

– بلى!

صمتت الأمّ لحظة. عادت تستفهم بهزّة من رأسها، فأوضح:

– لا أريدكِ أن تسيئي فهمي فتظنّي أني أسعى لإقناعك بالانضمام إلى أبي في نيّته بسحب البكوية من هذا الإمّعة البائس، ولكنّي..

سكت لحظة. أطلق صوتاً غامضاً وهو يطارد مقلتي الأم، ثمّ أكمل:

– أريدكِ أن تحرميه مرضاتك، أو.. أو فلنقل أن تضنّي عليه ببركاتك!

توضّحته الأمّ طويلاً. قالت أخيراً:

– تريدني أن أنكره؟

تمتم الابن:

– شيء من هذا القبيل.

– بأيّ..

اختنقت بعبرة فجأة، ولكنّها استماتت لتضيف:

– بأيّ حقّ تريدنيَ أن أنكر إبناً حتّى لو ارتكب في حقّي إثماً، فكيف إذا لم يرتكب في حقّي ذنباً؟

نكس الإبن، ثم أجاب:

– بحقّ إنقاذ عرش توارثته الأسرة جيلاً عن جيل!

– إنقاذ عرش؟

تململ الرجل في جلسته. أضاف وهو يختلس نحو الأمّ نظرة خفيّة:

– النبوّة تقول إن العرش آيل إلى زوال يوم يتبوّأه الشاعر، ولكنّه لن ينجو أيضاً إن تبوّأه خليفة لم تباركه أمّ مباركة كاملة!

تأمّلته طويلاً. غمغمت:

– ماذا تعني بالمباركة الكاملة؟

شيّع نحوها بصراً مجبولاً بهوس كالوجد، ثمّ:

– البركة الكاملة في عرف العرّاف هي بركة أمّ لإبنٍ لا تشرك بها من الأبناء أحداً!

هيمن صمت. هيمن طويلاً قبل أن تعلن الأم:

– وهل تظنّني معنيّة بمصير العرش إلى الحدّ الذي تظنّني فيه قادرة على إنكار إبني في سبيله؟

غمغم الأمير:

– نحن اليوم عرش! سوف نزول إذا حدثت البليّة وزال العرش!

– هذا ما تقوله أنت بلسان أبيك!

– بل هذا ما يقوله واقع الحال يا أمّاه فلا تكابري رحمةً بالسلالة!

هبّت للاّ حوّاء فجأة. كانت شاحبة السيماء عندما نطقت بكلمتها الأخيرة:

– اللعنة على السلالة!

٧٧- الانتقام

قال له الأب: «قررت أن أهدي لك فرصة نفيسة لتبرهن على أنّك للعرش، ولست درويشاً أو إمعّة أو.. أو مجرّد مخلوق عاطل عن العمل يتلهّى بالسفساف الذي تسمّيه شعراً». ثمّ تفحّصه طويلاً قبل أن يضع بين يديه الفرمان القاضي بتنظيم الحملة التأديبية لإخضاع قبائل الشرق. قَبِلَ التحدّي وصمّم أن يثأر. قرّر أن يردّ الاعتبار للشعر قبل أن يسدّد للخصوم لطمة موجعة بالحملة. قرّر أن ينتهز الفرصة لينتقم لجلالة الشعر قبل أن ينتقم لنفسه من ألسنة السوء. بلى! لقد عزّى نفسه بإعلاء شأن الأشعار وغسل بصمة العار التي جاهد الأعداء وصحبان الحسد ليدنسوا بها هيكل الحرم وهو الذي آمن (إيماناً عميقاً وخفيّاً) بالقران الحميم بين الشعر والبطولة، بين الشعر والفروسية، لأنّ سلالة الجهل التي ترجم ملّة الشعراء بنعوت منكرة كالضياع وخيبة الأمل، هيهات أن تدرك حقيقة هذا المارد الذي لا يقبل في محرابه سوى الأبطال، لأن قول بيت شعر حقيقي هو تحدٍّ يعادل في جرأته قهر جيش، وربّما قهر جيوش البشرية بأسرها؛ لأنّ.. لأنّ بيت الشعر الحقيقي لا يولد مروّياً بالدّم وحده كما يروّج البلهاء، ولكنه يولد مشروطاً بقربان جسيم يلفظ فيه صاحب الشعر نصيباً سخياً من روح. ولكن البليّة

أن هؤلاء السفلة دنّسوا معجم اللغة أيضاً فلم يعد في ألسنتهم معنى لكلمات كانت في الماضي مجبولة بالقداسة، تأتي كلمة «روح» على رأس قائمتها. فهل يُرجى خير في بشرٍ أجهضوا حتّى الروح من معنى الروح؟ وهل يتوقّع الشاعر أن يُفهم من أناسٍ اغتربوا حتّى كفّوا عن إدراك معنى الروح؟

ذهب بحملته إلى أقاصي الشرق ليبرهن على فحولة الشعر فقتل خلقاً كثيراً. قاتل قبائل الشرق التي انتفضت ضد جور والي «درنة»، وضدّ قسوة جند المكوس، وهدّدوا بالانفصال عن لحمة المملكة. قاتلهم بوحشية، وشتّت شملهم، ونهب أنعامهم، وسلب حليّ نسائهم برغم الوسوسة التي حدّثته طوال الوقت بفظاعة ما فعل؛ وهو الذي خمّن تاليا أن الوسوسة لم تكن سوى صوت الشعر الذي أوهم نفسه بأنه لم يخرج إلاّ لينتقم له، وصوت الشعر في النهاية لن يكون حقيقيّاً إن لم يكن صوت الضمير، ولكن خطيئة النيّة في الانتقام لا تستفزّ المجهول المسمّى ضميراً إلاّ بعد فوات الأوان. الانتقام! الانتقام! الانتقام شهوة اللحظة التي تورث ندم الأبد! لقد استجارت القبائل بالجارة مصر هرباً من بطش جنوده لتستقرّ عند تخوم الجوار دون أن يخطر في باله أن مقام قبائل مثل «الجوازي» أو «الفوايد» سيدوم طويلاً، بل سيمسي وطن الأبد. عاد من رحلته ظافراً

كما ظنّ. لم يكتفِ بإجلاء أهل الأوطان عن الأوطان، ولكنه عرّج في طريق العودة على سرت ليعمل سيفه في رقاب أولاد سليمان بزعامة أحمد سيف النصر، ولم يوقف المذابح إلاّ بعد أن تمكّن من الزعيم نفسه، فَحزَّ رأسه وحمله في جعبته إلى الحاضرة ليعلّقه على باب «زنّاتة» كتاج على رأس الحملة!

عَبَر بوابة المدينة مزهوّاً بانتقامه، ولم يدر إلاّ بعد أن مثل بيَن يدي الباشا أنه لم ينتقم بفعلته من الخصوم، ولكنه انتقم من حميمه الشّعر!

استقبله الأب بسيماء صارمة، ولكنه همد في جوف العرش طويلاً قبل أن يتكلّم:

– أحسنت!

قالها بصوت مريب كالسخرية ثم فزّ من العرش ودبّ في البلاط عاقداً يديه وراء ظهره. وقف في مواجهة النافذة الملطلّة على المرفأ. راقب بحراً يتمخّض ويتوثّب قبل أن يقول:

– وهبتك وصيّة فدفعتَ لي ثمنها طعنة!

تعجّب الشاعر:

– طعنة؟

لم يستجب الأب فأضاف الإبن:

– هل يسمّي أبي النصر طعنة؟ أم.. أم الغنائم في نظر مولاي

هي الطعنة؟

التفت الباشا فجأة. كان لايزال يعقد يديه خلف ظهره عندما أجاب:

– وهل تسمّي استبدال أسلاب الدهر بأسلاب يومٍ غنيمةً؟

عاد الإبن يتعجّب:

– الحقّ أنّي لا أفهم!

خطا الباشا نحوه عابساً. وقف في مواجهته. غمغم:

– وهل تسمّي استئصال الرعيّة نصراً؟

احتجّ الإبن:

– استئصال الرعية؟

أسكته الباشا بوعيدٍ من سبّابته، ثمّ زأر:

– هل أرسلتك كي تؤدبّ القبائل نيابةً عنّي، أم أرسلتك لتشتيت شمل القبائل؟ هل أرسلتك لتعيد العصاة إلى الطاعة، أم أرسلتك كي تبيد العصاة؟ هل أرسلتك لكي تلقّن الدرس، أم لكي تقطع الدابر وتهجّر الناس من أمكنة الناس؟ ألاَ تدري، أيها الأبله، أنّك ألصقت بعملك العار بصيتي، وزعزعت فوق ذلك عرشي؟

تمتم الشاعر ذاهلاً:

– الحقّ.. الحقّ أني لا أفهم!

– لن تفهم بالطبع، لأن إبليس شعرك أوحى لك بأن البطولة

أن تقتل بدل أن تدرك أن البطولة أن تحقن الدّماء كلّما وجدت إلى حقن الدماء سبيلاً. لن تفهم لأنّك ظننت أن الأسلاب التي غنتمها بحدّ السيف غنيمة أكبر من كنز المكوس التي ستغنمها دوماً بالإبقاء على القبائل في أماكنها، لأن الناس هم مستودع الكنوز ما بقوا، فإن ذهبوا تبدّدت بذهابهم كل كنوز!

زفر أنفاسه لاهثاً ثم استلّ سيفه من الغمد ليشهره في وجه الابن قائلاً:

– هل رأيت هذا النصل؟ اعلم أن السيف لم يُخلق ليُسقِط رؤوس الرعية، ولكنه خُلق لإرهاب أبناء الرعية. السيف خُلق ليُسَلَّط على الرقاب، ولكنه لم يُخلق لحزّ الرؤوس عن الرقاب! ولو حزّ راعي الرعية رقبة كل من جاهر بعصيان لما بقي في الممالك رعية. وإذا لم تبق في الممالك رعية، فهل يبقى في الممالك رعيان رعية؟

سكت. أعاد السيف إلى غمده. أضاف راجفاً:

– أنت مدين لي بثلاث قبائل كبرى شردتها بطيشك لتحرمني مما هو أنفس ألف مرّة من المكوس الملعونة التي تظنّ أنّها كلّ همّي. فهل تستطيع مواهبك الشعرية أن تعيد إلى حضيرتي ولو نفراً واحداً من «آل الفايد»، أم شيخاً واحداً من «آل الجازوي»، أم فارساً واحداً من «أولاد عليّ»؟ لقد دفعتهم هبة مجانية إلى

مصر، وعدت لي بالعفن الذي تسمّيه أسلاباً، وبمعدن النحوس الذي تسمّيه ذهباً!

هَمَّ الابن بأن يحاجج، ولكن الباشا أسكته بإشارة صارمة قبل أن ينتهي إلى القول:

– ها أنت تقدّم الدليل على خيبة مسعاك من حيث ظننت أنك قمت بعمل البطولة الذي أخرس خصومك!

٧٨- التعويذة

السراي الحمراء - البلاط. أبريل ١٨١٤م

فرّك الباشا يديه قبل أن يحدّث صهره أحمد الكيخيا وزير خارجيّته الجديد:

- تمكّنا بعون اللّه من الدغيّس ولم يبقَ إلاّ البحث عن حيلة تخلّصنا من مريده المدعو «بوسييه»!

ابتسم الكيخيا بخبث قبل أن يعلّق:

- قيل إن المسيو «بوسييه» طلب من حكومته إعفاءه من منصبه بسبب الإهانات المزعومة التي ألحقها به مولاي!

- بسبب الإهانات؟

- لقد عدّد في تقريره سبعاً وخمسين إهانة ادّعى أنه تلقّاها من مولانا ظلماً!

كزّ الباشا على أسنانه ثم لفظ:

- الوغد!

- لقد أخبرني حميمه القديم وعدوّه اللّدود اليوم المالطي «أكزافييه» أنه دأب على تحريض نابليون لغزو البلاد مراراً طوال الأعوام الماضية!

هأهأ الباشا بضحكة عالية، ثم صفّق بيديه لسبب مجهول قبل أن يقول:

– اللئيم! لقد نسي أن ليبيا ليست ككلّ البلدان؛ لأنّها.. لأنها ليست بلاداً أصلاً، ولكنّها محيط من رمال عابرة كأهلها تماماً.. أو.. أو فلنقل كسرابها تماماً! لأنّها إذا حطّت اليوم هنا، فلن يضمن حتّى إبليس الرجيم أنّها لن تتبدّد غداً من هذا المكان كأنها لم تكن. هأ – هأ – هأ.. ليبيا ليست وطناً تجري من تحته الأنهار كمصر أو فلسطين، فأي جدوى لرجل كـ «نابليون» من امتلاك بلد كليبيا؟

ابتلع ضحكة السخرية ليضيف بلهجة غلّ:

– مملكتنا لم تكن يوماً غنيمة مغرية لا لـ «نابليون»، ولا لأخلاف «نابليون» برغم أنه لا يجد حيلة للكيد لها إلاّ بتقديمها لقمة سائغة في فم بلهاء الأمريكان، وهو ما لن أغفره لفرنسا أبد الدهر!

سكت ثم مال على الكيخيا ليهمس في أذنه:

– هل تظنّ أن حكومة الوغد «بوسييه» ستعفيه من منصبه كعميد للسلك القنصلي بعد أن قضى في هذه البلاد عشرات السنين؟

ابتسم الوزير قبل أن يجيب:

– عدوّه أكزافييه يؤكّد أنه حصل على الموافقة بالفعل!

سكت الباشا. سرح بعيداً. غمغم غائباً:

- ما أعجب الزمان! هل تدري أنّي كنت أكبر شاهد يوماً على صداقة هذين الرجلين اللّذين انقلبا الآن أقوى عدوّين؟

- سيرتهما اليوم كعدوّين على كل لسان.

تمتم الباشا:

- كما كانت سيرتهما كحميمين بالأمس على كل لسان!

غاب مرّة أخرى. أضاف غائباً:

- علاقتهما اليوم أكبر دليل على الحقيقة التي تقول لا عداوة أقوى من عداوة بعد صداقة، ولا صداقة أقوى من صداقة بعد عداوة!

سكت لحظات، ثمّ هرش رأسه فجأة ليهمهم:

- ولكنّنا لماذا لا نستغلّ عداوة الرجلين في غسل اليدين من الوغد «بوسييه»؟

تفحّصه الكيخيا بإمعان قبل أن يتساءل:

- ولكن هل يعتقد مولاي أن.. أنّ اللعبة تستحقّ ثمن الشموع كما يقول النصارى؟

استفهم الباشا بنظرة فأوضح الوزير:

- أردت أن أتساءل عمّا إذا كان ذنب «بوسييه» يساوي في الحجم الجهود التي ستُبذل في غسل اليدين من شخصه كما عبّر جلالتكم!

غزت سيماء الباشا ظلال كآبة. أغمض عينيه وهو يترنّم بنبرة أسى:

– لقد كان مسؤولاً عن إطعامنا كرة العلقم التي كلّما تذكرتها ضاقت بي الأرض!

وافقه الوزير:

– بلى يا مولاي! الصلح مع الأمريكان كان كرة حنظل! ولكن الحكمة تحذّر من شهوة الانتقام!

سخر الباشا:

– يسيرٌ أن يتشدق بالحكمة مَنْ لم يجرّب ابتلاع العلقم!

زفر بسخاء، ثمّ مال على أذن الوزير:

– لا أريد أن يفلت هذا الوغد من القصاص فيطأ أرض بلاده كأنّ شيئاً لم يكن!

هزّ الوزير عمامته المهيبة علامة الامتثال فأضاف الباشا:

– سأهبك تعويذة عليك تسليمها لمريده اللدود المالطي «أكزافييه»!

– تعويذة؟

حدجه الباشا بنظرة ذات معنى ثمّ أضاف بعينين يلتمع فيهما ألق كالوجد:

– تعويذة من تعاويذ «طيف النحلة»! سبق وجرّبتُ مفعولها في

التخلّص من عرّافة الزور. هل تذكر؟

هزّ الوزير عمامته. على شفتيه ارتسمت ابتسامة. بعد يومين من تلك الجلسة وُجد قنصل فرنسا العتيد، وعميد السلك القنصلي في المملكة، المسيو «بوسييه»، في فراشه ميّتاً. أُشيع في المدينة أنه أُصيب بسكتة قلبية، ولكن أولئك الذين عرفوا سيرته مع الباشا في الأعوام الأخيرة وحدهم استطاعوا أن يخمّنوا سبب الوفاة الحقيقي!

٧٩- آل عثمان

طرابلس أغسطس ١٨١٦م

في المرفأ رسَتْ فرقاطة المندوب الإمبراطوري النمساوي الهير «باسكاليجو» الحائز على لقب «فارس» بعد الظهيرة مدعومةً بأسطول مكوّن من سفينتين مهيبتين يرفرف على صاريهما العلم الإمبراطوري. تسكّع المندوب على سطح الفرقاطة منتظراً تحيّة الراية الإمبراطورية بالإحدى والعشرين طلقة المستوجبة حسب الاتفاقية المبرمة بين العرش النمساوي وحليفه الباب العالي، ولكن بلا جدوى. يئس المندوب من سماع هدير التحية المدفعية، ولكنه لم ييأس من وصول مندوب الباشا الطرابلسي لممارسة مراسم الاستقبال؛ ولكن كان عليه أن ينتظر حتّى العصر دون وصول المندوب المنتظر. يئس مرّة أخرى فقرّر أن ينزل المدينة نزول أي بحّار عن متن أية سفينة تجارية. لجأ إلى القنصلية الإنجليزية مصمماً استخدام تلك الرسالة التي استهان بها عند تسلّمها من مندوب الإمبراطورية البريطانية في مباحثات «مؤتمر فيينّا» العام الماضي والموجّهة إلى شخصية باسم «وارنغتون» قيل له إنها أسطورية تعمل قنصلاً عاماً للمملكة المتحدة لدى بلاط طرابلس، ولكنّها تتمتّع بصلاحيات استثنائية سواء لدى بلاط المملكة المتحدة، أم

لدى بلاط المملكة الطرابلسية.

في القنصلية استقبله رجل غامض، مجبول بحذر جليّ، يوحي بانطباع مَن يخفي نوايا خلف ستور البرود الإنجليزي التقليدي، أفاد بوجود القنصل العام بمقرّه الصيفي الواقع بضواحي المدينة، مبدياً استعداده للقيام بالواجب. بعد قليل وجد المندوب الإمبراطوري نفسه يجلس في قارب مترف برفقة مساعده الهير «ماورر»، محاطاً بحاشية القنصل العام، متجهاً عبر البحر إلى الضاحية الريفية.

هناك استقبله رجل صارم، مارد القامة، ممسوس الخلقة، جشع السيماء، لا توحي ملامحه بامتلاك ذرّة من وقار ملّة الإنجليز، أو مسحة من روحهم التقليدية المحافظة. أجلسه الرجل على الفور إلى مائدة ثرية بصنوف المأكولات، وأنواع المشروبات الروحية والطبيعية كأنه بهذه الوليمة ينتظر أضيافاً، حتّى إن المندوب الإمبراطوري همّ بأن يستفهم لو لم يخّمن الرجل السؤال فيجيب قائلاً:

– على هذه المائدة أنتظر ضيوفاً كلّ يوم، فإذا لم أَفُز لمائدة عشائي بضيفٍ استضفتُ نفسي!

أطلق ضحكة ثم حدج الزائر بفضول قبل أن يستنزل على وجهه قناعاً كئيباً ليضيف:

- كلّما تذكرت الهاوية التي تنتظرني فعلت كل ما بوسعي كي أتزوّد بزاد كافٍ يشفع لي لدى المخلوقات التي تنتظرني هناك!

ترصّده الزائر بدهشةٍ جاهد في إخفائها قبل أن يستفهم:

- هل يتحدّث سعادة القنصل الإمبراطوري عن هاوية.. هاوية. الحقّ أنّي أخشى أنّي لم أفهم تماماً..

ابتسم له القنصل الإمبراطوري بسمة غريبة. بسمة بريئة. ربما طفولية أيضاً كأنه صديق قديم، ثمّ أوضح:

- الهاوية السفلى. الهاوية الأخيرة في رحلتنا المبتذلة التي يقول الجزء القديم من كتابنا المقدّس إنها لا خير فيها! ها - ها - ها..

فتعجّب المندوب الإمبراطوري:

- ولكن.. ولكن ما أعلمه، يا سيّدي، هو خلوّ هذه.. هذه الهاوية من أيّ شيء سوى الظلمات، فعن أيّة مخلوقات يتحدّث سعادة القنصل العام فيقول إنها تنتظره هناك؟!

حدجه القنصل العام بنظرة فضحت إيماءً كالاستنكار، وكي يخفي الإيماء هجم على دورق الكريستال الملآن بسائل وردي اللون ليوجّه لضيفه سؤالاً بدا في شفتيه روتينيّاً.

- نبيذ؟



لم ينتظر جواب الضيف عندما أضاف وهو يصبّ السائل في كأس الكريستال المنتصبة في مواجهة الضيف:

– صنف بلا إسم، برغم أنه قضى في أقبية الفاتيكان ما يزيد على القرن من الزمان، فاستحقّ الفوز بلقب «دم سيّدنا المسيح» عن جدارة، سيّما اذا علمتم أنه هدية من صاحب القداسة بابا الفاتيكان شخصيّاً! ها – ها – ها..

صبّ لنفسه أيضاً قبل أن يشرب جرعة. عاد يبتسم قبل أن يضيف:

– يدهشني أن يجهل سعادة المندوب الإمبراطوري ما ينتظرنا في تلك الهاوية التي اتفقنا منذ قليل على أن لا خير فيها.. أم.. أم أن السيد الفارس «باسكاليجو» ينسى حقيقة الديدان التي كتب العلماء عن شراستها الأساطير؟

– الديدان؟

– بالطبع! ما الذي يمكن أن ينتظرنا هناك، على مشارف الرحلة المبتذلة غير هذه المخلوقات التي ترث كلّ شيء! ألا تستحقّ منّا حمل ما يطعمها على سبيل السخاء؛ فإن لم يكن فعلى سبيل الرشوة، أو فلنقل على سبيل القربان، إذا سمحتم باستخدام لغة الرهبان؟ هأ – هأ– هأ..

اختلس الضيف لمضيفه نظرة، ثم تجرّع من الكأس جرعة

نبيذ قبل أن يدخل يده في جيبه ويقدّم لمضيفه خطاباً أنيقاً تآكلت أطرافه بسبب القدمة، ولكن الشريط الجليل المثبّت على القرطاس بالختم الأحمر، احتفظ بلونه الفاقع رغم أنف الزمن.

انتزع القنصل الشريط الحريري النبيل بخشونة، ثم فكّ المظروف وبدأ يقرأ بروح لا مبالية. تمتم أخيراً وهو يلقي بالخطاب جانباً:

– اللورد «إكسماوث»! هل تدري أنه زارني في هذا البيت منذ أشهر؟

– حقّاً؟

– جاء رسولاً، ولكن لقب اللورد لم يشفع له في العودة إلى ديار الإمبراطورية إلّا خائباً!

تفحّصه الهير «باسكاليجو» بإمعان، ثم فرّ ليتجرّع من كأسه قبل أن يقول:

– هل يعقل أن يخيب هذا الرجل في مهمّة؟

فأجاب القنصل وهو يحتكم إلى كأسه أيضاً:

– الشيطان نفسه لم يحدث أن نجح في مهمّة تتعلق بهذه البلدان!

تطلّع إليه المندوب بفضول قبل أن يتمتم:

– آمل ألاّ يكون هذا الرأي بمثابة فأل سوء لمهمّتي أيضاً!

سدّد له القنصل نظرة باردة قبل أن يقول:

– هذا ما أخشاه أيضاً!

قرع جرساً بالجوار فهرع إلى المكان الخدم. شرعوا في وضع الأطباق وتقديم الأطعمة. ولكن خيبة الأمل قتلت في المندوب الشهية إلى الأطعمة. وسْوَسَ قائلاً:

– أنت لا تتخيّل المرارة التي يمكن أن يستشعرها إنسان مثلي وهو يرى في الميناء ذلك الأسطول الإمبراطوري المكوّن من خمس سفن نمساوية الهويّة، ثمّ يعود إلى بلاده دون أن يتمكّن من فكّ أسرها!

بدأ القنصل ينتقي الأسماك الباردة ويستمتع بمضغ كلّ لقمة. قال:

– لقد ذاق هذه المرارة في هذه البلاد رسل كثر، وسوف يذوقها رسل أكثر بعدك!

– ولكن.. أيعقل أن نعجز عن فعل شيء لاسترداد أسطول كهذا بعد التوقيع على بنود الاتفاقية مع الباب العالي؟

تناول القنصل جرعة من كأسه ثمّ:

– بالنسبة لباشا طرابلس الباب العالي لم يعد عالياً منذ زمن طويل، بل انحطّ في الأعوام الأخيرة ليصير أسفل باب!

عمّ صمت، ولكن القنصل تلذّذ بمضغ أطعمته طوال الوقت دون أن يعير اهتماماً بالضيف الذي استفهم فجأة:

– ولكن السلطان وعد بإرسال مندوب إلى هذه الديار لتيسير المهمّة لدى الباشا!

توقّف القنصل «وارنغتون» عن المضغ. حدّق في الضيف لحظات قبل أن يعلن:

– لقد وصل هذا المندوب بالفعل منذ شهر، ولكن الباشا ألقى به في ظلام الحجر الصحّي نكايةً بالإمبراطورية النمساوية التي استهانت به فبحثت عن وساطة الباب العالي بدل أن تلجأ للتفاوض معه مباشرة!

شلّ الذهول لسان المندوب النمساوي. غمغم ساهماً:

– هل يُعقل هذا؟ ولكن.. ولكن بأيّة تهمة يمكن لهذا الوغد أن يزجّ بالمندوب السلطاني في غياهب الحجر الصحيّ؟

أطلق القنصل ضحكة جوفاء أخرى قبل أن يجيب:

– وهل يعدم الباشا تهماً؟ لقد.. لقد ادّعى وصوله على متن باخرة موبوءة بالطاعون! هأ – هأ..

عاد القنصل لمعاندة أطعمته في حين توجّع الفارس النمساوي:

– ولكنّي استطعت أن أتمم مهمّتي بنجاح لدى بلاط الجزائر،

وكذلك لدى بلاط تونس..

– طرابلس لم تكن يوماً تونس، وبلاطها لم يكن يوماً كبلاط الجزائر!

سكت الفارس لحظات. عبث بكأسه، ثمّ:

– ما العمل إذاً؟

حدجه القنصل لحظات قبل أن ينطق بتعزية للضيف:

– سأفعل كلّ ما بوسعي كي أدبّر لكم مقابلة مع الباشا!

ويروي المؤرخون أن القنصل الإمبراطوري البريطاني فعل كل ما بوسعه للإيفاء بالوعد، ولكن الباشا رفض العرض بعناد لم يعهده فيه القنصل العام. وعندما أعاد الكرّة في محاولة أخيرة تلقّى من الباشا خطاباً مقتضباً يقول فيه إنه سيفرج عن المندوب السلطاني إكراماً للإمبراطورية التي يمثّلها، لا إكباراً للإمبراطورية النمساوية، ولا حتى احتراماً لحليفتها الإمبراطورية العثمانية. وسوف يعيد ذلك «الشاويش» الشقيّ إلى الآستانة على متن الفرقاطة النمساوية؛ لأن السفينة السلطانية التي أقبل على متنها هذا «المخلوق الوقح» سوف تُستبقى في الميناء الطرابلسي حرصاً على الآستانة من الوباء!

ويُروى أن المندوب الامبراطوري النمساوي طاب له بعد أن

عاد من رحلته الخائبة إلى طرابلس أن يتندّر في الخلوة مع خلاّنه قائلاً: «لقد فقدنا في الرحلة سفينة الرسول السلطاني أيضاً بدل أن نستعيد الأسطول النمساوي المكوّن من خمس سفن! ألا يدلّ هذا على صواب النبوءة القائلة إن مصادقة آل عثمان دوماً فأل سوء؛ لأنّهم لابدّ أن يلحقوا النحس بقرينهم مهما شاؤوا أن يحسنوا للقرين؟!».

٨٠- الزوال

مجون الباشا أصاب مصطفى غيورجي بالغثيان. فكم مرّة تساءل عن سرّ ولع أهل السلطان بالعبث والخلاعة وممارسة صنوف المجون التي تبلغ حدّ الجنون؟ والمدهش أن جنونهم هذا يتضاعف ويشتدّ كلّما تقدّمت بهذه الملّة الأعمار حتّى ينقلب رجساً يستحي من قبحه صاحب الشأن: الشيطان!

لقد استولى عليه الخجل مراراً وهو يرى الباشا يتوسّط المهرّجين والسفلة والجواري يتمايل على لحون المرزكاوي ثملاً، أو يتنكّر في ثياب النساء مؤدياً رقصات خليعة، وبلغ به الهوس مرّة أن نزع ملابسه ورقص عارياً!

لقد ظلّ يبحث عن حيلة لمفاتحة الباشا بأمر هذا المنكر منذ أمد طويل، ولكن دهاء حكماء القوقاز لم يهرع لنجدته هذه المرّة، برغم اليقين الذي اتخذه تعويذة والقائل إن الصراحة في أغلب الأحيان ليست شجاعة كما قد تبدو، ولكنها ضرب من دفاع عن النفس، سيّما إذا كانت خطاباً موجّهاً لذوي السلطان. وقد استخدم هذه اللغة كثيراً فلم تخذله ولا مرّة، فلماذا أحجم طوال هذا الوقت عن استخدام التميمة وهو الذي اتخذه الباشا نصيحاً ولم يُبدِ ما يمكن أن ينمّ عن استنكار؟ السبب يقيناً يكمن في روح القوقاز التي تحذّر في الوصايا الموروثة من

قول كلّ ما من شأنه أن يوحي لصاحب السلطان بالوقوف معه موقف الندّ للندّ؛ واستنكار المسلك أو الزلل الأخلاقي هو في عرف هؤلاء استفزاز لكبرياء، بل يمكن أن يُعدّ إهانة لا تغتفر. ولكن يقينه اليوم بأن الباشا سوف يغرق عاجلاً لا آجلاً إذا مضى في هذه الغيبوبة هو ما شجعه على أن يفاتح الباشا، يضاف إلى هذه القناعة أنه الوحيد الذي يستطيع أن يفعل، فإن لم يفعل فقد خان العهد الذي أبرمه مع نفسه في اليوم الذي وقّع فيه عقد النكاح مع ابنة الباشا.

استحضر في أحد الأيام تلك الروح التي جعلت منه يوماً أسطورة بحر ليبيا وذهب ليفاتح الباشا بقولٍ سمعه قاسياً، بل وقحاً ما أن نطق به:

– أخشى أن تكون سيرتك إلى زوال يا مولاي!

كان الباشا يتفحّص مسبحة نفيسة مطعمة بحبّات الجوهر تلقّاها هديةً من أحد القناصل، فسكن كأنّ أصابعه أُصيبت بشلل. في وجنتيه دبّ شحوب. في مقلتيه سطع ألم تحوّل سريعاً إلى ألقٍ ينذر بغضبة جنون. ولكنه زفر فحيحاً في نفسٍ طويل قبل أن يستعيد القدرة على القول:

– أرى زرعاً فوق هذا الرأس قد طاب!

أدرك مصطفى غيورجي استحالة العودة إلى الوراء فقرّ ر



الهجوم دفاعاً عن النفس:

- أقبل يا مولاي أن تحصد زرعي في هذه اللحظة إذا كان في الإطاحة برأسي يكمن ضمان صلاح حال مولاي!

سكت الباشا. في مقلتيه حلّ تسليم. هل هو تسليم حقّاً؟ أم أنه يأس؟ سواء كان الإيماء تسليماً أم يأساً إلاّ أن مصطفى لاحظ أنه إيماء مجبول بإيماء آخر موجع برغم الغموض. سرح بصر الباشا بعيداً قبل أن يقول:

- ماذا تقترح؟

استفهم مصطفى غيورجي بنظرة فأضاف الباشا:

- ماذا تقترح لقتل الدّاء؟

في تلك اللحظة أدرك مصطفى سرّ الإيماء. أدرك أن الباشا الذي رآه دوماً مهرّجاً بائساً في كلّ أفعاله انقلب ضحية شقاء فجأة. بلى، بلى. في سيماء الباشا نطق الشقاء بألف لسان في لحظة. تمتم بلهجة عزاء:

- عن أي داء يتحدّث مولاي؟

سأل سؤاله واستشعر ندماً في الحال، لأنّه.. لأنّه أدرك حقيقة الدّاء بهاجسٍ كالوحي، فاستجار بالابتذال كي يخفي اكتشافه.

أجاب الباشا وهو ما زال يسرح ببصره عبر النافذة المؤدية

إلى البحر:

– الملل!

بعدها ساد صمت. ساد صمت لا إكباراً للإحساس بالملل، ولكن تقديساً للألم الذي سبّبه الملل.

تململ غيورجي، ثمّ:

– ظننت يا مولاي أن السلطان..

فقاطعه الباشا بلسان كاللاّمبالاة:

– أنت لا تدري أنّي لست بحاجة لعزاء، فحدّثني عن الخلاص (إن كنتم في القوقاز تملكون لمثل هذا الدّاء دواءً) أو اصمت!

سكت مصطفى احتراماً لألمه فقال الباشا:

– في البداية (أعني في مقتبل العمر) نلقي بالنفوس إلى المهالك في سبيل الفوز بالسلطان، وعندما تحقّق لنا الأقدار الحلم، نكتشف أن ما امتلكناه لم يكن سلطاناً كما توهّمنا، لأنّ.. لأنّ أي سلطان ذاك الذي لا يحقّق ولو نصيباً ضئيلاً من خلوّ البال، أو.. أو ما اعتاد الناس أن يسمّوه سعادة؟ عندها لا نجد مفرّاً إلاّ بالعودة إلى الوراء. أعني نتصابى لاستعادة زماننا الضائع.. أو.. أو فلنقل لإنقاذ روحنا الضائعة بالعملة الوحيدة القادرة على تيسير هذه المعجزة. فهل تدري، يا مصطفى، ما هي هذه العملة؟

نكس مصطفى أرضاً، في حين أجاب الباشا:

– إنّها الحبّ!

حدجه مصطفى بنظرة تنطق بشكّ فساد سكون. في استمرار السكون استشعر مصطفى كابوساً فحاجج:

– ولكن أن ينزو الرجل على امرأة كالتيس يمكن أن يُعدّ شروعاً في إنجاب ذرية، ولكنه في كل الأعراف لن يكون حبّاً!

ابتسم الباشا باستخفاف قبل أن يقول:

– ألا ترى أنّك تحسن بأمثالنا الظنّ عندما تتحدّث عن الحبّ؟ ألا تدري أنّنا أعجز الناس عن الحبّ؟

استنكر مصطفى غيورجي:

– أعجز الناس عن الحبّ؟

– لا تحاول أن تخدعني فتدّعي أنّك تستطيع أن تحبّ كما يحبّ رعيان جبل نفوسة، أو فلاّح في حقول المنشية!

– ولماذا لا أستطيع يامولاي إذا..

قاطعه الباشا:

– أنت تستطيع أن تحبّ بالطبع أفضل منّي، ولكن هيهات أن تستطيع منافسة هؤلاء البسطاء! هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواباً عندما أضاف:

– لأنّك موبوء!

هتف مصطفى غيورجي باستنكار:

– موبوء؟

– أنت موبوء بقربك منّي! أنت موبوء بحضورك إلى جواري! أنت موبوء بوجودك في حضرة البلاط حيث تسود اللعنة! ولو لم يكن الأمر كذلك، فلماذا قررت أن تبتني على نفقتك ذاك الجامع؟

تمتم مصطفى:

– الحقّ إنّي..

– الحقّ إنّكَ تريد بهذا المعبد أن تقدّم القربان. تريد بهذا البناء أن تشتري الغفران! تريد.. تريد أن تستعيد القدرة على الحبّ!

سكت الباشا. في الخارج، من مئذنة مسجد درغوت، انطلق أذان العصر. مضى الباشا:

– أعلم، أيها العزيز مصطفى، أن مريد السلطان أعجز مخلوقات الأرض عن الحبّ؛ لأن العجز عن الحبّ هو الثمن الذي تدفعه ملّتنا مقابل القمامة التي ظنناها كنزاً والمسمّاة بالعرش. السلطان يا مصطفى قصاص ربّ الأرباب الذي لا يهب شيئاً أبداً بلا ثمن. فماذا يبقى لمن فقد القدرة على الحبّ غير اللّهو؟!

سكت الباشا فلاذ مصطفى بالصمت أيضاً. قال الباشا أخيراً:

– ولأن قصاصنا لا يشبه كلّ قصاص، لأنه لعنة من نوع فريد، فإن لهونا ليس ككل لهو أيضاً. أعني أننّا لا نستطيع بالسليقة أن نقنع بأيّ لهو، بل بحالٍ خاصّ من اللهو! بحال يراه الناس شذوذاً منكراً، وخروجاً فاضحاً عن الصراط، لأنّنا لا نستطيع أن نستطيب لذّات الدنيا إلاّ ممزوجةً بنصيبٍ وافرٍ من سموم!

عاد الباشا من غيبته ملفوفاً بجفنين منفوشين وجبين محروث بالغضون، ولحية طغى في شعرها الشيب كأنّه لم يمكث في غيوبه اللحظات وإنما الأعوام والأعوام حتّى تبدّى في بصر جليس ذلك اليوم شيخاً مجلّلاً بأرذل العمر بعد أن كان منذ قليل مجرّد كهل. اغتصب بسمة شقية وهو يرمق جليسه خلسةً فرأى مصطفى الشيخوخة في نظرته أيضاً. تساءل متشبثاً ببسمته الشاحبة:

– هل أفزعتك ياصديقي؟!

لم يجب مصطفى حرجاً، فأضاف الباشا في محاولة لإجارته من الحرج:

– في عينيك أرى شيخوختي، فلا تخدعني!

زمّ مصطفى شفتيه فأضاف الباشا:

– كلمّا رأيت صورتي في عيني جليس تذكرت حملة أبي على المرايا! الحقّ أننا لسنا في حاجة لاستخدام المرايا مادمنا لم

نُصَب بالعماء، ومادمنا لم نعدم وجود عيون الجلساء!

ومضت في مقلتيه شقوة طفولة كانت له خصلة دوماً، ولكنها انطفأت ليعود الهمّ إيماء مهيمناً. انكمش حول نفسه كقنفذ قبل أن يفتح في الصحيفة سيرة أخرى:

– الحقّ أن السلطان ليس سُمُّنا الوحيد، ولكن هناك الأبناء!

تمتم مصطفى:

– الأبناء، يامولاي، سُمُّ كلّ الآباء!

رفرف الباشا. فرد جناحيه بهدوء قبل أن يرفرف. نفذ من النافذة وحلّق بعيداً:

– اذا كان الأبناء سُمُّ كلّ الآباء كما تقول، فإن أبناء أصحاب السلطان ليسوا سُمّاً مرّة واحدة، ولكنّهم سُمُّ ألف مرّة! وأبنائي الذين يتقاتلون اليوم على مرأى ومسمع من الدنيا ليسوا الدليل الوحيد على هذه البليّة، ولكنّي مع أشقائي كنت الدليل الأسوأ الذي سمّم حياة الفقيد أبي! وهاهي عدالة ربّ السماوات تأبى إلاّ أن تأخذ مجراها مرّة أخرى فأجني على يد ذريّتي اليوم ما جناه أبي بالأمس من ذرّيته؛ أعني ما جناه على يديّ! وإذا كنت قد سببت له أقسى الآلام يوم حررت القصر من شبح المكابر حسن بك، فإن عليّ اليوم ألاّ أستنكر أن يرتكب محمّد بك في حقّي جرماً أبشع وهو الشروع في قتل الأب!

انتفض الجليس:

– الشروع في قتل الأب!

ولكن الباشا لم يعد من رحلة الغيوب:

– لقد استغفلني منذ أيام فوجّه لي طعنة من خنجره، وكاد يتمكّن منّي لولا يقظة أحد الخدم الذي أمرت بإزالته على الفور ليقيني بأنه لن يمتلك سلطاناً على اللسان حتى لو أغرقته بكنوز الدنيا ثمناً للسكوت على الفعلة الشنيعة الكفيلة بالنيل من العرش، وها أنا أفشي هذا السرّ في لحظة ضعف لأقدّم البرهان على استحالة لجم اللسان!

تمدّد الباشا على أريكته كأنه استسلم لرحلة الحلم:

– وبدل أن أقتصّ من ابن الزنا جزاء فعلته أرسلته والياً على شرق البلاد كلّه بدايةً ببنغازي ونهايةً بطبرق مروراً بدرنة! هل تدري لماذا؟

سكت. زفر. جعجع بتنهيدة عميقة، ثمّ:

– لأن الإبن يستطيع أن يطعن الأب حتّى الموت، ولكن هيهات أن يستطيع الأب أن يطعن الإبن، أو أن يخدشه مجرّد خدش! هل تدري لماذا؟ لأنّ.. لأنّ الابن لم يُخلق في الدنيا إلاّ لينفي الأب من الدنيا، لم يُخلق إلاّ ليقطع دابر الأب من ساحة الدنيا، لم يُخلق إلاّ ليميت الأب، بل وليمحوه من دنيا الوجود محواً.

يمحوه حرفاً ومعني، في حين لم يُخلق الأب إلاّ ليخلق الإبن، لم يُخلق الأب إلاّ ليأتي إلى الدنيا بإبن استجابة لوهم بثّته أمّنا الطبيعة في قلب كل أبّ يقول إن هذه البذور الشريرة هي غاية وجود الآباء، لأن الأبناء ما هم إلاّ الامتداد للآباء، أي أنهم ضمان لنيل الخلود والضحك على ذقن الفناء! والمأساة حقّاً أن يصدّق معشر الآباء هذه الخرافة الرديئة فيتدافعون لإخصاب الولاّدات من النساء بدل أن يفتّشوا عن العقيمات كما يحتّم المنطق، أو فلنقل ناموس العقل، والنتيجة أننا كآباء أمّة بلهاء تحفر قبورها بأيديها، بل وتتباهى بوفرة ما حفرت لنفسها من قبور! أمّا إذا عرّجنا على الفئة المختارة من البذار المبثوثة في الأصلاب فالحال بشأنها يبدو أكبر شرّاً؛ لأن أهل السلطان مخلوقات أكثر أنانية من كل كائن حيّ، ولهذا سنّ الملوك قوانين الوراثة منذ الأزل انتصاراً لخرافة الامتداد التي وجدت في أوساطهم رواجاً فاق رواجها في أي حقل آخر، برغم تعقيد تنفيذ هذا القانون. فنحن كملوك نريد أن نورِّث ممالكنا لأبنائنا لا لضمان خلودنا وحسب، ولكن لضمان خلود ممالكنا أيضاً. وهو خلود لا يضمن فقط خلودنا كمخلوقات من لحم ودم، أعني كطبيعة بشرية، ولكن لضمان خلودنا في عروشنا أيضاً. أي خلودنا كملوك. ولهذا السبب نستميت

في تنصيب هؤلاء السفلة ملوكاً خلفاً لنا بحماس لا يقل عن حماس استماتتنا في إنجابهم. وهنا تبدأ مأساتنا ومأساتهم معاً!

التقط أنفاسه. كزّ على أسنانه ثم واصل رحلته:

– فنحن نريدهم أن يرثونا ليكونوا امتداداً أبدياً لأشخاصنا بشرط أن يفعلوا بأفكارنا نحن لا بأفكارهم، بعقولنا نحن لا بعقولهم، بهويّتنا نحن لا بهويّتاهم، بنفوسنا نحن لا بنفوسهم، بأرواحنا نحن لا بأرواحهم. أي أن يتقمّصونا تقمّصاً مقابل أن نمنحهم مباركتنا، ونسلّمهم صولجاننا، وندعو لهم بالتوفيق في رحلتهم. فهل تسمح لهم كبرياؤهم بقبول الصفقة؟

ابتسم الباشا باستخفاف قبل أن يضيف:

– بالطبع لا! إنهم يرفضون، بل يستنكرون بحجّة عصيّة على فهمنا نحن كآباء وهي أنهم إذا كانوا لنا أبناء فهذا لن يعني بأي حال أنهم صورة طبق الأصل منّا. لن يعني أنهم نسخ منّا. لن يعني أنهم مسوخ سخيفة لنا، ولكنّهم مخلوقات أخرى تنتمي إلى دنيا أخرى، إلى زمن آخر، إلى فصيلة بشرية أخرى، تحمل أفكاراً أخرى، وأحلاماً أخرى، وعقولاً أخرى؛ وإذا كان لنا الفضل في حضورها في حضرة الدنيا فذلك لن يعطينا الحقّ كآباء في نفيهم، أو سلبهم أنبل ما وهبوا بالطبيعة وهو

أرواحهم؛ لأن محاولة أن نلصق بهم أهواءنا وعقائدنا وأزمنتنا ما هو في يقينهم إلاّ مكيدة لئيمة لمحوهم. في هذه النقطة لابد أن ينشب بين الفريقين صدام الحياة أو الموت. صدام يفوق في ضراوته الحرب بين أشرس عدوّين. ولهذا السبب لم تدهشني الطعنة من يد محمّد بك، وإن أدهشتني المباغتة. ولكن.. ولكن هل طبيعة السلطان وعداوة الأبناء هما السرّ الوحيد في سَيْر سيرتي إلى الزوال؟

اعتدل في جلسته، ولكن بصره لم يعد من رحلة البُعْد حتّى إنه لم ينتبه لتناثر حبّات المسبحة النفيسة على الأرض، لأن شحنة الانفعال المبثوثة في الأصابع سحقت خيط الذهب بلا إرادة فتصرّمت المسبحة. قال:

– بالطبع لا! فهناك في هذا الوكر المسمّى قصراً يوجد جناح الحريم الذي لا يدري أحد عن حقيقته سواي. لم تعد تدري عنه أي شيء حتى أنت، بل حتّى امرأتك التي كانت يوماً جزءاً من هذا الجناح قبل أن تفرّ بها لتعيش معها في الحقول. هذا الجناح كان طوال الأعوام الخوالي دائي! كان في قلبي ورماً خبيثاً لم أفلح في العثور على حيلة لاستئصاله. لقد قمت يوماً بمحاولة تبدو لي الآن مضحكة، وربّما مخجلة أيضاً. فقد ظننت أني أقوم بالإصلاح يوم أصدرت الفرمان القاضي

بإباحة زواج أبناء الرعية من أميرات القصر. ولكن أملي خاب بعد انقضاء الأعوام والأعوام على سريان مفعول هذا الفرمان دون أن يتقدّم رجل واحد بطلب يد امرأة واحدة من جيش العوانس الذي يعجّ به ذلك الجناح اللعين، كأنّ أبناء الرعية الجبناء ينتظرون أن أرمي بهنّ إلى أحضانهم كي يصدّقوا أن الفرمان لم يكن فخّاً للإيقاع ببعض الأعيان، ولكنه فرار من ورطة تخلّص البلاط من أفواج نساء تكلّف حياتهن كعوانس بيت مال المملكة ثروات طائلة اضطرتني للاستدانة من الدول الأجنبية، والقناصل، وتجّار المملكة من يهود ونصارى، زيادة على فرض مكوس إضافية على أبناء رعية يرزحون بسبب الجدب تحت وطأة الجوع. بلى! بلى! ترف العائلات، وغرق مومسات القصر في صنوف البذخ أغرق البلاد في ديون لا حيلة لي في سدادها إن لم تحدث معجزة في القريب العاجل. فهل تستطيع أن تنجدني، يا صديقي، بوصية من وصايا حكماء القوقاز تخلّصني وتخلّص البلاد إذا كنتَ حريصاً حقّاً على إنقاذ حياتي السائرة إلى زوال؟!

تألّق في مقلتيه وميض مفاجئ كأنه مرح مجبول بسخرية، ولكنه ما لبث أن توارى ليحلّ في المقلة غياب:

– في الماضي كنّا نستعين على هذا الورم باقتناص الأزواج

لبنات العائلة المالكة من أعلاج النصارى، كما كانت غنائم البحر أكبر رصيد لبيت مال المملكة، ولكن مؤتمر فييننّا لم يحرمنا من ثروات حملاتنا الجهادية فقط بتحريمه تجارة العبيد من الملّة البيضاء، ولكنه سدّد ضربة موجعة لتجارتنا من عبيد الملّة السوداء أيضاً. وسباخ «تاورغاء» التي تعجّ بآخر فوج من هذه الملّة حوّلت جزءاً من هذا الوطن إلى مملكة عبيد، لأن أخلاقنا تمنعنا أن نلقي ببضائعنا إلى البحر لمجرّد أن أمم النصارى قررت في يوم مشؤوم الاستغناء عن سلع كانت لرعيتنا يوماً رأساً لمورد الرزق. فبأية حيلة تستطيع أيها الصديق أن تنقذ صديقاً تراه الرعيّة ماجناً مجنوناً، وترى سيرته أنت، تبعاً لذلك، سائرة إلى زوال؟ أم أنّك لا تدري أني لا أخشى ذهاب أمري إلى الزوال بقدر ما أخشى أن تكون مملكتكم هي السائرة إلى زوال؟!

٨١- الحَكَمُ

أيسر أجناس العداوة – عداوة الأسباب، وأشرّ أجناس العداوة – عداوة بالفطرة. وهي العداوة الوحيدة التي أجمع دهاة الأمم على عدم وجود ترياق لضروبها.

وهذا الجنس الأخير من العداوة هو نوع العداوة الذي نشب بين السير «وارنغتون» قنصل الإنجليز لدى بلاط المملكة الطرابلسية وبين المسيو «روسّو» قنصل فرنسا، برغم محاولات مؤرخي تلك الفترة من تاريخ شمال أفريقيا إرجاع سبب العداوة إلى صراع دولتي القنصلين الإقليمي والمنافسة بينهما في امتلاك العالم.

وقد لاحظ عقلاء المدينة آي النفور في العلاقة بين الرجلين منذ الأيام الأولى لوصول المسيو «روسّو»، حيث هرع السير «وارنغتون» لتوجيه الدعوة لشخصه لمشاركته طعام العشاء في قصره المهيب بالمنشية، فلم يجد القادم الجديد مفرّاً من تلبية الدعوة لا من باب المجاملة فحسب، ولكن تمشياً مع عرف سنّته التقاليد الدبلوماسية أيضاً. ولكن هذه المراسم لم تشفع لتكرار هذه الدعوة أبداً، لأن المسيو «روسّو» الذي عرف طينة السير الإنجليزي في تلك الجلسة ما لبث أن اعتذر بلباقة عن قبول الدعوات التالية التي انهالت عليه من قبل زميله

الإنجليزي الذي غفر له هذا الاعتذار مرتين، ولكنه لم يجد مفرّاً من مناصبته العداء ما أن تلقّى الاعتذار للمرّة الثالثة، وكان على من عرفهما عن قرب فقط أن يجدوا التأويل الصائب لهذه العداوة المجانية فقالوا إن السرّ يكمن في طبيعة الرجلين، ففي الوقت الذي عرفوا في المسيو «روسّو» رجلاً مهووساً بالعزلة مغرماً بالحياة البيتية (ربّما اهتماماته الثقافية ذات العلاقة بتخصّصه كباحث في علم الاستشراق وسليل للتراث النابليوني في هذا المجال): كان «وارنغتون» إنساناً دنيويّاً مريداً للذّة والسّهر ومعاقرة الخمر، مدفوعاً إلى مستنقع الشهوة بقرينة من طينته مجبولة بعقد نفسية مستعارة من سلالتها كابنة غير شرعية للملك جورج الخامس، لم تجد بدّاً من تعويض هذا العطب الأخلاقي إلاّ باحتراف الترف بجنونٍ أججّته تلك الثروات الطائلة التي جلبتها المرأة معها عطية من خزانة المملكة. وكان بوسع السيرة أن تنتهي بين الرجلين بقطع العلاقة لو لم يدبّر القدر حبكة أخرى للسيرة وهو الأعظم مهارة دوماً في حبك أكثر التفاصيل تعقيداً. وهاهو يرمي للساحة ببطل جديد (هو تيموليون سليل القنصل روسّو) ليستولي في الحال على قلب حسناء السيرة (المتمثّلة في سليلة القنصل وارنغتون «إيمّا»)، وهو ما يستحيل تصديق حدوثه دون وسيط.

ففتّش مبدع السيرة الأركان فلم يجد بطلاً مناسباً للعب هذا الدور سوى المستر «فريدريك وارنغتون» شقيق الفتاة وصديق المسيو روسّو الإبن. فهل بالإمكان الحيلولة دون تحوّل السيرة إلى عمل من قبيل المأساة بعد اكتمال شروط المأساة؟ بالطبع لا! فطبيعة الأشياء التي ترفض المساس بناموس الأشياء أبت إلاّ أن تدفع نحو تطوّر العلاقة إلى الأمام واستدعاء الفاجعة. وهاهو وارنغتون الأب ينتهز الفرصة للانتقام من روسّو الأب برفضه ارتباط ابنته بابن عدوّه اللدود رفضاً باتّاً بلا رجعة. فما كان من القدر إلاّ أن استدعى إلى الساحة بطلاً جديداً هو المغامر الإنجليزي الميجر لانغ (استكمالاً للثالوث واستجابةً للشرط الكلاسيكي)، فما كان من وارنغتون الأب إلاّ أن هرع إلى الرجل ليرمي بابنته في أحضانه رمياً مستغلاً انبهار هذا الرحّالة المغامر بجمال الفتاة. ولكن كان على القدر أن يتدخّل هنا أيضاً كي يثري المأساة ويطيل عمر السرد. فها هي العراقيل تنشأ والأسباب تتوالد لتقف حجر عثرة في سبيل إتمام صفقة القران في اليوم الموعود، لأن محاولة انتحار الفتاة بابتلاع السّم الزعاف كان تلبية لشرط الاحتفاظ بالطهارة (المتمثلة في بكارة الجسد) كشهادة وفاء للحبيب. وهو ما من شأنه توليد فصل جديد يصلح مادّة لمنعطف جديد تمثّل تالياً في الامتثال لمشيئة الأب بإنجاز عقد القران منزّهاً عن الدنس، لأن العقد

المحرّر في اللحظة الأخيرة من موعد سفر المغامر إلى مجاهل الصحراء لم يكن يسمح للعريس المهووس بالاستكشاف أن يدخل على عروسه، فغادر في اليوم نفسه. غادر الشقيّ فقرّر له القدر ألاّ يعود إلى الأبد. بلى! بلى! لقد لقي المسكين مصرعه بعد أن توغّل في الصحراء وبلغ تخوم عاصمة الذهب الأسطورية «تينبكتو». قيل تالياً إن الرجل هلك على يد قبائل الملثمين لعدم حصوله على إذن مسبق لعبور صحرائهم. ولكن كبير تجّار قوافل واحة غدامس أكدّ للمسيو روسّو عند زيارته الحاضرة أن الميجر لانغ لقي حتفه عندما اكتشف الملثمون هويّته كجاسوس يعمل ضابطاً في جيش النصارى أقبل لاستطلاع أراضيهم بتكليف من وزير المستعمرات الإنجليزي تمهيداً لغزو المنطقة الغنيّة بالذهب. وقد ارتكب القنصل روسّو خطأً فادحاً بإذاعة هذه الرواية التي وجدها القنصل وارنغتون ذريعة لاتّهامه بتدبير اغتيال صهره بعون تجّار القوافل الذين يصادق المسيو روسّو أكابرهم في دواخل المملكة. هذه الواقعة وضعت في حبل السيرة عقدة جديدة بدل أن تسهم في تذليل العقد السالفة، فبدل أن يؤدّي سقوط طرف الثالوث الثالث من الحساب ضاعف هذا السقوط من المحنة، لأنّ وارنغتون لم يكتفِ بتوجيه تهمة التورط في ارتكاب جريمة لعدوّه روسّو، ولكنّه سعى لتحويل شكوكه إلى يقين يتطلب التدخل الدولي

مستغلاً نفوذه كقنصل للإمبراطورية التي لا تغرب الشمس عن ديارها تخطب الأمم ودّها إكباراً لهذا اللقب الفلكي الرهيب ليحصد وارنغتون بسببه شرف تمثيل دول أخرى لدى بلاط طرابلس مثل النمسا والبرتغال وهولندا ونابولي وتوسكانيا وحتّى الفاتيكان لينقلب في حضور بقية القناصل بعبعاً منفوش الأوداج كأنّ عدد القنصليات يمكن أن يمثل حصيلةً نفيسةً في العرف الدبلوماسي تماثل رصيد الوكيل في العرف التجاري الذي تقاس أسهمه في الواقع الاجتماعي بعدد ما حصد من التوكيلات التجارية. أقحم وارنغتون في حربه لإشباع الشهوة إلى الثأر من كل الأوطان التي يمثلها بما في ذلك الإمبراطورية الخالدة في استئثارها بالشمس دون أوطان الأرض قاطبة. أقحم وارنغتون في المعمعة المملكة الطرابلسية أيضاً ليجد الباشا نفسه طرفاً في صراع مشؤوم زُجّ في أوحاله بزلّة لسان أحد أعوانه المدعو حسّونة الدغيّس وزير خارجيته، فلا يُرضي طرفاً إلاّ ليغضب طرفاً، سواء على مستوى النزاع الناشب بين القنصلين المتعاديين، أو على مستوى الدول التي يمثلاّنها، فكيف لا تلتئم كل هذه الملابسات فجأة إذا كان مولانا القدر قد قرّر أن يتولّى الأمر فانكبّ لتسطير ملحمته الخالدة؟ وهاهو جلالة القدر ينتهز الفرصة فينخس بمسعره الخرافي رحّالة آخر، فرنسي الهوية، لينشر بالصحف الفرنسية

وصفاً مفصّلاً لمدينة «تينبكتو» الأسطورية فوقع المقال في يد وارنغتون كدليل إدانة آخر ضدّ روسّو: ذلك أن وارنغتون قارن بين ما ورد في ذلك التقرير وبين آخر رسالة تلقّاها من صهره قبل مصرعه التي تحدَّث فيها عن وصف لمدينة «تينبكتو»، مما يقطع بتآمر روسّو مع أعيان المملكة الطرابلسية في تدبير اغتيال لانغ. تمخّضت التّهم والتّهم المضادّة عن فتح باب التحقيقات على مستوى الدول، بل والإمبراطوريات. وهاهي مريدة الشمس الإمبراطورية العظمى تطلب تبرئة ساحة قنصلها رسمياً، في حين طالبت إمامة الأمم النصرانية في معجم البلاط الطرابلسي (فرنسا) باشا طرابلس باعتذار رسمي لقنصلها من الأكاذيب الملفقة والمكائد الخبيثة التي تحاك ضدّه من قِبَل حاشية البلاط المتحالفة مع عشّ الأفاعي الملقّب في لسان الدبلوماسية باسم السلك القنصلي!

في ذلك الوقت الذي علا فيه غبار العراك بين الأطراف لم يلحظ أحد كيف بدأ الخناق يضيق حول رقبتي المعشوقين الشقيين لتقترب اللحظة التي سيتشكّل فيها مصيرهما كضحيتين للعماء الأرضي. فالقنصل وارنغتون لم ينسَ أن يتخذ التدبير الكفيل بقتل أمل ابنته في الارتباط بمعشوقها إلى الأبد برغم انشغاله في الحرب مع الجبهة المعادية. وهاهو يصطاد لإبنته الحسناء زوجاً جديداً في أوّل رجل من سلالة الإنجليز ينزل

المرفأ في رحلة تجارية. وهو الزواج الذي لم يحتمله العاشق البائس سليل عائلة روسّو، فما كان منه إلاّ أن أطلق رصاصة على رأسه ليضع حدّاً لآلامه. أمّا الفتاة فقد دأبت على تناول جرعات منتظمة من الخلّ بعد أن عدمت الحصول على السمّ، فبدأت تذوب أمام أعين الأهل والزوج، فبعث بها الأب في رحلة إلى إيطاليا للنقاهة، ولكن الجرعات المنتظمة من سائل الخلّ هرعت لنجدتها فلفظت أنفاسها في مدينة «بيزا». فهل يتنازل مولانا القدر فيستنزل الستور على المسرحية بعد ارتواء الخشبة بدماء القرابين؟ ربّما كان القدر سيتسامح هنا لو كانت هذه الأحداث الدرامية هي غاية السيرة الأصلية، ولكن التجربة برهنت تالياً أن كل ما حدث لم يكن سوى فصل في مسرحية أخرى أكثر تعقيداً، بل جزء من تركيب لئيم ذي نَفَسٍ طويل يتواصل ويتواصل إلى أن يستقيم في النواة التي نسفت كيان تلك الأسرة التي اختارها القدر يوماً لتتولّى حكم هذه البلاد لقرن وربع القرن من الزمان، فتحوّل أمجادها المزعومة إلى أنقاض، مثلها مثل كل أمجاد هذا المكابر الفاني المسمّى في الصحف الأولى إنساناً!

فالمسيو روسّو الذي فُجع في إبنه ذي الإثنين والعشرين ربيعاً، والذي آلمته تهم الباطل عميقاً، طالب الباشا رسمياً بردع حاشيته (سيّما حسونة الدغيس) عن التآمر لتلويث

صيته بالتنسيق مع وارنغتون، وعندما لم يستجب الباشا ولم يفعل ما من شأنه أن يضع حدّاً للحملة، أنزل علم بلاده وغادر طرابلس، ولم يعد إليها أبداً. لم يعد لأنه مات في باريس غمّا في اليوم نفسه الذي وصل فيه إلى طرابلس أسطول فرنسي بقيادة الأميرال روزاميل ليفرض على الباشا توقيع معاهدة تضمنت شروطاً مهينة كان أوّلها سحب الأكاذيب الموجهّة إلى القنصل روسّو حول مصرع الميجر لانغ، على أن يقوم أحد أصهار الباشا أو أبنائه بالاعتذار للقنصل أمام الملأ ردّاً للاعتبار. كما وجد الباشا نفسه مجبراً على التوقيع على بنود أكثر إذلالاً تمثّلت في دفع غرامة حرب بقيمة فلكية بلغت الثمانمائة ألف فرنك، والكفّ عن اعتبار النصارى رقّاً، وإلغاء الاحتكارات التجارية، وكذلك إبطال العمل على ابتزاز الدول وإلزامها بدفع الإتاوات. أمّا البند المتعلّق بالحيلولة دون تنمية قطع الأسطول الطرابلسي مهما كانت الأسباب منذ ذلك التاريخ، فكان الطعنة الأسوأ على الإطلاق. ولكن وضع الباشا اليائس على كل مستوى يومها هو ما أعجزه عن اتخاذ أي موقف للدفاع عن النفس، فرضخ صاغراً. فهل اكتفى القدر بتسديد هذه الطعنة للباشا؟ كلاّ، بالطبع. فالتنازل لابدّ أن يجرّ وراءه تنازلاً في ناموس القدر، وهاهو وارنغتون يطالبه بتنازل آخر ما أن أقلع الأسطول الفرنسي تمثّل في طلب أن يتنصّل الباشا

من اعتذاره للقنصل الفرنسي. ولمّا كان ذلك عملاً تعجيزيّاً فقد بادر وارنغتون بإنزال راية بلاده على مقرّ القنصلية استعداداً للمغادرة. فماذا فعل الباشا كي يجير نفسه من غضبة حكومة الإمبراطورية التي لا تغرب عن ديارها الشمس؟ لقد حرّر اعتذاراً موجّهاً لجناب القنصل في السرّ،ولكن السرّ الموجّه إلى مخلوق لا همّ له إلاّ معاقرة الخمور لن يُكتب له أن يبقى سرّاً. فها هو وارنغتون يتندّر بما حدث في حفلاته البوهيمية في قصره بالمنشية ليصنع من يوسف باشا أضحوكة تتناقل أطوارها المجالس. والسخرية في حال الملوك ما هي إلاّ شهادة وفاة الإكبار، وشهادة وفاة الإكبار هي المقدّمة الشرعية للاحتقار كما يروق للسان العوام أن يردّد. فما هي الخطوة القادمة التي علينا أن ننتظرها من مبدع اللعب الأكبر (القدر) حتّى نحصل على استنتاج مُبرّر؟

لم يقنع الاعتذار على ذلك النحو وارنغتون فأعاد رفع الراية على مقرّ القنصلية، ولكنه جاهر بعداوة صريحة للباشا منذ ذلك اليوم فاقت في شراستها العداوة التي ناصب بها المسيو روسّو، ويبدو أنه لم يجد ما يفعله بالعداوة التي كنّها للرجل بعد وفاته المفاجئة فأسقط هذه العداوة على الموقف من الباشا لتصير عداوته له مركّبة، بل ومَرَضيّة، ممّا أسهم في

كلّ ما اقترف تالياً من خطايا اعتبرها المؤرخون السبب الذي قرّب أجل الأسرة القرمانلية؛ كأنّ حكيم الأزمان (الذي قال عنه ربّ المعبد في ديانة السلف الأوّل إن السّماء نفسها أعجزها أن تمتلك عليه سلطاناً منذ نَصَّبَتْه على الدنيا حَكَماً) لم يعدم الحيلة في أن يحيي إذا قرّر أن يحيي، كما لم يعدم الحيلة يوماً في أن يفني إذا قرّر أن يفني: فأرة تحتفر فجوة في أرومة جدار فينهار سدّ المياه فيتشرّد شعب ويزول من رحاب الدنيا وطن عريق. سوء فهم نبوءة جرت على لسان عرّافة المعبد يصير حُجّة لزوال إمبراطورية كبرى من الوجود. كابوس يجثم فجأة على صدر أُمَّة لقرن وثلث القرن عقاباً على.. صفعة على الوجه بمروحة! شهوةُ مغامر مهووسٍ بارتياد البحور تؤدّي إلى الوصول إلى يابسةٍ مفقودةٍ مسكونةٍ بمئات الأمم المجهولة، وبدل أن يصير هذا الحدث آية مديح في سيرة الإنسان المغلول منذ الأزل بقيود العزلة، انقلب سبباً في إبادة أمم وزوالها من يبوس يابسةٍ تشكّل مساحتها نصف الكرة الأرضية!

أفلن يكون التاريخ البشري، بعد هذا، هو تلك السيرة المرويّة بلسان العبقرية المجبولة بروحِ سخريّةٍ مريرة، المدوّنة بنَفَسٍ خفيّ لا نكتشف حقيقته كدمٍ سخيّ، إلاّ بعد فوات الأوان؟

٨٢- النّازلة

طرابلس. البلاط. ١٨٣٢م

طاف الباشا وجوه أعوانه، ثمّ جعجع بصوت منكر يخنقه الغيظ:

- أنتم لم ترهنوا فرقاطتي الوحيدة المتبقية من أسطولي الحربي المجيد. أنتم لم تكتفوا بقطع الطريق على تجارتي بقوافل الصحراء إلى الدواخل بإشعالكم فتيل الحرب مع قبائل بني وليد. أنتم لم تكتفوا بالاستدانة من كلّ مَنْ هبّ ودبّ من سفلة الأرض وسفساف الأجناس. أنتم لم تكتفوا بدفع عبد الجليل سيف النصر إلى الاستيلاء على فزّان وتهديد العرش بالسقوط. أنتم.. أنتم لم تكتفوا بتبديد أموالي، ولكنكم رهنتم رقبتي هذه في أيدي المرابين النصارى، وهاهم يستنجدون بحكوماتهم فيقف الإنجليز بأساطيلهم على باب داري، في حين يمسك قادة أسطول الفرنسيس بخناقي. فهل يرضيهم لو سلّمت رقابكم جميعاً إلى أيديهم ليأخذوكم رهائن، أو عبيداً، أو أي صفة يشاءون ، مقابل ربع الدين المطلوب، أو. أو فلنقل مقابل أن يمهلوني بضعة أيام أُخر ريثما أتدبّر أمري فأبيع ما يمكن بيعه في هذه المملكة، كأن أستولي على أملاككم وأموالكم التي سرقتموها منّي طوال الأعوام والأعوام، بل

وأبيع أولادكم ونساءكم أيضاً. فهل تظنّون أن ملل الأنذال التي رهنتموني في يدها ستقبل هذا العرض مقابل أن يمهلوني ولو بضعة أيام أُخر؟

التقط أنفاسه وهو يطوف الجمع الكئيب الملتفّ حول المائدة المستطيلة التي تتوسط فضاء الاستقبال، ثم واصل:

- لا أريدكم أن تحسنوا بي الظنّ فتتوهّمون أنّي لم أفعل لأن كبريائي لم تبح لي هذا العمل القبيح، لأنكم لم تتخيّلوا أني فقدت بفضلكم هذه الكبرياء، ولم يبقَ لي إلاّ أن أتمرّغ في الحضيض! لم يبقَ لي إلاّ أن ألعق أقدام النصارى وأتوسّل تمديد أجل الدفع البغيض؛ ولهذا لا يضيرني الآن أن أعترف لكم بأني عرضت على الأنذال أن يمنحوني فرصة أخرى مقابل التضحية بكم! وإذا كنتم تشكّون فيما أقول فاسألوا الوغد وارنغتون الذي كان لي رسولاً إلى قباطنة الأساطيل! وإذا كنت أدلي لكم الآن بهذا الاعتراف من باب التكفير عن ذنب، أو تلبية لإحساس بالندم فأنتم واهمون أكثر من ذي قبل؛ لأنّي.. لا أروي لكم ما حدث إلاّ لتدركوا وضعي، لتتصوّروا عاري الذي هو عاركم أيضاً إذا وُجد في عرفكم يوماً اسم لشيء اسمه العار! بلى، بلى! العار هو ما لا وجود له في لغتكم لأنكم سلالة دنيئة معجونة من طينة دميمة اسمها العار! وها أنتم تفلحون في جرجرتي إلى

مستنقعكم العفن لأمسي واحداً منكم، لأمسي مخلوقاً ملفّقاً من طينة العار؛ لأنكم أعلم الناس بأنكم أنتم من استدرجني طوال الأعوام الماضية إلى هذا الشرك بوصاياكم وأكاذيبكم وحيلكم وخبثكم وسباقكم وراء منافعكم وجشعكم وسوء معدنكم ونواياكم المبيّتة التي لم تُخفَ عنّي يوماً، برغم تظاهري دوماً لكم بالتصديق. فاشمتوا الآن ما شاء لكم أن تشمتوا، وافرحوا لأن هذه هي فرصتكم التي انتظرتموها طويلاً ظنّاً منكم أن سقوط قامة في شموخ يوسف القرمانلي ستعلي من شأنكم، لأن.. لأن هذا هو حال الدنيا منذ خُلق في الدنيا ملوك، وخُلقت في الدنيا حاشية ملوك!

وقف خلف مقعد سيدي محمّد شلبي لاهثاً فهمّ سيدي حسّونة الدغيّس أن يترافع، ولكن الباشا أسكته بإشارة صارمة فانكمش في مقعده في حين أضاف الباشا:

– بالأمس طرق بابي أمير الدسائس وارنغتون ليقترح التوسّط بيني وبين عبد الجليل سيف النصر لإنهاء النزاع بدفع الخراج مقبال العفو عمّا سلف، وبرغم عدم إيماني بنجاح أي مسعى يتولاّه صاحب النحوس هذا، إلاّ أنّي تعلقت بهذه القشّة كما يليق بأي غريق. فماذا كانت النتيجة؟ لقد عاد لي بالرفض بالطبع لأعلم من أحد جواسيسي أن اللئيم وارنغتون لم يذهب

لعرض الصلح على الخائن، ولكنه انتهز الفرصة ليوغر صدره ضدّي. لأيّة غاية؟ لا أدري. ولكن الرجل أخبرني أنه وَطّد مع عبد الجليل حِلْفاً. لأية غاية؟ لا أدري. ولكن الأيام سوف تكشف عن النوايا قريباً. وأعترف لكم أن طمعي في النجاة هو سبب قبولي عرض وارنغتون المشؤوم. فهو لم يغفر لي ولن يغفر. اعتذاري للفرنسيس عن تهم الباطل الموجّهة إلى المغدور روسّو، كما لم أغفر له الزجّ بالريّس مراد في مكائده القذرة مع روسّو وغير روسّو؛ هذا السفساف الذي تورطنا فيه جميعاً كأنَّ المملكة كوكبة نساء لينتهي بي الأمر بنفي صهري ووزير بحريتي مراد بك إلى جزيرة مهجورة كـ «لامبيدوزا»! فهل يمكن أن يبلغ الحمق ببلاط حداً يورّط الملك في أوحال فضائح كهذه لو لم تكونوا جميعاً طرفاً فعّالاً إلى جانب هذا الفريق أو ذاك؟ ألم تكونوا لي طوال الوقت العين التي بها أبصر، والأذن التي بها أسمع، وحتّى العقل الذي به أشير وأدبّر؟

دبّ عاقداً يديه وراء ظهره. برطم همساً:

- بلغني أن وارنغتون هو المذنب في كل ما حدث بالأمس، وهاهو يواصل حملته لهدم ما تبقّى بتقديمه إلى حكومته ذلك التقرير الكاذب حول ثروات مزعومة أخفيها عن الأنظار، ممّا تسبّب في قدوم الأسطول. فهل أقترح على أولئك الأنذال

الذين لا يصدّقون بؤسي أن يأتوا ليفتشّوا بيتي وسراويل نساء حريمي علّهم يجدون الكنوز المزعومة التي يروّج لوجودها اللئيم وارنغتون؟

سَرَت في المجلس همهمة استنكار لأوّل مرّة، ولكن الباشا حشرج:

– أجل ! أجل! ليس عليكم الآن أن تستنكروا، لأننا كما يبدو لم نعد نملك خياراً. لقد كنت شاهداً على اليوم الذي باع فيه أبي علي باشا صحون القصر الذهبية منها والنحاسية دون أن يحسب ذلك عاراً، لأن روح الجلد في هذا الرجل كانت أقوى من البليّة. وقد رأيت بأمّ عيني كيف استعاد عافيته بعد زمن قصير. المهم ألاّ تبالي (كان يقول لي) المهمّ ألاّ تعير أهمية للأشياء التي لن نستطيع أن نأخذها معنا للمثوى الأخير (كان يقول). ولهذا رأيت أن أحذو حذو هذا المكابر الذي لم يؤمن بشيء، ولم يكترث لشيء، ولم يكن ليحزن حتى يوم خروجه من القصر هارباً من باب الخدم برفقة حريمه حتى لا يقع في قبضة الدّعي علي برغل! قررت أن أحذو حذوه ببيع المدافع البرونزية المشيّدة على القلاع. سنبيع عطية ملك هولندا لسلفنا الأكبر أحمد القرمانلي أيضاً!

هتف الجمع بصوت جماعي تقريباً:

- سنبيع المدفع الذهبي؟

ابتسم الباشا بحزن قبل أن يجيب:

- بلى! سنبيع تلك التحفة التاريخية التي احتفظنا بها أكثر من مائة عام وحقّقنا بها انتصارات مشهودة ضد كل الغزاة الذين قصفوا هذه المدينة طوال هذا الزمان، لأنّ.. لأن ما أبشع التحف التي لا تفتدي الشرف ساعة المحنة!

سكت لحظات، ثم التفت إلى الجمع الشاحب ليضيف:

- وإذا لم ينجدنا من الورطة كلّ هذا فسوف نضطرّ لفرض مكوس على تلك الفئة المنزهّة دوماً من دفع المكوس!

طاف وجوه القوم الشاحبة التي تطلعت إليه بذهول كأنّها لا تصدّق ما تسمع. أعلن:

- أهل المنشيّة!

فردّد الأكابر بصوت فاجع كأنّ نازلةً قد حلّت:

- أهل المنشيّة؟!

ويبدو أن سيماء الفزع التي لاحت على وجوههم زعزعته أيضاً فاستدار ليوليهم القَفَا قبل أن يضيف إلى كلمة الكفر كفراً جديداً:

- ليس أهل المنشية وحدها، بل أهل السّاحل أيضاً!

ردّد القوم بذهول:

– أهل الساحل أيضاً؟

ترنّح الباشا فاستعان بالاستناد إلى الجدار كأنّ احتجاجهم كان من القوّة بحيث تحوّل طعنة أصابته في الظهر، ولكنه استعاد قواه فانتصب بقامته قبل أن يدلي بتبرير:

– تأدية الخدمة العسكرية التي اشترى بها كولوغلية المنشية والساحل الحصانة من المكوس لا يجب أن تعفي منذ اليوم من دفع المكوس، لأن حاجة الوطن اليوم لريع هذه المكوس أكبر من حاجته لحمل السلاح دفاعاً عن الوطن، لأنّ. لأنّ المال اليوم هو عملة الدفاع عن الوطن، وليس السّلاح!

سكت لحظة ثم التفت ليواجه القوم قبل أن يضيف:

– هذا برغم الحاجة لحمل السلاح أكثر من أي وقت مضى أيضاً لا لدحر عصاة القبائل، أو للدفاع عن البلاد ضدّ أمم النصارى وحسب، ولكن لردع طمع أهل الجوار!

ويدو أن الأعيان لم يستيقظوا من لطمة الذهول الأولى فلاذوا بصمت البلاهة فانتهز الباشا الفرصة ليباغتهم بنبأ يخفي بلية أخرى:

– فهاهي الأنباء القادمة من الشرق تفضح نوايا «محمدّ عليّ» ضد ملكنا!

ويبدو أن بيت المال انتبه من غيبوبته دون بقية الأعيان فوجد

اليأس كي يتساءل:

- محمدّ عليّ؟ ولكن ما حُجّة محمد عليّ كي ينسج الدسائس ضد ملكنا؟

- الحُجّة؟ وهل يعدم مريد الغزوات حُجّة إذا استشعر في نفسه القدرة؟

دبّ الباشا نحو المجلس خطوة أخرى:

- ألن تكون الرغبة في التوسّع مبّرراً كافياً لمن اكتسب القوّة؟ لماذا لا تستعيد مصر أمجادها الخرافية فتصير اليوم قبل الغد بديلاً للإمبراطورية العثمانية نفسها؟ أليس امتلاك الدنيا وما حوت الدنيا هو غاية كل سلطان نال على الناس سلطاناً فاغترّ بنيل هذا السلطان؟ لقد راود سلفي عليّ باشا القرمانلي وسواس استعادة جربة إلى حظيرة المملكة التي انسلخت من أرضها يوماً؛ واستعادة الأراضي التي سُلخت عن المملكة في الشرق مثل واحة «سيوة»، وكذلك استعادة الأراضي الأخري في الجنوب والجنوب الشرقي أيضاً مادام القدر قد أمهله ومنحه القوّة لإنجاز هذا العمل. وقد ضرب هذا السلف الحكيم الأخماس في الأسداس طويلاً قبل أن يتخذ قراراً بطرد الوسواس ويقلع عن هذه الفكرة الجنونية. وها هي الأقدار تكافئه على هذا الزهد بزرع هذا الوسواس في قلب عدوّه اللدود علي برغل

فكانت السبب الذي عجّل بأجله يوم حاول استرداد جربة فحفر بهذه المغامرة قبره بيديه ليعود ابن السلالة القرمانلية عليّ باشا ينتصب في جوف عرشه المغتصب. ومحمّد عليّ اليوم يستجيب لهذا الخنّاس فيجنّد الغرّ محمّد ابن الضّال محمّد يوسف القرمانلي ليتخذه دمية في الاستيلاء على عرش طرابلس!

سكت الباشا. زفر بعمق. لاَمَسَ منكب مصطفى بك غيورجي قبل أن يواصل:

– احمدوا اللّه أن جرثومة المماليك هذه لم تتمكّن من عرش مصر في زمن أخي أحمد بك وإلاّ لوجد هذا السّفيه الذريعة الأنسب في وضع مخطّطه الخبيث موضع التنفيذ. كما لم يهتدِ إلى نصيحة إبليس الرجيم (أو لم يهتدِ إبليس إليه) إلاّ بعد وفاة الإبن الضّال محمّد الأب، فحمداً للّه على ذلك، لأن التلويح بالأحقيّة في الجلوس على العرش هي الراية المناسبة دائماً لتبرير العدوان كما جرّبنا في زمن الجهاد ضدّ الأمريكان!

تخلّى الباشا عن منكب صهره ليخطو إلى الأمام. واجه بيت المال قائلاً:

– نحن الآن في حاجة إلى حشد الرجال إلى جانب جمع الأموال، ولا أظنّ أن أحداً أصلح لأداء هذه المهمّة غيرك ياسي «بيت المال»!

أمر الباشا في ذلك اليوم بتوجيه محمد بيت المال إلى درنة ليشرف بنفسه على تجنيد أبناء القبائل على طول الطريق الطويل إلى تخوم مصر في الشرق تلبية لنداء غامض في نفس الباشا (لم يختلف عن خنّاس علي برغل أو وسواس أبيه) يؤكّد وصيّة مشبوهة تقول إن البحث عن عدوّ في الخارج هو أفضل حيلة لامتصاص محنة الداخل. وبرغم عدم نفي نيّة حاكم مصر في غزو ليبيا كما برهنت الأحداث التالية إلاّ أن الباشا تنفّس الصعداء قليلاً سيّما بعد وصول الأنباء التي تحدّثت عن استعدادات محمّد علي لشنّ الحرب على سوريا بدل طرابلس. ولكن بسمة القدر للباشا لم تدم طويلاً؛ لأنّ إذا كان محمّد عليّ قد أقلع عن امتلاك طرابلس، فإنه لم ينسَ أن يبعث بحفيد الباشا دسيسةً خبيثةً إلى الأراضي الليبية ليجد الباشا نفسه يواجه بعد قليل خصماً أقوى إرادة في المطالبة بالعرش من المرحوم شقيقه أحمد بك، وأشدّ عناداً من ابنه محمّد بك!

محمّد محمّد بك هذا هو الفارس الذي سخّره القدر تالياً ليكون بطل الملهاة الأرضيّة، فالتفّ حوله كولوغلية المنشيّة في حربه مع جدّه أوّلاً، ثمّ في حربه مع عمّه عليّ تالياً، ليهرع إلى ساحته أيضاً عدوّ الباشا اللدود وارنغتون، ويعقد معه العهد المميت الذي عجّل بحلول خاتمة ذلك العهد الذي هيمن على الوطن الشقيّ لقرنٍ من الزمان وربع القرن.

٨٣- المكوس

اقتحم الأمير عليّ جناح الأب في ذورة القيلولة مدفوعاً بمصير الثمانين ألف قرش ذهبي التي سلخها محمّد بيت المال من جلود كولوغلية بنغازي وبدّدها الأب على عرس ابنته. وقف الإبن فوق رأس الأب وهو ينفث أنفاساً كفحيح الحيّة قبل أن يفلح في استعادة القدرة على استخدام عضلة السوء:

– انهض الآن وأفدني: لماذا فعلت ما فعلت؟

هبّ يوسف باشا في البداية مرعوباً، ولكنه استعاد حضوره عندما أبصر الأمير فوق رأسه، فانكمش في الفراش متستّراً ببسمة خبيثة في حين أضاف الابن:

– أيُعقَل أن يتبخّر كنز قدره ثمانون ألف قرش ذهبي في ليلة بعد أن كلّفنا الحصول عليه ثورة؟

غمغم الباشا:

– ستجني الثورة من أبناء الرعيّة سواء دفعوا مكوساً أم لم يدفعوا!

ارتبك الإبن وعقد لسانه الغضب:

– ولكنّها.. ولكنّها ليست مكوساً سنوية، بل.. بل مكوس البليّة التي عقدنا عليها الآمال في تحرير رقابنا من العبودية، بددتها أنت في ليلة على زفاف خنفساء!

تمتم الباشا في ركن فراشه:

- لا تنسَ أن هذه المخلوقة التي تنعتها بالخنفساء هي أختك!

احتجّ الأمير:

- هذا عارك الذي ألحقته بي!

- عاري؟

- لستُ أنا من احترف الزواج من الإماء كأنّ المملكة خلت من النساء!

أسدل الباشا على وجهه قلنسوة مضحكة شبيهة بطرابيش الدراويش قبل أن يعترض:

- لقد تركتُ لكم نساء المملكة بعد أن اكتشفت أن المرأة البيضاء شهيّة للنظر حقّاً، ولكنها كبعض الزهور بلا رائحة!

كتم في صدره ضحكة وهو يلاحق الأمير بنظرة ماكرة. قال الإبن:

- لقد نسيتَ أنّكَ ملكٌ. وهو ما يعني أنّك مكبّل بعرف الملوك الذي لا يبيح إنجاب الأبناء من الإماء حتّى لو كنّ بنات النصارى، فكيف إذا كنّ ملّة زنج جاءت بهنّ قوافل العبيد؟ فبأيّ حقّ تدفع سلالتنا التي تجري في عروقها الدماء الملكية ثمن شهواتك فنجد أنفسنا مطوّقين بغوغاء من بطون ثلاث إماء بدل الأَمَة الواحدة، لهن حقوق الزوجات بدل أن يكنّ محظيات، كما يليق بالملوك الذين يطفئون النزوات في أحضان المحظيات بدل

اتخاد الزوجات من المحظيات حتّى لو كنّ بنات ملوك، فكيف إذا كنّ بنات سبيل؟

تطلّع إليه الباشا خلسة طوال الوقت، ثمّ:

– ولكنّي وجدت روح النبوّة في ذريّة الخنفساء أكثر ممّا وجدت في ذرّية سليلة النبلاء؛ والدليل هو شقيقك محمّد الذي كافأته على طعنته لي بولاية كاملة، فما كان منه إلاّ أن سخّرها ضدّي في ثورة؛ وعندما هُزم في غدره ذهب إلى مصر ليبعث لي قبل أن يموت بوريثه الذي سمّم عقول الرعيّة وسَخَّرَ ضدّي أهل المنشيّة!

زأر الأمير في وجه الأب:

– سليلة النبلاء في هذه البليّة ضحيّة فلا تحاول أن تجعلها جلاّداً. وإذا كان محمّد قد ضلّ فأنت السبب، وليس الأمّ. لقد حاولتُ منذ أعوام أن أصلح كلّ ما أفسدتَ، ولكنّك لم تكن لي عوناً في إصلاح ما فسد، بل فعلت كل ما بالوسع لتجعلني أضحوكة في نظر الأعيان، كأنّك.. كأنّك تتحدّاني.. كأنّك تصرّ على إغراق هذا القارب الذي حاولت وأحاول جاهداً إنقاذه. والدليل ما حدث اليوم. لقد أمرتَ بتبديد ثروة أنت أعلم بأي ثمن فادح استطعنا الحصول عليها. ثروة وُجدت لتعتق رقابنا التي رهنتها أنت في قبضة النصارى، فإذا بك تسمح بإنفاقها

على حفلة زفاف!
تململ الباشا في فراشه لحظات. أطلق آهة موجعة قبل أن يترافع:
- يدهشني أن تحيا في هذا القصر كل هذه الأعوام فتجهل أنّنا لسنا نحن من يدير شؤون هذه المملكة في الواقع، ولكن نساء البلاط هنّ من يدير الشؤون!
حدّق الإبن في وجه الأب ذاهلاً، فأضاف الباشا:
- بلى! بلى! نساء هذا البلاط هنّ ورم هذه المملكة! يكفي أن تتساهل معهنّ مرّة لتجد نفسك دميةً في أيديهنّ إلى الأبد!
أطلق الأمير ضحكة سخرية، ثم صفع كفّاً بكفّ قبل أن يستدير لينفّس عن خيبة الأمل بالسعي ذهاباً وإياباً، وهو يردّد:
- يا للاعتراف!
أضاف الباشا:
- لم أدرك إلاّ أخيراً سرّ اضطهاد عليّ باشا الأب لهذه الملّة. لقد ناصبهنّ العداء فلم يطأ جناح الحريم يوماً. كما لم يسمح لامرأة بالدخول لجناحه باستثناء الأم التي لم تدخله أيضاً سوى ثلاث مرات، ولم يجالس في أوقات فراغه سوى المسخ «إستير» أو الزنجية «زهرة». وهو ما لم يغفره لنفسه أيضاً لأن قراراته لم تكن لتخلو من تأثيرهنّ كما توهّم دوماً. أمّا أنا فقد وضعت المقاليد في أيديهنّ لأنهنّ كنّا نقطة ضعفي! وها

أنا أجني خراب ملكي بسبب عجزي عن التحرّر من سلطانهنّ. إنهنّ.. إنهنّ يتكاثرن تكاثر الجراء لينقلبن جيشاً في زمن قصير فأدفع أنا، يوسف باشا القرمانلي، آثام ذلك العرف البليد الذي يحرّم على الرعية الزواج من بنات العائلة المالكة. حاولت إصلاح الأمر بإخلاص فأصدرت بهذا الشأن الفرمان تلو الفرمان، ولكن بلا جدوى: كان أبناء الرعية أعظم كبرياء من أن يسلّموا رقابهم لنساء يعرفون جيّداً أنهم سيصيرون لهنّ حريماً بدل أن تصير تلك الغانيات المكابرات لهم حريماً، لأنّهم.. لأنّهم لم يكونوا عمياناً أو صمّاً فتغيب عنهم سيرتهنّ المنكرة مع أزواجهنّ الأعلاج! لقد وجدت نفسي عاجزاً في النهاية عن إشباع حاجاتهنّ. هل تتخيّل أن كل مخلوقة منهن تستولي كل عام على عوائد مكوس مدينة كاملة من مدن المملكة؟ والويل لي من دموعهنّ، ومن كيدهنّ إذا اعترضتُ، أو تجاسرتُ، فمنعتُ!

لوّح الأمير بيده في الهواء مقاطعاً قبل أن يزفّ للأب بشارة أخرى:

– ليتك اكتفيتَ، يا أبي، بتجريدنا من الغنيمة، ولكنّك أضفتَ لخطيئتك خطيئة أخرى أسوأ ألف مرّة!

– خطيئة أسوأ؟

توقّف عليّ بك عن سعيه. تأمّل الأب مليّاً قبل أن يعلن:

- مكوس أهل المنشية!

تطلّع إليه الباشا مستفهماً، فأضاف:

- لقد سلّطت المكوس على رقاب فئة تعدّ نفسها فرسان المملكة دون أن تستشير أحداً فحصدنا جرّاء هذه الحماقة ثورة أخطر من كلّ الثورات، لأنها ثورة في عقر الدّار. ثمّ استدركتَ لتصلح الخطأ فحدّثت الأعوان بنيّتك في إلغاء المكوس دون أن تستشير أحداً هذه المرّة أيضاً. فهل تدري ما معنى هذا الاستدراك؟

لاذ الباشا بالصمت فجعجع الأمير بصوت مخنوق بالغضب:

- إنه رصاصة الرحمة التي أطلقتها على نفسك!

صالح الباشا مستنكراً:

- رصاصة الرحمة؟

اقترب منه الأمير. انحنى فوقه حتّى كاد يصدمه بعمامته. حشرج:

- هل حدث وبلغتك يوماً سيرة ملكٍ أصدر أمراً ثمّ استدرك أو تراجع؟ ألا تدري أن التراجع عن أمر أو حتّى عن قول في حال الملوك هو بمثابة إصدار حكم على النفس بالإعدام؟ أم أنّك نسيت أن الملوك ما هم في نظر الرعية سوى آلهة معصومة من الخطأ، ومنزّهة عن الإثم؟ فكيف يؤمن العبد الفاني بمعبودٍ يعلن على الملأ بأنّه أذنب، ولا يكتفي بذلك ولكنه لا يجد حرجاً في التكفير عن ذنبه بطلب الغفران؟

رفع الباشا يديه فوق رأسه كأنه يستجير من البليّة، ثم:

– أنت تذهب بعيداً..

ولكن الابن لم يرحم الأب:

– ماذا ظننت إذاً؟ هل ظننتَ أن هؤلاء الأوباش سوف ينحنون لك امتناناً على التنازل؟ ألا تدري أنّهم عدّوا تنازلك هذا نصراً زادهم على تنحيتك إصراراً؟ ألم تقدّم لهم الحُجّة على كونك عبداً ولست بعد اليوم معبوداً؟

ولولول الباشا بصوت غريب:

– مهلاً! مهلاً!

تراجع الأمير خطوات. انتصب في المكان باستعلاء قبل أن يعلن:

– التنازل عن فرمان المكوس هو فرمانُ تنازلٍ عن العرش!

قفز الباشا من السرير، ولكنه ترنّح وعاد فسقط في جوف السرير ليتوَجّع:

– ماذا تقول؟

واجهه الابن بقسوة:

– كلّ الأعيان أجمعوا على أن الحلّ الوحيد المتبقّي لإنقاذ البلاد هو أن تتنازل لي عن العرش!

٨٤- السياط

لم يكن عليّ بك لينسى أن الضائقة في الأموال هي سرّ كلّ البلايا التي عانتها وتعانيها المملكة. ولهذا السبب كان أول فرمان أصدره يوم تولّى العرش خلفاً لأبيه هو: الحجز على أموال الأب!

وكي يبدو في نظر أبناء الرعية عادلاً أورد في حيثيات الفرمان بنوداً تتحدّث عن شيخوخة الأب وتضعضع قواه العقلية ممّا لم يعد يبيح له (لا قانونياً ولا أخلاقياً) التصرّف في أمواله أو ممتلكاته إلاّ بتزكية خطيّة مِن الإنسان الوحيد الذي نصّبته النواميس الإلهيّة والوضعيّة على شخصه وصيّاً وهو: أكبر الأبناء ممّن هم على قيد الحياة في إشارة ضمنيّة دون أن يتنازل فيسمّي نفسه حرفاً.

لم يكتفِ الابن بالاستيلاء على ممتلكات الأب في وقتٍ كانت فيه المملكة أحوج ما تكون للقرش الواحد، ولكنه أصدر فرماناً آخر قضى بنفي يوسف باشا للإقامة خارج سور القلعة معلّلاً هذا الإجراء بظروف الوالد الصحيّة التي لم تعد تحتمل صخب البلاط الذي بات يتهدّد سمع الباشا في الآونة الأخيرة حتّى كاد يصيبه بالصمم. وهي حيثيات باركتها الحاشية التي جاهر أفرادها بالشكوى من عسر التفاهم مع الباشا في السنوات

الأخيرة بسبب خلل مريب أصاب في الرجل جهاز السمع أدّى مراراً إلى حدوث مفارقات هزلية برغم نتائجها المحزنة التي دفع فيها الأبرياء أثماناً جسيمة.

الخروج راق للباشا أيضاً لا لأنه وجد فيه الخلاص من «الصداع المزمن»، كما كان ينعت تدبير شؤون البلاد، ولكن لأنه حرّره من وزر آخر بات له في الآونة الأخيرة سرّاً تعمّد أن يخفيه عن الكلّ بما في ذلك الزوجات وهو: العماء! كانت سحب الظلمات تغزو مقلتيه في غارات مفاجئة وفي أوقات غير مناسبة إلى حدّ اضطّر فيه مراراً إلى صرف الأعيان والوزراء على نحوٍ مباغت أثناء التئام القوم في اجتماع مخصّص لبحث أخطر القضايا فينفضّ الجمع دون أن يخفي القوم دهشتهم، برغم اعتيادهم على غرابة أطواره. استشار في أمر هذه النوبات الجنونية المستر «كودري» طبيب «فيلادلفيا» قبل أن يغادر المملكة عقب توقيع الاتفاقية المشؤومة فأخضعه داهية النصارى لفحوصٍ قاسية قبل أن يسأله عمّا إذا كان يعاني من النقرس، فأجابه ساخراً: «وهل في هذه البلاد مخلوق واحد لا يعاني من النقرس؟». ابتسم طبيب النصارى قبل أن يستنتج: «إذا لم يكن السبب في النقرس فأغلب الظنّ أن المرض وراثة!». قالها المستر «كودري» بعفوية، ولكن الشّطر الثاني

من العبارة زلزل الباشا زلزلةً. فقد تذكّر مصير السلف الأوّل أحمد الأكبر الذي شغل الدنيا وبلبل الناس لينتهي بإطلاق عيار ناري على رأسه بسبب عماء أخفاه عن الجميع حتّى النهاية. ويبدو أن فشله في إخفاء انفعاله أربك الطبيب فسأل بقلق: «هل حدث خطأ مّا يا سعادة الباشا؟». ابتسم ليجيب: «كلاّ! كلاّ! الخطأ في الطبيعة إذا كنتَ على يقين أن السبب يمكن أن يكون وراثة!». اغتصب ضحكة، ولكنه أضاف في الحال: «ما أردت أن أعلمه هو: إلى أيّ سلف يمكن أن يمتدّ الخطأ إذا كان مخفياً في الطبيعة؟». أجاب المستر «كودري» في الحال: «إلى ما لا نهاية!». فاستفهم الباشا: «ما معنى إلى ما لا نهاية؟». سكت الطبيب لحظات كأنه يخشى أن يخونه التعبير وهو الذي تعلّم بالتجربة أن الخطأ في عبارة على لسان طبيب كفيل بأن يهلك المريض يأساً، وربّما انتحاراً أيضاً. قال أخيراً: «الطبيعة بالنسبة لنا مازالت عالماً مجهولاً. ولا أشكّ في أن يوماً سيأتي تكتشف فيه البشرية حكمة هذا اللغز المستغلق الذي نسمّيه طبيعةً. إنها ربّ آخر لا يخون نفسه أبداً. أعني لا يخون ناموسه أبداً. فإذا دسّ في القاع طلسماً اليوم فاعلم ياسعادة الباشا أن ذلك لن يكون عبثاً. أعني أن هذه الشفرة التي أخفاها في جرمٍ مّا بعيداً فلابدّ أن تعلن عن نفسها يوماً سواء طال الزمن

أم قصر. نحن الأطباء نسميّ هذا العمل في معجمنا العاجز عن استيعاب عبقرية هذه الأعجوبة: علم الوراثة!». سكت الباشا لحظات يومها قبل أن يتمتم بعبارة: «مفهوم» التي لم تكن في تلك اللحظة لتعني أي شيء. منذ ذلك اليوم لم يفارقه الوسواس: وسواس أن يلقى المصير المحزن ذاته الذي تنزّل على سلفه. ولهذا السبب لم يكترث كثيراً لفراق ذلك الجوف اللعين الذي تعشّقه كما لم يتعشّق شيئاً في الدنيا وهو: العرش! لم يكترث لأنه هدهد في القلب البديل. قال لنفسه إن عليه أن يختلي بنفسه الآن ليعتني بنفسه، لأن العرش الذي اكتشف الآن أنه لم يهبه السعادة المنتظرة طوال عشرات الأعوام لن يستطيع الآن أن يشفيه من الدّاء. لن يستطيع أن يعفيه من العماء، ولا من الصمم. بل فوجئ منذ الأيام الأولى لمقامه في بيته المتواضع الجديد في قلب المدينة أن التحرّر من القصر قد حقّق له سلاماً غريباً لم يستشعره قبل ذلك اليوم أبداً. فهل هذا هو ذلك اللغز الذي تسميّه العامّة سعادة، ويسميّه دراويش الطريقة القادرية سكينةً؟ كأنّه خلع همّاً، كأنه خلع كابوساً ثقيلاً، يوم خلع لقباً خاوياً يراه بلهاء الناس سلطاناً. كأنّه .. كأنّه كان نائماً نومة أهل الكهف، ولم يستيقظ من ذلك السبات المميت إلاّ اليوم. كأنّه.. كأنّ روح أبيه عليّ باشا القرمانلي سكنته فجأة. ولِمَ لا؟ ألم يحبّ أباه أكثر من أي مخلوق في الدنيا؟ ألم يهبه يوماً أعزّ

ما حلم بامتلاكه وهو العرش؟ ألم يتنازل له عن هذا الجوف الرهيب يوم حرّره من قبضة الأبله أحمد بك؟ لقد أعاد له الأب في ذلك اليوم المجيد هبته في الحال. لقد أجلسه الأب على العرش وبارك جلوسه بركعةٍ جليلةٍ كانت له في المحن تعويذة. بلى، بلى! لقد أحبّ الأب أكثر من كل شيء في الدنيا، والدليل أنه الإنسان الوحيد الذي تنازل له عن العرش. أفلن يكون هذا برهاناً آخر على رغبته الخفية في أن يكون صورة من أبيه؟ ألم يكتشف الآن، بعيداً عن بلبلة البلاط اللعين، أن كلّ حلمه هو أن يتماهى مع الأب ويستعير روح الأب؟ ألم يخفِ هذا الحلم حتّى عن نفسه، برغم علمه بأنه لم يفارقه يوماً؟ وهاهي الأقدار التي حققت له كلّ أحلام دنياه تفاجئه اليوم بتحقيق حلم التماهي مع الأب أيضاً، أو،، أو تشرع شروعاً حثيثاً في تحقيق هذا السرّ الذي إذا كان قد استطاع أن يخفيه عن الدنيا وأهل الدنيا، فإنه لم يكن ليفلح في إخفائه عن القدر. القدر! القدر! آه. ثم آه من دهاء هذا اللغز الخالد المدعو قدراً! وها هو يستجيب لنداء القدر فيخطو أخيراً في السبيل ذاته الذي خطا فيه سلفه. يستيقظ مبكّراً ويرتدي لباسه بعون الزوجة الوحيدة التي جلبها معه من وكر البلاط، ثم يذهب ليؤدّي صلاة الفجر في جامع الباشا. بعد الصلاة يزور البحر على طريقة الأب الذي لم يعشق شيئاً كما عشق البحر. يسير بجوار الشاطئ. يتأمل وثبات الموج في

تلك الحملات الحثيثة ضد صخور الشطّ.حملات تبدو حميمة في سكون الغمر الذي يسبق شروق الشمس. لأن الكائنات قبل طلوع الصبح كلّها تتأهّب صامتةً لاستقبال ميلاد الضوء. كلّها تصلّي استعداداً لميلاد المعبود، تسكن كأنّها تتنصّت. المياه في العمق ترتجف تلبيةً لنداء أنسام الصبح البكر، ولكنّها لا تتمادى أبداً فتشتطّ. ترتجف في زحفها نحو الشواطئ فيندفع موج خجول ليعانق صخوراً تنتصب كعسس الأبد عند حافة الخضمّ. راق له دائماً أن يشاهد طقوس هذا المحفل ليتلذّذ بلحون هذه الأغنية. الأغنية المكتومة، المحمومة، التي تسبق الشمس التي لا تعود شمساً، لا تعود كوكباً، ولكنها تنقلب معبوداً.

في مثل هذه الوقفات فهم سرّ ولع الأب بحميمه البحر، حميمه الوحيد في دنيا عزلته: البحر! عزاؤه الوحيد: البحر!

يعود إلى المدينة ليتلقّى في الطريق إلى البيت تحيّات أناسٍ كانوا له يوماً رعية. ينحنون له وهم يرددون لقب: «مولانا»، ولكنّهم كفّوا تالياً عن استخدام هذا اللقب واستبدلوه بعبارة: «سيّدي يوسف»، ثم تنازلوا عنها أيضاً في الآونة الأخيرة ليكتفوا باسم: «سي يوسف». ولكنه لم يأبه. بل لم ينتبه. وربّما استحسن الأمر مع مرور الوقت، لأن زوال الألقاب دليل آخر على الحرية. نسيان الهوية من قبل الرعية برهان خلاص.

برهان خلاص لأنه يعيد للناس هوية الناس بعد أن يجرّدهم من اسم الرعية! وهاهم أشقياء الأزقّة من الصغار يرجمونه في أحد الأيام بالحجارة فيدمون جبينه بجراح. لم يبالِ في ذلك اليوم أيضاً لو لم توقظ تلك الشقاوة عرق الوراثة اللعين فتحجب بصره غشاوة الظلمة. تماثل للشفاء بعد استخدام المراهم المستحضرة من الأعشاب البرية، ولكن الشفاء لم يدم طويلاً؛ لأن سوء الحظّ أبى إلاّ أن يدفعه مرّة للوقوف مبكّراً في ساحة الرخام حيث ينتصب قوس «ماركوس أوريليوس» المطوّق بأجرام التماثيل ليتفرّج على تلك الربّة المرمرية التي بهره جمالها كأنّه اكتشفها لأوّل مرّة. في تلك اللحظة داهمته عربة منطلقة من زقاق «الفرنسيس» فكادت تسحقه سحقاً. صهل الجواد بحدّة وهو يثب بساقيه الأماميتين في الهواء فتنحّى في آخر لحظة. تنحّى ولكنّ وجهاً صارماً أطلّ من جوف العربة ليلسع وجهه بالسوط زاعقاً:

– هل أنت أعمى يا شيبة النحس؟!

أحد المارّة أخبره أن الرجل أحد أحفاد يوسف باشا العائد من سهرة مجون!

لسعة السوط استفزّت الجرثوم الخبيء فعاوده الصداع وزحفت على المقلتين سحب الضباب مرّة أخرى!

٨٥ - الوعود

كشّر كل شيء في وجه عليّ باشا ما أن غادر شاكر أفندي مبعوث الباب العالي الذي بارك اعتلاءه العرش وحمل له من الآستانة لقب الباشوية. فالقنصل وارنغتون الذي اعتمد على وعده بالدعم غادر إلى صفاقس على متن باخرة نمساوية ومكث هناك يرقب الأحداث. وخليل بك حاكم بنغازي تخلّى عن منصبه وعاد إلى طرابلس ليتسجير براية سيّدي محمّد محمّد بك الذي اتّخذ من المنشية مقرّاً له. أمّا الحاج المكنّي الذي عقد الآمال على حملته على مرزق لانتزاع فزّان من قبضة عبد الجليل سيف النصر فلقي مصرعه فجأة على يد أتباع سيّدي محمّد وهو في طريق العودة. وهاهو غومة المحمودي يجاهر بالعداوة في الغرب ويمدّ نفوذه نحو جبل غريان باقتراحه القاضي بعقد حلف مع الشيخ عبدالصمد. لقد أصدر بالأمس القريب عفواً عن المتمرّدين جميعاً درون قيد أو شرط، ولكن لم يستجب للنداء أحد. وكان عليه أن يقرأ الشؤم في هذه الإهانة أكثر من هزائم أتباعه على الجبهات الكثيرة التي تنزف أموالاً أيضاً إلى جانب نزيف الدّم. وهو ما لن يصبر عليه الأعيان طويلاً لأنهم إذا كانوا قد تسامحوا بشأن المكوس الاستثنائية،

فإنهم لن يغفروا بقاء أبنائهم تحت السلاح أمداً أطول. فما الحيلة؟

– الحيلة في العطاء، كما قال له بالأمس أحد الأعيان، وعندما سأله عن حيلة رجلٍ لم يعد يملك ما يعطي، أجاب الرجل:

– إذا لم يوجد العطاء، فهناك الوعد بالعطاء!

أعجبه الجواب فقرّر أن يمضي في اللعب شوطاً أبعد:

– وهل يصدّق الموعود وعدي إذا كان أعلم الناس بحالي؟

– ولماذا لن يصدّق الموعود وعدك إذا كان أعلم الناس بأن وعد الملوك ليس مالاًوحسب، ولكنه كنز؟

سكت ذلك الشيخ الوقور لحظات قبل أن يضيف:

– من وهب ملكاً على سبيل الدَّيْن فقد ادّخر لنفسه كنوز قارون حتّى لو لم ينل بالمقابل شيئاً!

– حتّى لو لم ينل شيئاً؟

– حتّى لو لم ينل شيئاً عينيّاً فإنّه يعلم أن الصيت عملة أقوى لأنّه بالمقارنة مع كنوز الدنيا لا يفنى! ولهذا فإن وعد الملك صكّ مؤجّل، فيكفي أن يقال: «انظر! هذا فلان ابن فلان الذي أعطى الملك فلان على سبيل الدّيْن كيت وكيت!». ألا يكفيه هذا فخراً؟ بعدها أمر باستدعاء الحاج محمد بيت المال ليستشيره في أمر الوعود التي قرّر أن يغدقها على القبائل بسخاء، ولكن

الرسول عاد ليخبره بفرار محمّد بيت المال إلى جزيرة مالطا كأنّ الأقدار تعمّدت أن تجرّده من الجميع في أول عهده بالحكم ليجد نفسه يعاند الأمواج وحيداً.. اختلى بنفسه يومها متأمّلاً حواره مع شيخ الأعيان الذي يجهل اسمه وغابت عنه الآن حتّى سيماء وجهه. تأمّل طويلاً قبل أن يكتشف، وياللغرابة، أن أباه يوسف باشا لم يدفع في حياته للرعية سوى الوعود! مهلاً! مهلاً! الواقع أن يوسف باشا لم يدفع في حياته كلّها للدنيا كلها سوى الوعود التي تجرّ خلفها ذيلاً آخر من وعود. وعود! وعود! وعود إلى ما لا نهاية. وعود تتواصل من المهد إلى اللحد! فهل يُعقل أن تستعير هذه العملة الرديئة (بل والمزوّرة) الأصالة في نظر الخليقة لمجرّد أن مخلوقاً يجلس في جوف عرش ممسكاً بصولجان هو من أجراها على لسانه؟ هل يستحيل كلم البعض ذهباً إبريزاً لمجرّد أن الناس قد آمنوا بهم ملوكاً؟ والدليل؟ الدليل هو يوسف باشا الذي لم يدفع في حياته يوماً قرشاً واحداً عدا الوعود: وعود للقبائل، وعود للأعيان، وعود لملوك الممالك، وعود في شأن تنفيذ المعاهدات الدولية، وعود لقادة الجيش، وعود للأمراء، وعود لأبناء الرعية، وعود لنساء البلاط، وعود، وعود، ولا شيء أبداً باستثناء الوعود!

أفلا ليحقّ له أيضاً اليوم أن يجرّب حظّه في إطفاء حريق الفتنة باستخدام مارد الوعود؟

٨٦- الطُّعْم

بلغت حمّى الغليان الذروة بعودة وارنغتون المفاجئة إلى البلاد، لا ليكفّر عن حماقاته السابقة، ولكن لينضمّ علناً للثوار. ولم يكتفِ بذلك، ولكنه وضع بيته في المنشية تحت تصرّف قائدهم الذي راق له دائماً أن يعتلي سطوح ذلك القصر المهيب المتوّج في الأعلى بحصن منيع ليشرف من هناك على سير عمليات أنصاره الحربية ضدّ المدينة. أمّا قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فقطع في عداوته للحاكم الجديد شوطاً أبعد فلم يكتفِ بانضمامه إلى الحلف المبرم بين زميله وارنغتون وبين حشود قوى الثورة، ولكنه أصدر بياناً مشتركاً ممهوراً بتوقيع قادة الثورة يطالب فيه عليّ باشا بالتنحّي عن العرش لصالح ابن أخيه محمّد.

ففي لحظة بدا فيها كل شيء مشجعّاً على اليأس، بل والاستسلام للأمر الواقع، قرّر عليّ باشا أن يستخدم آخر سهم في جعبته فأمر بإرسال ثلاثة قوارب إلى الشيخ غومة المحمودي محمّلة بما استطاع أن يستولي عليه من مجوهرات في خزائن الحريم في نيّة لاستمالة زعيم القبيلة التي كانت الحليف التقليدي لآل القرمانلي قبل أن تلتهم ألسنة نار الثوّار هشيم القبائل الكبرى، دون أن ينسى بالطبع أن يشحن القوارب بقدر أعظم

من الوعود المعسولة التي يسهب بعضها في سرد تفاصيل الإجراءات المزمع اتخاذها في المستقبل القريب لإعادة إحياء الامتيازات التي كانت قبائل المحاميد تتمتّع بها قبل مصرع الشيخ أبي القاسم (شقيق غومة الأكبر). لم يفت عليّ باشا أن يضيف لهذا الوعد المغري وعداً آخر له صلة بمقتل الشيخ أبي القاسم الغامض يقول إن التحقيقات التي أمر بإجرائها حال جلوسه على العرش بشأن مصرع الشيخ الشقيّ قد أدّت إلى اكتشاف حقائق جديدة، وسوف يُكشف عن تفاصيلها حال استكمال فصولها لينال الجناة القصاص الجدير بارتكاب جرم بمثل هذه البشاعة! ولم تمرّ بضعة أسابيع حتّى أثمرت هذه الأكاذيب على نحوٍ لم ينتظره عليّ باشا. فها هي قبيلة المحاميد تبرهن على انحيازها لصاحب العرش فتشنّ هجوماً كاسحاً على جيش الثوّار المرابط في مدينة الزاوية فتستردّ هذا الموقع الخطير بعد حملات كرّ وفرّ استمرّت أياماً.

بعدها قرّر الباشا أن يجرّب حظه مع زعيم آخر أقوى بأساً، وأدهى عقلاً وأكثر عناداً هو: عبد الجليل سيف النصر!

فكّر الباشا طويلاً، ولكن عقبة كانت تعترض كلّ حيلة كفيلة بفكّ طلسم أحجية هذا الرجل الداهية والشجاع في آنٍ معاً. كوّنت له هذه العقبة نقطة ضعف، لعنة، وكادت تتحوّل عقدة،

لأن من اليسير أن تنطلي حيل آل القرمانلي على زعماء القبائل والأعيان وملوك الدول وحتّى على دهاة التدبير وقراصنة البحار، ولكن من العسير أن تنطلي أكاذيبهم على من عرف طبيعتهم وعاش حياة البلاط كأي فرد منهم كما هو الحال مع عبد الجليل الذي ترعرع في السراي منذ الصبا. لقد أذهله ذكاء هذا الفتى منذ أول يوم دخل فيه القصر بعد مقتل أبيه أحمد سيف النصر على يد شقيقه الأكبر محمّد بعد العودة من حملته على أهل برقة. وبرغم صغر سنّه في تلك الأيام إلاّ أنه أدهش الجميع في البلاط في كلّ الخصال: في حذره الذي يفوق حذر العقعق، في دهائه الذي يفوق دهاء حيّة، في عقليته التي تفوق عقلية ثعلب. ولكنه تمتّع بخصال أخرى سحرت الكلّ فأحبّوه كما أحبّوا بقية أفراد الأسرة، وربّما أكثر مما أحبّ أولئك الأخوة المتنافرين لوناً وقلباً بعضهم بعضاً، ولكن هذا اللّين لم يكن ليخفي سرّاً. لم يكن ليخفي نيّة مبيّنة عبّر عنها ذلك الشاعر الصحراوي المهاجر (ما اسمه يا ترى؟ هل هو قنّة؟ أم هو قنانة؟) عند مثوله بين يدي الأب في أحد الأيام بقصيدة شهيرة لم يعد يذكر أبياتها حرفياً الآن، ولكن.. فحواها تتحدّث عن الطبيعة التي لابدّ أن تعلن عن نفسها في أحد الأيام. أم.. أنها تروي سيرة الظمأ الذي لا يموت إلى الانتقام؟



كان الباشا يجلس وحيداً في مواجهة البحر في خلوة ذلك اليوم الذي استعاد فيه هذه السيرة ليجد نفسه وقد اهتدى إلى نبوءة: امتلك وحياً غاب عنه طوال الوقت دون أن يدرك كيف حدث ذلك. لقد نسي طوال الزمان أن عبد الجيل هو سليل أحمد سيف النصر الذي لقي مصرعه على يد.. على يد مَن؟ على يد محمد بك أب المتمرّد محمّد بك الذي يحالفه عبد الجليل في حرب اليوم دون أن يكلّف نفسه عناء التفكير عن السبب. فكيف لم يستخدم هذا السلاح إلى اليوم؟ كيف غاب عنه أن الظمأ إلى الانتقام طبيعة الإنسان التي تفوق في سطوتها الشهوة إلى المنفعة؟ أفلن يكون العزف على هذا الوتر (شريطة أن يتقن فنّ العزف) هو الأعجوبة الكفيلة بإحياء روح الثأر؟

اختار أحد المرابطين ليكون له إلى الشيخ رسولاً. قال له في البلاغ إنه آخر مخلوق في الأرض يمكن أن يحاول أن يخدعه وهو الذي يعرف فيه الدهاء وقدّر (من دون كلّ أهل البلاط) فيه هذا الدّهاء، حتّى إنه لا يخاطب فيه اليوم إلاّ هذا الدّهاء، ولم يختره لهذا الخطاب دون كل الأطراف التي تتكالب عليه إلاّ لامتيازه بهذه الخصلة، لأنه هو الطرف الوحيد القادر على أن يقدّر ما سيقوله حَقَّ قدره: «فهل يُعقل أن نفني بعضنا بعضاً استجابةً لمكيدة من عدوّ، بل من عدوّين اثنين نستطيع

أن نتعرّف على العدوّ المكشوف، ولكن هيهات أن نتعرّف على قرينه الآخر المتستّر بقناع؟ وعلّك تحدس مَنْ قَصَدْتهُ بالعدوّ المكشوف، كما لا أظنّ أيضاً أن هويّة العدوّ الثاني سوف تُخفى على إنسان حباه سبحانه وتعالى بعقل كعقلك. أجل، أجل! الإنجليز هم العدوّ المفضوح الذي نقوم بتنفيذ مشيئته فينا ببلاهة الصِّبْيَة، أمّا العدوّ المستخفي وراء القناع فلن يكون إلاّ حماتنا في الآستانة الذين رجَّهم احتلال فرنسا لجارتنا الجزائر ففقدوا بهذه المفاجأة هيبة كانت لهم دوماً ترساً أكثر من حسرتهم على فقدان إيّالة. لقد بلغني أن إنجلترا التي تخشى على نفوذها من تفاقم نفوذ عدوّتها فرنسا هي التي تغذّي اليوم نار الفتنة في بلادنا، فأقنعت الآستانة بصبّ الزيت على النار لتجد الأخيرة المبرّر للتدخّل وابتلاع استقلال المملكة الطرابلسية. وهي تفعل ذلك بخبث الأناضول الذي لا يخفى عليك، وبالطريقة القديمة ذاتها التي استخدمتها يوماً في الإطاحة بعرشنا بيد المغامر عليّ برغل. وها هي السّيرة تتكرّر اليوم بالخيوط نفسها، فما أشبه الليلة بالبارحة! وهذا لا يعني بالطبع أن ذلك الأبله وارنغتون على علمٍ بنيّة مثل هذه حتّى لو كان صهراً غير شرعيّ لملك الإنجليز، لأن دهاة أهل هذه الأمّة أدهى من أن يحيطوا علماً بنواياهم الحقيقية

قنصلاً غبيّاً كهذا، ولكنه يؤدّي دوراً في لعبة يجهل حقيقتها، مثله في ذلك مثل الأبله محمّد بك! ! وإذا كانت شيم النّبل التي تحلّى بها إنسان مثلك أبَتْ إلاّ أن تغفر لهذا الغرّ انتماءه لسلالة أبٍ قام يوماً بحزّ رأس أبيك عن جسده، فهل من شيم النبل أن تقاتل في صفّه وأنت أعلم الناس الآن أنه ليس سوى دمية بلهاء تقاتل لتجرّ خراب البلاد الذي لن يكون خراب عرشي وحدي؟».

اكتفى عليّ باشا بهذه الإشارة العابرة لعمل الأبّ ضدّ الأبّ لتبدو وكأنّها وردت عرضاً وليس قصداً، في حين عبّر عن هول الكيد الذي يحاك ضدّ الوطن صادقاً؛ لأن نبرة الصدق في الخطاب هي الطُّعْم الذي لن يخذل أي داهية. ولم يخنه الحدس. فبعد يومين بلغه نبأ انشقاق عبد الجليل سيف النصر عن عصابة وارنغتون، وانضمامه إلى صفوف جيش المملكة!

٨٧- الكلمة

لم يغفر شاكر أفندي لعليّ باشا ما حدث له في طرابلس. لقد جاء إلى طرابلس مخوّلاً بصلاحيات من السلطان لو علم الأبله عليّ بحقيقتها لأسكنه الهواء، وأغرقه في نهر الذهب، وتنازل له عن مخدعه أيضاً ليتقاسم الفراش مع امرأته الشقيّة التي سيجدها قريباً في أحد مواخير اسطنبول تمارس الدعارة! فهل يشفع له جهله القاتل بحقيقة الرسل؟ هل يشفع له جهله بالصلاحيات الرهيبة الممنوحة لإنسان يحمل لقباً مخيفاً مثل «مندوب الباب العالي»؟ ألن يسقط السافل مغشياً عليه، بل ميّتاً، لو علم أن فرمان تثبيته أو تنحيته ليس بيد السلطان في الآستانة، ولكنه بيد هذا المندوب المحشور في جلد مخلوق يحمل اسم «شاكر أفندي» الذي استهزأ به بدل أن يقيم الدنيا إكباراً لمقامه؟ تُرى كيف سيتصرّف لو كشف له عن قراطيس الفرمانات الممهورة بتوقيع جلالة السلطان بخاناتها الخالية التي عليه هو، لا أحد سواه، أن يسطّر فيها بماء الذهب حرف التنحية أو حرف التنصيب؟ كيف لم يدرك هؤلاء الولاة الأوباش أن السلطان دمية لا وجود لها في الآستانة، وتسيير الإمبراطورية عمل لم يعد من شأن ذلك الشبح الغارق في لذّاته والملقّب سلطاناً منذ أزمان لم يعد يذكر تاريخها أحد؟

لقد أسكنه في جناح مهمل من أجنحة القصر يمكن أن يسمّى خربة في بيت رعاع، لا جناح لإيواء مندوب الباب العالي. ثم أضاف إلى هذه الإهانة إهانة أخرى عندما جعله أضحوكة الدنيا يوم اقترح عليه الوساطة في حربه مع شراذم السفهاء فذهب إلى الضاحية حيث يعسكر الأوباش، فإذا بهم يسلطون عليه أجناس الخشارة وأرتال الأدنياء ليرجموا موكبه بالحجارة ويسخروا منه مرير السخرية. لم يرتدع الرجل فيكفّ، ولكنه توسّل أن يتنازل بمحادثة أعيان المدينة وزعماء القبائل بناء على طلبهم لوضع حدّ لتلك الحرب التي سئمها كل الناس. فماذا كانت النتيجة؟ لقد استجاب وذهب إلى «سوق الثلاثاء» حيث أقيم السرادق المخصّص للقاء. وكان عليه أن ينتظر في تلك الساحة البائسة الموبوءة بأسراب الذباب ثلاث ساعات كاملة دون أن يقبل عليه مخلوق. وعندما همّ بالانصراف خائباً أقبل رسول ادّعى أنه مفوّض من الأعيان المزعومين ليفيد بعدم تمكّنهم من المجيء لا لأمرٍ جلل حدث، ولكن تعبيراً عن رفضهم مبادرة الصلح أساساً!

فهل اكتفى عليّ باشا بإحراجه بمثل هذه المهازل؟

كلاّ بالطبع! ها هو يجتهد ليبدع فصلاً جديداً. فقد وجد الوقح في نفسه الشجاعة لأنّ يسرّ له في إحدى الجلسات قائلاً: «لولا

الخجل، يا سعادة المندوب، لطلبت من شخصكم أن تجسّوا نبض صاحب الجلالة عمّا إذا كان بالإمكان أن نطمع في الحصول على سلفة إلى حين تنجلي الضائقة!». لحظتها لم يصدّق ما سمع. أيعقل أن يتولّى مخلوق بهذا الطيش، وهذا الغباء، وهذه الوقاحة، أمر بلدٍ ذي تاريخ عظيم مثل طرابلس؟ لقد كتم غضبه جنونيّة كادت تفجّر صدره، وتمنّى من كل قلبه لو يختفي الجمع الملتفّ حولهما كي يستطيع أن يجيبه على الوقاحة بالطريقة التي تستحقّ: كأن يبصق في وجهه، ويركله بنعله على قفاه، ويأمر العسس بقرع قدميه الكريهتين بالعصا حتّى يفزّ منهما الدّم! لقد سمع كثيراً عن استكبار هذه العائلة، ولكنه لم يخطر بباله يوماً أن يبلغ الجهل بوريث أحد ملوكها حدّاً يتجاسر فيه على انتظار سلفة من وليّ نعمته صاحب الجلالة سلطان الإمبراطورية العثمانية! فهل حدث وتجرّأ يوماً مملوك على طلب سلفة من مالك المملوك؟ مَنْ تظنّ هذه الحثالة نفسها حتّى تسوّل لها النفس انتظار الحصول على دَيْن من صاحب الجلالة؟

لقد سدّد له نظرة مميتة لحظتها فما كان منه إلاّ أن ارتبك واحتقن ولعثم: «عذراً سيّدي! إنها زلّة لسان!». زلة لسان! سوف يرى ثمن ما يسميّه زلّة لسان! سوف يعلم ماذا يعني زلل اللسان

في حضرة مندوب جلالة السلطان يوم يختطّ مداد الذهب في السطر المخصص لكلمة القدر في القرطاس الذي يحيي ويميت وصيّة الأبد المدوّنة بكفّ سادن المعبد والقائلة بلسان القضاء الذي لا يُردّ: «أمرنا بعزل..» بدل: «أمرنا بتنصيب..»!

كل الولاة الأنذال الذين نصّبوا أنفسهم على العباد آلهةً يعرفون حقّ المعرفة معنى هذا الحكم. كلّهم يدرون أنه أسوأ من حكم الموت. كلّهم يدرون أن الأمر لن يتوقّف عند حدّ التخلّي عن مسوح الألوهة. كلّهم يدرون أنه كلمة أولى في سيرة آلامٍ أسوأ ألف مرّة من الموت. كلّهم يعلمون أنه بداية يوم الحساب. بداية قصاص العذاب. بداية دوّامة الإذلال الذي لا ينتهي ببيع البنات في أسواق نخّاسة اسطنبول، ولا يضع له التسوّل في الطرقات حدّاً، ولا التنازل عن الزوجات للرجال ليقفوا هم أحراساً على باب الزنا كما يليق بأرذل قوّاد. إنها الكلمة التي تفتح باب جهنّم لأناسٍ ظنّوا أنفسهم بالأمس القريب أرباباً فيتمنّون على اللّه لو لم يولدوا! كلمة صغيرة وضعتها الحكمة الإلهية في كفّ هذا الإنسان الضئيل المتنكّر في ثياب رسول السلطان، مدوّنة في أسفار القدر السريّة المسمّاة في لغة أهل الأناضول فرماناً، تلقّاها المندوب من كفّ شبح بلا حول ولا قوّة، ولم يملك يوماً من أمره شيئاً، فكيف بأمر ممالك تنتشر

في كلّ الدنيا، أطلقوا عليه ظلماً اسم السلطان، ولكنه يأبى إلاّ أن يخوّل الأغيار للقيام بدور السلطان، فيهرع إلى المندوب حال حلول ميعاد الإقلاع، ليلقي في وجهه بحزمة القراطيس قائلاً: «خذ! خذ! هذه فرمانات تستطيع أن تملأ الخانة هناك بما تراه مناسباً!». وهو، شاكر أفندي رسول صاحب الجلالة السلطان، يرى الآن جيداً أن الأنسب أن يسطّر في فراغ الخانة وصيّة أخرى تختلف عن تلك الكلمة الحمقاء التي سطّرها في ذلك اليوم الذي استقبله فيه عليّ باشا باكياً، شاكياً، واعداً دون أن يستطيع أن يفي بالوعد!

لقد احتمل سخافات هذا الأبله، ولو كان يعلم أن ثمن الكلمة السحرية التي تَوَّجَهُ بها هو هذه العطيّة التافهة التي استبقاه الرجل من أجل تدبيرها أسبوعاً كاملاً، لما تردّد في استبدالها بالكملة الأخرى، المميتة، التي يفضّل الولاة الذهاب لوضع رقابهم في حبل المشنقة على سماعها: «أمرنا بعزل..». ولكن.. هل فات الأوان بعد على استصدار حكم كهذا بحقّ أبله طرابلس؟

لقد تمنّى شاكر أفندي أن يدوم الصراع على عرش طرابلس أمداً أطول حتّى يتمكّن من العودة بصحف القدر لتصحيح خطأ لم يغفره لنفسه!

٨٨- البلبلة

طرابلس. أوساط المنشيّة – أوساط البلاط. أوائل مايو ١٨٣٥م.

في هذه الأيـام بلغ الهوس بـالمعلومة الـذروة. فبرغم يأس النـاس (بمـا فـي ذلك عشّاق الدنيا الذين لا يتصوّرون الحياة بدون سلطان) من أمل في خلاصٍ انتظروه طويلاً، ولكن طول الانتظار أماته في النفوس؛ إلاّ أن الشهوة إلى الشائعة، وفتنة المعلومة، كان الطبع الوحيد الذي صار الشهادة الوحيدة الدّالّة على وجود هؤلاء على قيد الحياة.

فلم يبقَ لأولئك الذين صارت لهم الحرب طقساً يومياً لا يختلف عن طقوس العبادة، صار لهم مضغ آخر الأخبار الواعدة بأمل انزياح الكابوس عادة، بل حاجة يومية لا تختلف عن الحاجة إلى تناول الطعام. ولمّا سئم النـاس الأقاويل التي دأبت على إنتاجها ألسنة أهل البلاد في الداخل، فإن التطلّع إلى الأنباء القادمة من وراء البحار أمست غذاء أجدى؛ لأنها لا تنزل الديار إلاّ ممزوجة بالحلم، أو روح الأسطورة، القادرة وحدها على تحويل الأمنية إلى حقيقة. وهاهم أصحاب الشأن الذين أشعلوا فتيل الفتنة يعتنقون أيضاً هذا الوهم (وهم انتظار الخلاص من خارج الحدود) كأنّهم ارتضوا أخيراً تسليم زمام الأمر

لمشيئة الأقدار بعد انهزام الإرادة الناتج عن فقدان الثقة في النفس، دون أن يعترفوا بينهم وبين أنفسهم أن منفى كهذا ليس شيئاً آخر غير فقدان ما هو أسوأ ألاَ وهو: فقدان ذلك السرّ الذي كان عبر الأزمان عنوان كل هزيمة: فقدان الإيمان!

وهاهو وارنغتون يسترخي في قصره المنيف بضاحية المنشية محاطاً بقواريره وصنوف أطعمته وأجناس أعوانه المتوّجين بقائد الحملة الشقيّ الأمير محمّد بك ليتشدّق بعد ابتلاع الكأس الثالثة بالنبأ اليقين الذي تلقّاه من مالطا والقائل بقرب وصول أسطول الآستانة لإنقاذ البلاد من حكم وريث يوسف باشا (كما راق له أن يسمّي عليّ باشا دائماً من باب الاستخفاف)؛ لأن الآستانة أدركت أخيراً أن اللجوء إلى القوّة هو الحلّ الوحيد الكفيل بوضع حدّ للمهزلة. ولكن الوساوس التي عصفت بالأمير ما لبثت أن أعلنت عن نفسها عندما عبّر: « في نفسي مخاوف تقول إن تدخّل بني عثمان دائماً نذير سوء!»، فحاول القنصل أن يبدّد مخاوفه: «ولكن السلطات في لندن طمأنتني أيضاً، لأن السلطان أبلغ سفيرنا بقناعته في وجوب تغذية عرش طرابلس بدم جديد!»، فاستهزأ الأمير: «وجوب تغذية العرش بدم جديد؟ ماذا يمكن أن تعني هذه العبارة؟ من يضمن لنا أن هذا الدّم لن يكون بدم عثماني نقيّ؟ العقلاء يجمعون على أمرٍ واحد: لا خير

في عمل يكون فيه آل عثمان طرفاً!». أطلق وارنغتون ضحكة مزلزلة، ثم احتسى جرعة أخرى من شرابه قبل أن يعترض: «ثق يا عزيزي أن رسائلك إليهم لن تذهب عبثاً. أنت لا تدري كم يسكرهم الإطراء! يقال إنّك تستطيع أن تشتري منهم ما تشاء مقابل عبارة متقنة من إطراء!». ولكن الأمير لم يطمئن: «ولكن تجاهلهم الردّ على رسائلي أكبر دليل على استهانتهم بشخصي!». جادل القنصل: «قد يستهينون بشخصك، ولكن هيهات أن يجرؤوا على الاستهانة بالإمبراطورية البريطانية التي لم تتردّد في تبنّي موقف الروح الوحيدة القادرة على إنقاذ البلاد بدل وريث يوسف باشا الذي أفلس!». لاذ الأمير بصمت مزموم قبل أن يحاول إسكات هواجسه: «في كل حال لن نستطيع أن نحدس نواياهم قبل وصول شاكر أفندي الذي قيل إنه انفصل ببارجته عن الأسطول في «كريت»، ومن المنتظر أن يصل غداً أو بعد غد!».

في تلك اللحظة كان عليّ باشا يجتمع مع وزيره وصهره حسّونة الدّغيّس في قاعة الاجتماعات بالسراي ليفضي له بهواجسه أيضاً بشأن تدخّل الإمبراطورية المزمع في شأن المملكة: «ما ظنّك بما يقال: هل يهرع السلطان لنجدتنا، أم سيأتي بأسطوله كي ينصر علينا الأعداء كما يشيع عصاة المنشيّة؟».

ابتسم الدغيّس بمرارة انقلبت في مسلكه طبيعةً منذ تلقّيه تلك الجراح التي تسبّب فيها القنصل وارنغتون وكلّفته عناء ارتياد ديار غريمه في حاضرة النصارى سعياً لردّ اعتباره. قال أخيراً: «لو وجد مولاي نفسه في وضع السلطان، فإلى أي جانب ينحاز؟». تردّد عليّ باشا لحظات قبل أن يجيب: «لا أدري. لو خُيّرتُ كسلطان لاخترت بالطبع الانحياز إلى جانب الفريق الذي فاز بشرعيّة، برغم.. برغم أننا يجب ألاّ ننسى أن السلطان إنسان لا يرى بعينيه ولا يسمح بأذنيه كأي صاحب صولجان. وهو ما يعني أن الحكم حكم الأعوان وليس حكم السلطان. وإذا كان على السلطان أن يتخذ فرماناً بشأننا فلن يكون هذا الفرمان معصوماً من أهواء رسوله شاكر أفندي..». سكت لحظة ثم زفر بضيق ليضيف: «وأهواء شاكر أفندي هذا هو ما يجب ألاّ نعوّل عليه. لا أعرف لماذا، ولكنّي لم أطمئن إلى هذا الرجل!». قال الدغيّس: «حتّى لو افترضنا صواب شكوك مولاي بشأن نوايا الرجل، ولكن بأية ذريعة يستطيع شاكر أفندي أن يتحجّج لإقناع السلطان بدعم عصاة؟». شكّك الباشا: «وهل يعدم رسل ينتمون إلى سلالات الأناضول الذرائع إذا مكروا؟». سكت لحظات ثمّ أضاف: «سؤالي هو: ما الذي يمكن أن يحدث إذا افترضنا حدوث الأسوأ؟» ساد صمت لحظات. صرّح



الدغيّس: «لا أستطيع أن أتخيّل عملاً أسوأ من فرض القسمة!». تعجّب الباشا: «القسمة؟»، فأوضح الوزير: «اقتسام المُلك بتولّي محمد بك بكوية المملكة مقابل اعتراف العصاة بحكم عليّ باشا!». استنكر الباشا: «وهل يجوز هذا؟». قال الوزير: «كلّ شيء يجوز إذا أراد له السلطان أن يجوز!». سكت الباشا. تململ في جلسته قبل أن ينفّس: «أحترق فضولاً لما ستحويه جعبة شاكر أفندي غداً! الرسائل التي تلقيتها من بنغازي ومن تونس ومن أزمير تؤكّد أنه سيصل غداً أو بعد غد!».

٨٩- الكواغد

طرابلس. ٢٠ مايو ١٨٤٥م (الساعة الثالثة بعد الظهر).

تزلزل المرفأ بهدير المدافع ما أن اكتمل رسو البارجة الحربية المتوّجة في الأعلى بالراية السلطانية. هرع وفد الباشا لملاقاة الضيف المهيب يتقدّمه الوزير الدغيّس لتقديم التهاني بسلامة الوصول للمندوب السلطاني الجليل. لاحظ الوزير ووفد الأعيان التغيير الذي طرأ على هيئة الضيف بالمقارنة مع طلعته في زيارة المرّة السابقة: كان الرجل يلتفّ هذه المرّة بوسام حريري مرصّع بهلالٍ ملفّق من فصوص الماسّ. يمتشق حساماً مطعّماً أيضّاً بالجوهر من الطراز الرفيع الذي اعتاد السلطان أن يخلعه على خلصائه كامتياز شخصيّ لقاء فلاح في مهام جسيمة. كما فوجئ الوفد بلقبين رهيبين خلعهما الباب العالي على الرجل فصرخ بهما الحاجب بأعلى صوت لحظة الإذن بالدخول على سعادته هما: «خوجاقان حاما يون»، و«قبودان – ديوان – أفنديسي»! وهو ما يعني في الترجمة من التركية: «رسول الفرمانات السلطانية، وأمين سرّ وزير البحر الإمبراطوري».

في صباح اليوم التالي أطلّ المندوب على زحام الأهالي الذين تجمهروا على طول الساحل لاستقباله مدجّجاً بألقابه،

مرصّعاً بأوسمته وخناجره الشرفية، في موكبٍ مهيب، وسط الهتافات بحياة السلطان، وبأمجاد الإمبراطورية حامية أمّة المسلمين، إلى أن بلغ تخوم السراي حيث بدأت مراسم استقبال أخرى. هناك اختلى بالباشا وراء بابٍ مغلق فلم يدرِ أحد ما دار بينهما، ولكن الأعيان وشهود العيان تحدّثوا تالياً عن سيماء السعادة التي ارتسمت على وجه عليّ باشا بعد خروجه مع ضيفه من تلك الخلوة لتبدأ مراسم تسليم الوثائق بحضور الوزراء والأعيان وقادة الجيش وأمراء العائلة المالكة والعلماء ومفتي الديار الطرابلسية وقاضي قضاة المملكة؛ كأنّها مراسم تتويج جديد. بل فاقت في جلالها وترفها مراسم تسليم لقب الباشوية في المرّة السالفة. وهاهو الباشا يقف في مواجهة المندوب السلطاني الرهيب ليتسلّم فرمانات الخلاص التي ستصير له منذ الآن حصناً ضدّ مكائد خصومه في المنشية، وترساً ضدّ عصاة القبائل، وسلاحاً مميتاً موجّهاً منذ الساعة إلى صدور كلّ من ستسوّل له مستقبلاً النفس الأمّارة بالسوء المساس بأمن البلاد أو الطمع في عرشها. وكان رصيد الباشا من الثقة بالنفس يتضاعف باستلام كل وثيقة من نفائس رسول الحضرة السلطانية كأنّ تلك القراطيس الفخيمة لم تكن مجرّد فرمانات ممهورة بإمضاء إنسان من لحم ودم اختارته

الحظوظ للعب هذا الدور، ولكنّها شهادات براءة قدسية صاردة عن مشيئة ربوبية. ولذلك هي نافذة المفعول وباعثة على الطمأنينة الأبدية!

استخرج شاكر أفندي (الذي لم يعد منذ اليوم مجرد أفندي، ولكنه خوجاقان حامايون وقبودان ديوان أفنديسي) من مجلّد متوّج بشعار الإمبراطورية القرطاس الأوّل ليقرأ بصوت عال: «رسالة من الصدر الأعظم رؤوف باشا إلى خادم الإمبراطورية بالإيّالة الطرابلسية عليّ يوسف باشا بتثبيته مجدّداً في عرشه مكافأة له على صموده ضدّ أعداء الإمبراطورية، وكذلك لإحاطته علماً بتوجيه أسطول تحت إمرته إلى طرابلس لردع العصاة الذين شقّوا عصا الطاعة على ملكه!». ثمّ تفضّل بتقديم الفرمان النفيس بما يستحقّ من اجلال إلى عليّ باشا الذي شيّعه إلى أعلى بيديه الاثنتين كأنه تميمة حقيقية وسط صيحات الاستحسان من حناجر الأعيان، وعاصفة من تصفيق الحاضرين. ثمّ طبع عليه الباشا قبلة امتنان لم يسبق له أن طبعها على المصحف، وانحنى عليه بخشوع سفح على إثرها دمعة. انتقل الرسول بعدها إلى جعبته الجلدية ليستخرج من جوفها القرطاس التالي ليصيح كأنه النذير المخوّل بإعلان بشارة: «خطاب إحالة وزاري مؤرخ

في الخامس عشر من ذي القعدة لعام ١٢٥٠ للهجرة!». هلّل المحفل أيضاً أثناء استلام الباشا للقرطاس فانتقل الرسول للقرطاس التالي: «خطاب حضرة طاهر قبطان باشا قائمقام الإيّالة الطرابلسية لدى البلاط السلطاني بالباب العالي، يعبّر فيه سعادته عن مدى اهتمام الآستانة بالوضع العصيب الذي تعيشه الولاية الطرابلسية في عهد عليّ باشا، ويبشّره بقرب الخلاص مع وصول الأسطول!». عاد الجمع يهلّل ما أن تسلّم الباشا الوثيقة الجديدة من يد الرسول المهيب. ثمّ انتقل الرجل إلى القرطاس الرابع زاعقاً: «خطاب سعادة حضرة وزير الحربية للإمبراطورية العثمانية العليّة الأميرال خسرو باشا إلى سعادة باشا طرابلس للإبلاغ من جانبه بقيادة الحملة التي نقرّر أن يتولّى أمرها سعادة نجيب باشا الحامل لقب القائد العام للأسطول الإمبراطوري!». أمّا القرطاس الخامس فقرأه الرجل على عجل كأنه قرّر فجأة أن يتحرّر من هذا الوزر، أو ربّما لأنه الوحيد الذي يعلم يقيناً بحقيقة هذه الكواغد التي عبدها الإنسان لتقرّر مصير لا الإنسان وحده، ولكن لتعلي شأن أمم بأكملها عندما تشاء أن تعلي، أو تحطّ من شأن أمم بأكملها عندما تشاء أن تحطّ، فلا يعود لسان الإنسان، أو مسلك الإنسان، شهادة على وجود الإنسان، أو على نزاهة الإنسان،

ولكن الكواغد هي الشهادة التي لا تتحدّث عنه بالإنابة فقط، ولكنها ربّ الأرباب الذي يحييه إذا شاء أن يحيي، أو يميته إذا شاء أن يميت. وعليّ باشا، وكذلك الأمراء والأعيان، وكلّ من أقبل للاستمتاع بمشاهدة استلام الكواغد يقف في المحفل مزموماً جهلاً بحقيقة الكواغد، جهلاً بهويّة الكواغد، التي لم تتنزّل من سماوات اللّه السّبع، بل ولم تتنزّل من مجاهل الباب العالي كما يظنّ بلهاء الأصقاع التي تدين بالولاء للإمبراطورية، ولكنّها مجرّد صحف خاوية، ممهورة بتوقيع مخلوق لم يبالِ يوماً بأي شأن من شؤون الإمبراطورية، فكيف يبالي بأمر صعلوكٍ لم يسمع حتى باسمه يقبع في خرابٍ يسمّيه قصراً في أرضٍ يباب خالية يسمّيها مملكة، ثمّ لا يكتفي هذا الوغد بهذه الوقاحات، ولكنه يتمادى ليصدّع رأسه بالسفساف والسخافات! فلا يجد هذا الإنسان الغارق في لذّاته إلاّ أن يدفع بالكواغد إلى رسوله مردداً: «خذ! خذ! وافعل ما تراه مناسباً هناك!». يدفع بالكواغد لعلمه بأن الوقت لن يسعفه لكي يحيا الحياة (أو ما يظنّه حياة) قبل أن يأتي دوره فتطبق على عنقه كفّ أحد المردة الخصيان، أو تلتفّ أنشوطة الحرير على رقبته لتكتم فيه الأنفاس، لأنّ لا أحد يجرؤ فيطأ هذا الحرم المسمّى سلطاناً إلاّ لينتظر لفظ أنفاس النزع الأخير في أية لحظة!

وهكذا عجّل الرسول وقد ارتسمت على شفتيه بسمة اشمئزاز مفاجئة ليلوّح في الهواء بالقرطاس الأخير محشرجاً: «خطاب سعادة نجيب باشا الذي يخطر سعادة عليّ باشا بقرب وصول الأسطول الذي سيضع حدّاً لشقاء هذه البلاد. ويأمل من الباشا أن يفعل كل ما يلزم بشأن إيواء الجنود وإعداد الثكنات والحصون بالتنسيق مع رسول الديوان السلطاني شاكر أفندي خوجاقان حامايون قبودان ديوان أفنديسي!». ولم ينسَ الرسول أن يطمئن الباشا (وهما في طريقهما لتفقّد معسكرات الجند وقلاع المملكة) قائلاً إنه أمر بتزويد الأسطول بكل المؤن اللازمة، لأنه الوحيد الذي يعلم بوضع مملكة تمزّقها ويلات حرب تستمرّ منذ أعوام وأعوام، لم يفت الباشا أن يعبّر للضيف عن امتنانه دون أن ينتبه لبسمة الرسول الخبيثة التي جاهد في إخفائها أثناء حديثه عن عدم حاجة الأسطول لحسناته. ولكنه أخفق في إخفاء استخفافه عندما اقترح الباشا الانتقال إلى بيت الضيافة للإقامة هناك، لأنه تذكّر الليالي المحزنة التي قضاها في تلك الأطلال التي يسمّيها «بيت ضيافة» فما كان منه إلاّ أن اعتذر عن قبول الدعوة قائلاً إن عليه البقاء في بارجته الحربية نظراً لوجوب تحرير بعض الكواغد ذات العلاقة بشؤون الأسطول!

٩٠- الوطن

طرابلس. السراي الحمراء. جناح الحريم. ٢٨ مايو ١٨٣٥م

من النافذة المطلّة على المرفأ في جناح الحريم وقفت لَلاّ عيّوشة في ذلك اليوم تراقب الإنـزال بعد أن راقبت بالأمس وصول الأسطول الرهيب المكوّن من جيش من السفن: عشر قطع هائلة الحجم قيل لها إنها حاملات جنود، وأربع بوارج حربية، وثلاثة طرادات، وثلاث قطع قلعية، ومقطورة تموين، ومركب شراعي بصاريين، ليكون العدد الإجمالي اثنتين وعشرين سفينة، فهل يستدعي قمع عصابة من المغامرين استحضار أسطول كهذا الأسطول الذي يكفي لغزو أمم النصارى قاطبة؟ لقد وجدت في نفسها الشجاعة لتوجّه هذا السؤال بالأمس إلى الباشا فأجابها بأن الحرب إرهاب النفوس قبل أن تكون قدرة على قهر النفوس، وسوف ترين غداً كيف سيهرع العصاة إلى القلعة لتسليم أسلحتهم دون الحاجة لإطلاق رصاصة واحدة!

وهاهي اليوم تقف قبالة النافذة لتشاهد الإنـزال. لتشاهد قيامةً وليست إنزالاً. لتشاهد تدفّق الخلق من بطون تلك الجبال الخشبية الطافية فوق المياه منذ الصباح الباكر فلا ينفد مخزونها حتّى حلول الظهيرة. تلفظ البطون الرابضة فوق المياه الجند لتبتلعهم المدينة. يختفون في مدينة تضيق بأهلها

فلا تدري أين يمكن أن يجد هذا النمل البشري لنفسه مكاناً. الخدم يقولون إنّهم تسرّبوا إلى القلاع والحصون وثكنات الجيش الملكي، ومعسكرات الأطراف، والزوايا والمساجد، وأبنية الأوقاف، ودار القضاء، ودوائر الدولة، والساحات العامّة، وأسواق المدينة، وفضاء الحقول المجاورة، وإسطبلات البهائم، والسجون، وعندما ضاقت بهم كل هذه الأمكنة احتلّوا سطوح الأبنية أيضاً! احتلّوا حتّى سطوح المباني ولكن السفن لم تتوقّف بعد من لفظهم حتّى أصابت المرأة رجّة من فرط الذهول فرفعت يديها لتحتوي رأسها وهي تردّد:

– يا سيدي الشنقيطي! إنّ عددهم يفوق عدد سكّان المدينة!

وجدت نفسها تهتمل بتلك التميمة الوثنية التي اعتادت أن تستجير بها كلّما ألمّت بها بليّة دون أن تفهم منها كلمة واحدة كأنها مستعارة من لغة الجنّ أو موروثة من لغة أخرى منسيّة. وهو ما فعلته بالأمس أيضاً عندما وقع بصرها على قطع الأسطول فطمأنها الباشا قائلاً:

– يجب أن تفرحي لا أن تحزني، لأن هذا الأسطول يحمل لنا البشارة التي ستضع أخيراً نهاية آلام حرب الأعوام الثلاثة!

ولكن هل اطمأنّت؟ بالطبع لا! بل وسواسها اشتدّ حتّى تحوّل يقيناً. وهو وسواس لم يبدأ اليوم ولا بالأمس القريب، ولكنّه بدأ

منذ اندلاع الحرب. بل ربّما قبل اندلاع الحرب. بدأ منذ نشوب الخلاف بين الشقيقين. أم.. أم أنه بدأ منذ يوم اقترانها بالباشا قبل أن يمسي باشا، وقبل أن يفوز حتّى بلقب بك؟ لقد قال لها حدس الأنثى ليلة القران إن الدخول إلى دنيا القصر يمكن أن يجلب الترف، ولكن هيهات أن يحقّق السعادة! حدّثها الحدس قبل أن تسمع هذا وصيّة من ألسنة نساء الأعيان اللاّئي تندرن دوماً في مجالسهنّ ببليّة الفتاة التي سيقع اختيارها لدخول مملكة آل القرمانلي، لأن اللعنة التي تلاحق هذه السلالة المشؤومة سوف لن تجعل منها مخلوقة شقيّة وحسب، ولكن ستجد نفسها امرأة مفقودة! والدليل هو تاريخ نساء الأسرة الذي لم يفرّق في اللعنة بين النساء فابتلى بنات العائلة المالكة أيضاً بالشقاء، لأنّ لا سبيل لهنّ إلاّ أن يخترن حياة العنوسة أو الارتماء في أحضان قراصنة الأعلاج الذين ينقلبون لهنّ خدماً بدل أن يصيروا لهنّ أزواجاً! فهل هذا نحس مصاحب لكل بلاط، أم أنه نحس ميّزت به السماوات سلالة آل القرمانلي من دون السلالات الملكية جميعاً؟

تعترف الآن أن الأعوام التي سبقت هبوب الزوبعة بين الأخوين كانت أجمل الأيام، كأنّها كانت تحيا في حلم حميم ثم استيقظت فجأة لتحيا كابوساً. بلى! لقد هيمن الكابوس منذ نشوب الحرب

مع محمّد بك. تلك الحرب الخفيّة التي مهّدت للحرب الفعليّة، وهي حرب لم تكن لتحدث لو لم يصبّ الأب الزيت على نارها لتستعر. الكلّ أجمع على أن الذنب كلّه ذنب يوسف باشا الذي احترف الحروب، فإذا لم يجد عدوّاً يحاربه خارج القصر افتعل حرباً داخل السراي. وقد ظلّ يغذّي الحرب بين الوريثين إلى أن أورثها للحفيد الذي لم يلبث أن عاد من المنفى في مصر ليواصل الحرب تنفيذاً لوصية أبيه. هذه الحرب التي قُدّر لها أن تكون سبباً في الإطاحة بعرش الأب ليجد الابن نفسه وريثاً لعرش بائد صار منذ زمن أضحوكةً في مملكة العروش، فكان عليها أن تودّع زمن الهدوء وتحيا حياة البلبال التي يحياها الباشا كل يوم. وهاهي تتفرّج على غزوٍ يستبيح مدينتها يرى فيه الكلّ خلاصاً، في حين لم ترَ فيه إلاّ القصاص جزاء تلك الآثام التي اقترفوها جميعاً في حقّ هذا الوطن الذي لم يروا فيه يوماً وطناً، ولكنّهم رأوا فيه الغنيمة! الوطن الذي أحبته لا لشيء إلاّ لأنه وطن! أحبّته لأنها على يقين أن الإنسان (كل إنسان في الدنيا) لا يستطيع أن يحبّ أحداً إذا لم يحبّ الوطن! أحبّته، لأنها آمنت كما لم يؤمن مخلوق بأنّها لن تستطيع أن تحبّ اللّه إن لم تحبّ الوطن؛ لأنها.. لأنّها آمنت كما لم يؤمن مخلوق أنها لن تستطيع أن تؤمن باللّه إن لم تؤمن بالوطن!

كم مـرّة وقفت مثل هـذه الوقفة لتتفرّج على البحر فيلهج قلبها بالجمال قائلاً: «يا لها من هبة أن يكون للإنسان وطن يجاوره عجب كهذا البحر الذي يحمل اسمه. ولو لم يكن الوطن أمّاً حتّى للبحر لما استعارت البحار أسماء الأوطان بدل أن تنتحل الأوطان أسماء البحور!». كانت تتطلّع إلى هذه الصحراء الزرقاء الخالدة المترامية إلى الأبد لتردّد بصوت عالٍ: «بحر ليبيا!». تردّد العبارة مراراً كأنها تعويذة. بل هي التعويذة الوحيدة التي كانت لها عزاء سجنها الأبدي وراء الجدران. فهي لا تسمع كلمة ليبيا تجري على لسان إلاّ ويستجيب لها قلبها بخفقة تتوعّد بأن تذهب بروحها. ولكنها لا تفزع بذهاب روحها إذا كانت الخفقة سبيلاً إلى ذلك الوجد الذي يدعو دراويش القادرية أن يطعنوا صدورهم بالسكاكين كي يروا اللّه! هي أيضاً تقفز مع قلبها، تقفز مع روحها، ما أن تسقط كلمة السرّ (ليبيا) في أذنها فيستولي عليها مسّ الدراويش، فتتمنّى أن تمتلك شجاعتهم فتستلّ النصل لتغرسه في قلبها لترى ليبيا. لترى روح ليبيا. لترى اللّه الذي تخفيه ليبيا!

ليس البحر وحده ما يوقظ الظمأ إلى الوطن. إلى طرابلس. إلى ليبيا. ولكن مرأى السماء أيضاً. سماء زرقاء، عميقة الزرقة، مجبولة بأي صفاءٍ لم يوجد له تحت قبّة السماوات مثيل، إنه

صفاء سماء ليبيا! كانت تردّد بروح الوجد: «هذه سماء ليبيا!».
ثم تنساب الدموع على وجنتيها دون أن تدري لتضيف: «هذا صفاء سماء ليبيا!». تغيب بعيداً فتتمتم: «لا وجود لصفاء مثل صفاء سماء ليبيا! لا وجود لسماء كسماء ليبيا! لا وجود لوطن في الدنيا كوطن ليبيا!»، ثمّ تمضي في تجديفها السرّيّ شوطاً أبعد فتبيح لنفسها قول: «لا وجود لربّ إلاّ ربّ ليبيا، لأنّ الربّ لم يوجد إلاّ ليوجد وطناً إسمه ليبيا!».
نحو الساعة العاشرة والنصف من يوم ٢٨ مايو لعام ١٨٣٥م، الموافق للثاني من محرّم لسنة ١٢٥١ هجرية، اقتحم عليها الحاجب خلوتها ليزفّ لها بشارة خروج الباشا إلى البحر للقاء قائد الأسطول سعادة نجيب باشا. سكت ليلتقط أنفاسه قبل أن يضيف:
- تستطيع مولاتي أن تستمتع بمشاهدة الموكب الذي سيخترق المدينة بعد قليل في طريقه إلى القصر!
لم تبالِ بالحاجب لأنّها كانت تشاهد في تلك اللحظة من موقعها مراسم دخول الباشا إلى قاربه المهيب الذي ترفرف على صاريه الرايتان: راية المملكة الطرابلسية، وراية الإمبراطورية العثمانية. كان الجنود الأتراك قد انتشروا في الشوارع كلّها، واصطفّوا على الأرصفة. على رصيف الميناء

اختفى جنود المملكة وحلّ محلّهم جنود الترك بطرابيشهم المضحكة ووجوههم القانية المثيرة للاستفزاز دون أن تعرف لماذا. ربّما بسبب وقاحتهم، وربّما بسبب البلادة!

انساب القارب الملكي نحو الأسطول. انساب بترف إلى أن بلغ حضيض إحدى البوارج. انتظر هناك. انتظر ربّما حتّى يتأهّب قائد الأسطول لاستقباله، وربّما انتظر ريثما يكتمل نزول الجنود. ولكن نزول الجنود لم يكتمل. ظلّوا يتدفقون من بطون السفن لتلتقطهم القوارب من هناك لتلفظهم على أرصفة الميناء.

تطلّعت إلى السماء كانت زرقاء كعادتها. كان في زرقتها ذلك الصفاء الذي فتنها دوماً وأحسّت بالاستسلام لرحابه تأديةً لصلاة حقيقية لن يدرك لذّتها إلاّ من أخلص لها وقرأ في سلامها سورة الوطن الذي لم تُخلق إلاّ لتكون عليه رقيباً، ولروحه حميماً، وعلى أهل الوطن وصيّاً. وهاهو البحر يهجع ليستعير من دنياها السكينة كما استعار منها الزرقة أيضاً. البحر يهجع بسكون مريب ليهجع فوقه قارب الباشا. الباشا الذي شهد له أولياء المملكة بالشقاء لأنه وُلد في الزمن الخطأ، وحمل اسم العائلة الخطأ، لأنه ورث بلايا السلالة، ولم يرث سليقة السلالة. لم يرث النذالة. لم يرث الجنون. لم يرث

المجون. فكان الوحيد الذي لم يتخذ محظيةً، ولم يقتل ظلماً، ولم يخن عهداً، ولم يحكم جوراً. تستطيع أن تعترف الآن، في حمّى وسواسها الخبيث، أن هذا الرجل قد فعل كلّ ما بوسعه كي يهبها تلك العنقاء التي تسمّيها العجائز سعادة. وقد كانت إلى جواره سعيدة حقّاً لولا الهواجس. لولا الدسائس. لولا المنازعات. لولا الحروب الخفيّة. لولا الحروب العلنية. لولا السيف المسلّط المسمّى مُلكاً!

اهتّز كيان البنيان كلّه بزلزلة. هدرت مدافع السطوح بالقصف تحيةً بخروج قائد الأسطول فردّت البوارج على القصف بقصف مماثل.

خرج قائد الأسطول مطوّقاً بالأعوان، ولكن.. لماذا سكن قارب الباشا بجوار البارجة، ولم تشهد خروج الباشا؟!

٩١- الرسول

بحر ليبيا. مرفأ طرابلس. صباح يوم ٢٨ مايو ١٨٣٥م.

تسلّل شاكر أفندي إلى جوف البارجة الحربية المسمّاة «محمّد الفاتح» حاملاً في أعطافه ألقابه المهيبة، وعلى صدره أوسمته الثرية، وبين يديه صحفه القدسية الرهيبة.

استقبله حاجب نجيب باشا في مقصورة الاستقبال وغاب في الداخل طلباً للإذن بدخول الضيف. فانتهز صاحب الصحف الفرصة فلجأ إلى منضدة بالجوار لينكبّ على كنزه النفيس. فتح دفتي المغلّف الجلدي المزبور بشعار الإمبراطورية ليستخرج من جوفه قرطاس القدر!

تفحّص المتن بإمعان، فتنه الخطّ الذي سطّر به عبارة البارحة فتنحّى استحساناً! ولكنه عاد يترصّد الحروف كأنّه يخشى أن تتلاشى لسبب من الأسباب أو تفرّ من الصحيفة فراراً. غاب في الحروف كأنّه يريد أن يتماهى بها، أو يتقمّصها ليغيب فيها كما غاب دائماً. كان سعيداً بحضوره في الحروف الإلهية برغم البسمة الخبيثة التي ارتسمت على شفتيه، حتّى إنه لم يلحظ الحاجب الذي وقف فوق رأسه ليأذن له بالدخول. ذهب في قرطاسه ليصير مداداً لحروفه فلم يلحظ كيف أقبل عليه الباشا نفسه بعد أن ملّ انتظاره في داخل مقصورته. تبادلا

نظرة طويلة قبل أن يسأل الباشا:

- آمل أن تكون قد شفيت من صداع البارحة!

فردّ وهو يعتني بصحفه بلهفة عاشق:

- الصداع قدري في كلّ مرّة ما لم تلهمني العناية الإلهية إلى تسطير رسالتي!

تطلّع إليه نجيب باشا باستخفاف قبل أن يقول:

- وهل تسطير الرسالة يستدعي إلهاماً؟

- بالطبع! هل سمعت بوجود رسالة دون وحي إلهي؟

كتم الباشا ضحكة. سأل:

- أي وحي ستطالعنا بها رسالتك اليوم ياترى؟

رفع شاكر أفندي نحو الباشا نظرة غائبة. بحلق في وجهه طويلاً قبل أن يتناول الصحيفة ويقدّمها للرجل المنتصب فوق رأسه. هتف الباشا:

- ما هذا؟

ولكن الحاجب تدخّل فجأة ليعلن وصول قارب عليّ باشا فهبَّ صاحب الصحف كاللديغ. صرخ:

- إيّاك أن تسمح له بالدخول!

ثمّ استدرك ليصوّب الأمر بأمرٍ آخر:

- إيّاكم أن تسمحوا له بالخروج!

انصرف الحاجب ليأمر الجند في حين تعجّب نجيب باشا:

- ما معنى هذا؟

حدجه شاكر أفندي بنظرة ماكرة ثم أوضح:

- لن تعرف معنى هذا إذا لم تقرأ الفرمان!

انحنى الباشا يقرأ القرطاس المزبور بماء الذهب، الممهور بإمضاء وليّ أمر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها صاحب الجلالة سلطان الإمبراطورية العثمانية العلية الذي يأمر بـ..

تقلّصت عضلات الوجه في الرجل وغزا سيماءه الشحوب حتّى أيقن جليسه أنه سيسقط مغشياً عليه. تطلّع إليه بعينين زائغتين قبل أن يبرطم:

- ما هذا؟

تلذّذ شاكر أفندي بالحريق الذي أشعلته الفجاءة في الرجل فأفلت ضحكة ماكرة مكتومة قبل أن يقول:

- ما رأي صاحب الجلالة؟ أليس عملاً مذهلاً أن يجد الإنسان نفسه ملكاً فجأة على مملكة حقيقيّة؟ هيء - هيء - هيء..!

عاند الباشا طويلاً قبل أن يفلح في النطق أخيراً:

- ما هذا الجنون؟

أجاب صاحب الصحف ببرود:

- وما هو الحكم إن لم يكن جنوناً؟

- ولكن.. ولكن..

اختنق بالعبارة فحشا رأسه في جوف الأحرف الذهبية زمناً، ثمّ:

- ولكن هذا إمضاء صاحب الجلالة السلطان!

فسخر أفندي:

- وهل ظننته إمضائي؟

- ولكن كيف لم أُبّلغ بفرمان كهذا قبل هذه الساعة؟

قال شاكر أفندي بلا مبالاة:

- لأن الفرمان وليد الساعة!

- وليد الساعة؟

- إمضاء الفرمان من شأن السلطان، أمّا الفرمان نفسه فهو وليد الساعة لأنه من شأن رسول السلطان، لا السلطان!

توضّع الباشا الرجل القابع إلى جوار المنضدة، المتشبّث بدفتي دفتره الجلدي، ثمّ عاد يتفقّد القرطاس بين يديه. سأل:

- ولكن كيف لم تبلّغني بأمر كهذا إلاّ في آخر لحظة؟

- لأنه وليد اللحظة الأخيرة!

- ولكن.. ولكن بأية حيلة تولد فرمانات بهذه الخطورة في آخر لحظة؟

أطلق شاكر أفندي ضحكة عصبيّة. أوضح:

- لأن كون الفرمان من صلاحياتي كحامل فرمانات السدّة العليّة فإن هذا لن يمنحني الحقّ في الاستهانة بها!

- الاستهانة بها؟

- أعني لن يمنحني الحقّ في إساءة استخدام الصلاحيات بتحكيم الهوى، أو بمحاباة مخلوق، لأن التفويض الممنوح لشخصي محكوم أيضاً بناموس لن يخطر ببال الدهاة وهو: «اعزل من تشاء، ونصّب من تشاء بديلاً، بشرط أن يحتّم الظرف في عين المكان!».

ساد سكون. دبّ الباشا في المكان ممسكاً الصحيفة المهيبة بيمناه، ثمّ قال:

- وماذا حتّم الظرف في هذا المكان كي تخلع لقب ملك على قائد أسطول أقبل لتثبيت عرش ملك؟

ابتسم شاكر أفندي بغموض قبل أن يجيب:

- لأنّي وجدت في المكان ملكاً لا يستحقّ لقب ملك، ولو كان يستحقّ هذا اللّقب المهيب حقّاً لما استنجد بنا ليأتيه الخلاص من الخارج! لأن.. لأن لقب ملك لا يُعطى على سبيل الهبة، ولكنّه يؤخذ غصباً!

- حسناً! ولكن ماذا عن الطرف المعادي؟

لوّح الرسول بيده في الهواء علامة استهانة قبل أن يجيب:

- الطرف المعادي ليس أهلاً للعرش أيضاً، ولو كان كذلك لما



نازع بالسلاح أعواماً دون أن يفلح في نهب العرش!

لاذ الباشا بالصمت. توقف عن السعي في المكان ليتساءل:

– ولكن أيّة خصال وجدتها في شخصي حتّى تعمل على تنصيبي ملكاً على هذا العرش؟

تضاحك الرسول باستهزاء، ثمّ أجاب على السؤال بسؤال:

– وهل تطمع طرابلس بوالٍ أعظم شأناً من قائد أسطول الإمبراطورية العثمانية؟

سكت لحظة ثم استدرك:

– ولكن عليك أن تعلم أنّي لم أنصّبك ملكاً على طرابلس، ولكنّي نصبتك على طرابلس والياً يدين بالولاء لصاحب الجلالة، فاحترس!

سكت الباشا لحظات ثم سأل:

– ولكن ألا يبدو الأنسب لو نصّبتَ نفسك في مكانٍ كهذا؟

اعترض الرسول بلهجة استنكار:

– ماذا؟ هل نسي سعادة الباشا أنّي رسول مخوّل بأن يولِّي، لا أن يتولَّى؟

سكت لحظة. اكتأب فجأة. أضاف كأنه يخاطب نفسه:

– الرسل فوق الولاية. لا أحد يستطيع أن يدرك معنى أن تحمل رسالة إلاّ من ذاق لذّة أن تكون رسولاً. أنت لا تتنازل وقتها

للألقاب دون أن تحتقر نفسك؛ لأنّك أنت عندها لا تعود أنت، ولكنك تنقلب معبوداً كنت له رسولاً إلى معبود بديل للمعبود الذي كنت له رسولاً. والدليل أن السلطان لا يملك إلاّ أن يضع الامضاء على قرطاس يسمّى فرماناً، وعلى عاتقي يقع وزر صنع الفرمان. مولانا السلطان يضع نقاطاً على حروف، وعليّ أنا كرسول أن أنفخ الروح في هذه الحروف!

تابعه نجيب باشا بفضول طوال الوقت، وعندما انتهى تردّد قبل أن يسأل:

– ولكن ماذا لو اعتذرتُ اليوم عن قبول هذا الشرف؟

تضاحك الرسول باستخفاف، ثم حدج الباشا بنظرة ماكرة:

– وهل تستطيع؟

أشاح الباشا بوجهه جانباً ليقول:

– فهمت! تريد أن تقول إنّي لن أستطيع أن أفعل دون أن أعصي أمر مولاي السلطان. ولكن ماذا بشأن الدمية التي تقبع في القارب؟

كتم الرسول ضحكة قبل أن يجيب:

– تلك الدمية ستذهب إلى المكان الذي استوعب كلّ الدّمى الكثيرة التي لاقت مصيراً مماثلاً: ستذهب لتتسوّل الحسنات في أزقّة الآستانة!

ولكنه عاد فأسدل على وجهه ذلك القناع الأخرس الذي لا يوحي بشيء قبل أن ينتصب واقفاً. لملم أحاجيه وحشرها بين دفتي المجلّد بعناية قبل أن يجود بوصيّة:

– يستطيع سعادة الباشا أن يحرّر التماساً بالإعفاء للقبودان باشا إذا كان زاهداً بحقّ في هذا الشرف، وأعدك أنّي سأسلّمه لسعادته بعد ثلاثة أسابيع مرفوقاً بالدمية؛ لأنّي سأغادر في فجر الغدّ، وربّما الليلة. أمّا الآن فتهيّأ للخروج إلى الدنيا لأن الرعيّة كما تعلم ملّة ملولة، الانتظار في عرفها قصاص لا يطاق!

قطع خطوات نحو باب المقصورة قبل أن يلتفت فجأة:

– لا أريد أن أذكّر الباشا بوجوب التعجيل بالعُدَّة!

هَمَّ بالخروج، ولكن نجيب باشا استوقفه:

– مهلاً! مهلاً يا صاحب السعادة! الحقّ أني لم أفهم ما تعنيه بالعُدَّة!

تراجع حامل الأسفار السلطانية خطوات إلى الوراء. حدج الباشا بخبث قبل أن يوضح:

– عدّة البهجة! في البلاط نسمّي هدايا السلطان عدّة البهجة، لأنّها في الحقيقة بلا جدوى، أو فلنقل إن وجودها بين أيدي السلطان ينفي قيمتها السوقيّة بدل أن يزيد حصوله عليها من

هذه القيمة. أعني أنها تتحوّل إلى معدن لا يختلف عن النحاس أو الحديد إذا كانت هذه النفائس مسبوكةً من الذهب، وتنقلب زجاجاً رخيصاً إذا كانت أحجاراً كريمة. يحدث هذا بسبب سوء الاستعمال، أو قُلْ بسبب عدم الاستعمال؛ لأن جلالته لا ينعم بهذه العطايا التي سُلخت من جلود الرعايا من مختلف أركان الدنيا إلاّ لحظة رؤيتها لتسقط بعدها في تلك الخزائن التي لا قيعان لها. تبقى هناك إلى الأبد. أعني تبقى هذه القطع المستقطعة من أجساد الخلق والملفّقة من دماء الأشقياء إلى أن يرثها السفلة أو ترثها الأرض كوريثة أخيرة لكل شيء!

التقط رسول الأسفار أنفاسه، ولكنه جاهد ليضيف:

– وبرغم ذلك يحرص جلالته على اقتنائها لا لجدواها، ولكن لعدم جدواها، لأن البهجة للنظر بالنسبة لسجين كجلالته ليس شأناً هيّناً، بل ربّما كان سبباً وحيداً لغنيمة عصيّة كالسعادة!

استدار الرجل بعدها ليخرج في عجلة: ففي اللحظة التي انشغل فيها الباشا بشأن مراسم يمليها تقلّد دوره الجديد، كان الرسول ينزل البارجة الحربية ليدخل جوف القارب التابع في الأسفل. هناك وجد الباشا المخلوع جالساً في كرسيه المطعّم بعروق الذهب الذي كان منذ قليل فقط ملكياً، ولكنه الآن صار مجرّد

ألواح ملفّقة من أعواد الأحطاب. فوق رأسه انتصب حسوّنة الدّغيّس ليزيد المشهد، بتلك الوقفة، حضوراً للمأتم، ويضاعف الإحساس بالحداد!

تطلّع الرسول إلى أسيره فوجده شاحباً، ولكن مسحةً خفيّة صاحبت هذا الشحوب لتحيله إيماءً آسراً: بهاء طاغٍ مجبول بنبلٍ عميق كأنّ البليّة شحذت بشفرتها الجنونية اللغز المستخفي بعيداً بعيداً فبعثت الروح المغتربة من منفاها لتسري في الدّم من جديد، فتتغذّى السيماء (المنهكة بالأوهام) بفتنة هي: الجمال!

تكلّم شاكر أفندي برغم بلبلة الإحساس بحضور الجمال:

– إذا وُجد شيء يمكن أن تُحسدوا عليه في هذه البلاد فهو هذا الصفاء في السّماء، وهذا السكون في البحر!

فتهكّم علي باشا:

– ألهذا السبب قررتم أن تحرمونا صفاء سمائنا، وسكون بحرنا؟

عبس الرسول قبل أن يقول:

– يؤسفني ألاّ يدرك عليّ باشا حتّى الآن أنه هو من حرم نفسه فردوس بلاده، لا نحن!

استنكر الباشا:

- أنا؟

تطلّع إليه شاكر أفندي بفضول، ثمّ جلس على كرسي بالجوار محتضناً مغلّف الجلد المحشوّ بتمائم القدر:

- نحن، كما ترى، لا نغيّر ما بقومٍ ما لم يعجزهم أن يغيّروا ما بأنفسهم!

سكت الرسول لحظة، ثم أضاف:

- كم من الوقت أمهلناك حتّى تستأصل لعب هؤلاء الصبية؟ شهراً؟ عاماً؟ عامين؟

دارت مقلتاه في محجريهما كالحرباء ثم أضاف:

- لقد أمهلناك ثلاثة أعوام كاملة. ولم نكن لنستطيع أن نمهل أكثر ممّا أمهلنا لأن عبثكم سوف يجعل الإمبراطورية في نظر الدنيا أضحوكة، وهو ما لم نكن لنسمح به طويلاً إذا كنّا قد سمحنا به قليلاً!

التقط أنفاسه. أغمض عينيه. قال كأنه يطارد حلماً:

- لو ورثت نصيباً من دهاء أبيك لأدركت منذ أوّل يوم أن لا وجود للنزاهة في حضور المُلْك! بل النزاهة في هذه الحال داء المُلْك! وها أنت تدفع ثمن النزاهة بهزيمتك أمام الصبيان بالأمس، قبل أن تدفعها اليوم بالتنّحي عن العرش!

عاد فأدار مقلتيه في المحجرين قبل أن يضيف:

– أنت من هزم نفسك لا نحن! وإذا شئت الأصحّ: طبيعتك هي التي هزمتك، لا عصيان صغار الأمس، ولا كهنة الآستانة اليوم!

هبّ واقفاً بعدها. تطلّع إلى أسيره فضبط على شفتيه بسمة استخفاف. أمّا السيماء فظلَّتْ تنبض بالإيماء الخفيّ الآسر، قال رسول القدر:

– في صلاحياتي يدخل أمر السماح لك بمرافقة من شئت سواء من أهل البيت أم من الأعوان..

كان غائباً تقريباً عندما أجاب:

– لن يرافقني إلاّ من شاء أن يرافقني!

لحظتها تدخّل الدغيّس:

– أسمحُ لنفسي بأن أكون على رأس من يريد أن يشارك مولاي قدره!

ابتسم الباشا بغموض فسأل الرسول:

– مَنْ مِنْ أهل البيت أيضاً؟

أجاب الباشا من رحاب غيوبه:

– كلّ من أراد باستثناء ربّة البيت وبنات ربّة البيت!

تطلّع إليه الرسول بفضول قبل أن يقول:

– هذا يدهشني!

سكت الباشا لحظات قبل أن يوضح:

- سأجني على ربّة البيت إذا ارتضيت أن ترافقني إلى أرض الأغراب، لأنها لن تطيق الحياة يوماً واحداً بعيداً عن هذا التراب!

تمتم الرسول:

- حقّاً؟

فواصل عليّ باشا كأنّه يرتّل أو يتغنَّى:

- الطبع الذي تحدّثتم عنه منذ قليل يحتّم ألاّ أحرم رفيقة الرحلة من وطنٍ لا تملك أن تحيا بعيداً عنه، برغم أني لا أملك أن أحيا بعيداً عنها أيضاً!

تردّد الرسول. استنجد بالدغيّس. وعندما يئس من نيل تفسير سأل:

- كيف لي أن أفهم هذه الأحجية؟

تنّهد الباشا بعمق، تنهّد فنفث أنفاساً كالعاصفة عندما أجاب:

- الضحيّة لا تصير ضحيّة مرتين. ولهذا السبب يبدو الأنسب للضحية أن تضحّي بدل أن تتحلّى بتلك الأنانية الكفيلة بصنع الضحيّة من إنسانٍ بريء!

٩٢- الختام

طرابلس. أحد أيّام صيف ١٨٣٨م.

– هييه! هل أنت أعمى؟!

ثمّ.. ثمّ يهوي السوط. يهوي حيثما اتّفق. يهوي على الرأس إذا حالفه الحظّ، لأن العمامة المهلهلة تجير الجمجمة. يهوي على الوجه إذا خذله الحظّ فيمزّق الوجنتين، أو يشرم الشفتين، أو.. أو يسمل العينين كما حدث منذ سنوات عندما هوى الحفيد الشقيّ بالسوط فارتجّ المخّ وعاوده الصداع المصحوب بغزوة الظلمات. وبرغم المصاب إلاّ أن البصر صمد. صمد أمداً لم ينتظره. أمهله أعواماً في حين تنازعته الوساوس بفقدان البصر أوّلاً. ولكن الحظوظ تدخّلت فأودت بالأذن أوّلاً. لم يتزعزع للحرمان من السمع كما تزعزع عندما تهدّده فقدان البصر. ما نفع السمع إذا قورن بالبصر؟ السمع غنيمة في حال الاستماع إلى هدير البحر وحسب، وفيما عدا هذه الهِبة فإنه بليّة أكثر من كل حاسّةٍ أخرى. والدليل أنه لم يَصغْ السمع يوماً إلاّ وسمع شرّاً. وآخر هذه الشرور التي تلقّاها هدية من القدر هي أسر الوليد، وانتحار الحفيد، وضياع الوطن!

يذكر اليوم ذلك المصاب كأنه لم يحدث إلاّ بالأمس القريب.

ولكن هل كان ذلك مصاباً حقّاً؟ أم أنه مجرّد حلقة في سلسلة مصائب توالت في الأعوام الأخيرة الواحدة تلو الأخرى؟ الحقّ أنه كان المصاب الأخير في سلسلة وقائع لا تبدو محزنة إلاّ في نظر أولئك الذين لم يجرّبوا وقائع أسوأ منها. أولئك الذين لم يعرفوا الصمم. أولئك الذين لم يعرفوا الشيخوخة. أولئك الذين لم يعرفوا العماء!

عاد من نزهة المساء إلى رحاب حميمه البحر، عاد من مناجاة حميمه الوحيد: البحر! عاد ليعرّج على مقهى «العرصات الأربع» كعادته عندما يجد في نفسه بقيّة من حيويّة تسمح له بالإنصات إلى هذر الدهماء ولغو روّاد الأبد دون أن يميّز في أصواتهم شيئاً غير الضجيج. كانت المدينة تغصّ بالأجناد منذ أيام. لم تضق بهم المدينة وحدها، ولكن البحر ضاق بهم أيضاً، وهو أسوأ ما في الأمر. فلتضق بهم الأمكنة، كلّ الأمكنة، شريطة أن يبتعدوا عن البحر، فلتضق الأمكنة بغيرهم أيضاً على ألاّ يدنّسوا بنواياهم الشرّيرة معبوده البحر، بل فلتختفِ الأمكنة نفسها وليغمر الدنيا طوفان البحر! في المقهى كان الروّاد يثرثرون بحماس أيضاً عن الجند الذين غزوا المدينة. لم يكن يتبيّن كلّ ما يقال بالطبع (لأن تلك نعمة، أو نقمة، فقدها منذ زمن بعيد)، ولكنه كان يلتقط بأذنيه بضعة كلمات

ليكوّن بالحدس جملة مفهومة، أو يخمّن الأحرف الضائعة ليلفّق معنىً مفقوداً. كان هذا العمل ضرباً من لعب يحقّق له لهواً مبتذلاً. ولكنه يحرص، كلّ الحرص، على اجتناب مخالطة هؤلاء الأوباش، أو الدخول معهم في جدال. ولكن هل اجتنبوه هم؟ هل يدع أناس ممسوسون بالفضول إنساناً يرون فيه موضوعاً سخيّاً لإشباع فضولهم؟

ففي حين اعتاد الصغار أن يجتنبوه كأنه مخلوق موبوء، انجذب إليه الكبار انجذاب الفراشة إلى ألسنة النار. أمّا الشباب فناصبوه عداوة مستحكمة لم يدرك لها سبباً حتّى إن السياط الموجعة التي انهالت عليه طوال الأعوام السالفة كانت بيد هذه الملّة!

جلس في مواجهة العمود المرمري المستجلب من أبنية الروم في لبدة، فأتى له النادل بفنجان القهوة دون أن يكلّف نفسه عناء الطلب. حاول أن يترصّد النقش في رأس العمود على ضوء شمس الغسق كي يمتحن البصر كما اعتاد أن يفعل كلّ مرّة، ولكن المجسّمات السفلى الأكثر دقّة وفتنة في رسم النقش تراقصت وغشاها تشويش، في حين شاهد الخطوط العليا المجاورة للنتوء العلوي بوضوح أشدّ.

راق له هذا التمرين منذ بداية المحنة. ولكن في تلك السنوات

كانت في مراحل أهون بما لا يقاس إذا قورنت بحال البصر اليوم الذي لم يعد يجرؤ فيسمّيه بصراً، ولكن بصيصاً من ضوء باهت تجود به العين اليمنى دون اليسرى، لأنّ اليسرى ذهبت غنيمةً في فم الظلمة منذ زمن بعيد!

بعد قليل زحف نحوه أحد الفضوليين ليشاركه جلسة ذلك اليوم: كان كهلاً يمارس تجارة القوافل مع الدواخل اعتاد أن يرتاد المقهى كلّما انتهى من تشييع قافلة أو تأهّب لاستقبال قافلة يقيناً منه أنه يكافئ نفسه بترفيهٍ بريء عقب كلّ صفقة. أمطره بوابل الأسئلة المكرورة عن الأحوال، ولكنه استجار بالصمم كعادته. ولكن الرجل اقترب بكرسيه حتى جاوره ثمّ صرخ في أذنه بأعلى صوت:

– هل سمعتَ ما حدث؟

بلى! سمع العبارة، ولكنه لم يسمع ما حدث، ولا يريد أن يسمع بما حدث، ولا بأيّ حدث! تظاهر بأنه لم يسمع فكرّر الرجل السؤال بصرخة انتبه لها حتّى المارّة، ولكنه استجار بالصمم برغم علمه أن الصمم لن يجيره من فضول الفضوليين، فردّد عبارته القديمة التي صارت في فمه تميمته المفضّلة لدرجة أن الكثيرين انتحلوها ليلصقوها به إسماً بديلاً لإسم «سيدي يوسف»، أو «العمّ يوسف»، أو «الشيخ يوسف»:

– سراب!

فاغتاظ الرجل ليهدر بصوته المنكر:

– دعك من السراب الآن يا «عمّ سراب» لأن سلطان سلالتك ذهب بكيد الآستانة، والأرض التي تدبّ عليها لم تعد أرضك!

استشعر غصّة، ولكنه أخفى الأمر وعاد يتشبّث بتلابيب الصمم ويستجير بالتميمة:

– سراب!

فقال الرجل:

– أنت لا تدري كم كانت كلمتك هذه نبوءةَ سوءٍ لسلطانِ ذرّيتك، وهاهو المُلْك يذهب سراباً، والبلاد بسبب جنون الذريّة تذهب سراباً!

تدخّل رجل آخر لحظتها قيل إنه صاحب دكان لبيع التوابل اعتاد أن يرتاد المقهى كلّ يوم تقريباً:

– لماذا تحاولون زجّ الرجل في دنيا لم تعد دنياه، وشأن لم يعد شأنه منذ زمن بعيد؟ ألا ترون أنه أسعد منّا حظّاً بغيابه عن دنيانا؟

فاحتجّ صاحب التجارة:

– لا أحد يكون سعيداً بعاهة كالصمم، فكيف إذا أُضيفت إلى هذه البليّة عاهة أخرى هي العماء؟!

استرخى بائع التوابل على مقعد مجاور وطلب فنجان قهوة، ثم التفت نحو مريد التجارة ليقول:

– أنت تقول هذا لأنّك لم تجرّب الحضرة!

– الحضرة؟

– أعني الوَجْد!

تذكّر لحظتها أن بائع التوابل من أشدّ مريدي الطريقة القادرية. وقد أمر باعتقال فرقتهم مرّة وزجّ بكلّ دراويشهم في السجون بسبب وشاية كاذبة لفّقها أنصار طريقة أخرى اتهمتهم بالتحريض على العصيان. ولكن الرجل لم يضمر له شرّاً مقابل هذا الفعل الجائر، بل كثيراً ما هرع لنجدته كلّما أمطره صغار الأزقّة بأمطار الحجارة، أو ضلّ السبيل إلى البيت. وهاهو يترافع عن معشوقته الغيبوبة التي لا ترى الأغلبية فرقاً بينها وبين الجنون!

تصدّى له صاحب الصفقة بإشارة من يده كأنه يتبرّأ من تلك التهمة التي دفعها عن نفسه دائماً، في حين طارده بها الرجل في كل مرّة، متمثّلة في دعواته المكرورة له بالانخراط معه في فرقته التي اعتادت أن تطوف الشوارع كل ليلة جمعة، تقرع الدفوف وتصيح بالأوراد حتّى الفجر، تحرّراً من الحضور في الدنيا وطلباً لاستحضار اللّه في القلب. حاجج بأعلى صوت كي

يُسمع صاحب الشأن حُجّته لا طمعاً في إقناع صاحب الوَجْد:

– لو كان الوَجْد يجدي يا «سي خليفة» لصنع منك إنساناً آخر. فها أنت تبيع التوابل منذ عرفناك في هذه الحارة، ولم تأتِ هذا الحيّ ببيّنة واحدة تدلّ على فوزك بالرؤية التي تلهج بسيرتها آناء الليل وأطراف النهار!

عاند «سي خليفة»!

– ما أهون البيّنة في حضور الرؤية!

– والكرامات؟ ماذا عن كرامات الأولياء؟ أليست الكرامات بيّنة البيّنات للتدليل على الرؤية؟

فَنَّدَ «سي خليفة» بلهجة اليقين:

– الكرامات بيّنات الأدعياء لإقناع ضعاف النفوس، أمّا الرؤية فيضيق بها القلب ولا ينطلق بها اللسان. ولهذا السبب اهتدى أهل الكشف إلى الحضرة. فلماذا لا تجرّب الحضرة ولو مرّة كما جرّبها هذا الإنسان الذي تحاول جاهداً أن تخرجه منها كما أخرج اللّه آدم من جنّات عدن!

تعجّب صاحب التجارة:

– العمّ يوسف انخرط في الحضرة؟

– انخرط في الحضرة على طريقته! كلٌّ منّا يستطيع أن يجرّب الحضرة على طريقته. وسي يوسف اختار أعسر الطرق

فأصبحت حياته كلّها حضرة في حضرة!

ثار مريد الصفقة:

– هل تسمّي ما يحياه هذا الرجل حضرة؟

– بالطبع يا «حاج زمّيت»! إنه يمارس الحضرة التي أعجزنا أن نأتي بمثلها حتّى إنه لم يعد يسمع إلاّ ما يجب أن يُسمع، ولا يَرَى إلاّ ما يجب أن يُرَى!

حدّق الحاج زمّيت في جليسه بسحنة اربدّت بالشكّ، ثم استبدل نبرة الزعيق بصوت كالهمس:

– هل يُعقل أن يفتعل الرجل الصمم أو عاهة كالعماء؟

استنكر سي خليفة بائع التوابل:

– هذا ما تقوله أنت. أمّا ما أقول فهو أن الطريق إلى الرؤية أطول ممّا نظنّ، والرجل الذي بدأ بالتنازل عن مملكة لن يعجزه أن ينتهي إلى ما تسمّيه أنت صمماً، أو عماءً، بل الصمم هنا شرط، والعماء عن رؤية ما يُرى هو القربان لرؤية ما لا يُرَى. وهو الوحيد اليوم الجدير منّا بلقب «وليّ»، أو «مرابط» أو ماشئت من هذه الأسماء التي اعتادت الدهماء أن تطلقها على الحواة. فلماذا تريد أن تخرج الرجل من نعيمه في كلّ مرّة؟

تململ الحاج زمّيت في جلسته. تفقّد روّاد المقهى على المناضد المجاورة كأنه يبحث عن جليسٍ يصلح عوناً في جدله مع

الجليس. قال أخيراً:

– أَلاَ يجب أن نخبر الرجل عن خراب بلدٍ كان بالأمس له وليّ أمر؟

أجاب مريد الحضرة يومها:

– هذه البلاد سوف ترث غزاة الأناضول كما ورثت في تاريخها الطويل الأمم من قبلهم. فلماذا نعيد الرجل إلى جحيم فرّ منه يوماً لمجرّد أن المشيئة شاءت أن تقلب الصفحة في صحيفة الأزل لنجد أنفسنا شهود عيان لفصلٍ جديد في سيرة قديمة؟

ثمّ مال إلى الأمام ليسرّ للحاج زمّيت بأمر جلل:

– الأجدى بدل هذا أن تستفهم من «صاحب السراب» عن الأَمَة التي تقوم على خدمته بدل الأَمَة القديمة. إنّها.. إنّها جارية حسناء، إلى جانب كونها خلاسيّة. الخلاسيات كما تعلم هنّ ما استهوى الرجل دائماً. وإذا كان قد تنازل عن الدنيا بكنوزها وعروشها وبنينها، فإنّي أشكّ أن يتنازل عن الأحضان الخلاسية سيّما إذا آمنّا مع من سبقنا من أئمّة الطريقة أن العشق هو أقصر معراج للمثول في الحضرة!

جلجل بعدها بضحكة، ثم غمز بعينه ليضيف:

– هل رأيت؟ إنه يبتسم! ألم أقل لك مراراً إن الطريق الوحيد لأذن هذا الرجل هو الخلاسيات؟

اختلس الحاج زمّيت نظرة نحوه في تلك اللحظة ليستجيب للدعابة بضحكة مكتومة أيضاً. زحفت العتمة فانطلق صوت المؤذن من جامع درغوت المجاور معلناً حلول صلاة المغرب.

دفع سي خليفة لعامل المقهى وأخذه من يده إلى الجامع.

أدّيا صلاة المغرب معاً، ثمّ عبر به الأزقّة كالمعتاد حتىّ بلغ به البيت.

في تلك الليلة هاجمه الأرق: لقد اختفى العرش من دنياه، واختفت باختفائه العلاقة مع الأبناء، ثم مع الزوجات، ثمّ مع الأحفاد، ثم مع كل ما يمتّ بصلة لسيرة ذلك الحلم، بل ذلك الكابوس. فلماذا يتبلبل الآن بعد أنباء النكبة؟ أيعني هذا أن سلطان الماضي مازال يسري في الدّم، وعِرْق الأنساب الدسّاس مازال في عروقه حيّاً؟ ألن يضع هذا أعجوبة ميلاده الثاني موضع الشكّ؟ أم أن هلاك الأسرة ما هو إلاّ إذْنٌ بمحو أثره محو الأبد؟ ألن يعني هذا أن إرادة البقاء في الأثر طبيعة أقوى في المخلوق حتّى من اليقين بالتماهي مع البحر، والخلود في البحر؟ هل يدلّ هذا على زيف إيمان يُعلي شأن الخلود في الأثر على حساب إيمان يعلي شأن الخلود في البحر؟ أليس هذا خيانة للبحر؟ أليست هذه ردّة؟ أم.. أم أن الأمر كله ما هو إلا مرثيّة الروح مترجمةً بلسان الحنين؟ الحنين! الحنين! الحنين

هو الدّاء الذي لم يجد له ترياقاً أبداً برغم يقينه بأنه لا يتأجّج ليحيي الزمان الذي مضى، ولكن ليتغذّى على الزمان الذي لا وجود له في الزمان، الزمان الذي لا وجود له في كل الأزمنة سواء كانت ماضياً أم حاضراً أم مستقبلاً، لأن الحنين دليل طريق للحلول في وطن الروح. وهو ما لا يتحقّق دون التحرّر من القمقم، من الزمان! من الأزمان! وهو ما لا سبيل إليه دون إيمان!

لقد وضع شبح الهند إصبعه على الجرح عندما لقّبه باسم: «قنّاص السراب الكبير»، لأنّه.. لأنّه اقتنص فيه غياب الإيمان. وهاهو القبس ينطفئ اليوم في المقلة ليعمّ الظلام فينطفئ الأمل في القلب أيضاً، لأنه لن يُقدَّر له بعد اليوم أن يرى البحر، كما لم يُقدّر له أن يسمع نبوءات البحر قبل هذا اليوم بسنوات. فما جدوى جرجرة هذا الوعاء المتعب عبر الطرقات ليُرجم بالحجارة بيد الأشقياء الصغار، وليلسع بالسياط بيد الأشقياء الكبار؟ ما نفع حبس الإنسان في جرم البهتان إذا احتجب البحر عن بصر الإنسان؟

في فجر الرابع من شهر أغسطس لعام ١٨٣٨م استيقظت الأَمَة الخلاسية التي استخدمتها مصلحة الأوقاف للقيام بأمر المدعو يوسف علي القرمانلي على ضجيج في الغرفة المجاورة.

أصاخت السمع فإذا بالنداء يعلو مجدوحاً برزّ كالأنين:

– البحر! البحر!

هرعت إلى الدار فإذا بالعجوز يتلوّى على الأرض بعد أن سقط من سريره وهو يردّد بصوت النزع الأخير:

– البحر! يجب أن أذهب إلى البحر!

قرأت تعويذةً وهي تجاهد كي تعيده إلى الفراش قبل أن تحتجّ:

– كيف لي أن أذهب بك إلى البحر في مثل هذا الوقت؟

ولكنه ظلّ يتلوَّى على الفراش أيضاً محشرجاً برغبته الأخيرة في الدنيا فلم تجد المرأة مفرّاً من الاستعانة بالجيران الذين تنادوا في الظلمة ليأتوا بعربة لحمل العجوز إلى ساحل البحر.

في الطريق إلى هناك تعجّبت المرأة:

– لا أعرف لماذا يريد أن يذهب إلى البحر إذا كان لا يستطيع أن يرى البحر!

ولكن العجوز في حمّى لفظ النفس الأخير استنشق هواء البحر بعمق جنوني كأنه يجيبها على استفهامها، ليحبس هواء الشفاء في رئتيه طويلاً، ليحبسه إلى الأبد، لأن روحه هاجرت في نَفَس البحر، ليسكن القمقم الخاوي إلى الأبد أيضاً!

بعدها بدأت الأمَة رحلة أخرى لتدبير مصاريف الدفن: بحثت عن أقرباء الفقيد لتكتشف أنه بلا أقرباء. انقشع البعض، وهاجر البعض، وأقام آخرون في ربوع المنافي، وتنكّر البعض، وضاقت يد البعض حتّى إن أرملة عليّ باشا أجهشت بالكباء ما أن بلغها النبأ، ولكن أعجزها أن تجد بحوزتها عشرة قروش لأنّها كانت قد باعت للتوّ آخر قطعة ذهبية لتغطية إيجار بيتها البائس كأنّه زريبة أغنام!

عادت الأمَة الخلاسية إلى البيت لتغزو أنفها رائحة غريبة. طافت الأركان بحثاً عن سرّ العفن، قبل أن تكتشف أخيراً أن جثّة العجوز بدأت تتعفّن. تذكّرت أنها قضت ثلاثة أيام في البحث ناسيةً أن حرّ الصيف في ذروة تلك الأيام.

قررت أن تتسوّل، ذهبت إلى جامع الباشا حيث يهجع أسلاف الفقيد وحجبت وجهها بلحافها، ثمّ مدّت يدها للسابلة وروّاد المسجد، ولكنها لم تفز ببارة واحدة طوال النهار. كان الناس يرمقونها باستنكار ثم يشيحون عنها بوجوههم كأنها تقترف إثماً. بعد الظهيرة أقبل العسس فوضعوا القيد في يديها واستاقوها إلى المخفر. هناك أخضعوها لاستجوابٍ قاسٍ فهمت من حديث العسس أنها ارتكبت مخالفة قانونية شنيعة للفرمان القاضي بتحريم التسوّل الصادر منذ ثلاثة أشهر،

فعادت إلى البيت. انتحبت بصوت عالٍ وهي ترى الجثمان يشحب ويزرقّ وينذر بالتحلّل. تذكّرت الرجل الوديع الذي رأته من النافذة مراراً يأخذ بيد العجوز ليعيده من جولاته الجنونية إلى البيت. ولكن ما اسمه؟ وكيف السبيل للاهتداء إليه؟ هل تتسكّع في الشوارع لتسائل عن رجل لا تعرف حتّى إسمه؟

قررت أن تستعين بالجيران مرّة أخرى. ولكن جارتها أخبرتها بغياب رجلها في رحلة إلى الجبل، فعادت لتنتحب في ركن البيت. انتحبت طويلاً، وعندما استسلمت لليأس تلقّت وَحْياً: الأوقاف!

استغربت كيف لم تخطر ببالها هذه الفكرة طوال الوقت. هرعت إلى البنيان الذي ارتادته يوماً لتتلقّى منه قرطاس الاستخدام الذي أغناها من جوع وآمنها من خوف، فصار يبعث لها بساعٍ نهاية كلّ شهر ليسلّمها أجرها مصحوباً بمغلّف يحوي ما اعتاد هذا الساعي أن يطلق عليه اسم: «الإعانة» المخصّصة لسيدي يوسف القرمانلي!

داخل البنيان استوقفها رجل معمّم يرتدي ثوب رجال الدّين. حدّثته بأمرها فاغتمّ وهزّ رأسه أسفاً وهو يردّد:

– لا إله إلاّ اللّه!

ثم طلب منها أن تنتظر ليغيب طويلاً. خرج من باب يقع في

نهاية الممرّ أخيراً ليسلّمها مظروفاً كالمغلّف الذي اعتادت أن تتلقى منه «الإعانة» المخصّصة للإنفاق على سيّدي يوسف.

في مساء اليوم نفسه، بعد صلاة العصر، انطلق جواد من «الزقاق الأعمى»، يجرّ عربةً متواضعة، تحوي نعشاً عارياً، تمشي خلفه امرأة تسدل على وجهها نقاباً أسود اللّون يتناسب مع ثوبها الفضفاض المكلّل بالسواد أيضاً.

دَبَّت الدّابة في الشوارع بهدوء يليق بجلال جنازة، وسارت المرأة خلف الدّابّة بوجومٍ يليق بجنازة أيضاً.. انساب الموكب بمهل، فكان المارّة يتمتمون بعبارات التوحيد وهم يركضون لقضاء حوائجهم. ولكن قلّة كانت تقف بخشوع لتتساءل عن هويّة صاحب الجنازة. سمعت أحدهم يسائل آخر أثناء المرور أمام أحد الدكاكين:

– مَن هذا الذي سبقنا اليوم إلى دار الحقّ؟

فأجاب الآخر:

– يقال إنّه يوسف باشا!

فصاح الأوّل:

- أيعقل أن تكون هذه جنازة باشا؟ هراء!

في المنعطف المؤدّي إلى جامع الباشا فقط أدرك الجنازة رجلٌ أقبل مهرولاً تفوح من أعطافه رائحة التوابل، وهو يردّد:

- لا إله إلاّ اللّه! لا حول ولا قوّة إلا باللّه! أيعقل أن يتنكّر المؤمن لمن تولّى أمر المؤمنين يوماً؟!

غولديفيل (الألب السويسري)

اكتوبر ٢٠١٠ - مايو ٢٠١١م

المحتويات

القسم الثاني

القسم الثالث ٤٩٥

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصــدر عن
مجلــة دبي الثقافيــة

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (سْكْرِيبْتُورْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» - اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السرْد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة»- د. فاطمة يوسف العلي- أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاءٌ لغبار الطّلع»- أدونيس- سبتمبر - ٢٠١٠

٤١ - «حجر السرائر»- نبيل سليمان - أكتوبر - ٢٠١٠

٤٢ - «حَبَّات و محَبَّات» - المنصف المزغني - نوفمبر - ٢٠١٠

٤٣ - «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» - (الجزء الأول) - د. صالح هويدي - ديسمبر - ٢٠١٠

٤٤ -«بابل الشعر» - أحمد عبدالمعطي حجازي - يناير ٢٠١١

ملاحظة:

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».



إبراهيم الكوني أحد أركان الرواية العربية المعاصرين وله اسم كبير في هذا العالم الأدبي المتميز، وهاهو يتحفنا بإحدى روائعه الأدبية التي اختار لها البعدين التاريخي والوطني لتكون ساحة الأحداث ليبيا.

سيف المري

كتاب

دبي الثقافية

53

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

للصحافة والنشر والتوزيع